في بحر
مُظلمٍ وبارد
ON A COLD
DARK SEA
إليزابيث بلاكويل
ترجمة: علاء عودة

لتحويلك إلى الجروب أضغط هنا

لتحويلك إلى الموقع أضغط هنا

للمزيد من الروايات والكتب الحصرية
انضموا لجروب ساحر الكتب

او زيارة موقعنا sa7eralkutub.com

في بحرٍ
مظلم و باردٍ

عصير الكتب للنشر و التوزيع

لمزيد من المعلومات عن عصير الكتب www.booksjuice.com

العنوان الأصلي: On a cold dark sea

طبع بواسطة: LAKE UNION

AN IMPRINT OF AMAZON

حقوق النشر © 2018 لـ إليزابيث بلاكويل.

Copyrights ©2018 by Elizabeth Blackwell.

الحقوق الفكرية للمؤلفة محفوظة

حقوق الترجمة © علاء عودة

جميع الحقوق محفوظة: لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة
من دون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر

اليزابيث بلاكويل

في بحر مظلم وبارد: رواية/ إليزابيث بلاكويل؛ ترجمة علاء عودة - القاهرة عصير الكتب للنشر والتوزيع ٢٠٢٠
٣٥٢ص؛ ٢١ سم

I . S . B .N: ٩٧٨ - ٩٧٧ - ٩٢٢ - ٠٩٣ - ١

رقم الإيداع: ١٨٥٤ / ٢٠٢٠

الطبعة الأولى: يناير ٢٠٢٠

تنسيق داخلي: عمر جوبا

تصميم الغلاف: كريم آدم

مدير الحقوق الأجنبية: محمد صلاح فضل

المدير العام: محمد شوقي

مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس
00201150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

إليزابيث بلاكويل

في بحرٍ مظلم وبارد

ترجمة
علاء عودة

عصير الكتب
للنشر و التوزيع

إلى ماري جين، جيني وغايل

القارئات القدائم، صديقات العمر

هذه الرّواية عمل خياليّ، جميع الأسماء والشّخصيّات
والمنظّمات والأماكن والأحداث والحوادث الواردة في سياقها وليدة
مخيّلة الكاتبة أو مستخدمة على نحو مفترَض.

تمهيد

١٥ إبريل ١٩١٢

أمر الكابتن روسترون بنصب حبل قرب الكراسي القابلة للطّيّ على متن السّفينة لإيقاف أيّ شخص سلبته الكارثةُ رشدَه، لكنّ أفراد طاقم سفينة كارباثيا كذلك أشغلوا أنفسهم باستعدادات أكثر هامشيّةً: تجميع وسائد وبطّانيّات احتياطيّة، تسخين الحساء، وتخمير الشّاي. راح د. ماكغي يتحرّك جيئة وذهابًا إلى الجناح الطّبّيّ بشكل حثيث، وهو يخزّن مؤونة لعدد غير معروف من المرضى. اشرأبّت رؤوس بعض المسافرين خفيفي النّوم من حجراتهم الخاصّة يسألون عن سبب صخب المحرّكات بهذا الشّكل، كان القبطان قد أكّد على ألّا يتمّ إخبارهم، فلا داعيَ لإثارة الذّعر.

لن يلبثوا طويلًا حتّى يكتشفوا.

في تلك السّاعات المحمومة الّتي سبقت الفجر، لم يبدُ الأمر حقيقيًّا تمامًا. التّايتانيك تُرسل نداءات استغاثة؟ وتُحمّل قوارب نجاتها؟ لم تكن البطولة من سمات كارباثيا البليدة، ومع ذلك كانت هذه السّفينة المداومة على الخطّ المتوسّطيّ تزيد سرعتها الآن من أجل الإنقاذ، خارج مسارها بأكثر من خمسين ميلًا. أخذ المراقبون المرابطون فوق المقدّمة يمسحون المسار الغادر المليء بالعوائق أمامهم، والهواء القطبيّ ييبّس وجناتهم. كُتل من الجليد ترقّط وجه الماء في درجات من الأبيض والأزرق، منظر جليل بالنّسبة إلى أيّ شخص ليس يحاول توجيه المركب عبرها.

كان سواد السّماء يتراخى إلى الرّماديّ حين رأى أحد الضّبّاط أول قارب نجاة، فُتح باب معبر جانبيّ ودُلّيَت سلالمُ من أجل أولئك الأقوياء بما يكفي للتّسلّق؛ سيتمّ رفع الآخرين بحبال الرّوافع. كانت قوارب النّجاة ناقصة الكوادر، وضبّاط كارباثيا محترسين، فاستغرقوا وقتهم في كلّ عمليّة رفع وإنزال.

تطلّب تفريغ القوارب بالإجمال أربع ساعات، وكان كلّ منها مليئًا بتشكيلة شعثاء متداعية من المليونيرات والمهاجرين، بعضهم يعتمر القبّعات ويتلفّع بمعاطف الفرو، وآخرون يكتسون بما بدا ملابس نوم، والشّيء الوحيد المشترك بينهم كان سُتَرَ النّجاة المشدودة حول صدورهم. وبعد ذلك، حين اكتظّ متن كارباثيا بالرّكّاب الذّاهلين والنّاجين المنهَكين، انبثق قارب نجاة أخير من غلالة البحر الجليديّة المموّهة. سالكًا طريقه الملتوي بشرود، كان تقدّمه بطيئًا على نحو مُزرٍ بينما تعاني الظّلال المنحنية عند مجاديفه الأَمَرَّين لتقريبه وإطباق جنبه على جنب كارباثيا. تسلّقت ثلاث نسوة أمريكيّات بدينات السّلّم أوّلًا- كنّ أخوات، كما تبدّى من ملامحهنّ العائليّة المشتركة. قبضت امرأة بريطانيّة مضطربة الوجه على يدَيْ طفلين صغيرين وبدت عليها علائم الارتياح إزاء تقديم أحد المضيفين الشّاي لها. وتعيّن رفع سيّدة مسنّة، ترافقها ممرضّتها، بواسطة الحبال؛ وكانت الوحيدة الّتي تكبّدت ابتسامة.

حين استدار الضّابط المسؤول ليرحّب بالرّاكب التّالي، غاص قلبه. بدا المخلوق الواقف أمامه مثل شخصيّة من قصّة جنّيّات سحريّة، حوريّة صقيع منحوتة من الثّلج. قطع جليد تجمّد شعرها الأشقر القاتم حول وجهها الأليف الّذي لم يُظهر أيّ تعابير تذكر، ومعطف رجل ينسدل منهَكًا على قدّها النّاحل. سأل الضّابط الفتاةَ عن اسمها، فشخصت إليه حائرة. نظر إلى ثوب الفتاة المنسوج منزليًّا وجوربيها المرقّعين. رحماك يا الله، لم تكن تنتعل حذاء حتّى.. من ركّاب الدّرجة الثّالثة[1].. أجنبيّة..

---

(١) كان ركّاب الدّرجة الثّالثة على سفينة التّايتانيك عمومًا من المهاجرين إلى الولايات المتّحدة وكندا. (المترجم)

«فوتر نوم؟»، سألها الضّابط مجرّبًا الفرنسيّة، ثمّ قال متّبعًا الاستراتيجيّة الإنجليزيّة التّليدة القائمة على التّحدّث بصوت أعلى كي يُفهم الكلام: «اسمك!»حدّقت الفتاة بالضّابط، الّذي وجد خلوَّ ملامحها مستفزًّا، وقالت: «آنّا هالفرسون». وجّه الضّابط الفتاة نحو أحد المضيفين وهمس: «ابحث عن الصّبيّ أولاف في المطابخ، سنحتاج مترجمًا».

عندما عاد الضّابط إلى موضعه، كان الرّكاب الثّلاثة التّالون قد استقرّوا على المتن. وطوال بقيّة حياته، كانت اللّوحة المثيرة للشّفقة الّتي شكّلوها أول صورة تقفز إلى ذهنه حين يفكّر في التّايتانيك. الشّاب الوسيم في زيّه المخصّص للسّهرة، عيناه مؤرَّقتان، وإحدى يديه على ظهر رفيقته بقصد الحماية. كان ثمّة فتاة تحوم بتوتّر خلفهما- خادمة، بناءً على مشيتها المذعنة وثوبها الأسود. ثمّ هناك السّيّدة، متلفّعة بمعطف من الفراء فوق ثوب أخضر برّاق، صورة لأناقة بائدة. بدت في غاية الإرهاق، شعرها الكستنائيّ السّميك ينهمر متشابكًا فوق إحدى كتفيها، وشقٌّ بلونٍ كامدٍ للخمر البورغنديّ يشوّه خدّها، ومع ذلك ثمّة هالة نبيلة لمعاناتها. كانت شابّة، كما أدرك الضّابط، أصغر سنًّا ممّا بدت عليه للوهلة الأولى، فتيّةً أكثر من أن تكون تعلّمت أنّ بإمكان العالم إنزال ضربات قاسية حتّى بأكثر الحيوات فتنة.

«اسمك؟»، سألها الضّابط، بأسلوب جليّ أنّه أكثر احترامًا ممّا كان مع فتاة الدّرجة الثّالثة.

«السّيّدة هيرام هاربر[1]»، أجابت الحسناء. فوجئ الضّابط لسماعه النّبرة الأمريكيّة المسطّحة؛ كان قد افترض من وقفة المرأة أنّها إنجليزيّة.

«تشارلز فان هاوزن»، قال السّيّد النّبيل.

---

(١) جرت العادة على أن تعرّف السّيّدات عن أنفسهنّ باستخدام اسم الزّوج. (المترجم)

إذًا، ليس زوجها، كما كان الضّابط قد افترض. دوّن باختصار «بالإضافة إلى خادمة» بعد اسم السّيّدة هاربر، وأومأ بتعالٍ للفتاة ذات الزّيّ الأسود؛ لم تكن الأسماء الصّحيحة مطلوبة بالنّسبة إلى الخدم. وجّه الرّكّاب إلى مضيفٍ درجة أولى ينتظر تولّي مرافقتهم، ثمّ استدار ليرى امرأة شابّة تحدّق فيه بمباشرةٍ مربكة. لطيفة للغاية، لم يستطع ألّا يلاحظ ذلك، رغم أنّ شعرها الأشعث وبشرتها باردة البياض أضفيا عليها همجيّةً ناشزة تشتّت الانتباه عن حسنها إلى حدّ ما. لا يمكن أن تكون قد تجاوزت بداية العشرينات.

سألها الضّابط عن اسمها، بيد أنّها تابعت التّحديق، كما لو كان السّؤال عصيًّا على الاستيعاب. لم تكن تبدو أجنبيّة؛ كان زيّها ظاهر الاحترام، غير أنّها من الدّرجة الثّانية على الأغلب أكثر ممّا تبدو من الأولى.

كرّر الضّابط سؤاله. هذه المرّة، رآها تجاهد كي تردّ. لا بدّ أنّ الصّدمة هي السّبب، لقد جعلت بعض النّاس عاجزين عن التّكلّم تمامًا.

«تشارلوت إيفرز»، تمكّنت أن تجيب أخيرًا. كان صوتها أكثر تهذيبًا من زيّها: بريطانيّ، قُحّ. «عقيلة السّيّد ريجينالد إيفرز».

ثمّ، ولدهشة الضّابط، انخرطت المرأة في البكاء.

القسم الأول
قبل

تشارلوت

لم تصدّق تشارلوت أنّ التّايتانيك قد تغرق. حتّى في النّهاية تمامًا، حين تشظّى الزّجاج ودفعتها يدٌ إلى الأمام، كانت لا تزال تفترض أنه سيتمّ إنقاذهم جميعًا. كانت قد خرجت إلى صقعة اللّيل، تتشبّث بذراع بحّار قدّم المساندة. متصلّبةً بالكبرياء والغضب، اتّخذت مقعدًا في وسط قارب النّجاة، رافضة أن تنظر خلفها إلى ما كانت تتركه.

الآن، عينا تشارلوت تمسحان القسم العلويّ من متن سفينة الإنقاذ، بحثًا عن الرّجل الّذي أحبّته وازدرته في آن، الشّخص الوحيد الّذي عرفها حقّ المعرفة ذات يوم. منذ أول البداية، رأى ريج ما خلف رموش تشارلوت المرفرفة واحتشامِها الزّائف، وبلغ المكرَ القابعَ تحت هيكلها الخارجيّ المهادن. لكِ وجه ملاك، كان قد قال قبل مرور أسبوع على لقائهما، لكن روحٌ شيطانيّة، ضاحكًا كأنّ الأمر أسرّه. لم يجرّ ريج تشارلوت إلى حياة إجراميّة؛ هي من اختارت طريقها، بنفسها، لكنّ ريج صفّق لها طيلة الطّريق، وحده من كان يفهم ما هي قادرة عليه.

وهي لم تقل وداعًا حتّى.

كانت تشارلوت ديغبي حسناء. الجميع قال لها ذلك، حتّى عندما كانت أصغر من أن تعرف معناه. مع الوقت، تعلّمت أن تعمّق الأثر عن طريق إشراع عينيها داكنتي الزّرقة فيما تُنزل الوجوهُ نظراتِها الشّبقة، فتفترّ شفتاها هي عن ابتسامة ساحرة التّردّد تهتزّ معها حلقات شعرها الكستنائيّة. سرعان ما توصّلت إلى فهم أنّ مظهرها أعظم مصادر قوّتها، مزيّة يجب رفع فاعليّتها. كان النّاس يرون في كمالها علامةَ نقاء داخليّ، اعتقاد كان للمفاجأة شائعًا وجعلهم يرخون دفاعاتهم.

ورثت تشارلوت بهاء طلعتها عن أبيها، الّذي فُقد في البحر قبل ميلادها. كانت أمّ تشارلوت تتحدّث عنه كما تتحدّث عن كارثة طبيعيّة: عاصفة قلبت حياتها قبل أن تمضي، فتركتها تكنس أجزاءها. نشأت تشارلوت على حواف الجدارة بالاحترام، في منزل صغير غير أنّه لا تشوبه شائبة يدفع نفقاته السّيّد هيبوورث، والد أخوَي تشارلوت الصّغيرين. كانا يناديانه بابا، لكنّه لطالما كان «السّيّد هيبوورث» بالنّسبة إلى تشارلوت، مسألة إتيكيت صغيرة في الظّاهر وضّحت لها كلّ ما تحتاج معرفته عن مكانتها في العائلة.

كان ثمّة سيّدة هيبوورث، عاشت في مكان ما من الرّيف وإمّا أنّها لم تعلم أو لم تكترث بأنّ زوجها يعيل منزلًا مستقلًّا بأُسرة جنوبيَّ لندن، لعلّها كانت مرتاحة لإعفائها من متطلّباته الجسديّة. في اللّياليً الّتي يكون السّيّد هيبوورث فيها بالمسكن، كانت تشارلوت تدفن وجهها في وسادتها كيلا تضطرّ أن تسمع القباع الخنزيريّ السّخيف القادم من غرفة نوم أمّها.

ربّما تكون تراتيبُ منزليّة كهذه موضعَ شجبِ الوعّاظ، بيد أنّ طفولة تشارلوت على محكّ الممارسة العمليّة لم تتشوّه بالفضيحة والخزي. كانت تعيش في شارع يحيّي الجيران فيه بعضهم بالإيماء، لكنّ واحدهم لا يدعو الآخر إطلاقا لتناول الشّاي أو يشكّك في القصّة الّتي يختار المرء أن يرويها عن حياته. لم تكن لدى تشارلوت أدنى فكرة عن مدى تقلقل وضعها قبل وصول رسالة جافية الكلمات

من محامي السّيّد هيبوورث، تبلّغ أمّها بوفاة السّيّد هيبوورث المفاجئة وبنود وصيّته. ستُدفع رسوم أخوَي تشارلوت المدرسيّة بالكامل، لكنّ شيئًا لن يتبقّى للأمّ ولا لتشارلوت؛ منزلهما – المستأجَر لا المملوك – سيعاد إلى المالك في نهاية الشّهر. حين انفجرت أمّ تشارلوت في عبرات نشيج ممزّق، علمت تشارلوت أنّها كانت تندب فقدان مال السّيّد هيبوورث مثل ما رفقته.

جُهِّز الولدان للإرسال إلى المدرسة، كان وجهاهما شاحبين لكن رصينين وهما يستقلّان القطار؛ في سنّ الثّامنة والعاشرة، ولهما منذ الآن سيماء رجلين مستسلمين لقدرهما. انتقلت تشارلوت وأمّها إلى غرفة فوق متجر أجبان، فسحة برائحة فاسدة وسرير واحد مكتّل ونوافذ غير منيعة. كانتا تعملان مقابل أجرة السّكن، فتفركان قماش صنع الجبن والمناضد حتّى تنبض أصابعهما ومفاصلها من الألم.

تشارلوت كانت في الثّالثة عشرة، تنضج وتمتلئ، وكانت جائعة بضراوة طوال الوقت. وبما أنّ الأمّ لم تعد تستطيع توفير اللّحم إلّا مرّة في الأسبوع – مفصل غضروفيّ يُمدَّد إلى يخنة أو حساء مَريق – لم يكن ثمّة قطُّ طعام يكفي لملء معدة تشارلوت المتذمّرة. لكنّ تشارلوت كانت أيضا تتضوّر إلى مسرّات أخرى من حياتها السّابقة؛ فستان جديد تستعيض به عن الّذي لم يعد كمّاه يغطّيان معصميها، شريطة حريريّة تشتّت الانتباه عن رثاثة قبّعتها. حين ترى أترابها من النّساء الشّابّات يتبخترن على طول الشّارع، وتلوح جزَمهنّ ذات أزرار اللّؤلؤ بوميضها تحت فساتين أنيقة، كانت تشارلوت تحسّ بألم أكّال.

يمكن للقرارات الّتي تغيّر الحياة أن تُتَّخَذ في نزوة، وهذا درس ستتذكّره تشارلوت في عرض الأطلسيّ، بعد سنوات عديدة.

طوال أشهر، كانت تشارلوت تحملق بلهفة إلى التّفّاح في عربة تاجر الفاكهة كلّما مرّت بالسّوق، حتّى جاء يوم توقّفت فيه دون سبب محدّد ولا

تفكير في العواقب وخطت مقتربة. حين التفت بائع الفاكهة إلى زبون، انقضّت يد تشارلوت مثل سهم إلى الأمام لتخطف تفّاحة وتدسّها في طيّات تنّورتها. قعقعت عربةٌ أثناء مرورها، فاعترضت سبيلها وأرغمتها على ملازمة مكانها فيما يلتفت بائع الفاكهة باتجاهها. أخذت ذراع تشارلوت ترتعد، فلاحت قشرةُ التّفّاحة الحمراء وغدرتّها.

لم يكن من سبيل إلى إنكار ما فعلته. ترقرقت عينا تشارلوت بالدّموع؛ انفرجت شفتاها لتقدّم عذرًا كان ذهنها أكثر تبلّدًا من أن يلفّقه. لأن عبوس بائع الفاكهة. «اذهبي إذًا»، تمتم قائلًا لها.

لم يكن إرجاء تنفيذ الحكم متوقّعًا بالمرّة، فغمر تشارلوت شعورُها بالارتياح إلى درجة لم تستطع معها الإتيان بحركة. حدّقت في الرّجل بينما هو يحدّق فيها، وأحسّت بتحديقته إحساسًا بدنيًّا، دفئًا ينبعث من عينيه المعجبَتين. كانت تلك أول مرّة تدرك فيها أنّ جمالها سيتيح لها أن تُذنب ويُغفَر لها، أو ما هو أفضل حتّى، ألّا يُشتبه باقترافها ذنبًا من الأساس.

التّفكير في وجهها على أنّه درع تحميها جعل السّرقة أسهل في المرّة التّالية، وفي المرّة الّتي لحقت ذلك. ليس أنّ تشارلوت لم تكن تأخذ الحيطة، فقد كانت لا تغامر إلّا داخل أسواق بعيدة عن منزلها كفاية، في أكثر فترات النّهار ازدحامًا. وفي غضون أشهر، كانت قد تطوّرت من اقتناص الكعك من سلال تسوّق الخادمات إلى النّشل، فتحتكّ بالسّادة المحترمين حَسني الهندام وتتلمّس بحثًا عن صلصلة القطع النّقديّة في بناطيلهم. في تلك الفرص، لم يكن ثمّة حاجة إلى التّسلّل والتّواري؛ تنظر إلى الرّجال في عيونهم مباشرة أثناء تعثّرها بهم وتدسّ يدها في جيوبهم. حتّى إنّ بعضهم كان يُميل قبّعته للفتاة الجميلة الّتي تعتذر بعذوبة بالغة، بينما هي تشدّ قبضتها على نقوده خلف ظهرها.

ادّخرت تشارلوت أرباحها لشهور، لكنّ الأمر لم يتطلّب إلّا مرور بعض الوقت قبل أن يغلبها الإغراء لإنفاقها. حين عادت إلى المنزل بقطعة من قماش البوبلين من أجل فستان جديد، قالت لأمّها إنّها هديّة.

«رأتني سيّدةٌ أنظر بإعجاب إلى القطعة في واجهة المتجر فاشترتها لي، بدافع من الإحسان المسيحيّ»، قالت تشارلوت: «إنّه لون غير رائج، لقد قدّمه التّاجر لها بنصف السّعر».

كانت القماشة مائلة إلى درجة مبهرجة من الأزرق، وكان صاحب المتجر مستعدًّا للمساومة. هبط السّعر بعد بضع رفّات من عينَي تشارلوت البائستين، لكن لم يكن في القصّة غريبة كريمة.

«يا لحظّك الحسن»، قالت الأمّ بنبرة مرتابة: «أمتأكّدة أن ليس في الأمر أكثر من ذلك؟ هناك الكثير ممّن يسمّون بالرّجال المحترمين قد يستغلّون فتاة مثلك».

شعرت تشارلوت بإغواء للتّباهي بأنّ الأمر يحدث على النّقيض في الواقع، أنّها هي من كانت تحتال على الرّجال المحترمين، لكنّ ذلك سيكون استجداءً للصّفع، أو أسوأ. كبرياء الأمّ كانت الشّيء الوحيد ذا القيمة الّذي لا يزال في حوزتها، وكانت لتنزل عقابًا قاسيًا لو اكتشفت ما كانت تشارلوت بصدده. وتلك نزعة حِمائيّة وليدة من صلب غريزة حفظ الذّات، لا الحبّ. تشارلوت كانت دميةً اكتنزتها وأبقتها لامعة محتفظة بنقائها إلى أن يتسنّى لها تزويجها لقاء مبلغ لائق.

«لقد حان الوقت كي تسخّري هذا الوجه في ما يفيد، على أيّ حال»، تابعت الأمّ: «إنّني أفكّر أنّك بلغتِ السّنّ المناسبة للبدء بالخدمة».

الخدمة؟ العمل كخادمة يعني الفرك والحبو على أربع وتفريغ المراحيض المتنقّلة من الفجر حتّى حلول الظّلام، ولم تكن تشارلوت تنتوي الخضوع إلى

مصير كهذا مهما كان المنزل فخمًا. في اليوم التّالي، عادت إلى متجر القماش وسألت صاحبه إن كان يعرف أيّ خيّاط قد يدفع لها مقابل الشّغل بالقطعة. ولمفاجأتها، عرض عليها أن يوظّفها لديه عوضًا عن ذلك.

«سيكون جيّدًا للتّجارة وجود شيء جميل مثلك»، قال بابتسامة خبيثة.

أبقاها في مقدّمة المتجر تستقبل الزّبائن، وبدا أنّ النّساء الأخريات حتّى يروق لهنّ أن يلقين التّرحيب من قبل وجه جذّاب. كانت الزّبونات الموسرات زوجات وبنات لمُلّاك مصانع وأصحاب مصارف يحتجن مِلء خزانات من الملابس لعطلات نهاية الأسبوع الرّيفيّة ودعوات العشاء الرّسميّة، وكانت تشارلوت تستقرئهنّ بينما تداعب أناملهُنّ الحريرَ والمخمل. تستمع إلى تمتماتهنّ ثمّ تكرّر الكلمات لاحقًا: هذا محبّب إلى النّفس للغاية، ألا تشاطرينني الرّأي؟ سيكون لهذا أثر مذهل في إطلالة ديليا العلنيّة. تقلّد تعابيرهنّ ووقفاتهنّ، وعضّهنّ بالأسنان على الشّفاه وطرقعتها بأناقة. ما كانت اللّهجة اللّندنيّة الجنوبيّة لتُبلغها مرادها.

وقد تعلّمت تشارلوت دروسًا أخرى كذلك. بكم لمسة ملاطفة تسمح للسّيّد ثورنتون- صاحب المتجر- قبل أن تتملّص مبتعدة وتسأله عمّا قد تقوله زوجته بشأن سلوك كهذا، وكيف تستغلّ حادثات من هذا القبيل لرفع أجرها مع الحفاظ على سمعتها، وكيف تبتسم لزبونة متطلّبة من جهة ولابنها الأعزب الخجول من أخرى. لاح لها مستقبل يومئ مغويًا، بزوج ومنزل وأطفال، مستقبل من النّوع الّذي قد يكون بمثابة انتصار، نظرًا إلى تنشئتها. خلال ذلك الوقت، استمرّت بالسّرقة حين تُقدّم الفرصة نفسَها؛ كهل سمين قصير يسير بمحاذاة كالفام كومون[1] وسلسلة ساعته تتدلّى من معطفه، رجل مسنّ متجهّم الوجه، حشا جيبه ببضعة جنيهات ورقيّة دون طيّها. كلّ سرقة ناجحة كانت تمدّها بشعور جرعة من الهواء الطّلق بعد عمر انقضى في غرف معبوءة

(١) كالفام كومون: حديقة كبيرة في منطقة كالفام الواقعة جنوبيّ لندن. (المترجم)

بالدّخان. وإذ زهت بالنّجاح، باتت تتساهل في انتقاء أهدافها، وقادها ذلك الطّيش إلى ريج، ممّا قاد إلى كلّ شيء آخر.

كان يبدو مثل أيّ مرشّح محتمَل آخر؛ سيّد محترم لا تعوزه الموارد، خارج في جولة يوم أحد ينتعل حذاء لُمِّعَ حديثًا. كانت حلّته الخضراء فاتحةَ اللّون أكثر بدرجة ممّا يرتديه معظم الرّجال، ويسير بخطو خفيف نشيط أنبأها أنّه يجد متعةً في أن يُلاحَظ. غندورٌ محبّ للتّأنّق، كما قالت تشارلوت لنفسها، يمكن إلهاؤه بسهولة عن طريق تكلّف الإعجاب. حين دفع سترته جانبًا ودسّ يده في جيب بنطاله الأماميّ، رأت الانتفاخ في صُدرته فعرفت أنّها عثرت على ضالّتها.

تبعته تشارلوت إلى داخل الحديقة، قرب النّافورة، حيث كان ثمّة أطفال يُجرون سباق زوارق خشبيّة. تباطأت عند شجرة حين توقّف لتدخين سيجار، ثمّ حثّت خطوها عندما استأنف مشيه عبر مجاز من الشّجر. راحت تطقطق بخطوات سريعة حتّى كادت تتحوّل إلى الرّكض، امرأة شابّة مشوّشة الذّهن في الظّاهر تضع وجهتها ولا شيء آخر نصب عينيها.

ظلّت تسرع إلى أن– طم!– ارتطمت بظهره، فزعزعت اتّزانه حتّى زلّ إلى الأمام ثمّ تأرجح وراءً نحوها.

«أوه، ويحي!»، صاحت تشارلوت في كرب زائف، وتدوّر فمها باستدارة كاملة مع لفظة أوه.

«أجارَكِ اللّه».

كان للرّجل وجه من النّوع الّذي تُصارع كلُّ تقاطيعه العريضة من أجل الانتباه: عينان قاتمتان يوشّيهما حاجبان بارزان، أنف كبير مكتنز، فم غليظ الشّفتين وذقن بغمّازة. المظهر الكلّيّ يعطي انطباعًا صادمًا أكثر ممّا هو

وسيم، لكن كان ثمّة شيء جذّاب في الطّريقة الّتي نظر بها إلى تشارلوت، كما لو أنّها الشّخص الّذي كان يأمل رؤيته تمامًا.

«أستميحك عذرًا»، قالت تشارلوت مطرقة، وجسدها بأكمله ينكمش من الخزي.

«لا تخشِ شيئًا.. لم يصبني أذى»، كان له صوت موسيقيّ، الكلمات تنساب صعودًا ونزولًا في تناغم.

أحنت تشارلوت رأسها في إيماءة سريعة: «طاب يومك».

انتحى الرّجل خطوةً جانبًا، بما يكفي بالضّبط لاعتراض طريق تشارلوت. «إلى أين تذهبين متعجّلةً هكذا؟»

وخزت أولى رعشات القلق صدر تشارلوت. كان نجاحها يعتمد على السّرعة: الحصول على ما تريده ثمّ الابتعاد. كلّما طال حديثها مع هذا الرّجل، أُتيح له وقت أكبر ليدرك ما فعلته.

«والدتي، إنّها مريضة»، قالت تشارلوت بتخوّف صادق: «أنا متّجهة إلى الطّبيب من أجل دوائها»، سمعت رداءة الكذبة وهي تنطق بها.

«يا لوالدتك المسكينة، على عتبة الموت»، تنهّد الرّجل بميلودراميّة: «أذلك هو ما يجعلك تحتاجين هذه؟».

وبحركة رشيقة واحدة أمسك عضدها ولواه، رافعًا يد تشارلوت اليمنى إلى الأعلى والأمام وهي لا تزال قابضة على محفظة جيبه الجلديّة.

كانت تشارلوت محصّنة بترسانة من الأسلحة: صوتها الرّاعش، تعابيرها المرتاعة، قدماها؛ لو أنّه يفلتها بما يكفي كي تفرّ.

«سيّدي، أقسم بحياة أمّي...»

«دعينا لا ندخل أمّك في هذا، أتسمحين؟»، قال الرّجل بمرح: «ولا إخوتك أو أخواتك العشر المتضوّرين جوعًا، ولا الدّاعر الهَرِم الّذي اعتدى على عفّتك. يمكنني أن أرى من ثوبك أنّك لست مُعدِمة، ومن قوامك المبهِج أنّك لستِ في مسغبة. لذا أخبريني، لماذا بالضّبط اصطنعتِ مسرحيّة من أجل المال؟»

نظرت في وجهه، وجه بدا عليه الفضول أكثر من الغضب، وقرّرت اللّجوء إلى تكتيك لم تجرّبه من قبل: الصّراحة.

«لمحض المتعة».

انفجر الرّجل ضاحكًا: «يا للسّحر! أنت بارعة جدًّا، كما تعلمين. معظم الحمقى ما كانوا ليدركوا ما حدث قبل أن تكوني غادرتِ منذ وقت طويل».

«أنت لست أحمق، إذًا».

عبّرت بسمته المتكلّفة عن امتنان على الإطراء، لكنّه لم يكن أفلت ذراعها بعد. بدا أنّ طاقة مشدودة الحلقات تنشط خلاله، كما لو أنّ أفكاره وانفعالاته تجري بضعف سرعتها لدى أيّ شخص آخر.

«لنقل إنّني أتحلّى بشيء من الخبرة في مجال عملك»، قال متابعًا: «يجدر بي أن أجرّك إلى أقرب شرطيّ، فأقوم بواجبي كمواطن صالح».

كانت تشارلوت قد أيقنت مسبقًا أنّه لن يفعل. تذكّرت ما كانت قالته أمّها عن الرّجال الّذين يستغلّون الفتيات البريئات، فتساءلت إن كان ذلك ما يدور في رأس هذا السّيّد المحترم. كان الفضول ينتابها أكثر من كونها خائفة؛ كيف يتحرّش الرّجال بالفتيات اللّاتي يعتقدون أنّهنّ تحت سيطرتهم؟ كيف عساها تتحايل عليه كي يتركها تذهب؟

أفلت ذراع تشارلوت وفتح محفظته. كانت فارغة.

«أخشى أنّ مناورتك الرّعناء الصّغيرة كانت لتخيّب أملك، أنا أبقي مالي في مكان أكثر أمانًا بكثير»، رفع الجانب الأيسر من سترته وأشار بإصبعه إلى الزّاوية السّفليّة، حيث كان شقّ الجيب المخفيّ بالكاد مرئيًّا، كما لو هو يتحدّاها أن تعيد المحاولة.

تابع قائلًا: «من الخسارة تبديد موهبة كهذه، لديّ اقتراح من شأنه أن يكون ذا نفع لنا كلينا».

كان بوسع تشارلوت أن تهرب، لكنّها لم تفعل.

«ثمّة سيّد محترم من معارفي يدين لي بمبلغ كبير من المال»، قال الرّجل: «كان الحظّ قد حالفني في ورق اللّعب، ولم يكن هو قادرًا على سداد التزاماته. لديّ توقيعه على ورقة، توضّح ما يدين به لي، لكنّ مساعيّ للاسترداد لم تلقَ نجاحًا. كنت أتفكّر في سبل بديلة للحصول على حقّي، وأظنّ أنّك تبدين أكثرها فاعليّة».

شرح الحلّ الّذي يقترحه ودور تشارلوت فيه. سيتطلّب ذلك بضع دقائق وحسب، ثم تذهب هي بجُنَيهٍ مجرّدَ أن يُستردّ الدّين. لكنّ ذلك كان يعني وثوقها بأن يفعل هذا الغريب ما يَعِد به.

«ليس بعد العاشرة إلّا الربع»، قال الرّجل: «إنّه يذهب دائمًا إلى قدّاس السّاعة العاشرة في الكنيسة، ذلك الوغد المتديّن».

أومأت تشارلوت.

رفع الرّجل قبّعته وانحنى: «إذًا فقد حان الوقت كي نتعارف. ريجينالد إيفرز، في خدمتك».

«تشارلوت ديغبي».

مثل صبيّ متمرّن جالس عند ركبة معلّمه، أرادت أن تسأله كيف بدأ بالنّشل، وإذا ما سبق أن قُبض عليه. لكنّه كان قد همّ بالابتعاد فعلًا، عائدًا إلى حياته الغامضة سيّئة السّمعة لا شكّ. وحتّى قبل أن يخرج من مجال نظرها، بدأت تشارلوت تشتاق إليه.

في اليوم الّذي اتّفقا عليه، ارتدت تشارلوت أكثر أثوابها رثاثة، الثّوب الّذي كانت تخصّصه لتنظيف المنزل. أخبرت أمّها أنّها ستخرج في نزهة قبل أن يزداد الجوّ حرًّا، وحين بلغت زاوية الشّارع في كنسينغتون حلّت زرَّيها العُلويَّين. كان ريجينالد قد أعطاها تعليمات بالبحث عن رجل أحمر الوجه مدوّره وزوجته الّتي تماثله امتلاءً، فتعرّفت تشارلوت إليهما حالما وصلا يتهاديان بذراعين متشابكتين. عندما كادا يصبحان أمامها، صاحت تشارلوت: «عزيزي! كيف لك أن تكون قاسيًا هكذا؟»

توقّف الرّجل والمرأة على نحو مفاجئ، التّحديقة المحتارة لواحدهما تعكس صورة الآخر. تقدّمت تشارلوت نحوهما، وانقبضت يداها بشكل دراميّ.

«قلت إنّك ستعتني بي وبالطّفل! قلت إنّك تحبّني!»

تميّز وجه الزّوجة غضبًا: «من هذه؟»، سألت محملقةً في زوجها.

«لا أدري! لم يسبق لي أن رأيتها!»

حتّى بالنّسبة إلى تشارلوت، الّتي كانت على بيّنة من الحقيقة، بدت كلماته غير مقنعة. لعلّه كان يفكّر في امرأة أخرى أخطأ بحقّها. غضَّنَت وجهها لتخفي حقيقة أنّ نشيجها لا ترافقه دموع حقيقيّة. سمعت وقع أقدام وراءها، ثمّ جاء صوت ريجينالد.

«هاري!»، صاح مناديًا: «ما كلّ هذا؟»

«ريجينالد!»، هتف الرّجل: «هذه... المخلوقة، الّتي لم ألتقِ بها يومًا، تجعل منّا فرجة. لا بدّ أنّ هنالك سوء تفاهم».

«لم أكن سأخبرها، أقسم بهذا!»، قالت تشارلوت محتجّة: «لكنّك لم ترسل المال الّذي وعدتني به، فكيف لي أن أنفق على طعام صغيرنا؟»

سحبت زوجة هاري يدها من مرفقه وراحت تراقب تشارلوت بذهول مرتاع.

«إنّها تكذب!»، صاح هاري بحدّة.

«بالطّبع هي تكذب»، قال ريجينالد: «فأنت تدفع ما تدين به دائمًا، أليس كذلك يا هاري؟»

شاهدت تشارلوت عينَي هاري تتّسعان إذ فهم ما يحدث.

«هلّا سمحت لي بالمساعدة؟»، سأله ريجينالد: «أكره أن تتعرّض زوجتك لمزيد من الإحراج»، ثمّ رمق هاري بتحديقة ذات معنى وهو يثبّت ذراع تشارلوت ساحبًا إيّاها جانبًا.

«أجل، أجل»، تمتم هاري وهو يسحب قدميه على الرّصيف: «أشكر لك لطفك، كن واثقًا من امتناني».

«لمَ لا نشرب نخب امتنانك غدًا؟ في حانة ذا ثري بيلز، عند الظّهيرة؟»

أومأ هاري باقتضاب، وانطلقت زوجته خلفه وهو يسرع مبتعدًا. حين اختفيا عند الزّاوية، نظر ريجينالد إلى تشارلوت وأفلت ضحكة منتصرة اهتزّ لها صدره. شعرت تشارلوت بانعدام الوزن، كما لو أنّ حبلًا كان يقيّدها إلى الحياة اليوميّة قد انقطع. وللحظات قليلة منعشة، كانت قد نُقلت إلى جسد آخر، حياة أخرى. لقد لاعبت هي وريجينالد وأحدهما الآخر مثل راقصَين، كانت الأكاذيب تخرج بسهولة الأنفاس. لم تشعر تشارلوت بالوحدة يومًا وهي

تخطّط طريقها في شوارع لندن، لكنّها علمت أنّها ستشعر بها في المرّة المقبلة، من دونه.

«سيحضر نقودي غدًا، كوني على ثقة من ذلك»، قال ريجينالد. مدّ يده في سترته وأخرج قطعة جنيه من أحد أماكنه المخفيّة: «على عكس هاري العزيز، أنا أسدّد ديوني دائمًا».

«كان هذا أكبر قدر من المتعة حظيت به منذ دهور»، قالت تشارلوت وهي تثبّت ريجينالد بأفضل ابتساماتها العابثة: «متى يمكننا فعل ذلك مجدّدًا؟»

وبذلك تشكّلت شراكة غير رسميّة. ما كان بوسعها دعوة ريجينالد إلى الشّقّة- فالأمّ ستتعرّف إليه من فورها على أنّه شخص لا وراءه ولا قدّامه- لكنّه زار تشارلوت في المتجر، وجعلها تضحك بشدّة دفعت السّيّد ثورنتون إلى أن يسأل بحدّة إذا ما كان السّيّد المحترم سيشتري شيئًا، وإلّا فقد حان الوقت كي تكنس تشارلوت المخزن.

وليس بعد ذلك بوقت طويل، جاء ريجينالد باقتراح: ثمّة صديق يجمع التّبرّعات من أجل اليتامى الفقراء، فهل سيكون لظهور تشارلوت في إحدى حملات الإحسان كمتشرّدة شابّة مفلسة أثر إيجابيّ؟ لم يكن هناك ميتم، بالطّبع، والأرواح المعوزة الوحيدة الّتي ستستفيد من المخطّط هي ريجينالد وصديقه، وتشارلوت إن وافقت.

بدأت الأكاذيب تتضاعف من تلك النّقطة. أخبرت تشارلوت أمّها أنّها ترتاد محاضرات تعليميّة خلال الأمسيات الّتي تقضيها في الخارج (حيث، كما ضمّنت، الرّجال الشّبّان ذوو الأهليّة موجودون بجهوزيّة كاملة). وأخبرت السّيّد ثورنتون أنّ مشاعرها المعذّبة تجاهه تؤثّر في صحّتها، ممّا سمح لها بتقصير ساعات عملها فيما هي تُزكي له اعتدادَه بنفسه. راحت هي وريجينالد يلفّقان القصّة تلو الأخرى: ففي يوم يكونان مبشّرًا وأخته يجمعان التّمويل لبناء

كنيسة في الصّين، وفي التّالي عروسين جديدين وصلا من أستراليا مؤخّرًا بفرص للاستثمار في منجم نحاس.

كانت مكيدتها المفضّلة من بطولة ريجينالد بِدور قسٍّ ريفيّ مخلص يبني بيتًا للنّساء الشّابّات الضّالّات، بينما تلعب هي دور الفتاة الخليعة المهتدية الّتي أنقذها. كان أداؤها جذّابًا على وجه التّحديد للدّاعرين المسنّين الأثرياء، رجال ضمائرهم سريعة التّأثّر بقصص العفاف البائد، تقترب منهم بأناة وابتسامة بريئة، مع أنّ حركات وركيها وصدرها تلمّح إلى ماضيها الفاسق. تلك كانت توليفة لا تقاوم، فتواردت التّبرّعات مثل السّيول.

طوال ستّة أشهر مفعمة بالألق، كانا «لوتي» و«ريج»، رفيقين يفهم واحدهما الآخر على سويّة بديهيّة دون كلام. بنظرة أو إيماءة، تستطيع تشارلوت أن ترسل رسالةً إلى ريج- هذا الرّجل مرتاب- فيتدخّل ريج بصفعة على الظّهر وزوبعة من الكلمات تنقذ تشارلوت من أسئلة مربكة. أصبحت تثق به إلى حدّ بعيد، رغم أنّها لم تكن تعرف عنه شيئًا تقريبًا. كان يقطن في بنسيون في تشيلسي، إلى حيث كانت ترسل رسائل في بعض الأحيان بيد أنّه أثناها عن زيارته. كانت لديه دائرة أصدقاء واسعة، أصدقاء يلعب معهم الورق (ويغشّ حين يستطيع)، أصدقاء يضع معهم مخطّطات حالمة، أصدقاء يشرب معهم ويتشاجر معهم ويتّهمهم بأخذ حصّته العادلة. لكن لا أحد منهم كان يعرف ريج الحقيقيّ أكثر من تشارلوت؛ حتّى إنّه لمّح ذات مرّة إلى أنّ ريجينالد إيفرز لم يكن اسمه الحقيقيّ. ومثل ساحر في معرض ريفيّ، كان يعتمد على الإبهار في التّضليل، فيحرِف الأسئلة عن مسارها ليحمي أسراره.

مع كلّ عمليّة احتيال، كان احتمال الانكشاف يزداد؛ وشكّل تحدّي هذه الاحتمالات نصف المتعة، ثمّ بدأ كلّ شيء ينحرف عن الصّواب. بدأ الأمر مع الأمّ، الّتي راحت تطرح أسئلة متشكّكة عن محاضرات تشارلوت، وتتساءل متى سيأتي الأصدقاء الجدد الّذين تتعرّف عليهم في طلبها للخروج في موعد.

«ستبلغين التّاسعة عشرة الشّهرَ المقبل»، كانت تقول لها محذّرة، واعتادت أن تسعل بشكل دراميّ لتنوّه عن صحّتها المتقلقلة، حسب زعمها: «لن أتركك عانسًا مسنّة، إن لم تستطيعي العثور على زوج لنفسك فسأفعل ذلك نيابة عنك».

ولم يمضِ وقت طويل بعد ذلك حتّى ضُبِط ريج متنكّرًا بشخصيّة «اللّورد كافينديش» من قبل شقيق رجل كان قد خدعه، ممّا انتهى إلى بلبلة هائجة خارج مدخل الخدم في نادي ذا إمباير كلوب.

«أظنّ أنّ الوقت قد حان كي يهاجر اللّورد كافينديش»، قال ريج لتشارلوت في اليوم التّالي: «ربّما إلى الهند؟»

خاب أمل تشارلوت؛ فقد كانا يخطّطان للذّهاب إلى هارودز[١] من أجل شراء مجموعة جديدة من الثّياب ووضع كلفتها على حساب كافينديش.

«من الأفضل أن أغيب عن الأنظار على أيّ حال»، قال ريج: «فقد بالغتُ في الجشع وصنعت لنفسي بعض العداوات».

«ماذا تقصد؟»، سألته تشارلوت.

«سأغادر لندن»، أجاب: «كي أتيح للأعصاب أن تبرد».

كانا يسيران في حديقة ريجنت بارك، مكانهما المفضّل لتدبير الخطط والتّلذّذ بالانتصارات. لقد سمحت تشارلوت لنفسها بتصديق أنّهما سيجوبان هذه الطّرقات إلى الأبد، في مستقبل أبديّ متخيَّل بشكل ضبابيّ.

«كم ستغيب؟»

رفع ريج يديه في إظهارٍ مرحٍ للعجز: «من يستطيع أن يخمّن؟»

---

(١) هارودز: متجر ذو أقسام متنوّعة في لندن، ويعدّ نقطة جذب للسّوّاح. (المترجم)

لم يطاوع تشارلوت قلبُها على ردّ الابتسام. كانت غاضبة ومتألّمة، ولا تستطيع أن تفكّر إلّا في أنّ عليها الابتعاد عن كلّ النّاس المحيطين بهما، والعثور على مكان تستطيع فيه تهدئة خفقان قلبها الأشبه بلحن رثاء حزين. وبقرار مفاجئ، خرجت عن الطّريق ووطئت العشب الّذي لم يزل نديًّا من مطر اللّيلة السّابقة. كان بوسعها سماع ريج خلفها، لكنّها لم تنظر إلى الوراء، لم تُرد مواجهته بعينيها الدّامعتين. حين بلغت تشارلوت مكانًا قصيًّا بين الأشجار، أطرقت تحدّق في طرف فستانها الملطّخ بالوحل، واقتربت جزمة ريج المبقّعة إلى جانبها. لا بدّ أنّ لذلك معنى، أن يتبعها رجل يولي هذه العناية بهندامه كلَّ هذه المسافة.

انتظرت تشارلوت بكآبة أن يبدأ ريج الكلام. كانت تريد أن تقول له ألّا يذهب، وإنّها لم تكن لتستطيع مواجهة خواء العالم دونه، لكنّ ريج لم يكن شخصًا مناسبًا لعواطف كهذه.

«لقد حظينا بالمتعة، أليس كذلك؟»، تكلّم ريج بنبرته المرحة المعتادة، لكنّ الكلمات خرجت متلكّئة.

- «أكبر قدر من المتعة حظيتُ به يومًا».

- «كان بوسعك أن تخدعيني، بالطّريقة الّتي تتهجينها».

علمت تشارلوت أنّه يفترض بها أن تضحك، لكنّها لم تستطع الإقدام على ذلك. اليوم، للمرّة الأولى، لم ترغب أن تمثّل دورًا. لم ترغب أن تكون اللّيدي كافينديش، أو بيبا اليتيمة، أو شقيقة المبشّر. لم ترغب أن تكون لوتي الجميلة المتشيطنة، الّتي تأخذ مال الغرباء بمرح ثمّ تضحك من ذلك لاحقًا. لم تكن قد لاحظت قبل تلك اللّحظة كم أصبح الأمر مرهِقًا.

رفعت تشارلوت نظرها إلى ريج، إلى البسمة الّتي رأتها عشرات- بل مئات؟- المرّات. كان ريج يستخدم ابتسامته ليسحر ويجرّد من السّلاح؛ كانت سلاحه الأعظم، وتنكّره الأعظم.

«ما كان ليُقيَّض لنا أن ننجو بفعلتنا إلى الأبد»، قال ريج: «عاجلًا أم آجلًا، كان سيصادف أن يوجد شرطيّ عند الزّاوية في الوقت الخطأ، أو امرأة تتبضّع فتتعرّف إليك من المتجر. كنت أعرف في كلّ مرّة أنّ عليّ وضع حدّ للأمر عاجلًا أم آجلًا».

«كنت آمل لو أتيح لنا قليل من الوقت بعد»، قالت تشارلوت.

«ما زلتِ قادرة على بناء نفسك يا لوتي، أنت ذكيّة وجميلة، بوسعك فعل أيّ شيء تريدينه».

في أولى أيام تعارفهما، كانت تشارلوت تهيّئ نفسها لأن يشدّها ريج ويقبّلها، إلّا أنّه لم يفعل قطّ. كان يعاملها بحمائيّة أخ كبير، وهو الآن ينظر إليها بالطّريقة نفسها.

أدركت تشارلوت أن ليس المال أو المغامرة ما ستفتقده، بل إيمان ريج بها، والشّعور الّذي يعتريها حين يكون بجانبها.

دفعة واحدة، وبدفقة مبهرة من اليقين، علمت تشارلوت ما عليها فعله. لطالما اعتقدت أنّ الحبّ سيجتاحها مثل مرض، مخلّفًا إيّاها عاجزة وضعيفة. عاطفتها تجاه ريج كانت شيئًا آخر كلّيًّا: قوّة تشدّ أزرها وتغذّيها. أوليس هذا ما تتمنّاه كلّ امرأة في زوج لها؟ تذكّرت الأمسية الّتي قضياها يلعبان دور الأستراليَّيْن، ويبيعان أسهم أعمال المناجم، كان حوارها آنذاك يخرج بشكل طبيعيّ كما لو أنّهما متزوّجان فعلًا.

كان من المحتمل أن يضحك ريج إن هي بدأت تهذر بالتّصريحات الكبيرة، لذا فعلت تشارلوت ما استحثّها جسدها عليه: انتصبت على أصابع قدميها وقبّلته. انطبقت شفتاه على شفتيها، وطوّقتها ذراعاه، واندفع صدره عليها بقوّة جعلت ظهرها يصطدم بشجرة. خلال هذه الثّواني القليلة محبوسة الأنفاس، شعرت تشارلوت كم كان يحبّها.

ثمّ، وبحركة مفاجئة، أفلتها ريج وخطا متراجعًا. تظاهر بأنّه يعدّل قبّعته، وتمالك زمام نفسه، ثمّ رمق تشارلوت بنظرة لهو ملتوية.

«يا إلهي الرّحيم»، قال: «أنا أعتذر»، كما لو كان قد أهرق شايَهُ أو ارتطم بها في الشّارع.

«كلّا»، تمتمت متلعثمة: «أنا الّتي...»

«عزيزتي لوتي، أنا أشعر بإطراء هائل، لكن لا بدّ لك أن تري... هذا لن ينفع».

«لماذا؟»، سألته والحيرة تدور بها.

كان ريج خبيرًا في قراءة الآثار الّتي يتركها؛ لذا فقد أدرك لا شكّ أنّه جرحها: «أنا أشعر بالإطراء إلى حدّ بعيد»، كرّر برفق: «لكن عليك ادّخار قبلاتك لشخص يستحقّها».

- «ما من أحد آخر، أنت الشّخص الّذي أريده... أنا أعلمُ هذا».
- «آه، أنت صغيرة! تظنّين العكس، لكنّك كذلك».
- «وأنت شيخ حكيم؟»

أدركت تشارلوت فجأة أنّها لا تملك أدنى فكرة عن سنّ ريج. خمس وعشرون؟ ثلاثون؟ لقد كان يقدّم نفسه بثقة تفوق عمره.

«أنا أغنى بالفعل في ما يتعلّق بالتّجربة الحياتيّة»، قال ريج وشفتاه تلتويان في ابتسامة متكلّفة شقيّة: «وهذه المساحة الواسعة من المعرفة تخبرني أنّ رجلًا أفضل مقدّر لك».

«لا يهمّني»، أصرّت تشارلوت: «أنا أحبّك، أريد الزّواج منك».

«أوه، لوتي».

تبدّى الحزن جليًّا على ريج، ونزل الفهم على تشارلوت مثل حمل ثقيل: «أنت متزوّج بالفعل».

«لا»، صار صوت ريج أكثر جفاء: «أنا آسف للغاية، لكن ليس لديّ اهتمام بقيود الزّواج، فتثميني لحرّيّتي يفوق ذلك بكثير».

أدركت تشارلوت بحسرة مثيرة للغثيان كم كانت قد أساءت تقدير جاذبيّتها. ما الّذي عساه يدفع ريج، وهو رجل صقله العالمُ بتجاربه، إلى الزّواج من فتاة تعيش فوق متجر أجبان؟ ليس بعيدًا، إلى حدّ علمها، أن يكون لديه حريمٌ من النّساء اللّاتي يزوّدنه بكلّ المباهج الّتي يرغب فيها. كان ينظر إليها بشفقة، ممّا لم يفعل إلّا أن زاد الطّين بلّة. من الآن فصاعدًا، سيرى تشارلوت دائمًا على أنّها الفتاة السّخيفة الّتي ساقت السّخريةَ على نفسها بتقبيله.

الذّلّ كان تامًّا- ولا يطاق. استدارت تشارلوت وانطلقت تجري، الدّمع يغبّش رؤيتها وهي تفرّ عبر الحديقة وتتعثّر في الشّوارع. كيف أمكنها أن تضع كلّ تلك الثّقة في شخص بالكاد تعرفه؟ تلطّخت كلّ ذكرياتها المتعلّقة بريج، مثل صور فوتوغرافيّة رُشقت بالماء. لقد كان غباشة، لغزًا يقاوم أن يُحَلّ، وما كان لها أن تلوم إلّا نفسها على خزيها.

في اليوم التّالي، كانت تشارلوت تنظر من واجهة المتجر حين رأت ريج يقترب. تمتمت بعذر سريع للسّيّد ثورنتون، وهرعت من الباب الخلفيّ قبل أن يتمكّن ريج من رؤيتها. أقدمت على فرار سريع مشابه حين عاد بعد بضعة أيام، وعقبَ ذلك كفّ عن القدوم.

مرّت سنتان قبل أن يتحدّثا مجدّدًا، في ربيع ١٩١٢.

تبيّنَ أنّ سعال الأمّ أمر جدّي، وازداد سوءًا من مضض مزعج إلى ألم خلال أشهر. أصبحت حياة تشارلوت مقيّدة، إذ ذهبت كلّ دقيقة منها لخدمة الزّبائن في المتجر والأمّ في المنزل. في اللّيل، كانت ترقد مسهّدة بينما يهتزّ سريرهما المشترك مع أنين أمّها. تشارلوت الّتي كانت ذات مرّة تبدّل شكلها بمرح شقيّ باتت منهَكةً ومتهرّئة؛ في المرّات القليلة الّتي لمحت فيها نفسها على مرآة أو واجهة المتجر صدمها انعكاسها المضنى. لم تعد الرّؤوس تلتفت نحوها عندما تعبر، لأن الجمال دون ضوء ينحرف بشكل خطير باتجاه المأساة. كانت هالة معاناة تشارلوت تبقي الآخرين بمنأى عنها.

خلال عطلة أخويها الفصليّة، أرسلتهما تشارلوت للإقامة لدى خالتها في ديفون، وحين ماتت الأمّ بعد بضعة أشهر- وفاة هادئة رحيمة بعد كلّ تلك المعاناة- جاءت لوسي، خالة تشارلوت، إلى الجنازة. وكانت تلك تجمّعًا كئيبًا يضمّ أقلّ من دزّينة أشخاص في ثياب الحداد، إلّا أنّ تشارلوت استطاعت دفع تكاليف شاهدة قبر لائقة بالمال الّذي ادّخرته من مآثرها مع ريج. كانت تخطّط لاستخدامه من أجل استئجار مسكن جديد، لكنّ وفاة أمّها سحقت مطامحها المحدودةَ أصلًا. رؤيتها ترقد في مثواها الأخير في فناء كنيسة، تحت شاهدة مناسبة، سكّنت جزءًا صغيرًا من الذّنب الّذي كانت تشارلوت تشعر به جرّاء الأكاذيب العديدة الّتي روتها.

أخذت تشارلوت تراقب الطّريقة الّتي كان أخواها ينظران بها إلى الخالة لوسي وهم يتناولون الشّاي في ما بعد، لذا لم تُفاجأ حين عرضت خالتُها تولّيَ وصايتهما. لقد كانت زوجةَ مزارع لم تستسغ عائلةَ أختها غير المألوفة، إلّا أنّها باتت تنضح بدفء أموميّ مؤاسٍ حين لم تعد الأمّ موجودة الآن كي تتلقّى التّوبيخ.

«سيُحسن هواء الرّيف إلى الولدين»، قالت الخالة لوسي: «وسيسرّك أن تُعفَي من هذا العبء بالتّأكيد؟ فلن تلبثي طويلًا حتّى تتزوّجي ويصير لديك صغار من صلبك».

لقد أحبّت تشارلوت أخويها، بالطّريقة غير المتحيّزة الّتي يحبّ بها المرء لعبةً طفوليّة؛ ورغم أنّها لم تفتقدهما كثيرًا حين غابا، قد كان يطيب لها أن تفكّر في كونهما يتلقّيان رعاية جيّدة. كانت تعلم أنّهما سيكونان أكثر سعادة وهما يطاردان الدّجاج في منزل مزرعة ممّا لو كانا معها في لندن، بيد أنّها بكت حين غادر أخواها أكثر ممّا فعلت عندما توفّيت أمّها. ومع رحيل آخر ما تبقّى من عائلتها، باتت وحيدة بحقّ.

راح أسى الفقد يتحرّك في تشارلوت مثل الوحل عقب مطر شديد، فيثقلها ويبطئ سيرها، ويجعل كلّ خطوة إلى الأمام كفاحًا. توقّعت أن ينقص الحزن مع الوقت، لكنّه صمد وتعمّق، قوّة تربطها بالماضي. في بعض الأحيان، كانت تجفل إذ تستوعب مرور الزّمن- ستّة أشهر على وفاة أمّها؛ سنة- لا لشيء إلّا كي تتعجّب كم من الأيام يمكن أن يمضي دون أن يترك أثرًا. حتّى السّرقة فقدت جاذبيّتها، هي لم تعد سريعةً ولا عاقدة العزم كما كانت ذات زمان. وفي أحد الأصائل اقتربت من الخطر وأوشكت أن يُقبض عليها، وفقط ركلة رشيقة مسدّدة إلى الرّكبتين هي ما أفلتها من قبضة رجل شرطة، وبعد ذلك لم تُعد المحاولة قطّ.

ما كان يبدو لها كعالَم شبيه بالحلم يتألّف من أيام وليالٍ متماثلة بدأ يأخذ شكل مستقبل ممكن عندما توعّكت صحّة زوجة السّيّد ثورنتون. كان مرضها- على عكس مرض الأمّ- سريعًا، وراح السّيّد ثورنتون يدلي بتلميحات إلى أنّ حِداده سيكون مختصرًا شأنه شأن المرض.

ثمّ لم يكن قد مضى على وفاة السّيّدة ثورنتون في فبراير وقت طويل، حين أخبر تشارلوت كم يجد نفسه غير مؤهّل لحياة العزوبيّة وكم أنّ رؤية وجهها العطوف تضيء أيامه. ذات زمان، كانت فكرة الزّواج من السّيّد ثورنتون لتثير ضحك تشارلوت؛ أمّا الآن، فبدا أنّه لا مناص من ذلك. الفوائد كانت جليّة إلى درجة أن اعتادت على تردادها في ذهنها: هو يملك تجارته ومنزله الخاصَّين،

ولم يكن سيّئ المظهر بالنّسبة إلى رجل في أربعينيّاته، كما أنّها تعرف أصلًا كلّ انحرافاته ونقائصه. كانت تشارلوت على مشارف ربيعها الحادي والعشرين، وليس لديها مرشّحون أفضل.

لم تكن السّيّدة ثورنتون قد استطاعت إتمام حمل ناجح، لكن إن أنجبت تشارلوت بضعة أطفال على الفور فقد يتركها السّيّد ثورنتون تدير المنزل كما يحلو لها، ولعلّ هذا يكون كافيًا.

ورغم أنّ تشارلوت لم تزل قادرة على تجنيد صداقة متكلّفة مع الزّبونات، ما عادت تولي اهتمامًا خاصًّا بالقادمين الجدد. لذا لم تكن قد لاحظت أنّ ريج دخل المتجر حتّى بات واقفًا أمامها مباشرة، يلمع في بدلته ذات نقش المربّعات البورغنديّ، ويبتسم مثل طفل عثر على هرّته الضّائعة.

«لوتي».

شعرت تشارلوت بالغضب يتصاعد، يُذْكيه خزيها الّذي تتذكّره، لكنّ ذلك الاضطرام كان قصير الأمد، بقايا جمر مطقطق لنار خمدت منذ وقت طويل. لم تستطع التّفكير في أيّ شيء تقوله.

«دعينا نتحدّث قليلًا، هلّا سمحتِ؟»، سألها ريج.

تبعت تشارلوت ريج إلى الخارج، منجرّة في أثره. بدا ريج كما كان دائمًا: لامع التأنّق ولو بازدهاء، يتحرّك بثقة مرحة. حين نظر إلى تشارلوت بفضول ذاهل، كان لذلك أثر شعاع منشّط من ضوء شمس مايو بعد شتاء قاتم قاسٍ.

«كنت أتوقّع أن أفتّش نصف لندن بحثًا عنك»، قال: «عليّ أن أقول إنّني صُدمت بالأحرى إذ وجدتك لا تزالين هنا.. ظننتك ستكونين قد حظيتِ بدستة من عروض الزّواج بحلول هذا الوقت».

أخبرته تشارلوت عن وفاة أمّها، وخطوبتها الّتي تكاد تكون رسميّة للسّيّد ثورنتون.

في أيام عزّهما، كانت لتجعل القصّة مسليّة، كي تستمتع بسماع ضحكة ريج، لكنّ هذا النّوع من الطّرافة الحيويّة بات خلفها الآن. لم تستطع إلّا أن تعيد سرد الحقائق، وليس في ذلك ما يستحقّ الابتسام.

«كنت لأهنّئك على الأخبار السّارّة، لكن يبدو أنّ عليّ تقديم تعازيّ بدلًا من ذلك»، قال ريج: «لن تقدمي حقًّا على الزّواج من ذلك الأحمق، أليس كذلك؟»

رفع نظره من فوق كتفها وأمال قبّعته، فاستدارت تشارلوت لترى السّيّد ثورنتون ينقر على واجهة المحلّ. بشفتيه المزمومتين وقبضته المرفوعة، بدا كنسخة من سكروج[1] العجوز المتجهّم يوبّخ أطفالًا أيقظوه من قيلولته. رأته بعينَي ريج، فشعرت بهبّة من الاشمئزاز.

«لا»، أجابت متفاجئة من الاحتدام الّذي اعتراها: «لا أظنّ أنّني سأفعل».

«ممتاز، يبهجني أن أكون أنقذتك من مصير كئيب»، غمز ريج السّيّدَ ثورنتون بابتسامة عريضة بلغت وجنتيه، ثمّ عاود الالتفات إلى تشارلوت. كان على وجهه تعبير ميّزته من أيام ولّت، عندما ينسج خطّة جديدة من الأحلام: «اهربي معي».

إنّه يشاكسها، لا بدّ أنّه كذلك. لم يكن ريج أميرًا يهوى التّودّد إلى النّساء، وقد سبق ووضّح منذ وقت طويل أنّه ليس مغرمًا بتشارلوت.

«إلى أين؟»، سألته بارتياب.

«إلى نيويورك».

كان الأمر لعبة برمّته، من نوع القصص الّتي اعتادا على ابتكارها من أجل المتعة، بيد أنّ ريج بدا في غاية الجدّيّة.

---

(١) إبنزر سكروج: الشّخصيّة الرّئيسيّة في قصّة تشارلز ديكينز «أنشودة عيد الميلاد» الصّادرة عام ١٨٤٣، الّتي تُقدَّم في بداية القصّة كشخص قاسي القلب ومجرّد من المشاعر وجشع، يبغض عيد الميلاد ويكره كلّ ما يمنح النّاس السّعادة. (المترجم)

«الأمر أنّني...»، قال ريج بندم مبالغ فيه: «ألفيت نفسي في مأزق».

«إلى من تدين بالمال هذه المرّة؟»، وجدت شيئًا من العزاء بطريقةٍ ما في أن تلقى ريج لم يتغيّر، مقارنةً بالانقلابات في حياتها هي.

«لن أرهق أذنيك بالتّفاصيل الخسيسة، يكفي أن أقول إنّني جعلت من نفسي عدوًّا لعائلة لا يجدر بأحد أن يغلط معها. الأفضل أن أغادر إنجلترا لبعض الوقت، حتّى تهمد البلبلة. سمعت أنّ لدى أمريكا الكثير ممّا تقدّمه لرجل بمواهبي، إذ إنّ المرء إذا لعب دوره بأناقة وسمّى نفسه إيرل الهراء منقطع النّظير[1]، سيظنّه الجميع ثريًّا فيستطيع أن يسرق الكحل من أعينهم».

«الإيرل منقطع النّظير»، قالت تشارلوت: «ستحقّق نجاحًا كاسحًا».

جذب ريج يدَي تشارلوت، وفاجأته القوّة الّتي اعتصرهما بها.

«تعالي معي».

سمعت تشارلوت نقر السّيّد ثورنتون من جديد. كانت قد ظنّت أنّ قبلتها المتهوّرة حطّمت الرّوابط بينها وبين ريج إلى الأبد، وأنّ الثّقة الّتي وهبها واحدهما للآخر لن تُستردّ يومًا، والآن تفيض لهفته في أوصال تشارلوت مثل الحمّى. ستكون الموافقة طائشة وربّما خطرة؛ فلم تكن لديها فكرة عمّا فعله ريج ومن عساه يكون الّذي يسعى خلفه، لكنّها عرفت بيقين مُغِمٍّ أنّ هذه ستكون فرصتها الأخيرة للهروب.

«ما هي القصّة؟»، سألت تشارلوت مظهرةً التّشكيك، إذ لم تشأ أن يظنّها ريج ستذعن على الفور: «المبشّر وأخته؟»

«ستسافرين بصفتك السّيّدة ريجينالد إيفرز، زوجتي المخلصة».

---

(١) إيرل: لقب من أصل أنجلوسكسونيّ يتمّ الحصول عليه إن كان الرّجل من طبقة النّبلاء، فيقال «إيرل كذا» نسبة للموضع أو لاسم العائلة، ويمكن الاستعاضة عنه بـ«اللّورد» للذّكر و«اللّيدي» للأنثى.. ومن هنا جاءت سخرية ريج بقوله: إيرل الهراء منقطع النّظير. (المترجم)

زوجة؟ ما الّذي يقترحه بالضّبط يا ترى؟

«بالاسم وحسب»، قال بلطف: «تعلمين أنّني لست من الصّنف المناسب للزّواج»، ثمّ بهدوء أكبر: «للأسف الشّديد».

أطرق ريج بومضة من الحزن الصّادق، إيماءة كانت تطلب الصّفح بصمت. ولمّا أومأت تشارلوت بنشاط، دون أن تطرح أسئلة أو تطالب بشروح، عاد وجهه إلى تعابيره المرحة المعتادة.

«سيكون صالون سفينة مسرحًا مناسبًا لقطاف الثّمار إن امتلك المرء ما يؤهّله للعب الورق. وبصفتي رجلًا متزوّجًا محترمًا، طيّبَ الصّحبة بما يكفي دون أن أكون حادّ الذّكاء أكثر من اللّازم، سألقى التّرحيب على كلّ طاولة، وأراهن أنّني سأستردّ تكاليف سفرنا قبل وصولنا إلى اليابسة. ثمّ حالما نصبح في نيويورك، يمكننا وضع مخطّط نكون فيه كونت وكونتيسا، أو أيّ شيء يحلو لك، تمامًا مثل الأيام الخوالي».

تمامًا مثل الأيام الخوالي. أحسّت تشارلوت بجاذبيّة الأمر، قويّة مثل الجوع الّذي دفعها إلى سرقة تلك التّفّاحة الأولى.

«سيُتوقَّع منّا أن نتشارك نفس المقصورة»، قالت وهي تنظر إلى ريج مباشرة.

- «وهل تخافين على عفّتك؟»

- «أيجدر بي ذلك؟»

ضحك ريج، لكنّها رأت التواء الغواية على شفتيه. كان ليأخذ أيّ شيء هي مستعدّة لمنحه، ما دامت لا تنتظر وعودًا بالمقابل.

«سأحجز لنا غرفتين متجاورتين»، قال ريج: «يمكنك التّعذّر بأنّ شخيري مريع... وهذا ما سبق وقيل لي، والسّيّدة إيفرز تستحقّ كلّ الرّاحة».

السّيّدة إيفرز. لقد تمنّت تشارلوت الحصول على هذا الاسم ذات زمان، وقد يكون هذا ثاني أفضل الخيارات. ستحظى بمكان بجانب ريج، ودورٍ في التّحفة المسرحيّة الّتي تمثّلها حياته.

«ستحتاج السّيّدة إيفرز إلى ثياب لائقة»، قالت تشارلوت بدهاء.

أخرج ريج حفنة أوراق نقديّة من صدرته. أيًّا كانت الورطة الّتي أقحم نفسه فيها، فهي لم تتسبّب في إفلاسه.

«اشتري أيّ شيء تحتاجينه. سأحجز لنا على متن التّايتانيك، الّتي ستغادر الأسبوع القادم. سنسافر في الدّرجة الثّانية، لكنّني سمعت أنّ التّجهيزات هناك أفضل ممّا هي في الدّرجة الأولى على أيّ سفينة أخرى. كما قلتُ...»، أمال قبّعته متابعًا: «لا شيء إلّا الأفضل للسّيّدة إيفرز».

وهكذا حُسم الأمر. ودّعت تشارلوت الأشخاص القلائل الّذين يكترثون بما يكفي ليلاحظوا أنّها رحلت، وبذاءة التّوبيخ الّذي خرج مع البصاق من فم السّيّد ثورنتون جعلت ذهابها بلا ندم أشدّ سهولة بكثير. كان ريج قد زوّدها بالعذر الأمثل لمغادرتها الفجائيّة: قصّة رومنسيّة جارفة، خطوبة مفاجئة، فرصة لمرافقة زوجها الجديد في رحلة عمل إلى أمريكا. دفع ريج تكاليف فساتين وقبّعات وأحذية جديدة، وحقائب لتوضيبها فيها، وتذكرة في القطار المتّجه إلى ميناء ساوثهامبتون. وكان لديه بعض الأمور الغامضة الّتي عليه أن يُعنى بها في اليوم السّابق للسّفر، وسيلتقي بها على الرّصيف البحريّ.

في صباح ذلك الأربعاء، بينما كان القطار يخترق ببطء صاخب آفاقًا ريفيّة لم يسبق لتشارلوت رؤيتها ولا تعلم متى ستراها مجدّدًا، راح قلبها يخفق بنفس الطّريقة الّتي اعتادها قبل كلّ خروج برفقة ريج. يمكن لكلّ شيء أن يسير على نحو رائع أو كارثيّ، ولم تكن قد لاحظت قبل ذلك كم هي موغلة في انعدام اليقين هذا.

مع وصول السّيّدة ريجينالد إيفرز إلى مرسى وايت ستار لاين[1]، كانت قد أتقنت دورها: زوجة شابّة محتشمة رصينة ترتدي سترة صوفيّة وتنّورة بسيطتين، شعرها مصفّف في تموّجات رزينة تحت قبّعتها الخضراء بلون الطّحالب.

أخذت تتفحّص المسافرين الّذين يتحرّكون قرب معبر الدّرجة الثّانية، معاينةً رفاقها المستقبليّين بنفس الطّريقة الّتي تعاين بها عينا مقامر الأمهار في إسطبل مضمار سباق.

كانوا تشكيلة متنوّعة من الأعمال والأشكال، كثير منهم في مجموعات عائليّة، لكنّهم يشتركون في امتلاك غاية؛ أعينهم كانت على ما سيأتي، لا على ما يتركونه خلفهم.

بدأ ضابط بتوجيه المسافرين إلى المتن، وراحت تشارلوت تبحث حولها عن ريج.

ربّما كان يتفاخر بأنّه يعيش كلّ لحظة بلحظتها، غير أنّه لم يسبق أن تأخّر عن موعد عمل؛ لطالما كان بوسعها أن تثق بتواجده، حيث يفترض به. وبينما كانت تتساءل عمّا ستفعله إن هو لم يأتِ- فتذكرتُها معه في نهاية المطاف- جاء يعدو ملوّحًا يلهث بشكل دراميّ، ويسبقها إلى الاعتذار قبل أن تستطيع المبادرة بسؤال أو توبيخ.

«آه، حسنًا يا لوتي، لم يحدث أيّ ضرر. هل جهّزت كلّ أمتعتك؟»

أومأت تشارلوت، فجذبها ريج من مرفقها وهرع بها نحو السّفينة. عند التحاقهما بالطّابور على المعبر، صُعقت تشارلوت من حجم المركب الّذي توشك أن تستقلّه.

---

(١) وايت ستار لاين: شركة بريطانيّة للنّقل البحريّ، تأسّست عام ١٨٤٥ واكتسبت شهرة عالميّة بمشاركتها في ملكيّة التايتانيك، أضخم سفينة في العالم. (المترجم)

لم يسبق لها أن اختبرت أيّ رهبة من الإبحار قبل تلك اللّحظة، لكنّها شعرت بصدرها يتضيّق، كما لو أنّ جسدها يرغمها على أن تبطئ وتعيد التّفكير. فكّرت في الأب الّذي لم تعرفه؛ بحّار اعتلى متن سفينة فلم يعد، رجل كان الميراث الوحيد الّذي تركه ابنةً لم يلتق بها يومًا.

كان الرّكّاب المحيطون بتشارلوت يتقدّمون في تحفّظ مهذّب صامت بمعظمه، رغم أنّها تسمع أصوات «أوه» عرضيّة وأمّهات يأمرن أطفالهنّ بالبقاء على مقربة.

بدا الشّاب الّذي خلف ريج مباشرة متلهّفًا على وجه التّحديد لاعتلاء المتن؛ ظلّ يخطو إلى الأمام في حين بالكاد ثمّة مساحة للحركة فيرتطم بظهر ريج. يداه ووجهه ترتعش من الحماسة، وعيناه التّوّاقتان لا تكفّان عن التّنقّل بين السّفينة وتشارلوت ذهابًا وإيابًا.

لو لم تنزعج تشارلوت هكذا من اندفاعه، لعلّها كانت لتشعر بالإطراء. كان وسيم المظهر جدًّا، بطريقة فتيّة مشرقة، وطراز ملبسه يوحي بأنّه ميسور الحال.

رحّب ضابطٌ بهما على المتن، ثمّ قام بتوجيههما إلى المضيف الّذي سيقودهما نزولًا على الدّرج نحو حجرتيهما الخاصّتين.

حاولت تشارلوت أن تحفظ الطّريق الّذي يسلكونه كيلا تضلّ في ما بعد، لكنّ كلّ شيء كان مشوّشًا إلى حدّ ما. مرّوا بقاعة مدخّنين، ومكتبة، وقاعة طعام مكسوّة بألواح خشبيّة، مع ممرّات تتباعد مفضية إلى كلّ الاتجاهات. انتبهت تشارلوت إلى الشّاب من المعبر يسير في أثرهم، وظلّت تتوقّع منه التّوقّف عند إحدى المقصورات الّتي يمرّون بها، لكنّه لم يفعل. أخيرًا، فتح المضيف بابًا بحركة متباهية ثمّ سلّم ريج مفتاحين.

«الغرفة الأخرى مجاورة تمامًا، الباب التّالي إلى اليسار. لقد أحضر المستخدم متاعكما مسبقًا. أهناك أيّ شيء تحتاجه يا سيّدي؟»

كان الغريب المندفع ما زال يحوّم في الجوار، ممّا أزعج تشارلوت. لقد تحلّى باللّباقة على الأقلّ ليحدّق في مكان آخر بينما يتحدّث ريج إلى المضيف، لعلّه كان ضائعًا وينتظر كي يطلب التّوجيه.

«لا شيء في الوقت الحاليّ»، قال ريج.

«سنُبحر بعد عشرين دقيقة، عند الظّهيرة تمامًا. إن أردتما أن تتفرّجا من ظهر السّفينة، فهو فوقنا بطبقتين من السّلالم».

أومأ ريج معبّرًا عن شكره، وانتظرت تشارلوت أن يغادر الرّجل الّذي كان يتعقّبهما أخيرًا، لكنّه بدلًا من ذلك وقف مكانه محدّقًا إلى ريج.

«آه».

كانت تشارلوت تعرف هذا الصّوت، إنّه طريقة ريج لكسب الوقت في موقف مربك- لحظةَ يتهمّه أحدهم بالغشّ في ورق اللّعب، أو يرمقه شرطيّ بنظرة مرتابة.

«كنتُ آمل أن أفعل هذا في ظروف مختلفة»، قال ريج وعيناه لا تلتقيان بعيني تشارلوت تمامًا: «لكنّ قطارنا تأخّر ولم يكن ثمّة وقت ببساطة».

استخدامه لصيغة الجمع في «قطارنا» هو ما لفت انتباهها. نظرت تشارلوت إلى الشّاب، الّذي كان ينظر إلى ريج، الّذي يردّ النّظر إليه بدوره، وبدأ تشوّشها ينفسح.

«تعرفان بعضكما؟»، طرحت سؤالها بالتّزامن مع استفسار الرّجل: «ألم تخبرها؟»

بدا ريج مضطربًا على نحو غير معهود: «جورجي، امنحنا لحظة، هلّا فعلت؟ اطلب لنفسك شرابًا في الصّالون».

سمحت تشارلوت لريج ذاهلةً أن يصحبها إلى الحجرة الخاصّة. ثمّة أريكة موضوعة عند أحد الجدران، وتختان مصفوفان عند آخر، وحقائبها كُوِّمَت أمام خزانة خفيضة.

الغرفة أجمل من أيّ غرفة سبق أن نامت فيها، بيد أنّها تلك اللّحظة بدت مغلقة وخانقة مثل سجن.

اتّكأ ريج على عضادة الباب، مسندًا قدمًا إلى الأخرى، في وقفة أراد منها أن يُظهر لها أنّه على سجيّته تمامًا، غير أنّ تشارلوت كانت تعرفه بما يكفي لتلحظ انطباق فكّه المتوتّر.

«من هو إذًا؟»، سألته.

«جورجي صديق».

يمكن لذلك أن يعني أيّ شيء، إذ كان لدى ريج عشرات ممّن يسمّيهم أصدقاء.

«هل له علاقة بالورطة الّتي أنت فيها؟»، سألته تشارلوت.

زفر ريج بحدّة، صوت كان يمكن أن يكون ضحكة لو أنّه بذل الجهد اللّازم: «أجل».

شعرت تشارلوت بالإحباط في بادئ الأمر، ألم كليل ثقيل يشدّها إلى الأسفل؛ كان يفترض أن يكونا وحدهما. بتورّد بعثه الخزي، تذكّرت التّهويمات الّتي علّلت نفسها بها خلال الأيام القليلة الماضية: ريج نصف مخمور، يمدّ يديه نحوها؛ واستسلامها على مضض زائف لإغوائه. كم كانت حمقاء، حتّى تظنّ أنّ بوسعها الوثوق به ولو قليلًا! لقد جرجر ريج تشارلوت إلى هذه الرّحلة

بأنصاف حقائق، وهذه إحدى شيمه، وهي وقعت في المكيدة. تصلّب شعورها بالإحراج متحوّلًا إلى غضب.

«أعلم أنّ جورجي لم يكن جزءًا من الخطّة»، شرح ريج بتندّم مبالغ فيه: «غير أنّ حاجته إلى الإنقاذ تبيّنت في اللّحظة الأخيرة، فما كأن ثمّة وقت لمراجعتك بذلك، ولم أستطع أن أدير ظهري له. الوفاء واحد من صفاتي القليلة الجديرة بالإعجاب، ألا توافقينني؟»

إنّه يثرثر بنفس الطّريقة الّتي يعتمدها أثناء لعب الورق؛ تدفّق منغّم من الكلمات يشتّت الانتباه عمّا تفعله يداه بالبطاقات، ولم يزد ذلك على أن أغاظ تشارلوت أكثر.

«لماذا هو هنا؟ لمرّة واحدة في حياتك البغيضة، أخبرني بالحقيقة!»

لقد صدمته: جيّد. ذوت ابتسامة ريج وأطرق برأسه، استغرق وقتًا طويلًا جدًّا ليقرّر ما يقوله.

«جورجي هو جورج سانت فون، كان يدرس مؤخّرًا في جامعة كامبريدج. كما أنّه ابن لورد أبتون؛ نسيب من الدّرجة الثّانية للملكة، ورجل فاسد من كلّ النّواحي. لقد قُبض علينا أنا وجورجي في ما أظنّ أنّ الوصف الأفضل له هو... وضع مثير للشّبهة، في مسكنه بالجامعة. فذاعت الفضيحة والاضطراب والمطالبات بقطع رأسي على الفور».

راحت الكلمات تتزاحم وتدور حول تشارلوت فيما هي تكدح كي تفهمها.

«كنت أعلم أنّكِ ما كنت لتأتي لو أنّي أخبرتك من قبل، أنا في غاية الأسف».

أدركت تشارلوت أنّ بساطة اعتذاره تدلّ على صدقه، لكنّ لحظة التّعاطف تلك لم تلبث حتّى طغى عليها تزعزعٌ مسبّب للدّوار. ما الّذي كان يقوله؟ ما معنى ذلك؟ «كان سيتمّ التّعرّف إلى جورجي بين ركّاب الدّرجة الأولى، لذا فهو يسافر بصفته أخي».

«أخوك»، خرجت الكلمة من تشارلوت في ما يكاد يكون بصقة: «إذًا، يفترض بنا أن نكون عائلة سعيدة؟»

«يمكننا ذلك».

حدّقت تشارلوت في الوجه الّذي تعرفه جيّدًا، وجه رجل لا تعرفه على الإطلاق.

وضع مثير للشّبهة. لم تكن تعرف كيف يمكن لرجلين أن يفعلا أشياء كهذه، ناهيك عن كون الأمر منافيًا للطّبيعة. أول ما خطر لها كان أن تغادر، لا يزال هنالك وقت؛ تستطيع أن تحمل حقائبها وتنزل من السّفينة، فتعود وتركب القطار، وتعود إلى لندن، وتعود إلى السّيّد ثورنتون.

«أرجوك يا لوتي».

شقّ توسّلُ ريج طريقه عبر سديم الكبرياء الجريحة. إن بقيتِ، فهي تتسامح مع سلوك لا تستطيع أن تراه إلّا بوصفه خطيئة. سيتحتّم عليها التّظاهر بأنّها لا تبالي، ومع ذلك فحتّى هذا الهوان- كما أدركت- كان أفضل من العودة إلى حياتها القديمة.

أومأت تشارلوت إيماءة مقتضبة أليمة: «سأتمّ دوري».

مدّ ريج يده إليها- من أجل تربيتة على الكتف وضغطة على الذّراع- فتملّصت مبتعدة.

«اذهب واعثر على أخيك»، قالت بجفاء: «سننطلق في أيّ لحظة».

فوّتت تشارلوت الإقلاع الاحتفاليّ من ساوثهامبتون، التّلويحات والهتافات المتبادلة بين ظهر المركب والشّاطئ. جلست وحيدة في مقصورتها، راحتاها قابضتان على ركبتيها، بينما يُلقَّم الفحم بالمعاول وتدبّ الحياة في المحرّكات.

أمضت ساعات في تلك المقصورة خلال الأيام التّالية، تستشيط غضبًا وتغالب دموعها. ومن أجل المضيف، كان عليها أن تُجعلك ملاء التّخت العلويّ كلّ صباح وتبلّل منشفة زوجها لتبدو مستعملة.

لكنّ ريج لم ينم في غرفتها قطّ بالطّبع؛ لقد أمضى كلّ لياليه مع جورجي، وهي تجلد نفسها بأفكار حول ما قد يكونان يفعلانه.

استدركت لاحقًا أنّ بقيّة الرّكّاب كانوا مبهورين من تجهيزات التّايتانيك الفاخرة وجوّها السّاحر.

بالنّسبة إلى تشارلوت، كانت كلّ تلك المساحات العامّة مجرّد كواليس خلفيّة للعبة وهم ممضّة لا تنتهي. عند كلّ وجبة، خلال الأصائل في الرّواق أو على ظهر المركب، كانت تلعب دور الزّوجة المطيعة، فتدّعي أنّها لا تجد غضاضة في رفقة جورجي. كان طفلًا مفرط النّموّ، كلّه ابتسامات متلهّفة وكركرات تسلّي نفسها بنفسها، يرمق ريج بنظرات شبيهة بجرو يستجدي الفتات قرب الطّاولة. كانت مساعيه لمصادقة تشارلوت خرقاء بشكل يثير الضّحك. وحين حاول استمالتها بإخبارها عن مكانتها العالية في نظر ريج، كانت تشارلوت أكثر تعبًا وإحباطًا من أن تستحضر ردًّا مهذّبًا.

«إنّه يرى فيكِ أختًا»، أصرّ جورجي.

«أجل، كنّا نحظى بأوقات بهيجة للغاية سويّة، حتّى دخلت أنت على الخطّ».

بدا جورجي جريحًا للغاية، مثل طفل تلقّى صفعة بدلًا من تربيتة، إلى درجة كادت تشارلوت تشعر معها بالذّنب. ثمّ انطلق في سرد قصّة عن حصان خالته، فانتهت لحظة تعاطفها.

كان ريج العضو الوحيد من هذا الثّلاثيّ غير المألوف الّذي لم يبدُ على غير سجيّته، عقدَ صداقات مع رجال أعمال وفاز ببراعة في ألعاب الورق؛ كان يتباهى بأنّ هواء البحر يواتيه، وأنّه يشعر بحال أفضل ممّا شعر طوال سنوات.

كان يتودّد إلى -زوجته العزيزة- في العلن، إلّا أنّه لم يمنح تشارلوت فرصة على انفراد لتسأله عمّا سيحدث حين يصلون إلى نيويورك.

كانت قد تخيّلت نفسها هي وريج يتجوّلان في أنحاء أمريكا بمرح صاخب، مثل المطارَدين الّذين تكتب الجرائد عنهم، فيسرقون من مليونيرات لا يدركون أصلًا أنّهم تعرّضوا للنّهب.

أمّا الآن، فقد أضيف جورجي إلى الصّورة. جورجي بضحكه ذي الصّرير وحاجته الّتي تثير السّخط إلى أن يكون موضع إعجاب؛ جورجي الّذي يريد الاستئثار بريج لنفسه.

وبذلك حين جاءت اللّيلة الرّهيبة، وقرع المضيف على الباب ليخبرها أنّ القبطان أمر بنقل جميع النّساء والأطفال إلى قوارب النّجاة، لم تشعر تشارلوت بالخوف. كان وضعها بائسًا أصلًا؛ فلم تكن هذه إلّا محنة أخرى عليها أن تتحمّلها. جاء ريج في طلبها بعد ذلك بقليل- قميصه وبنطاله مكرمشان- وجورجي يسير في أثره، ويبدو رثّ الهيئة بعض الشّيء. حاولت ألّا تفكّر في حقيقة أنّهما قد ارتديا ملابسهما على عجل كما هو واضح.

«ما الّذي حدث؟»، سألت تشارلوت ريج بينما هو يعبث بسترة نجاتها.

«ثمّة خطب ما في السّفينة»، قال ريج.

«لكنّ هذا إجراء احترازيّ لا أكثر، أليس كذلك؟»، سأله جورجي: «لن ينزلوا القوارب إلى الماء بالفعل، صحيح؟»

بصراحة، قالت تشارلوت في قرارتها. لمحت انكماشة انزعاج تعبر وجه ريج. جيّد.

سارت هي وريج صاعدين إلى ظهر المركب بصمت، متجاهلين ثرثرة جورجي. حين خطت تشارلوت إلى الخارج، وخز الهواء القطبيّ وجهها. نظرت

إلى صفّ قوارب النّجاة، الّتي تتدلّى معلّقة بحبال ثُبِّتَت إلى روافع مراسٍ معدنيّة ناتئة إلى أعلى وخارج السّفينة.

كان البحّارة والضّبّاط متجمّعين حول القارب الأقرب إليها، يتجادلون. سمعت صريرًا حادًّا مع إنزال القارب بعض المسافة، ثمّ توقّف يهتزّ.

بدت المياه بعيدة للغاية، وكانت الجهالة الواضحة لدى الطّاقم في التّعامل مع ميكانيكيّة قارب النّجاة مقلقة بشدّة.

تمّ حشد الرّكّاب في مجموعات صغيرة حول القارب، غير أنّ تشارلوت لم تستطع أبدًا أن تشرح في ما بعد الهدوء الّذي ساد وسط البلبلة. ما من أحد يصرخ أو يصاب بالذّعر؛ العائلات تفترق في وداعات مهذّبة، لَثْمٌ على الخدود، وأحيانًا بلا كلام على الإطلاق.

«سترى»، قالت سيّدة مسنّة بنبرة حاسمة: «سيجدّفون بنا قليلًا، ثمّ سرعان ما يعيدوننا».

زمّ السّيّد الأكبر سنًّا الواقف بجانبها فمه، وشنبه الكثّ يتلوّى مثل يسروع. في كلّ مكان حول تشارلوت، كان الأزواج يخوضون نقاشات مرتجلة حول الذّهاب أو البقاء، كأنّهم يخطّطون لإجازة صيفيّة؛ كورنوال أم ليك ديستريكت؟ لا أحد يتقدّم ليركب القارب.

دفع ريج تشارلوت إلى الأمام، وجورجي خلفهما تمامًا. أومأ الضّابط عند دفّة القارب إلى تشارلوت، ثمّ نظر بعبوس إلى جورجي.

«النّساء والأطفال فقط».

«إنّه مجرّد صبيّ...»، استعطفه ريج.

«تراجع»، أمر الضّابط.

لم تكن تشارلوت في عجلة من أمرها لركوب ما بدا ملجأً هزيلًا في المحيط الشّاسع، فتراجعت مع جورجي. جدّف البحّار الأقرب إليها متمتمًا وهو يحاول المناورة بالحبال؛ إمّا أنّ القارب عالق، أو أنّه لا يملك فكرة عمّا يفعله.

وحين صاح رجل يقول إنّه يجري إنزال القوارب على الجانب الآخر، تحرّك معظم النّاس من حول تشارلوت.

مرّ ما حدث بعد ذلك بسرعة شديدة- ريج يسحبهما باتجاه الدّرج، يلقي بمعطفه على تشارلوت، ويتمتم في أذنها- إلى درجة أنّها بالكاد استطاعت أن تتذكّر كيف باتوا واقفين في ممشى الدّرجة الثّانية المغلق، تحت قوارب النّجاة بثلاثة طوابق.

«لا أحد سيعرف»، كان ريج يقول، فأدركت تشارلوت فجأة ما كان يطلبه منها: «باستخدام قبّعتك ومعطفك، يمكنه أن يمرّ. قولي إنّه أختك...»

«بالطّبع لا!»، احتجّ جورجي بكرامة جريحة: «سأتصرّف بصفتي رجلًا محترمًا!»

«لن تكون رجلًا محترمًا إن كنتَ ميتًا!»

جمّدت قوّة غضب ريج تشارلوت في مكانها. شعرت بملمس الصّوف الخشن لقبّعتها على أصابعها، وبوزن معطف ريج على كتفيها. كذبة واحدة، تضاف إلى الآلاف الّتي سبق أن تفوّهت بها. كذبة قد تنقذ حياة رجل. نظرت إلى وجه جورجي الكريه المرتبك، وسمعت الرّعشة في صوت ريج وهو يهمس برقّة: «لوتي»، كانت تلك أول مرّة تراه فيها خائفًا على الإطلاق.

وعلمت تشارلوت ما كان عليها فعله.

لجنة مجلس الشيوخ الأمريكي للتجارة
التّحقيق في كارثة سفينة التّايتانيك

الخميس، ٢ مايو ١٩١٢
شهادة السّيّدة جورج ماكبرايد،
من ركّاب الدّرجة الأولى

السّيناتور سميث: هل كان ثمّة أيّ ذعر عند ركوب قوارب النّجاة؟

السّيّدة ماكبرايد: إطلاقا. كانت الأمور في غاية التّنظيم، وأشرف ضابط على تحميل القوارب، وقام بمرافقتي على المتن، تتبعني شقيقتاي. استطعنا أن نستقلّ القارب دون أيّ عوائق.

السّيناتور سميث: كم كان عدد الّذين في قاربكم حين غادر السّفينة؟

السّيّدة ماكبرايد: ربّما دستة، لم أقم بعدّهم.

السّيناتور سميث: صُمِّمَ القارب ليحمل وزن خمسة وستّين شخصًا، أتعلمين لماذا خُفِّضَت حمولته إلى أقلّ من نصف استيعابه؟

السّيدة ماكبرايد: لا أستطيع الجزم، لقد انتظرنا وقتًا معتبرًا قبل أن يعطي الضّابطُ الأوامر بالرّكوب. وحينما أصبحت أنا وأختاي في القارب، نادي الضّابط: «هل ثمّة المزيد من النّساء؟»، لكنّه لم يلقَ ردًّا. أُنزلنا إلى الماء في كثير من الكرّ والفرّ، وإحدى أختيّ كانت مقتنعة أنّنا سننقلب عن القارب.

السّيناتور سميث: كم عدد البحّارة الّذين كانوا في قاربكم؟

السّيّدة ماكبرايد: اثنان.

السّيناتور سميث: كيف تصفين سلوكهما؟

السّيّدة ماكبرايد: كان أحدهما رجلًا خشنًا جدًّا. راح يلوّح بمجذافه عشوائيًّا، فقلت له: «لماذا لا تضع المجذاف في محبسه؟»، وأجابني: «أتقصدين تلك الفتحة؟»، لم يكن قد سبق له أن أمسك مجذافًا في حياته. كما أنّه دخّن غليونًا رغم اعتراضات الكثير من السّيّدات، شعرنا باستياء كبير من أنّ سلامتنا أوكلت إلى رجل كهذا.

السّيناتور سميث: والبحّار الآخر؟

السّيّدة ماكبرايد: لم تكن لديّ أيّ شكوى عليه. بدا مرتاحًا إلى حدّ بعيد في التّجذيف وتوجيه الدّفّة، وكان مراعيًا للرّكّاب بشكل لائق. شعرت بثقة كبيرة به إلى أن غلبت الخلافات.

السّيناتور سميث: أيّ خلافات؟

السّيّدة ماكبرايد: كان ثمّة شيء من اللّبس في ما يتعلّق بما علينا فعله، بعد أن غرقت السّفينة. لم يكن واضحًا دائمًا من الّذي يتولّى مسؤوليّة القارب.

السّيناتور سميث: ألم يكن المسؤول هو عضو الطّاقم الأقدم؟

السّيّدة ماكبرايد: بلى، أفترض ذلك.

السّيناتور سميث: ماذا كانت طبيعة هذه الخلافات؟

السّيّدة ماكبرايد: لا يهمّ ذلك الآن. جميعنا كنّا مضطربين جدًّا، والعتمة والبرد شديدين. لقد بذلنا قصارى جهدنا في ظروف قاسية، ونجونا.

إيسمي

في ما بعد، سيسأل النّاسُ إيسمي طوال الوقت أين كانت حين اصطدمت السّفينة بالجبل الجليديّ. هل سمعت صوت الاصطدام؟ هل علمت ما كان قد حدث؟ لقد تعلّمت أن تراوغ الأسئلة بقولها إنّها كانت في السّرير، نائمة، وإنّ الحدث الجلل مرّ بها دون أن تنتبه إليه.

كان ذلك صحيحًا جزئيًّا؛ فقد كانت في السّرير فعلًا، لكنّها لم تكن نائمة، ولم تكن بمفردها. حين احتكّت خاصرة ميمنة التّايتانيك بالجليد، مع صوت وصفه أحد الرّكّاب لاحقًا كدحرجة ألف بِلية زجاجيّة، كانت إيسمي متغلغلة إلى جانب تشارلي، وذراعها مسترخية فوق صدره، تبتسم بينما يلفلف إصبعه في شعرها.

قريبًا، سينتهي شهر العسل، وستكون قد عادت إلى فيلادلفيا. كانت مندهشة كم أصبح تشارلي جوهريًّا، في غضون وقت قصير هكذا. كلّ فكرة لفّت ودارت بها حوله؛ كلّ نفَس سحبته في حضوره كان يرمّمها. كانت تخزّن الأحاسيس خلال لياليهما معًا، وتصنع ذكريات تستطيع أن تستمدّ القوّة منها لاحقًا. وبينما اندفعت دفقة الماء الأولى عبر جسد التّايتانيك، وختمت قرار هلاك السّفينة، كانت إيسمي تفكّر: أحبّه إلى درجة تؤلم.

سمعت صريرًا معدنيًّا واهيًا، وأدار تشارلي رأسه نحو الباب.

«ما كان هذا برأيك؟»

كانت إيسمي لا تزال تطفو في الغشاوة الّتي سيطرت عليها بعد أن أذعنت إلى الحاحات تشارلي الهامسة. فيما قبل، كانت دائمًا تتظاهر بالتّمنّع والحياء، في بداية الأمر على أيّ حال. لكنّها تلك اللّيلة، مع اقتراب عودتها إلى الوطن أكثر فأكثر، ألقت بنفسها عليه حالما أُغلِق باب الحجرة الخاصّة. راحت تمرّغ أنفها في عنقه فيما هو يهاجم أزرار فستانها، والقشعريرة تخز بشرتها الّتي تترقّب لمساته. لم تأبه كيف تبدو أو ماذا تفعل، لأن تشارلي كان الرّجل الّذي تحبّه، الشّخص الّذي يعرفها أكثر من أيّ أحد في العالم بأسره. كيف لشيء يجلب لهما كليهما كلّ هذه البهجة أن يكون خاطئًا؟

ألقت إيسمي نظرة على ساعة الجيب الذّهبيّة الّتي كان تشارلي قد وضعها على الكوميدينو: ١١:٤٣م. لم يكن لديهما الكثير من الوقت، مرّرت رؤوس أصابعها على شفتيه. كان تشارلي أنيق الجاذبيّة في ملابس السّهرة، أو حين يميل قبّعته للسّيّدات في ممشى ظهر المركب. لكنّ رؤيته على هذه الحال- الوجنتان متورّدتان، شعره الدّاكن غارق في الفوضى، كتفاه وصدره العاري تبرز من ملاء السّرير- جعلتها تكاد تمرض من اللّهفة. وكان ذلك أكثر من انجذاب جسديّ بسيط؛ تشارلي كان ذكيًّا وسريع البديهة، رقيقًا وحنونًا. حين ثبّت عينيه كثيرتَي السّؤال على إيسمي، كان ذلك لأنّه أراد أن يعرفها بحقّ، كما لم يسبق لأحد أن فعل.

قبّلت إيسمي وجنة تشارلي، آملة أن تستعيد انتباهه، فمسّد ظهرها بشرود. الآن حتّى، بعد كلّ ما فعلاه، لم يكن يعتبر كونها له أمرًا مسلّمًا؛ كان ينتظر من إيسمي دائمًا أن تشير عليه أين ومتى يستطيع أن يلمسها. جذبته إيسمي نحوها، فشدّ تشارلي الأغطية حول جسديهما، سابكًا إيّاهما معًا في شرنقة خصوصيّة. كانت إيسمي تعرف أنّه سيكون عليها في نهاية المطاف أن تسأله عن مستقبلهما، عمّا سيفعلانه حين ترسو التّايتانيك في نيويورك. لكن فيما كانت ذراعا تشارلي تغطّيانها، وقلبها يتسارع، لم يسعها غير أن تقبّله، مرارًا وتكرارًا، برغبة مسعورة.

توقّفت الهمهمة الثّابتة الّتي كانت خلفيّة مستمرّة للرّحلة فجأة، تاركةً وراءها صمتًا ناشزًا. جمد تشارلي في مكانه.

«لقد انطفأت المحرّكات».

انفضّ عنها واعتدل جالسًا، وسمعت إيسمي أصواتًا مكتومة من الممرّ، وانفتاح باب.

«لعلّها تعطّلت»، قالت إيسمي: «وسيستغرق إصلاحها أياما، فنحظى بعدّة ليالٍ أخرى معًا. يبدو هذا باعثًا على الغبطة بالأحرى، أليس كذلك؟»

«يا عنزتي الصّغيرة»، قال تشارلي بحنان، كان ذلك هو اللّقب الّذي أطلقه عليها حين تبادلا قبلتهما الأولى: «أنت لا تودّين الذّهاب إلى المنزل، صحيح؟»

هزّت إيسمي رأسها. كان التّفكير في المنزل، وما يعنيه، يجلب معه يأسًا مستبدًّا. لم تثق بقدرتها على الكلام دون أن تبكي.

اقترب وقع أقدام مستعجل ثمّ تلاشى بالتّدريج. مرّ شخص آخر بالاتجاه المعاكس، متحدّثًا بسرعة. ظنّت إيسمي أنّها ميّزت صوت السيّد ترامبل، المضيف، إلّا أنّها لم تستطع تبيّن ما يقوله. انسلّ تشارلي من السّرير وارتدى سرواله وقميصه التّحتيّين.

«أتظنّ الأمر خطيرًا؟»، سألته إيسمي.

«كلّا بالطّبع»، قال تشارلي، لكن ليس بطريقة مطمئنة: «من الأفضل أن ترتدي ثيابك أنت أيضا. مع كلّ هذه الجلبة، ستزداد صعوبة وصولك إلى غرفتك دون أن يراك أحد».

بمساعدة تشارلي، استطاعت أن تبلغ بنفسها إلى نصف احتشام. أخذ ثوب السّهرة الّذي اشترته من باريس يلمع في ضوء المصباح، لكن لم يكن ثمّة وقت لتصفيف شعرها كما يليق، لذا ردّته فوق أحد كتفيها. ففكّت سوارًا من

الماس والمخمل عن معصمها، وعقدته حول شعرها عند مؤخّر عنقها بحيث لا يرتخي. ثمّ، بعد أن استرق تشارلي النّظر إلى الخارج وأعلن أنّ الطّريق سالكة، تسلّلت إيسمي عبر الرّدهة ثمّ على الدّرج إلى زوجها.

كانت إيسمي قد اعتزمت أن تكون زوجة طيّبة. ذلك هو الوضع الّذي رُبِّيَت وهُيِّئَت من أجله، عمل حياتها. لن تصبح أثرى فتيات مجتمع فيلادلفيا أو أجملهنّ أبدًا، فهي لم تمتلك عينين نيّرتين وأهدابًا مثل فيث هودجز، الّتي كانت تجلس بفتور في الحفلات بينما يحوّم الفتيان حولها. لكنّ إيسمي كانت ورديّة الخدّين ومفعمة بالحيويّة، قادرة على التّحدّث مع أيّ شخص وجعله يشعر بالإطراء من اهتمامها.

إيسمي، كما اتّفق الجميع، كانت مرحة؛ يزيد إشراق الحفلات والمشاوير حين تكون موجودة. وكذلك كانت حيّة الضّمير في واجباتها: صمدت طيلة دروس الفرنسيّة برفقة المدام غيلدو الصّارمة، وتعلّمت عزف البيانو بمهارة تكفي للتّرفيه عن أصدقاء أبيها بعد العشاء، بيد أنّها انتقلت من الطّفولة إلى الرّشد بتعليم ضئيل في ما يتعلّق بالنّواحي العمليّة لحياة الزّوجة. ولم تكن والدة إيسمي- الّتي ماتت حين كانت ابنتها في السّادسة- أكثر من ذكرى واهية لتنانير ذات حفيف وروائح أدوية. نشأت إيسمي وهي تعرف كيف تدير منزلًا، لكن ليس كيف تدير زواجًا، إذ لم يحدث لها أن رأت زواجًا ناجحًا عن كثب.

تبعت دخولَ إيسمي الحياة الاجتماعيّة دوّامةٌ لذيذة من الحفلات وزيارات الآيس كريم. وكانت إيسمي تستمتع أيّما استمتاع، لكنّ بصرها لم يزغ يومًا عن هدفها الجوهريّ. فهمت من تلميحات أبيها المبطّنة عن الصّعوبات في المصنع أنّ من الأفضل لها الزّواج عاجلًا- وزيجة جيّدة. وخلال أشهر قليلة، كان رأيها قد استقرّ على مرشّحين اثنين. ثيودور بيتس كان أكبر أبناء عمدة

سابق، وجزءًا من عائلة سياسيّة كريمة المحتد. وبسبب لعنة التّأتأة لم يكن سيسير على خطى أسلافه، إلّا أنّ إيسمي وجدت خُرقَه محبّبًا، ولطالما أبدى ثيو امتنانه حين تتوقّف للحديث معه أو حين تتابع المحادثة رغم تلكّئه بأكثر من نصف كلماته. كان طويلًا ونحيلًا، وقد سمعت بضع فتيات يسمّينه مازحات «الفز- فز- فزّاعة»، لكنّ إيسمي شعرت أنّه سيكون شديد الإخلاص للزّوجة الّتي تتقبّل نقائصه، حاله في ذلك حال عائلته.

ثمّ هناك جون موس. جون كان العمود الفقريّ لكلّ حفلة، ضحكته ترنّ فوق ضجيج الأحاديث. ومثل إيسمي، كان جون مرحًا. يقرع الألحان على البيانو لينعش وجبات الغداء الثّقيلة، ويرتّب نزهات إلى الرّيف- مع دوارق فضّيّة تُمرّر سرًّا بين الرّجال، وذات مرّة أقام جلسة تحضير أرواح أقسم أنّه تحدّث خلالها مع روح جدّته الميتة.

كان جون هو من سحب إيسمي إلى خلف شجرة خلال نزهة جمع بيض في عيد الفصح وقبّلها، بينما تطوّق يداه الثّابتتان خصرها. بعد ذلك، ابتسم ووضع أصابعه على شفتيه. وحقيقةُ أنّه لم يعلن لها حبّه، أو يذهب إلى أبيها ليطلب يدها للزّواج، أمر كان ينبغي أن تستاء إيسمي منه. لكنّها لم تفعل، وما كان من شأن الدّراية بتلك القبلة السّرّيّة- والتّلميح إليها لاحقًا بغمزات ونظرات طويلة دون نقاشها أبدًا- إلّا أن تزيد جاذبيّة جون. ورغم أنّ انعدام ثقافتها في ما يخصّ العلاقات بين الرّجال والنّساء كان محزنًا، شعرت أنّه يجدر باندفاع جون الجريء أن يجعلها يقظة، وأنّ تلك لم تكن صفة مرغوبة في زوج، لكنّ المستقبل الّذي لا يمكن التّنبّؤ به معه كان يغريها.

وفي حين كانت لا تزال تقلّب رأيها بين ثيو وجون- بين الطّيبة والمرح- قام والد إيسمي بدعوة السّيّد هاربر إلى العشاء. كان قد سبق لها أن تحدّثت معه بإيجاز في مناسبة أو أخرى، وسمعت عن ماضيه المأساويّ: وفاة زوجته وابنته الرّضيعة بعد سنة فقط على زواجه، وإخلاصه لذكراهما الّذي أبقاه أرمل. غير

أنّه لم يكن من المألوف لدى والدها أن يدعو أحد معارفه من العمل إلى العشاء في المنزل؛ إذ كان يتعشّى معهم في ناديه عادةً. أخبر الأبُ إيسمي أنّ السّيّد هاربر، رئيس مصرف كيستون الوطنيّ، كان قد وافق على منح قرض لمصنعه، ولذا جاء العشاء تعبيرًا عن الشّكر. وافقت إيسمي بحماسة على القيام بدور المضيفة، فوضعت قائمة الضّيوف الصّغيرة، وصاغت لائحة الأطعمة برفقة طبّاخة العائلة، كما نسّقت الأزهار على الطّاولة بنفسها.

حين وصل السّيّد هاربر، كانت إيسمي عند الباب للتّرحيب به.

«كم يسرّني أن أراك من جديد»، قالت بابتسامة مشرقة. كانت ترتدي الثّوب الأخضر الزّمرّديّ الّذي يوقد عينيها، وبدا أنّ الانطباع الّذي أضفاه ذلك أبهر السّيّد هاربر.

«آنسة سوليفان»، قال وهو ينحني انحناءةً رسميّة.

«تفضّل، تفضّل»، استحثّته وهي تلوّح لنورا، الخادمة، كي تأخذ معطفه: «سنبدأ أمسيتنا في الصّالون الأماميّ، من هنا. لقد وصل السّيّد والسّيّدة إيرز. سنكون حفلًا صغيرًا لكنّه سارّ كما أتمنّى».

بدا السّيّد هاربر كما لو كان لم يحظَ بوقت ممتع منذ قرن. قدّم لإيسمي ابتسامة شاحبة، وعضلات شدقيه متوتّرة من الجهد. شعرت إيسمي بالأسف من أجله، بالطّريقة العامّة الّتي تتأسّف فيها من أجل أيّ شخص عانى مأساة، لكنّها لم تستطع إلّا أن تحسّ بالسّخط أيضا. كان بوسعه بذل بعض الجهد، أليس كذلك؟ يمكنه أن يكون وسيمًا حتّى، بطريقة مرموقة، لو لم تكن تعابيره بهذا البؤس والتّهدّل. لقد سبق لها أن رأت تماثيل فيها من الحيويّة أكثر ممّا في السّيّد هاربر.

جعلتها الفكرة تبتسم.

«هل أنا مثير للضّحك يا آنسة سوليفان؟»

«على الإطلاق»، قالت إيسمي بطريقة البنات، أمالت رأسها إلى الجانب لتضفي انطباعًا لعوبًا: «لديّ عادة مريعة في الابتسام دون أيّ سبب».

«السّجيّة البهيجة هِبة نادرة»، قال السّيّد هاربر برسميّة لا تتزحزح.

انتظرت إيسمي التّعليق المهذّب التّالي: يقول لي والدك... أو، حين كنت في سنّك... لكنّ فم السّيّد هاربر كان قد عاد إلى عبوسه الجزئيّ. شعرت إيسمي بشفقة صادقة عليه. كم هو شديد الوحدة، إن كان بالكاد يستطيع المبادرة بهذا القدر من الحديث!

رغم تحفّظ السّيّد هاربر، سار العشاء بسلاسة، وكان الفضل يعود بمعظمه إلى السّيّدة إيرز، المهذارة الّتي لا تسمح لهمودٍ أن يستتبّ أبدًا. وبانتهائهم من تناول الحلوى، حثّ الأب إيسمي على عزف البيانو لضيوفهما، العرض الّذي رفضته بخجل.

انحنى الأب نحو السّيّد هاربر معلّقًا: «علينا أن نحترس مع فتيات هذا العصر كما تعلم، فهنّ يفضّلن عزف الرّاغتايم[1] على عزف شوبان».

«أخشى أنّني لا آلف الموسيقى الحديثة»، قال السّيّد هاربر.

«خذ عزيزتي إيسمي مثلًا»، تابع وهو يرمق ابنته من طرف عينه بنظرة عابثة: «سأكون أول من يعترف بأنّها مستهترة، لا تكفّ عن الثّرثرة حول الرّقصات وآخر صيحات الموضة».

«أبي!»، امتعضت إيسمي، لكن فقط لأنّها رأت أنّ ذلك هو ما يليق فعله، لا لأنّها شعرت بإساءة حقيقيّة.

---

(١) Ragtime: نمط موسيقيّ ذاع لدى الأمريكيّين من أصول إفريقيّة، وبلغ أوجه بين عامي ١٨٩٥ و١٩١٩، تكمن ميزته الأساسيّة والّتي منها جاء اسمه في إيقاعه الخارج عن الأزمنة الموسيقيّة المألوفة، ولديه الكثير من القواسم المشتركة مع موسيقى الجاز الشّهيرة. (المترجم)

«قد يقول البعض إنّني لم أكن صارمًا كفاية معها، لكنّ أكثر ما أفتخر به من بين إنجازاتي هو أنّني ربّيت ابنة سعيدة. لم تكن دائمًا هانئة البال هكذا، فقد كانت وفاة زوجتي محنة لنا كلينا. سيّد هاربر، أنت تعرف معنى أن يعاني المرء فقدان رفيق عزيز...»

بدا وجه السّيّد هاربر قد ازداد تهدّلًا، إذ غار شنبه مغطّيًا فمه العابس. نظرت إيسمي إلى كأس أبيها الفارغة من نبيذ الشّيري، والمِصفَق[1] الفارغ قربها، فتساءلت كم عساه قد شرب.

«لقد حُرمت إيسمي من حبّ الأمّ وعونها، ومع ذلك نضجت إلى امرأة شابّة عظيمة الرّوح المعنويّة. إنّها بهجة حياتي، ويومًا ما- كما آمل- ستجلب بهجة مماثلة لزوجها المستقبليّ».

وجّه الأب نظرة ذات مغزى إلى إيسمي، فرمقت تعبير السّيّد هاربر الخشبيّ الخَفِر، وسرت الحرارة في وجهها. إذًا فهذا هو السّبب الّذي دُعي السّيّد هاربر من أجله إلى العشاء. كانت لتفرغ حنقها على مكائد أبيها لولا شعور ضيف الشّرف الواضح بالخزي، فقد كان هو أيضا ضحيّة كحالها تمامًا، وبرّد إدراكُها ذلك غضبَها.

بسهولة وليدةِ تدريب، استحضرت إيسمي تعبيرًا يوحي بلامبالاة مرحة: «لديّ الكثير ممّا أتعلّمه قبل أن أصبح جاهزة للزّواج. سيّدة إيرز، ما هي الصّفات المثاليّة للزّوجة برأيك؟»

وكما تمنّت، انخرطت السّيّدة إيرز في نقاش موسّع حول الواجب والتّضحية بالذّات، ترافقها من آن إلى آخر إيماءة أو نخير من السّيّد إيرز المضطهَد. كانت إيسمي لتودّ كثيرًا أن تسمع آراءه هو بالموضوع، وخمّنت أنّه قد يثمّن

(١) المصفق: إناء توضع فيه السّوائل الّتي قد تحتوي على رواسب (مثل النّبيذ)، يعادل حجمه حجم زجاجة نبيذ قياسيّة غير أنّه مزوّد بسدادة خاصّة لها صمام. (المترجم)

البَكَم أكثر من أيّ صفة أخرى، فخنقت ضحكتها. حين أدركت أنّ السّيّد هاربر كان قد انتبه إلى تفكُّهِها وبدا قريبًا جدًّا من أن يفلت ابتسامة هو الآخر، أشاحت بوجهها المتورّد.

بعد ذلك، التفت الرّجال إلى خمرهم وسجائرهم، وانسحبت إيسمي إلى غرفة الجلوس برفقة السّيّدة إيرز. كان غضبها على تطفّل أبيها قد برد، فهو متخوّف على مستقبلها لا أكثر، وبما أنّها شارفت على بلوغ العشرين، فالزّواج هو الخطوة المنطقيّة التّالية. غدًا ستخبره عن ثيو وجون، وسيسرّه سماع أنّ لديها خاطبَيْن مرشّحين، وسيتوصّلان معًا إلى الخيار الأنسب من بينهما.

«فاجأني أن أرى هيرام هنا هذا المساء»، قالت السّيّدة إيرز وهي تستقرّ بجانب إيسمي على الأريكة: «فهو يعتذر عن معظم الدّعوات».

«وأنا أيضا فوجئت مثلك»، قالت إيسمي: «لا أظنّ أنّني سبق ووجّهت إليه أكثر من كلمتين».

«هيّئي نفسك كي توجّهي إليه أكثر من ذلك!»، أفلتت السّيّدة إيرز ضحكة حادّة: «فقد فُتِن بك تمامًا».

– «لا أرى ذلك، لقد بدا بائسًا معظم الأمسية».

– «أوه، هذه حالة هيرام الطّبيعيّة. لم تري كيف كان يحدّق إليك، بينما كان انتباهك في مكان آخر».

أطرقت إيسمي برأسها احتشامًا، متظاهرةً بالإحراج، لكنّها كانت تريد في نفسها أن تعرف كلّ شيء عن الطّريقة الّتي نظر هيرام هاربر بها إليها.

«إنّه لقطة جيّدة»، تابعت السّيّدة إيرز: «منزل ضخم، وضع ميسور جدًّا. لقد ورث كلّ شيء حين مات والده قبل بضع سنوات. قد يبدو لك رجلًا مسنًّا

كالحًا، إلّا أنّه كان يُعدّ شديد الوسامة في زمانه. بيني وبينك، كنت مفتونة جدًّا به! ذلك قبل أن ألتقي السّيّد إيرز بالطّبع».

رغم ابتسامة السّيّدة إيرز المعتدّة بنفسها، كان بوسع إيسمي أن تفهم من عينَي المرأة أنّ جزءًا منها سيظلّ يرى السّيّد هاربر على أنّه الشّابّ الوسيم الّذي كانه ذات زمان، في صباهما.

«ما من تفاهم بيني وبين السّيّد هاربر»، قالت إيسمي: «أنا بالكاد أعرفه».

«هذا سيتغيّر، إن كان للأمر أيّ علاقة به هو!»، قالت السّيّدة إيرز تعابثها: «لا تصري في النّظر عنه دون تفكير، فهو مطمح للكثير من الفتيات».

أثارت نظرة السّيّدة إيرز إلى السّيّد هاربر اهتمامَ إيسمي، إذ لطالما كانت لا تجد ما يحرّك إعجابها أكثر من إعجابٍ آخر. وحين أرسل السّيّد هاربر بطاقة في اليوم التّالي يشكر فيها إيسمي ووالدها على العشاء ويدعوها إلى منزل أخته السّبت القادم، أرسلت موافقتها في الصّباح التّالي ورشّت على بطاقتها نفحة من عطرها.

كان السّيّد هاربر مهذّبًا على نحو رسميّ خلال زيارة إيسمي الّتي امتدّت ساعة، وليس أبدًا من نوع الرّجال الّذي قد تتخيّله يخطف قبلة خلف شجرة. غير أنّ أخته بدت سعيدة بانضمام إيسمي إليهما، وكان أطفالها يظهرون مودّة ساحرة مع خالهم هيرام. كان آل هاربر في الحقيقة لطيفي المعشر إلى درجة أن ألِفت إيسمي نفسها توافق على خطط مستقبليّة- أمسية في المسرح، غداء في منزل أنسباء أخته الرّيفيّ، وكلّما قضت وقتًا أكبر مع السّيّد هاربر كان إعجابها بالمرشّحَين الآخرين ينقص.

بدأت محاولات ثيو المتوتّرة لفتح الأحاديث- والّتي كانت ساحرة للغاية في السّابق- تصبح مضجرة، وطرائف جون كانت خليقة بولد مفرط في النّموّ لا برجل.

لم يكن لدى السّيّد هاربر موهبة في الرّومنسيّة ولا اهتمام بها، ومع ذلك وجدت إيسمي اعتداله جذّابًا بشكل متزايد.

كان السّيّد هاربر يتصرّف كما يليق بالزّوج، بثقة كبيرة، كما كان حريصًا على ماله، وبذلك ما كان شيء ليعوزه. لم تكن الثّروة أولى مشاغل إيسمي- فما كانت لتتزوّج شخصًا لا يروق لها لمجرّد كونه غنيًّا- غير أنّها أرادت مستقبلًا مؤمّنًا بالفعل. وبصفة السّيّدة هاربر، كان سيتسنّى لها الذّهاب في رحلات إلى نيويورك وأوروبا، وشراء الملابس الّتي تريدها دون تحمّل المحاضرات. كونها امرأة متزوّجة، ستستطيع الذّهاب إلى المطاعم وطلب الشّامبانيا والفرار من قواعد منزل أبيها المسفّهة.

وبذلك حين دعا السّيّد هاربر إيسمي إلى جولة في سيّارته الفورد الجديدة- وسمح لها والدها بالذّهاب دون مرافقة- فهمت معنى الأمر، فارتدت معطفها الخارجيّ وثبّتت أكبر قبّعاتها بالدّبابيس على شعرها المسرّح إلى الأعلى، ورتّبت قماشًا شبكيًّا بشكل ينمّ عن ذوق رفيع ليحيط بعينيها على نحو ممتاز ويحمي وجهها من الغبار.

صحبها السّيّد هاربر إلى السّيّارة وانخرط في وصف جدّيّ للمحرّك وطريقة عمله وما يجعله أفضل من محرّك آخر ما- دون أن تفهم من كلامه إلّا القليل. وبينما مضت السّيّارة بهما، بذلت إيسمي قصارى جهدها لتبدو مفتونة، لكنّ لطفها الطّبيعيّ امتُحن من قبل تجنُّب السّيّد هاربر للموضوع المهمّ الوحيد. أتراها أخطأت التّقدير؟ هل سيبقى وفيًّا لزوجته الميتة إلى الأبد؟

في نهاية المطاف، أوقف السّيّد هاربر سيّارته قرب حديقة. كانا في ناحية من البلدة لا تألفها إيسمي، منطقة سكنيّة هادئة بدت مهجورة تقريبًا في أصيلٍ من أول نوفمبر، وكانا وحدهما.

«آنسة سوليفان، يجب أن أحدّثك في أمر شديد الأهمّيّة».

خفق قلب إيسمي، لكنّها حافظت على هدوء تعابيرها. اصطنعي المفاجأة، قالت لنفسها.

«لقد بتّ أكنّ مشاعر نحوك»، قال السّيّد هاربر كلماته في نبرة رتيبة متعجّلة؛ كما لو يخاطب مدراء مصرفه في اجتماع: «لسنوات عديدة، ظللت قانعًا تمامًا بعزلتي، إلّا أنّني أصبحت أفكّر مؤخّرًا في إحداث تغيير بظروفي».

كبحت إيسمي قهقهتها، هذا مختلف تمامًا عن التّصريح اللّاهب بالحبّ الّذي لطالما تخيّلته.

كان جون موس ليجثو على ركبتيه بحلول هذا الوقت، ويستحضر دموعًا دراميّة. لكنّها وجدت أنّها لا تمانع أداء السّيّد هاربر الرّسميّ المتصلّب، إذ بدا صادقًا وحقيقيًّا.

«أملي قليل في أن تأخذني امرأةٌ شابّةٌ لها فتنتك بعين الاعتبار كزوج مثاليّ، غير أنّني أعدك حقًّا أن أكرّس نفسي بالكامل لسعادتك، إن تكرّمتِ وفكّرتِ في عرضي...»

«أيّ عرض؟»، سألت إيسمي مدّعيةً الارتباك.

- «أنا... آه، أقصد أن أقول، سيكون شرفًا عظيمًا لي أن...»

- «هل تطلب الزّواج منّي؟»

تركت دهشة السّيّد هاربر من فظاظتها مكانها للشّعور بالانفراج من أنّها قالت ذلك: «أجل، بأكبر تلعثم ممكن».

نظرت إيسمي إلى السّيّد هاربر، عريسها المحتمل، رجل لم يسبق لها أن خاطبته باسمه الأوّل. رأت خطوط الشّيب في فودَيه، وتجاعيد البشرة تحت عينيه اليقظتين.

كان لملامحه عمومًا هالة حِداد، من انحناء فمه الطّبيعيّ نحو الأسفل إلى الانخفاض الطّفيف في كتفيه. وجدت نفسها ترغب في جعله سعيدًا أكثر من أيّ شيء آخر.

قالت ببساطة: «بالطّبع سأفعل»، والبهجة الّتي أضاءت وجهه أخمدت كلّ شكوك عالقة.

قال: «لقد جعلتِني أسعد الرّجال».

«ليس شيئًا ذا بال، ألا تعلم أنّه يفترض بك أن تقبّلني؟»

مالت إيسمي إلى الأمام وقدّمت شفتيها؛ فتردّد السّيّد هاربر للحظة، ثمّ ضغط بفمه على خدّها، لثمةً من النّوع الّذي اعتاد والدها أن يمنحه لها عند وقت النّوم.

ضحكت إيسمي، ونظر السّيّد هاربر إليها في حبور حائر.

«أظنّ أنّ بوسعي مناداتك هيرام الآن»، كرّرت الاسم بتمهّل وتوكيد متعمَّدَين: «هيرام... يا له من اسم بارز».

«إيسمي»، بدا أنّ النّطق بالاسم يكاد يربكه: «إيسمي، فتاتي العزيزة».

كانت تلك نفس صيغة التّحبّب الّتي يستخدمها والدها، ممّا جعلها ترغب بالضّحك من جديد، لكنّها كظمت شعورها. ضمّ يدها بيده، فقرّبت جسدها منه، حتّى التصقت بوركه وساقه الصّلبين.

«حين نتزوّج، هل ستسمح لي بقيادة السّيّارة؟»، سألته.

بدا مرتبكًا من فكرة وجود امرأة خلف المقود، فهصرت أصابعه لتريه أنّها كانت تشاكسه. أصابتها جسامة ما حدث للتّوّ بالدّوار، وتمنّت لو لم يكونا في

رقعة منعزلة كهذه. أرادت أن تنشر الخبر مثل منادي بلدة: سأتزوّج هيرام هاربر وأعيش في تبات ونبات!

لم تتوقّع إيسمي أن يجيء النّدم بهذه السّرعة. كانت خطوبتها الّتي امتدّت شهرين غباشةً من الحفلات وعناقات التّهنئة، وإيسمي تنمو وتزدهر في مركز العاصفة.

راحت تتباهى بهيرام كما لو كان قطعة مجوهرات جديدة، فتناديه «عزيزي الكبير» أو «الرّجل الأعذب». كان لها أن تخمّن تفاجؤَ أصدقائها من أن يقرّ قرار شخص مثلها على شخص مثله، بيد أنّ لِدات[1] والدها- الّذين مرّت حظوظهم بتعرّجات وتقلّبات- كانوا متحمّسين لقران يجمع بين الحماسة الشّابّة والحسّ المهنيّ العمليّ.

«لطالما كانت عنيدة طائشة»، سمعت إيسمي والدها يُسرّ إلى أحد أصدقائه ذات ليلة على كأسين من الويسكي: «سيكون من الجيّد لها أن تتزوّج من رجل يعرف إمكانيّاته. ستبقيه واقفًا على رؤوس أصابعه كذلك، صحيح؟»

خلال واحدة من وجبات عشاء احتفاليّة عديدة، أخبرت السّيّدةُ إيرز إيسمي أنّها مسرورة إلى أبعد حدّ: «هيرام وحيد منذ وقت طويل للغاية»، قالت: «إنّني أخبره بذلك منذ سنوات».

قاومت إيسمي إغراء مزحة حول أنّ هيرام لم يتقدّم للزّواج إلّا كي يتجنّب المزيد من محاضرات السّيّدة إيرز، من الأفضل أن تبتسم بعذوبة وتتحمّل نصحها عن التزامات العروس الجديدة الاجتماعيّة. راحت إيسمي تصغي

(١) لِدة الشّخص: من يماثله في السّنّ، ودرجت العرب على استخدام «لِدات» للذّكور و«أتراب» للإناث. (المترجم)

بفتور، واثقة أنّها لن تحتاج جهدًا كبيرًا لإنجاح زيجتها، فما دامت تبقي هيرام سعيدًا سيكون بوسعها أن تفعل ما يحلو لها.

أقام هيرام وإيسمي زفافهما في عيد الميلاد، وعُلّقت أكاليل نبات البهشيّة على مقاعد الكنيسة وانتهت المراسم بترنيمة «على الأرض السّلام وبالنّاس المسرّة». كانا قد حجزا لشهر عسل مؤجّل في أوروبا، إذ لم يرغبا بعبور الأطلسيّ شتاءً، لذا قضيا أيامهما الأولى كزوج وزوجة في بيت إجازات آل إيرز في باكس كاونتي. سيكون ثمّة مدبّرة منزليّة تهتمّ بوجباتهما، لكنّهما سينفردان بنفسيهما في ما خلا ذلك «ليتعارفا»، وفقًا لتعبير السّيّدة إيرز. كانت إيسمي قلقة بعض الشّيء حيال ماهيّة الطّرق الّتي سيتعارفان بواسطتها بالضّبط، وأبدت السّيّدة إيرز تفهّمًا منقطع النّظير لمخاوف إيسمي.

قالت: «ما من شيء تخشينه، كوني ممتنّة لزواجك من رجل لديه خبرة. فالأزواج الجدد الشّبّان الّذين لا يمتلكون إلمامًا بمسائل حميميّة كهذه يكون وقتهم أكثر امتلاءً بها بكثير».

وللحظة مخزية قصيرة، ظنّت إيسمي أنّ السّيّدة إيرز على وشك أن تصف لها ليلة زفافها. لكن لحسن الحظّ، كانت المرأة أكثر اهتمامًا بالوعظ ممّا بالاستغراق في الذّكريات.

«افعلي ما يقوله هيرام لك، وبمرح. فهو معجب بحيويّتك كما تعلمين».

«كنت أتساءل...»، لم تكن إيسمي قد خطّطت أن تكشف عن أعمق مخاوفها، لكنّ السّيّدة إيرز كانت الشّخص الوحيد الّذي بوسعه تهدئة بالها: «إذا ما كان السّيّد هاربر سيجد الأمر صعبًا، إذ ربّما تُحرّك علاقتُنا كزوج وزوجته ذكرياتٍ تخصّ السّيّدة هاربر الأولى».

«لا تكوني سخيفة!»، أنّبتها السّيّدة إيرز: «لقد كانت نيلي امرأة في غاية العذوبة، لكنّها خجولة إلى درجة أنّها بالكاد تستطيع صياغة جملتين معًا! أنت أفضل لهيرام بكثير».

كثيرًا ما كانت إيسمي تتساءل حول زوجة هيرام الأولى، الّتي لم يتحدّث عنها قطّ، واعتراها شعور أنانيّ بالرّضى من معرفتها أنّ المرأة كانت تبعث على الضّجر. وبعد وصف ضبابيّ لما يحدث حقًّا في سرير الزّوجيّة، أكّدت السّيّدة إيرز لإيسمي أنّ امتلاك زوج أكبر سنًّا أمر إيجابيّ في ما يتعلّق بهذا، لأن إلحاحه على حقوقه سيكون أقلّ تكرارًا بكثير من إلحاح رجل في سنّها، وذلك- كما لمّحت السّيّدة إيرز- نعمة.

وعلى كلّ حال، كانت إيسمي منهكة بحلول ليلة زفافها إلى حدّ لم تستطع معه استحضار الطّاقة اللّازمة للتّوتّر. قدّمت مدبّرة المنزل صينيّات من السّمك المشويّ والبطاطا في صالون الطّابق العلويّ قبل أن تفرّغ صندوق إيسمي في غرفة النّوم المجاورة.

كان جهاز عرس إيسمي كمّيّة كبيرة من الحرير والسّاتان؛ أصرّ هيرام أن يدفع تكاليفه ووعد بالمزيد من الإضافات إلى خزانة ثيابها حين يذهبان إلى باريس في الرّبيع.

لم تكن إيسمي متأكّدة من الكيفيّة الّتي يفترض أن تسير الأمسية بها. أيجدر بها أن تختفي داخل غرفة الملابس وتقوم بدخول دراميّ في ثوبها المزيّن بالرّيش؟ تذكّرت نصيحة السّيّدة إيرز وقرّرت ألّا تفعل أيّ شيء قبل أن يقول لها هيرام ذلك. عندما قال إنّه يحبّ أن يقرأ قبل الخلود إلى النّوم، أخذت تقلّب صفحات العدد الأخير من مجلّة ماكول حتّى قال إنّ الوقت قد حان ليستعدّا للنّوم.

«أأساعدك بفستانك؟»، سأل هيرام بعد أن تبعته إيسمي إلى غرفة النّوم.

كان لفستان إيسمي المعدّ للخروج صفّ من الأزرار اللّؤلؤيّة على الظّهر؛ فما كان بمقدورها أن تنضوه بنفسها. وقد افترضت أنّ مدبّرة المنزل ستساعدها، كما كانت الخادمة نورا تفعل في المنزل.

«أوه، أجل»، أجابت إيسمي: «شكرًا لك».

ظنّت أنّه سيكون من المحرج أن تخلع ثيابها أمام هيرام، لكن تبيّن أنّ الأمر سهل على غير المتوقّع. كان يألف الملابس النّسائيّة؛ يعرف أين تتصّل كلّ قطعة بالأخرى وكيف يحلّ كلًّا منها. لم يمضِ وقت طويل قبل أن تتجرّد إيسمي من كلّ شيء عدا قميصها الدّاخليّ الشّفّاف وجوربيها.

«أنت جميلة جدًّا»، قال هيرام. لم يكن مرتبكًا، ولا منتشيًا، بل كان يصرّح بحقيقة طبيعيّة.

بدا تورّد الخدّين والاحتجاجات المعتادة الّتي كانت تصدر عن إيسمي كلّما وُجِّه إليها إطراء أمرًا غير لائق، لذا اكتفت بالابتسام. نزع هيرام سترته وبنطاله وقميصه، وكان يضع كلّ قطعة بمنهجيّة على ظهر كرسيّ بذراعين قبل أن ينضو التّالية.

وأخذت إيسمي تُنزل جوربيها، مماطلةً بالعمليّة كي تبقي نفسها منشغلة.

رغم النّار المتّقدة بشكل حسن، كانت غرفة النّوم لا تزال باردة، وارتجفت إيسمي وهي تندسّ تحت الأغطية. بدا طبيعيًّا- على غير المتوقّع- أن يربض هيرام بجانبها، وكان لدفء يديه أثر مهدّئ فوق بشرتها المقشعرّة. كان هيرام حضورًا أكثر من كونه شخصًا، وجهه ظليل وجسده مستتر بلحاف السّرير. حين باعد بين ساقيها وبدأ يدفع، أخذت تلهث، ليس من الألم بل من الدّهشة المرتبكة. إذًا هذا هو الشّعور؟

توقّف هيرام: «هل آلمتك؟»

«أوه، لا»، تمتمت إيسمي، كما لو أنّها تطمئن شريكًا في الرّقص داس على أصابع قدمها: «ما هو إلّا... إحساس غريب إلى حدّ ما».

شعرت إيسمي بابتسامة هيرام أكثر من أنّها رأتها: «ستقلّ غرابته مع الوقت، كما آمل».

مالت إيسمي نحو جبهته ومنحتها قبلة: «يمكنك أن تتابع يا سيّدي، سأكون هادئة مثل فأرة».

«كلّا، أرجوكِ»، همس هيرام، ثمّ أكمل ما كان قد بدأه، ولمّا قهقهت إيسمي لم تبدُ عليه الممانعة.

كما كانت السّيّدة إيرز قد أكّدت، عادت إيسمي وهيرام إلى فيلادلفيا أكثر ألفة في ما بينهما. وسُرّت إيسمي لاكتشافها أنّ زوجها الجديد لم يكن يشبه والدها بشيء في مزاجه الّذي لا يمكن التّنبّؤ به وقلقه المستمرّ حيال المال. كان هيرام كريمًا وهادئًا، وبدا بالفعل ينفض عن نفسه شيئًا من كآبته الطّبيعيّة، بيد أنّها كانت قلقة قليلًا من قدرته على تناول الوجبات دون أن يدور بينهما أيّ حديث تقريبًا. أحبّت منزل هيرام الشّاسع والسّرير الشّاسع الّذي تشاركاه في غرفة نومهما الشّاسعة، لكنّه بعد كلّ هذا الوقت بمفرده، كان قد ترسّخ على عاداته، فانتُظر من إيسمي أن تتأقلم مع ما يفضّله.

الصّدمة الكبرى جاءت حين خرجت من عزلة زيجتها الجديدة لتعاود الانخراط في المجتمع. بصفتها السّيّدة هيرام هاربر، كان يُتوقَّع من إيسمي أن تكون محتشمة ومتحفّظة: لا مزيد من الضّحك الشّقيّ مع أصدقائها في الحفلات، لا مزيد من الرّقص مع رجال عُزّاب. مع كلّ مزحة بليدة يتمّ تبادلها على وجبات العشاء الرّزينة وجلسات الشّاي الصّباحيّة، كانت حيويّة إيسمي الطّبيعيّة تذوي. حين اختلطت بالمدعوّين في حفل خطوبة ثيو بيتس، الّذي استطاع أن يفتن وريثة من أوهايو، واجهت إيسمي معضلة جديدة تمامًا عليها: للمرّة الأولى، لم تستطع أن تفكّر في شيء مثير للاهتمام تقوله، فاعتقدت أنّها حالما تُرزق بأطفال ستصبح واحدة من أولئك النّسوة اللّاتي لا يتحدّثن في

أيّ شيء آخر. كانت أساسًا أكبر سنًّا من صديقات أسّسن عائلات، غير أنّ إيسمي لم تكن جاهزة تمامًا للانسحاب إلى الأمومة، ليس بعد.

«أخبرتني والدتك أنّكما ستنطلقان إلى نيويورك من أجل شهر عسلكما»، قالت إيسمي لثيو وعروسته المستقبليّة، كأن لم يسبق لها أن سمعت أخبارًا مثيرة كهذه. بالكاد كان ثيو يلقي انتباهًا إلى المرأة التّي بجانبه- ممّا أشبع رضى إيسمي عن ذاتها، وكان شعورًا لذيذًا أن تعرف أنّها لا تزال قادرة على أسر انتباهه متى أرادت.

«سننزل في فندق والدورف استوريا»، قالت خطيبة ثيو: «سمعت أنّه فخم للغاية».

«أنا واثقة أنّكما ستحظيان بوقت جميل»، قالت إيسمي: «أنا وهيرام سنكون في نيويورك قريبًا كذلك، سنبحر إلى فرنسا في مارس».

أومى ثيو مستحسنًا: «را.. را.. رائع، كم سيكون وقتًا مبهجًا».

«سأبذل ما بوسعي لأبهج السّيّد هاربر، لكنّها لن تكون مهمّة سهلة».

ضحكوا جميعًا، ولو أنّ إيسمي شعرت بوخزة قلّة وفاء في سخريتها من هيرام، فقد كان الأمر يستحقّ.

وفيما هي تنعم بإعجاب ثيو، أخذت تصف أسفارها المستقبليّة بحماسة لم تشعر بها منذ دهور، ستحظى هي وهيرام بوقت مبهج بالفعل. كان قد تسنّى لهما التّعرّف إلى عائلات تتمتّع بصلات قويّة في باريس ولندن، وكانت ستعود إلى المنزل بصندوق مليء بأحدث صيحات الموضة الفرنسيّة. وبالاستعانة بما يكفي من الطّعام والنّبيذ الجيّدين، قد يخفّ تحفّظ هيرام، ويُتاح لها أن تستمتع بوقتها.

حين نظرت إيسمي إلى وجه ثيو، وكان فمه متدلّيًا مثل فم طفل، علمت أنّها اتّخذت القرار الصّائب. لم تستطع أن تتخيّل ثيو يرشدها في أنحاء أوروبا، ويلقي أوامره على الحمّالين ومساعدي المتاجر بأسلوب هيرام المتّزن الجليل. كانت محقّة في زواجها من هيرام، وإذا كانت وقائع الزّواج قد أفقدتها توازنها، فشهر العسل كفيل بإعادة الأمور إلى نصابها. لكنّه بدلًا من ذلك، سينهي زواجها.

بعد رحلة قصيرة إلى بياريتز[1]، أمضت إيسمي وهيرام النّصف الثّاني من مارس في باريس. لم يشحب هيرام أمام فواتير الأثواب والأحذية الّتي وصلت إلى غرفتهما في فندق الرّيتز، وسرعان ما قدّم لإيسمي هديّة أكثر قيمة حتّى. كانت سابين، وهي خادمة في الفندق، تساعد إيسمي في تسريح شعرها في الأمسيات، وفُتنت إيسمي بابتسامات الفتاة الحذرة ودقّتها المحكمة. خلال بضعة أيام، كانت قد تطوّرت بينهما علاقة تآمريّة، مع محاولة إيسمي أن تشرح ما تريده بفرنسيّة متكسّرة، واستجابة سابين بإنجليزيّة تضاهيها رداءة. حين دخل هيرام عليهما وهما تضحكان ذات مساء، سأل سابين إن كان قد سبق لها أن سافرت إلى خارج فرنسا.

«كلّا، مسيو»، أجابته: «أودّ ذلك، ذات يوم».

«ألديك أيّ اهتمام برؤية أمريكا؟ زوجتي بحاجة إلى وصيفة شخصيّة».

بدت سابين مصدومة لكن مسرورة، وشعرت إيسمي بشعور فتاة صغيرة فاجأها والدها بمُهر ليلة عيد الميلاد. خادمتها الخاصّة، بل وفرنسيّة فوق ذلك! استشار هيرام مديرَ الفندق، الّذي استدعى والد سابين، واجتمعوا كلّهم في مكتب المدير بعد بضعة أيام.

---

(١) بياريتز: بلدة في فرنسا. (المترجم)

ممسكًا بقبّعة رثّة، يعلوه الارتباك والتّوجّس قرب المدير أنيق الهندام، قال والد سابين إنّ عائلتها ممتنّة للعرض لكنّها تحتاج بعض الوقت للتّفكّر فيه. شرح هيرام بدقّة مدى استعداده لأن يكون سخيًّا، وحين ترجم المدير المبلغ الّذي عرضه، تعرّفت إيسمي على الفور إلى التّعبير الّذي اعتلى وجه والد سابين؛ كان نفس التّعبير الّذي سبق ورأته على والدها هي، في المناسبات النّادرة الّتي أظهر المصنع فيها أرباحًا. وسرعان ما اتُّفِق على انضمام سابين إلى آل هاربر حين يغادران إلى لندن بعد أسبوع.

أضاف حضور سابين العذب والوقور في آن واحد المزيدَ إلى ثقة إيسمي بنفسها، غير أنّ مرافقتها الجديدة لم تستطع أن تعوّض عن إحباطها المتزايد باطّراد. لم يكن من شأن كلّ جولات التّسوّق وزيارات المعالم إلّا أن تضيء على ضآلة ما يشترك به هيرام وإيسمي. كانت إيسمي تحبّ الموسيقى وتجمّعات الثّرثرة، بينما يجد هيرام أكبر السّرور في القراءة بمفرده. في فيلادلفيا، كان يصحبها إلى فعاليّات لأنّ واجبه أملى عليه أن يختلط بدائرتهما الاجتماعيّة، أمّا في أوروبا فلم يشعر بالتزام مماثل.

- «نتناول الشّاي مع آل دوفيل؟ أنا بالكاد أعرفهم».

- «هذه هي الفكرة يا عزيزي، سنتناول الشّاي معهم في سبيل تعميق معرفتنا بهم».

- «أليس من الأفضل أن يُترك هذا لكنّ أنتنّ النّساء؟ لا داعي إلى إقحام الأزواج في الأمر».

بدأت إيسمي تحضر الفعاليّات وحدها، بتحدٍّ، إلى أن أدركت أنّ هيرام لا يعترض لأنّه لا يبالي. كان في بعض الأحيان لا يزيح عينيه عن كتابه حين تعود إلى غرفتهما حتّى، وفقط بعد أن تبدأ هي بالكلام يرفع رأسه بهمهمة متسائلة مشتّتة «اممم؟»، صوت باتت تشمئزّ منه.

في لندن، وجدت إيسمي أنّها لم تكن الزّوجة الوحيدة الّتي تختلط بالمجتمع دون زوجها. كانت بعض النّساء اللّاتي التقت بهنّ مناديات صريحات بحقّ المرأة في الاقتراع، يعتقدن أنّه يجدر بهنّ أن يستطعن فعل ما يحلو لهنّ، وليذهب القانون إلى الجحيم. ذلك موقف كنّت إيسمي تجاهه إعجابًا سرّيًّا لكنّها ما كانت تعلنه على الملأ قطّ؛ فقد فضّلت أن تكون على أطراف السّمعة السّيّئة لا في مركزها، وإحدى أكثر طرق الجراءة إشباعًا كانت تكمن في التّغنّج على الرّجال الآخرين بشكل شائن.

بدا تشارلي فان هاوزن كأنّه خُلق لتلك الغاية بعينها. خرّيج جديد من هارفارد، ابنٌ لأبٍ رأسماليّ وأمٍّ بارزةٍ في المجتمع يعرفان كلّ الأشخاص المناسبين على كلا طرفي الأطلسيّ، كما كان يمتلك ثقة مرحة منبعها نشأته ميسورة الحال في بوسطن.

نسخة مصقولة من جون موس، كما رأت إيسمي، يضع الاستمتاع بوقته نصب عينيه قبل أيّ شيء آخر. فتى من النّوع الّذي كان يمكنها أن تقع في هواه، قبل أن تتزوّج، وكان ليفطر لها قلبها لا شكّ.

تجاذبا أطراف الحديث على العشاء في قصر لورد ريفرتون في بلغرافيا(١)، ثمّ تقاطعت طرقاتهما مجدّدًا في حفل موسيقيّ يستضيفه السّفير الأمريكيّ. كانت إيسمي قد بالغت في اللّبس بفستان صوفيّ وجوربين سميكين وبدأت تشعر بالدّوار داخل القاعة المكتظّة المزكومة، همست إلى هيرام أنّها بحاجة إلى بعض الهواء، فأومأ دون أن ينظر إليها. انسلّت من بهو الاستقبال إلى قاعة انتظار دائريّة، حيث شعرت بتحسّن طفيف دون أن يبارح الطّيش رأسَها. سألت بوّابًا عابرًا أن يرشدها إلى الخارج، فوجّهها نحو التّراس الخلفيّ.

---

(١) بلغرافيا: منطقة ثريّة في وسط لندن، تتميّز شوارعها الرّاقية بالمساكن الأنيقة والسّفارات الأجنبيّة والفنادق الفاخرة. (المترجم)

اللّيل بارد لكنّه لزج، والهواء الرّطب يتهيّأ كي يتكاثف إلى مطر. كان التّراس يطلّ على حديقة رسميّة كلاسيكيّة، تحتلّ وسطَها نافورةٌ يعلوها تمثال ملاك طفل وتحيط بها أسيجة شجيرات مشذّبة بأناقة. راحت إيسمي تتساءل بهمّة فاترة إذا ما كان يجدر بها أن تنصّب نافورة في حديقة المنزل؛ لم يكن لديها اهتمام حقيقيّ بتنسيق الحدائق، غير أنّه سيتعيّن عليها إيجاد طريقة ما لملء أيامها.

«هل تمانعين؟»

استدارت إيسمي فرأت تشارلي خلفها، ولفافة تبغ بين سبّابته ووسطاه. هزّت رأسها، فسحب علبة ثقاب من جيب سترته، ثمّ أشعل عودًا وأضاء اللّهبُ وجهه. بدا تشارلي عن كثب أقلّ صبيانيّة، بعينيه الدّاكنتين الرّصينتين وابتسامته النّصفيّة المُبهَمة. سحب من لفافته عميقًا ثمّ زفر، مديرًا رأسه لينفث الدّخان بعيدًا عن إيسمي.

«أترغبين بواحدة؟»، سألها بنبرة اعتياديّة، كما لو كان يمرّر الملح أثناء العشاء.

ضحكت إيسمي من المفاجأة: «أتعرف الكثير من الفتيات اللّاتي يدخّنّ؟»

«لستِ فتاةً تمامًا، أليس كذلك؟ فأنت امرأة متزوّجة».

كان يجدر بإيسمي أن تشعر بالإساءة، فقد كان يتصرّف بألفة مفرطة صادمة، قياسًا بالمعرفة الطّفيفة بينهما. غير أنّها لم تستأ على الإطلاق. أعادتها الطّريقة الّتي ينظر إليها بها- كأنّه يتحدّاها أن تستمتع بوقتها- إلى أيام صباها الأولى في مجتمع فيلادلفيا، حين كانت المركز الّذي تدور حوله كلّ الحفلات.

«أتعرف الكثير من السّيّدات المتزوّجات اللّاتي يدخّنّ؟»، سألته.

فأجابها: «بضع منهنّ»، وقرّب اللّفافة من شفتيه مجدّدًا. ببطء، سحب الدّخان إلى داخل فمه ثمّ أخرجه، يدلّها كيف تفعل ذلك: «غير أنّهنّ لا يخبرن أزواجهنّ».

تساءلت إيسمي إن لم تكن الصّدفة هي ما جلبه إلى الخارج. هل رآها تشارلي تغادر فتبعها؟ راقت لها فكرة أن يتعقّبها أحدهم.

«حسنًا إذًا»، قالت إيسمي بنبرة حاسمة: «سأجرّب».

لم تكن تفهم قطّ كيف يستطيع الرّجال استنشاق الدّخان، وكانت العمليّة كريهة كما تخيّلت، غير أنّ إيسمي استمتعت حقًّا بالطّقس الّذي اكتنفها. أعجبتها الطّريقة الّتي ابتسم تشارلي بها حين ناولها لفافة وشرح لها كيف تمسكها، والطّريقة الّتي تحتّم عليها أن تنحني بها حين مدّ لها عود الثّقاب. أغوتهما الإيماءات كليهما، وحين أجفلت إيسمي وسعلت، أخذ تشارلي اللّفافة من أصابعها وأكملها بنفسه. نظرت إلى شفتيه، وهما تضغطان على الموضع الّذي شغلته شفتاها قبل ثوانٍ لا غير. لم يكن الصّمت بينهما فارغًا، مثل ما هو الحال مع هيرام. كان ثمّة أكثر من اللّازم تقريبًا ممّا أرادت إيسمي أن تقوله لتشارلي، بيد أنّها لم تعرف كيف تبدأ.

توارد صوت التّصفيق البعيد من المبنى.

«لفافتك الأولى»، قال تشارلي وهو يرفع العقب المسحوق في إيماءة نخب: «تهانينا».

«سحبتان»، أجابت إيسمي: «لا أعرف إن كان هذا يُحتسب».

فقال: «يمكنك الاستفادة من كلا الحالتين. لك أن تقولي، بكامل الصّدق، إنّك لم تدخّني لفافة تبغ قطّ، لأنّك لم تنهيها. لكن إن رغبت يومًا أن تصدمي أصدقاءك في المجتمع الرّاقي، فبوسعك أن تقولي إنّك فعلتِ».

لقد أصاب تشارلي عين الأحجية الّتي تعذّب إيسمي كلّ يوم: هل ستكون الزّوجة المحترمة المملّة الّتي يتوقّعها هيرام، أم الزّوجة المحبّة لما يثير الجدل الّتي تحرجه؟

«الأفضل ألّا أقول شيئًا من الأساس»، قالت إيسمي.

«سيكون هذا سرّنا».

حين نظر تشارلي إليها، شعرت كأنّهما قد اتّفقا على شيء ما، لكنّها ليست متأكّدة من ماهيّته. أومأت إيسمي بتحفّز واستدارت؛ لم تكن ترغب أن تُرى وهي تدخل معه.

كان روّاد الحفل قد بدؤوا يتدفّقون إلى الرّدهة. وبينما أخذت إيسمي تبحث عن هيرام، أبقت في الوقت نفسه عينًا حذرة على تشارلي، حريصةً على أن تعرف مكانه، حتّى بعد أن عادت إلى جانب زوجها. وعندما قال هيرام إنّه جاهز للمغادرة، كان تشارلي في الطّرف الآخر من القاعة، لذا لم تسنح لها الفرصة كي تودّعه. لكنّ ذلك لم يشغلها، إذ كانت موقنة جدًّا أنّها ستراه مرّة أخرى.

ولقد كانت محقّة. كان تشارلي ينتمي إلى مجموعة من الشّبّان الأمريكان الأثرياء الّذين لا يقيمون كبير وزن للإبحار إلى أوروبا كلّما عنّت لهم نزوة، والسّفن البخاريّة وسكك الحديد تتيح لهم نسخة القرن العشرين الخاصّة بهم من جولات «الغراند تور».

كانوا في حركة دائمة، إلى المسرح أو في نزهات نهاريّة إلى الرّيف، وبدأت الدّعوات إلى هذه الرّحلات تصل إلى فندق إيسمي.

شجّع هيرام، المنشغل بعقد شراكة مع مصرف بريطانيّ، إيسمي على الذّهاب دونه.

كلّ شيء كان علنيًّا: لم تنفرد إيسمي وتشارلي ببعضهما قطّ، وحرصت على ألّا يكون الهدفَ الوحيد لتلميحاتها اللّعوب. وفي مرحلة ما بدأت تناديه تشارلي، لكنّه لم يكن يخاطبها باسم غير السّيّدة هاربر.

قبل أسبوع من موعد إبحار إيسمي إلى الوطن، دُعيت هي وهيرام إلى حفل في منزل اللّيدي تيدل الرّيفيّ؛ وهي امرأة كان اسمها عند الميلاد سارا نويبرغر، نسيبة بعيدة لتشارلي اصطادت لنفسها أرستقراطيًّا إنجليزيًّا في الحقبة الذّهبيّة للزّيجات العابرة للأطلسيّ. توسّلت إيسمي إلى هيرام كي يذهب، لكنّه لم يُبدِ اهتمامًا، لم يكن لديه ما يجمعه بأصدقائها الجدد وكان يرى فيهم قدوة سيّئة.

قالت له مغتاظة إنّها ستذهب على أيّ حال، رغم أنّ ذلك سيعني أن يفترقا طوال ثلاثة أيام. في ما بعد، ستقول لنفسها إنّ ما حدث في عطلة الأسبوع تلك كان ذنب هيرام، وإنّها ما كانت لتبحث عن المواساة في مكان آخر لو لم تشعر بوحدة شديدة. أم تُرى كان ذلك ما قالته لنفسها كي تبرّر تصرّفاتها وحسب؟ لقد كانت إيسمي موضع توبيخ ودلال في آن معًا طوال حياتها، يُملى عليها أن تتصرّف بطريقة معيّنة بيد أنّها لا تُعاقَب إن لم تفعل، وكانت مهيّأة للفساد.

مع تناول الشّاي في أصيل يوم وصولهم، دار الحديث بين إيسمي وتشارلي بأنس وألفة، كصديقين قديمين. لم تستطع ألّا تقارنه بهيرام، الّذي كان يتحدّث إلى كلّ النّساء- وهي من بينهنّ- بنفس التّهذيب المتحفّظ. انهمر اهتمام تشارلي على إيسمي مثل ضوء مسلَّط؛ تذكّر تعليقات كانت قد ذكرتها لمامًا وانتبه إلى تسريحات الشّعر الجديدة الّتي تجرّبها. وكلّما أظهر تشارلي التفاتًا أكبر نحو إيسمي وجدته هي أكثر إثارة للاهتمام.

في اليوم التّالي، ذهب جميع الرّجال عدا تشارلي للصّيد.

«أنا رام مريع»، قال ببلادة: «سأبقى لأتنعّم بالدّفء والجفاف داخل المنزل، شكرًا جزيلًا لكم».

كانت بقيّة المدعوّات يرفرفن حوله مثل فراشات تنجذب إلى زهرة نادرة غريبة.

استمتع تشارلي بالاهتمام، فراح يسلّيهنّ بقصص عن مقالبه في هارفارد، وشكّت إيسمي في أنّ بعضها مبالغ به من أجل زيادة التّأثير. التقت عينا تشارلي بعينيها، وأقرّتا بشكوكها، فشعرت بزهو انتصاريّ لقدرتها على فهمه من نظرة واحدة.

بعد الغداء، قادت اللّيدي تيدل جولةً في منزل المزرعة. تحدّثوا إلى مدير العزبة لبضع دقائق، ثمّ ذهبوا ليشاهدوا الحيوانات بإعجاب. اجتمعت معظم السّيّدات عند قنّ الدّجاج ليطاردن مجموعة من الصّيصان الوليدة، لكنّ إيسمي رأت تشارلي متّكئًا على سياج زريبةٍ وحده. سارت إليه فرأته يشاهد عنزة صغيرة مهزولة، تكابد لتمشي على قوائمها الضّعيفة.

«يا للمخلوق المسكين»، قالت إيسمي: «انظر إليها كم تبذل جهدًا».

«إنّها تذكّرني بك».

تضيّق صدر إيسمي في مفاجأة مؤلمة. وقبل أن تتمكّن من الرّدّ، كان تشارلي يعتذر، ويبدو عليه ندم صادق. أيًّا كان ما يقصده بشأن العنزة، فقد زلّ لسانه به دون تفكير، وخرج من القلب، ممّا جعلها أكثر فضولًا لمعرفة قصده.

قال تشارلي: «كنت أشاهد هذه الصّغيرة، وهي تبدو في غاية الهشاشة، كأنّها ستنقلب على ظهرها في أيّ لحظة، لكنّها لا تكفّ عن المحاولة. وأنت لا تشبهين العنزة في شيء، أنت أجمل بكثير»- إطراء ستتذكّره إيسمي وتستطعم

مذاقه في ما بعد– «غير أنّ التّعبير نفسه يعلو وجهك في بعض الأحيان، حين تظنّين أنّ أحدًا لا ينظر إليك. تضعين وجهًا شجاعًا، كي لا يرى أحد كم تعانين».

لم تكن الملاحظة متوقَّعة على الإطلاق، وكانت صحيحة جدًّا، فلم تعرف إيسمي ماذا تقول. أخذت تحدّق إلى العنزة وحوافرها المرتعدة، رأت نفسها تضحك بمرح في الحفلات، بينما تغور معدتها متهيّبة من فكرة عودتها إلى الفندق وهيرام. سمعت أصوات النّساء الأخريات وطقطقة أقدامهنّ على الطّريق المرصوفة وهنّ يتّجهن إلى الحظيرة، كان يجدر بها هي وتشارلي أن ينضمّا إليهنّ. هي ستفعل، قريبًا جدًّا.

عدم النّظر إلى تشارلي جعل الكلام أسهل: «أنت محقّ، أشعر بضياع شديد في بعض الأحيان».

«ستعثرين على موطئ قدمك في القريب العاجل»، قال بهدوء: «مثل صديقتنا الصّغيرة هنا. غير أنّ أمري أنا هو الّذي لست واثقًا منه».

«أمرك أنت؟»، سألته إيسمي، فارتدى تشارلي ثقتَه بخفّة، دون تبجّح بل بتقبّل للاهتمام والمديح كمستحقّات طبيعيّة له: «ما كان ليخطر لي أنّ لديكَ ما تقلق حياله».

«أوه، إنّ دربي واضح تمام الوضوح»، قال، وكانت قد باتت تعرفه بحلول ذلك الوقت معرفة تكفيها لتلتقط الاستسلامَ في نبرته المرحة الأنيقة: «سأنضمّ إلى الشّركة مع والدي، وأتزوّج امرأة تنتقيها والدتي، وأبدّد حياتي في تحصيل المال، وإن حالفني أيّ حظّ سأنفق الخمسين عامًا التّالية وأنا أدخّن السّيجار في ناديَّ وأهزّ رأسي استياءً من حال العالم».

– «يبدو هذا مستقبلًا لامعًا جدًّا».

– «ليس بالنّسبة إليّ».

شعرت إيسمي بحاجز خفيّ يتلاشى، لقد شاركها هذا البوح لأنّه وثق بها. أحسّت كأنّ سنّها ازدادت دهورًا فجأة؛ فتشارلي لا يزال شابًّا كفاية ليحدّد خياراته، على عكسها.

«ما الّذي كنت لتفعله لو استطعت؟»، سألته برفق. كان بوسع إيسمي أن تتصوّر ألف مستقبل لتشارلي؛ مستكشف في أدغال أمريكيّة جنوبيّة، فنّان بوهيميّ يخربش مسوّدةً في مقهى باريسيّ.

«أخشى أنّ هذه هي المشكلة، فليست لديّ أدنى فكرة».

لم يكن ثمّة ردّ سهل على ذلك، وكانت إيسمي توشك على اقتراح أن ينضمّا إلى الآخرين- بدت تلك أكثر الطّرائق تهذيبًا لإنهاء المحادثة وتوفير المزيد من الإحراج عليه- حين بدأت تمطر. كان الهطول مفاجئًا وغزيرًا، وراح يجلدهما بقطرات مطر حادّة كالشّظايا. رأت إيسمي النّسوة الأخريات يتدافعن إلى داخل الحظيرة، الّتي تبعد ربع ميل على أقلّ تقدير، ثمّ أحسّت بيد تشارلي على عضدها وهو يسحبها إلى سقيفة قريبة.

أخذ المطر يلطم السّطح بتهتهة نابضة، وكانت قطرات الماء تتسرّب من بين الألواح وتسقط على شعر تشارلي وقبّعة إيسمي. أدوات المزرعة ومعدّاتها مكدّسة أمام الجدران ومكوّمة على الرّفوف، وثمّة رائحة عالقة للوحل والصّدأ. كانت الرّياح قد ثارت مع العاصفة، فصفق تشارلي الباب ليوقف دلف الماء إلى الدّاخل. وحالما أصبحا بمفردهما، في تلك المساحة الضّيّقة السّاكنة، راحت إيسمي تفكّر في جون والشّجرة والقبلة السّرّيّة. كان تشارلي يراقبها بنفس طريقة جون، مع ابتسامة تجسّ النّبض. لكن هذه المرّة، إيسمي هي الّتي بادرت وتقدّمت، وهي الّتي دسّت يديها حول خصر تشارلي.

القبلة الأولى كانت متردّدة، رجفة قبل الزّلزال. شفتاه طرحتا سؤالًا- هل أنت متأكّدة؟- فأجابت هي: أجل. لم تعلم إيسمي يومًا أنّ للقبلات القدرة على

استحضار بواعث كهذه، سرت الرّغبة راجفةً في صدرها ومعدتها، فطوّقت تشارلي بجسدها لتقرّب قلبها مضطربَ النّبضات إلى قلبه. حين تحرّكت شفتا تشارلي على رقبتها وأسفل عنقها، تركتا خطًّا من الحرارة فوق بشرتها. شعرت بالطّيش والمسّ، واهتزّت طربًا من جراءتها.

كان تشارلي من بادر إلى التّراجع، وهو يزفر بنصف ضحكة ونصف لهاث.

«ربّاه».

بدت عيناه مشتّتتين وجامحتين، واستطاعت إيسمي أن ترى كيف هزّه ما فعلاه.

أعياها انعدام اليقين- هل كان غاضبًا؟- لكنّ هذه المخاوف سرعان ما انزاحت عندما مدّ يده ورفع قبّعتها برفق.

«إنّها غارقة بالماء»، قال وهو يلقي بها قرب كومة من الدّلاء المعدنيّة.

«وكذلك شعرك».

مسّدت إيسمي له شعره ورفعته عن جبهته، كان لها أن تخمّن أنّه يحمل نفسه على الثّبات والحفاظ على رباطة الجأش، فوضعت يديها على وجنتيه وانتظرت. ببطء، وعلى مضض تقريبًا، طوّق ظهرها بذراعيه ومال إليها.

«إيسمي»، تريّث في نطق الاسم كأنّه يتذوّقه: «يا لك من أعجوبة».

«عنزة عجائبيّة»، أمالت رأسها وابتسمت لتُظهر أنّها تعابثه، فنقر على أنفها بإصبعه.

«ما كان ينبغي أن أقول ذلك قطّ، فأنت حَمَل»، ناوش جبهتها بشفتيه: «ناعم وعذب».

رفعت إيسمي نفسها على رؤوس أصابع قدميها كي يلتقي ثغراهما. كانت تريد أن تسمعه يتكلّم هكذا، برقّة ومُسارّة، لكنّها أرادت كذلك أن تقبّله، المرّة تلو المرّة تلو المرّة.

«لا أمانع»، همست بين المداعبات: «تلك العنزة قريبة إلى النّفس بالأحرى».

«عنزتي الصّغيرة»، تمتم تشارلي، فترقرقت الضّحكة بينهما مثل قوّة مطهّرة، جارفةً معها تردّدهما. إن كان بوسع حُبٍّ أن يزهر في سقيفة متداعية، فلا بدّ أنّه حقيقيّ.

أو هذا ما قالته إيسمي لنفسها لاحقًا في غرفة الطّعام، حين كانت بالكاد تحتمل النّظر إلى تشارلي لكون ذكرى قبلاتهما لا تزال طازجة. ما تبقّى من الزّيارة كان عذابًا؛ استطاعا أن يجترحا بضعة حوارات عجولة، في ممرّات الطّابق العلويّ وأثناء نزهات السّير في الأراضي، غير أنّه كان يستحيل لهما إيجاد وقت للانفراد ببعضهما.

تعيّن عليها الجلوس معه في حلقات لعب الورق، وعلى الوجبات، وفي القطار العائد إلى لندن، تضحك بمرح فيما تنازع توقَها إلى لمسه. وقبل موعد إبحارها إلى الوطن بيومين، أرسل تشارلي رسالة إلى فندقها يبلغها أنّه اكترى سيّارة لفترة الأصيل، فلو تستطيع إيجاد حجّة للانضمام إليه. لفّقت إيسمي قصّة عن نزهة ما، لعلمها أنّ هيرام لا يستسيغ تناول الوجبات في أيّ مكان عدا الطّاولة. وللغرابة، شعرت بذنب في كذبها على هيرام أكبر ممّا شعرت به عند تقبيل تشارلي؛ فما فعلته هي وتشارلي في السّقيفة كان سرًّا، لم يُرَ. أمّا القصّة الّتي روتها لهيرام فهي خيانة أكثر مباشرة.

كان يثق بها تمام الثّقة- أم تراه لم يكترث إلّا قليلًا؟- حتّى إنّه لم يسأل أصلًا إلى أين ستذهب أو متى ستعود.

قاد تشارلي بتهوّر الشّباب، إذ راح يدفع السّيّارة بأسرع ما في وسعها، ويصيح بالنّاس أن يفسحوا الطّريق بحماسة مبتهجة تُقابَل بالضّحكات عوضًا عن العبوس.

كان قد طلب سلّة طعام من فندقه، وأكلا على أرض عِزبةٍ إليزابيثيّة[1] خارج المدينة.

بعد ذلك، غامرا بالدّخول في أيكة من الأشجار، وتبادلا القبل والضّحكات المكبوتة فيما تجوب يدا تشارلي انحناءات ساقَي إيسمي. نزع عنه سترته، فاستطاعت تحسّس عضلات كتفيه تشتدّ حين يحتضنها. في حضن تشارلي، شعرت بنفسها على سجيّتها أكثر ممّا كانت يومًا في المنزل الصّامت الّذي تتشاركه مع هيرام.

كيف سيكون بمقدورها أن تعود أصلًا؟

في غضون أسبوع، ستكون في فيلادلفيا، وسيرجع تشارلي إلى بوسطن بعد ذلك بفترة غير طويلة. بوسطن أقرب من لندن، لكنّها ليست قريبة بما يكفي حقًّا. لم يكن لإيسمي أقارب أو أصدقاء هناك؛ لا حجّة لديها للزّيارة. ولن يمرّ وقت طويل قبل أن تنفّذ والدة تشارلي مرادها، فيتزوّج وينقطع عن إيسمي إلى الأبد. كان بوسعها أن تبكي من الإحباط، لماذا لم تكتشف هي وتشارلي بعضهما قبل الآن، حين لا يتاح لهما سوى هذا الوقت القصير سويّة؟ لم يخطر لها إلّا بعد ذلك بكثير أنّها تجرّأت على تقبيل تشارلي بالضّبط لأنّه كان غريبًا نسبيًّا، وفي بلد أجنبيّ، منفصلًا عن حياتها الحقيقيّة، ولذلك كان الأمر آمنًا.

قالت إيسمي باندفاع: «تعال معنا».

بدا تشارلي حائرًا: «إلى فيلادلفيا؟»

(١) العصر الإليزابيثيّ: الفترة المرتبطة بحكم الملكة إليزابيث الأولى (١٥٥٨-١٦٠٣)، وغالبًا ما يُنظر إليها كأحد العصور الذّهبيّة في تاريخ إنجلترا. (المترجم)

«إلى نيويورك. لقد حجزنا على متن التّايتانيك، لن يفكّر أحد مرّتين إن غيّرت مخطّطاتك بسبب رغبتك في الإبحار على متن السّفينة الجديدة، كما أنّ موعد عودتك سيحين أساسًا خلال بضعة أسابيع على أيّ حال، أليس كذلك؟»

«هل تعلّقتِ بي إلى هذه الدّرجة؟»، سألها وكان صوته قد تغيّر عن نبرة مزاحه المعتادة.

«أيّها الأحمق، إنّني غارقة في غرامك».

قصدت إيسمي أن تضحك، أن تخفّف من وطأة ما قالته، لكن تعيّن عليها بدلًا من ذلك أن تعصر وجهها لتحبس الدّمع، وما كان بوسع شيء غير قبلات تشارلي الحنونة أن يقنعها بإطلاق إسار دموعها، ثمّ ظلّا بعد ذلك دون كلام وقتًا طويلًا.

كانت إيسمي تنوي أن تحسن التّصرّف. ظنّت أنّ بضع قبلات في منطقة مهجورة من ظهر المركب في اللّيل ستشبعها؛ تصوّرت وداعًا حلوًا مرًّا وقاطعًا في الوقت نفسه. لكنّ تشارلي كان أشبه بمرض هو نفسه علاجه الوحيد، راح يتفشّى فيها إلى أن باتت فاترة مع كلّ من سِواه.

في اللّيلة الأولى على متن السّفينة، حين قال هيرام إنّه متهيّئ للانسحاب عند التّاسعة، أخبرته إيسمي أنّها خطّطت للعب البريدج في المقهى الباريسيّ، خرجت الكذبة منها بسلاسة لم تشعر معها حتّى بوخزة ذنب. مرّت في طريقها بغرفة الخادمة المجاورة وقالت لسابين إنّها ستزور صديقًا في الحجرة الخاصّة ٣٤ بالطّابق C في الأسفل.

«إن استيقظ زوجي تعالي وناديني»، قالت إيسمي.

«حاضر يا مدام»، ولو أنّ سابين اشتبهت بما تعتزم إيسمي عليه، فقد كانت ذكيّة بما يكفي- ومخلصة بما يكفي- لئلّا تفشي به.

وهكذا، في تلك اللّيلة الأولى، تسلّلت إيسمي إلى حجرة تشارلي الخاصّة، مرتاعة من أن تمرّ بشخص تعرفه. لكنّ ذلك لم يحدث- وربّما كان هذا برهانًا على أنّ النّجاح مقدّر لطيشها. فتح تشارلي الباب فور طرق إيسمي له، وطمأنته من خلال إخفاء توتّرها. أطفأت الضّوء، فسهّل الظّلام انتقالهما من القبلات إلى اللّمسات إلى بعثرة الثّياب على الأرض. ورغم الأفكار غير المريحة عن هيرام الّتي كانت تقبع في كواليس وعيها، لم تشعر إيسمي أنّ ما تفعله خاطئ، لأنّ حواسّها كانت تستجيب لتشارلي بطريقة لم تشهد لها مثيلًا مع هيرام. هذا هو الرّجل الّذي كان يجدر بها أن تتزوّج منه، جسدها قال لها ذلك، الرّجل الّذي كان يفترض أن تكون معه إلى الأبد.

ذهبت إيسمي إلى تشارلي في اللّيالي الثّلاث التّالية، وأسرّت إليه في الظّلام بأفكار لم يسبق أن كشفتها لغيره. مرّت ساعات اللّيل بسرعة تصيب بالدّوار؛ أمّا ساعات النّهار فقد كانت بؤسًا. كانت إيسمي تحدّث تشارلي بلباقة حين يمرّان ببعضهما على ظهر المركب، كما تفعل مع أيّ أحد من معارفها. لكن بدا أنّ نصف مجتمع فيلادلفيا الرّاقي متواجد في رحلة التّايتانيك، وأصرّ هيرام أن يتناولا العشاء مع آل ثير وآل وايدنر، زوجين يتمتّعان بصلات قويّة تفيده في عمله. تحت ابتساماتها المبتهجة، كانت إيسمي تريد أن تصرخ، سترى هؤلاء الأشخاص ذاتهم على العشاء طوال الثّلاثين سنة القادمة؛ لماذا لا تستطيع أن تمضي هذه السّاعات مع الرّجل الّذي يعني لها أكثر من أيّ شخص آخر؟ حاولت هي وتشارلي ترتيب اللّقاءات كلّما سنح لهما، لكن كان ثمّة دائمًا أناس آخرون قربهما، مسترقو سمعٍ محتمَلون قد يلاحظون أيّ سلوك نابٍ.

ذات مرّة، تمكّنا من اختلاس بضع لمسات في المكتبة، إذ تظاهر تشارلي بأنّه ينصحها بكتاب وشابكَ أصابعه بأصابعها وهو يقدّمه لها. اقتربت أكثر، حتّى

التصق وركاها بساقيه، يُسكرها التّوق إلى تقبيله. من زاوية عينها، انتبهت إيسمي إلى امرأة عجوز تنحني إلى الأمام فوق كرسيّها وتراقبهما. تراجعت إيسمي على مهلها، إذ لم ترد أن تثير الرّيبة بحركة أسرع من اللّازم.

همس تشارلي «لاحقًا» لإيسمي، وسار مبتعدًا يوجّه ابتسامة مشرقة نحو المرأة الفضوليّة وهو يمرّ بها.

«أنتما في شهر عسلكما، أليس كذلك؟»، سألت المرأة.

– «كيف عرفتِ؟»

– «أوه، أستطيع التّخمين دائمًا. تبدوان سعيدين للغاية معًا».

لم تستطع إيسمي ألّا تفترّ عن ابتسامة. لقد كانت في شهر عسلها فعلًا، وكانت أسعد من أيّ وقت مضى– مع رجل ليس زوجها.

«يا للطفك»، قالت للمرأة، وقرّرت أن تعتصر كلّ نقطة من السّعادة تستطيع الحصول عليها من هذه الأيام القليلة الأخيرة، دون أسف.

ليلة الأحد تلك، بعد أن توقّفت المحرّكات، تسلّلت إيسمي إلى مقصورتها لتجد هيرام وقد اختفى، كانت تلك أول مرّة لا يكون فيها نائمًا في السّرير حين تعود. طرقت باب غرفة سابين، ثمّ فتحته إذ لم تلقَ ردًّا، كانت خادمتها قد أخذتها سِنةٌ في سريرها وهي لا تزال متهندمة.

«سابين»، همست إيسمي: «أين السّيّد هاربر؟»

فتحت سابين عينيها الرّامشتين واعتدلت في جلستها ذاهلةً عمّا حولها: «مدام؟»

«السّيّد هاربر، إنّه ليس هنا. هل خرج؟»

رفعت سابين كتفيها: «أنا آسفة...»

«لا تشغلي بالك».

أغلقت إيسمي الباب وعادت إلى الحجرة الخاصّة. كان كتاب هيرام على الكوميدينو، لكنّ بُرنُس الحمّام خاصّته ليس على العلّاقة خلف الباب. خرجت إلى الرّدهة، حيث سمعت أصواتًا ووقع أقدام على الدّرج، وضوضاء تزداد بروزًا في صمت السّفينة غير المعتاد.

سارت إيسمي إلى قاعة الاستقبال عند قاعدة الدّرج الرّئيسيّ، حيث احتشدت جماعات من النّاس. كان هيرام يتحدّث إلى أحد مضيفي قاعة الطّعام، ويبدو مثل جَدٍّ غريب الأطوار ببرنسه وخفّيه، فشعرت إيسمي بباعث يحثّها على الاستدارة والابتعاد قبل أن ينتبه إليها. كيف يمكن أن تُقيَّد إلى عجوز نَكِدٍ مثله لبقيّة حياتها؟

لمح هيرام إيسمي فلوّح لها.

«أين كنتِ؟»، سألها وهو يهرع نحوها: «قلت إنّك ستكونين في المقهى».

راوغت إيسمي السّؤال: «ما الّذي يحدث؟»

«يبدو أنّنا احتككنا بجبل جليديّ».

لبقيّة حياتها، ستنكمش إيسمي حين تتذكّر الرّاحة الّتي سرت عبر أوصالها. في تلك اللّحظة، سرّتها المشكلة الّتي حلّت بالسّفينة، لأن ذلك سيتكفّل بإلهاء هيرام عن أن يتساءل أين كانت.

«احتككنا؟»، سألته إيسمي.

- «هناك رجل في قاعة المدخّنين التقط قطعة جليد من أجل شرابه».

- «لكنّ السّفينة بخير، صحيح؟»

- «أتوقّع أنّ القبطان يفحصها، إنّه رجل مخضرم في رحلات الأطلسيّ، لن يلبث حتّى يجد حلًّا للمشكلة».

رَنَت إيسمي إلى الجماعات المتباطئة حولهما؛ رجال ونساء بمختلف أشكال اللّباس وألوانه، من الأثواب الرّسميّة إلى المنامات والأوشحة. لم يكن تشارلي هناك. صعد رجل يرتدي بدلة ضابط زرقاء داكنة إلى منتصف الدّرج كي يخاطب الحضور.

«سيّداتي سادتي، لقد أصدر الكابتن سميث تعليمات بارتداء جميع الرّكّاب سُتر نجاتهم»، وتابع ملحًّا مع تصاعد الأصوات المتسائلة: «إنّه إجراء احترازيّ فحسب، أؤكّد لكم».

«ما الّذي يحدث؟»، سأله شيخ متجهّم بإلحاح، وهو رائد أعمال مخضرم كانت إيسمي قد عُرِّفت عليه غير أنّها لم تستطع تذكّر اسمه.

كرّر الضّابط بثبات رسميّ: «على كلّ الرّكّاب أخذ ستر نجاتهم والتّواجد على ظهر المركب».

سبّب البلاغ اهتياجًا من ردود الفعل، كان معظمها ينطوي على تذمّر أكثر ممّا هو قلق. تبعت إيسمي هيرام وعادا إلى حجرتهما، حيث أمن على سترة نجاتها قبل ارتداء سترته، ثمّ قرع باب سابين وطلب منها ارتداء واحدة هي الأخرى.

«انتظريني في الرّواق»، قال هيرام لإيسمي: «ما من مغزى للوقوف خارجًا في البرد قبل أن نعرف حقيقة الأمر».

«إلى أين ستذهب؟»

«سأعود إلى قاعة المدخّنين، وأرى إذا ما كان أحدهم قد سمع المزيد من الأخبار»، ناول إيسمي معطف الفراء الّذي اشتراه لها من هارودز: «خذيه معك».

كان الرّواق نصف ممتلئ، وراحت إيسمي تجوب أنحاء القاعة وتبحث سرًّا عن تشارلي. أخذ معارفها يحيّونها بابتسامات وإيماءات من رؤوسهم؛ كلّ شيء كان في غاية اللّباقة، مثل استقبال رسميّ، والجميع يبذلون جهدًا كيلا يبدوا مخضوضين.

ظهر ضابط عند المدخل: «على جميع النّساء والأطفال التّوجّه إلى ظهر المركب، إنّنا نقوم بتحميل قوارب النّجاة».

هشّم الأمر القضائيّ هدوء القاعة، انصهرت جماعات النّاس المتفاوتة في كتلة واحدة وهم يتبعون الضّابط على الدّرج الّذي يفضي إلى الخارج، وأصواتهم تطنّ في انفجارات حادّة.

«ما الّذي يقصده؟»

«ماذا حدث؟»

«لن أذهب إلى أيّ مكان دون زوجي».

لكنّ إيسمي لزمت مكانها، كان عليها أن تجد تشارلي. ربّما لن يكون بوسعهما أن يتحادثا على انفراد، لكنّ مجرّد رؤيته وسط كلّ هذه البلبلة ستكون كفيلة بشدّ إزارها.

حثّت سابين على الإسراع، وبحثت في الطّابق العلويّ ضمن مقهى بالم كورت وقاعة المدخّنين، ثمّ هرعت إلى النّادي الرّياضيّ، حيث كان رجلان يركبان درّاجات التّدريب بحماسة مقسورة. كان ثمّة رجل متجهّم الوجه- السّيّد استور؟- يجلس مع زوجته؛ في يده سترة نجاة يدلّها على السّدادة داخلها.

صعدت إيسمي إلى ظهر المركب، مهيّئة نفسها للبرد. من بعيد، تحتها بطابقين، رأت أجسامًا تجرّ نفسها عبر الفسحة المفتوحة المخصّصة لركّاب الدّرجة الثّالثة.

كان بعضهم يتقاذفون شيئًا ما جيئة وذهابًا، وأدركت إيسمي أنّه قطعة جليد، كان ثمّة شقفًا كبيرة منه متبعثرة على ظهر المركب. زعقت فتاة منديلها بالكاد يغطّي شعرها الأحمر المتموّج على أحد الرّجال، الّذي ردّ الصّياح بالصّياح، ثمّ انفجرا كلاهما في ضحك يشبه النّعيب. كان ذلك في غاية الصّبيانيّة، بيد أنّ إيسمي لم تستطع إلّا أن تراه طريفًا.

«إيسمي!»

ركض تشارلي نحو إيسمي لاهثًا متورّد الوجه، وقبّعته المائلة تغطّي إحدى عينيه.

بدّدت رؤيته القلق الّذي لم تكن حتّى لاحظت أنّها تختزنه، وجعلتها تهتزّ من شعورها بالفرَج.

«هل أنتِ على ما يرام؟»، سألها تشارلي. كان يقف قريبًا جدًّا منها، وأنفاسه تدفئ وجنتها الصّقِعة.

أومأت إيسمي. تشارلي هنا؛ سيكون كلّ شيء على ما يرام.

«سآخذك إلى قارب نجاة»، امتدّت يد تشارلي لاشعوريًّا، لكنّه أوقفها تمامًا قبل أن تلامس ذراعها.

«لا أريد الذّهاب»، قالت إيسمي، مدركةً أنّها بدت مثل طفلة حاردة، تحتاج من تشارلي أن يقنعها.

«يجب عليك ذلك»، قال ملحًّا: «سمعت أنّ المياه تدلف في الأسفل».

«أليس ثمّة حجيرات تمنع دخولها؟». كان قد دار نقاش حول بنيان السّفينة في وقت سابق من تلك اللّيلة، بينما تتناول هي وهيرام العشاء مع الكابتن سميث، إلّا أنّ إيسمي تجاهلت معظمه آنذاك، إذ كانت منشغلة في محاولة لفت عين تشارلي الّذي في الطّرف الآخر من قاعة الطّعام.

«أوه، سنبقى عائمين لبعض الوقت»، قال تشارلي: «لقد بعثوا رسائل لاسلكيّة، ثمّة سفن أخرى في طريقها إلى هنا. لكنّني سأرتاح أكثر إن كنتِ في قارب نجاة، تحسّبًا ليس إلّا».

كان للحوار سمة مستعارة، كأنّهما يردّدان مشهدًا ميلودراميًّا يدور بين بطل مقدام وآنسته الحرون في محنة ما، ولم تزل إيسمي لا تصدّق أنّ السّفينة في خطر حقيقيّ. شعرت بنقرة خفيفة على كتفها فاستدارت لترى سابين تشير إلى رجل يقترب، وارتعبت إذ رأت أنّه هيرام.

«ها أنتِ ذي!»، قال موبّخًا إيسمي: «لم أستطع إيجادك».

لقد بدّل ثيابه وارتدى بدلته الصّوف البنّيّة ومعطفًا، فجعل الزّيّ مظهره مقبولًا أكثر ممّا كان سابقًا، غير أنّ الاهتياج قد نال منه ووضعه في حالة بعيدة كلّ البعد عن عهده. كانت عضلات وجهه منقبضة بشدّة، وحين شابك ذراعه بذراع إيسمي عند مرفقها كانت قوّة حركته شديدة جعلتها تتعثّر منكمشة للحظة.

«كان يفترض بك أن تنتظري في الرّواق»، قال بنبرة حادّة.

«أردت أن أرى ما كان يحدث»، أجابته. كم كان ذلك من شيم هيرام، يتوقّع منها أن تكون صلبة ومنضبطة مثله.

بادر هيرام تشارلي بإيماءة مقتضبة: «سيّد فان هاوزن، شكرًا لاعتنائك بزوجتي».

الأمر برمّته كان في غاية العبثيّة: هيرام يشكر الرّجل الّذي يركّب له قرونًا. أفلتت إيسمي ضحكة متوتّرة ناشزة.

«كنت على وشك أن أرافق السّيّدة هاربر إلى أحد قوارب النّجاة»، قال تشارلي بيُسر، كأن ليس لديه أيّ شيء يخفيه.

كان سطح المركب قد بات أقلّ اكتظاظًا بالفعل من حاله أول خروج إيسمي. بضعة بحّارة يعالجون أعمدة الرّفع الّتي تحمل القارب الأقرب إليهم، آخر قارب تبقّى على المتن. وقفت نصف حلقة من الرّكاب يراقبون، مشاهدون فضوليّون يحاولون استيعاب العرض.

«المسافة إلى الأسفل طويلة جدًّا»، تمتمت إيسمي.

«ستكونين في أمان تمامًا»، طمأنها تشارلي: «سنضحك من هذه الذّكرى حين نصل إلى نيويورك، سأرتّب لعشاء في مطعم ديلمونيكوز».

دفع هيرام إيسمي إلى الأمام.

نَهَرها قائلًا: «هيّا!»، فحدّقت إيسمي إليه في صدمة مبالغ فيها، إذ لم يسبق أن رفع صوته عليها يومًا، على الإطلاق.

«لمَ العجلة؟»، أجابت محتجّة: «تشارلي يقول إنّه سيتمّ إنقاذنا».

«لقد أخبرني أحد الضّبّاط أنّ سفينة الأولمبيك قادمة»، شرح تشارلي.

«الأولمبيك على بعد خمسمئة ميل عنّا»، كان لكلمات هيرام نبرة إحباط جافّ لأبٍ يقاصّ أطفاله الشّكسين: «الأمور أسوأ بكثير ممّا تظنّ».

مدّ يده في سترته وسحب قلم حبر، ثمّ انحنى ووضع القلم على أرضيّة ظهر المركب، وشاهدته إيسمي يتدحرج مبتعدًا عنهم باطّراد.

«نحن نغرق»، قال هيرام: «علمت هذا من ضابط المحاسبة مباشرة. لدينا بضع ساعات على أفضل تقدير، وربّما أقلّ».

وكما لو جاء ليؤكّد الإنذار، انبثق انفجار ضوء أخضر فوقهم. استغربت إيسمي مَن عساه يطلق ألعابًا ناريّة في وقت كهذا. رأت وجه تشارلي مضاءً بوهج غُوليّ مفزع، وفمه يتهدّم متدليًّا من فهم الموقف.

دمدم قائلًا: «طلقات استغاثة».

كانت سابين تطبق يديها المتشابكتين على فمها، محاولةً ألّا تبكي. طوال الأسابيع السّتّة الأخيرة، عاملت إيسمي خادمتَها مثل جرو أو دمية: شيء تلعب به حين يروق لها وتتجاهله في ما خلا ذلك. غير أنّ سابين كانت شخصًا، له أفكاره ومشاعره، مذعورة وبعيدة عن بيتها. تذكّرت إيسمي والد سابين، وكيف شكرها على منحها ابنتَه حياةً أفضل. حتّى الآن، لم تكن إيسمي تعتقد أنّه من الممكن لسفينة الرّكّاب العملاقة أن تغرق، لكنّ خوف سابين أشعل خوفها، وتسلّلت الرّهبة زاحفةً مثل سمّ يسري في دورة إيسمي الدّمويّة. إن هي لم تركب قارب نجاة، فكذلك لن تفعل سابين، وقد تموتان كلتاهما.

ما كان يبدو خيارًا قبل بضع دقائق تحوّل إلى ضرورة. مدّت إيسمي يدها نحو يد سابين وجذبتها إلى الأمام.

«فينيه[(١)]»، قالت لها: «هيّا بنا».

كان الضّابط المسؤول عن تحميل القارب يتبختر في الأنحاء بتغطرس، لكن لم يبدُ أنّ لديه فكرة واضحة عمّا يجب فعله. وقف فردان من الطّاقم كلٌّ على طرف من القارب، وراحا يعبثان بالحبال، بينما اتّكأ آخرون على أعمدة الرّفع بانتظار الأوامر.

أشار الضّابط إلى الرّاكبات المتجمّعات حوله بعبارة «ادخلن» دون زيادة، ورأت إيسمي أكثر من امرأة تعبس مستنكرة نبرته الأبعد ما تكون عن التّقدير.

لا يمكن أن تكون هذه هي النّهاية، قالت إيسمي لنفسها بذعر يتنامى. كيف تستطيع أن تودّع تشارلي أمام كلّ هؤلاء؟ كلّ شيء كان يحدث بسرعة شديدة: سابين تخطو إلى داخل القارب متردّدة، يد هيرام على لوح كتف إيسمي يستحثّها أن تتقدّم، نظرة أخيرة من فوق كتفها إلى تشارلي. قابلها بإيماءة

(١) Venez (بالفرنسيّة): فعل بمعنى «تعال» بصيغة جماعة المخاطبين للاحترام. (المترجم)

وقورة، تمنحها الإذن بالمغادرة. بدا عاقد العزم، ومأساويًا، ووسيمًا بشكل لا يُحتمل.

أشاحت إيسمي بوجهها، وازدردت البؤس الّذي يهدّد بابتلاعها. ثمّة رجل يمدّ يده نحوها من قارب النّجاة، بحّار عموميّ بحكم زيّه، أحكمت التّمسّك به، نصفَ تعبر ونصفَ تتعثّر إلى داخل القارب. عليها ألّا تنظر إلى الوراء- كان هذا ليحطّمها- لذا ثبّتت نظرها نحو الخارج، نحو النّجوم الملتمعة على الأفق، كانت الدّلالة الوحيدة الّتي تميّز البحر من السّماء.

«هل ثمّة المزيد من السّيّدات؟»، نادي الضّابط.

لم يأتِه ردّ. نقّلت إيسمي النّظر حولها بين رفيقاتها في القارب؛ لم يكن عددهنّ يفوق الدّستة، نسوة من أعمار متفاوتة، متناثرات على أربعة مقاعد تفصل بينها مساحة فسيحة.

رأت إيسمي رجلًا وامرأة على متن السّفينة، منخرطَين في محادثة محتدمة؛ تراجعت المرأة نهايةَ الأمر، وخرجت عن الرّؤية. لم تستطع إيسمي أن ترى تشارلي، لكنّ هيرام كان لا يزال هناك، يذرع مكانه غدوًّا ورواحًا، والسّخط متبدٍّ عليه. تساءلت إذا ما قد تكون هذه آخر مرّة تراه فيها على الإطلاق.

«أيمكن للسّادة الرّكوب؟»، نادت إيسمي: «لدينا متّسع».

هزّ الضّابط رأسه بحسم: «أوامر القبطان. فليبدأ إنزال القارب!»

شرع أفراد الطّاقم عند الأعمدة بالعمل، لكنّ قارب النّجاة لم يتزحزح. وبعد بداية خاطئة أخرى، قال أحدهم للضّابط إنّه عالق.

«كيف؟»، سأل الضّابطُ مشكّكًا، وأحسّت إيسمي بترنّح مُسقِم من الخوف. ماذا لو تداعى القارب ساقطًا في الماء؟ فجأة، انحلّ حبل من الحبال فهوى أحد طرفَي قارب النّجاة. تشبّثت إيسمي بالمقعد مرتاعةً لتمنع نفسها من الانزلاق،

وسقط صبيّ صغير بخبطة مكتومة على أرضيّة القارب لكنّ أمّه سارعت لانتشاله، فسحبت الطّفل إلى حضنها وطوّقته بشدّة بكلتا ذراعيها.

تحرّك حبل على الطّرف الآخر، فاعتدل القارب، ثمّ تابع تقدّمه المتقلقل إلى الأسفل. شخصت إيسمي إلى الأعلى ورأت هيرام عند إفريز السّفينة هادئًا على نحو غريب. كانت تجاعيد جبينه قد ملست، فتذكّرت لقاءهما الأوّل، كيف بدا لها أول وهلة سيّدًا نبيلًا دمثًا عتيق الطّراز. سيّد نبيل، قالت لنفسها بحزن متنبِّه وهو يصّوب إليها نظرةً تقول «شكرًا لكِ» و«وداعًا» في آن. رفعت إيسمي يدها- إيماءة وجدانيّة؟ نابذة؟- فأجابها برفع يده، كانت تعلم أنّه ينبغي بها قول شيء، إلّا أنّها لم تستطع استحضار الكلمات الصّحيحة، وفجأة باتت تحدّق في صفّ من الأسافين المدقوقة بالسّفينة. صار ظهر المركب خارج نطاق النّظر؛ وكانت اللّحظة قد انقضت.

كانوا يمرّون أمام ممشى مطوّق بالزّجاج حين أجفلت إيسمي لرؤية وجه يحدّق إليها؛ امرأة متلفّعة بمعطف داكن أكبر من مقاسها، وقبضت عيناها الكبيرتان الآسرتان على انتباه إيسمي. كان الرّجل الّذي بجانبها يتزيّا ببدلة مبهرجة برّاقة، ويخبط قبضتيه على الزّجاج. الصّوت مكتوم، لكنّ إيسمي استطاعت أن تشعر بهلعه القريب.

«توقّفوا!»، نادى فرد الطّاقم الأصغر سنًّا نحو متن السّفينة.

كان يتصرّف بوقار ضابط، بغضّ النّظر عن زيّ البحّارة العموميّ خاصّته: «لدينا امرأة هنا!»

ارتجّ القارب متوقّفًا، فمالت إيسمي ورفيقاتها إلى الأمام.

«ماذا الآن؟»، نبح فرد الطّاقم الآخر. كان من نوع البحّارة الّذي عادةً ما يُوارى بعيدًا عن أنظار الرّكّاب؛ وجهه ولحيته ملطّخان بغبار الفحم، وثيابه مسودّة من السّخام الّذي تتشبّع به: «هل هي ستعبر من خلال الزّجاج؟»

«علينا القيام بواجبنا»، أجاب الفرد الأوّل. تابع صياحه إلى ظهر المركب، وحين انحنى الضّابط على الإفريز، زعق يطلب السّماح لامرأة أخرى بركوب القارب.

كانت المرأة المعنيّة تنظر نحو إيسمي بترقّب عاقد العزم، ثمّة شيء في تحديقة تلك المرأة- وعينيها ثاقبتَي الزُّرقة تينك- استبدّ بانتباه إيسمي. حاولت إيسمي أن تبادرها بابتسامة مُطَمْئِنة، لكنّ وجهها تجمّد في منتصف طريقه إلى ذلك؛ إذ ها هو تشارلي فجأة، على الجانب الآخر من النّافذة، يهرع باتجاه المرأة ويتحدّث إليها بتصميم رابط الجأش. ثمّ رفع تشارلي بصره، نحو القارب ونحو إيسمي، والعزم مشرق في تعبير وجهه.

للحظة، حلّق قلبُ إيسمي من مكانه. ثمّ عاودها أساها لفقدان تشارلي عشرة أضعاف، وانقبض قلبها من ترقّبه عيش ألم الفراق مرّة أخرى بعد. بالكاد استطاعت إيسمي أن تومي عندما لوّح بذراعه بإشارة إلى الأسفل، مستحثًّا كلَّ من في القارب على إخفاض رؤوسهم. لم تستطع أن تكفّ عن النّظر إليه، حتّى حين دكّت قدمُه النّافذةَ وتطايرت شظايا الزّجاج، قاذفةً بكسرة نحو وجهها. لم تدرك أنّها جُرحت إلّا حين مسحت خدّها ورأت الدّم على أصابعها.

تقدّم فردُ الطّاقم الأكبرُ سنًّا إلى مركز قارب النّجاة، مزعزعًا توازنه وجاعلًا الرّاكبات يصحن تخوّفًا. مدّ مجذافًا عبر الفجوة الّتي أحدثها تشارلي، فتمسّك الأخير بطرفه. انسحب قارب النّجاة أقرب إلى التّايتانيك، تاركًا مسافة قدم لا أكثر. ثبّتت المرأة مرفقها على تشارلي ومدّت يدها الأخرى نحو فرد الطّاقم، ثمّ تسلّقت إلى داخل القارب.

«شكرًا لك»، قالت بصوت بريطانيّ بارد. جلست على مقعد في وسط القارب، منتصبةً في جلستها بتحدٍّ، وسلّطت نظرها إلى الأمام عوضًا عن

توجيهه نحو الرّجل الّذي تتركه وراءها. وحينها تلاشى اهتمام إيسمي بها، لأن تشارلي كان يمدّ نفسه، على بعد أقلّ من ذراع. انحنت إلى الأمام ودسّت أصابعها بين أصابعه، ودوّمت أنفاسُ تشارلي نحو إيسمي في سُحب من مُخاط الشّيطان[1]، فتجرّعت هي تلك الأنفاس.

حين تهاوى القارب مع صرير الحبال، شعرت إيسمي بأنّ كلّ ما هو حقيقيّ وخيِّر ينفلت من قبضتها.

أهي الّتي سحبت؟ أهو الّذي قفز؟ كلّ ما كانت إيسمي تعرفه أنّ تشارلي صار فجأة بجانبها، أطرافه وأطرافها مجدولة ببعضها على أرضيّة القارب. تشبّثت بذراعيه عندما رفعها كي تجلس، في لحظة ملامستهم لسطح الماء. ومع انفكاكهم عن سِلْويت[2] التّايتانيك العرجاء بشكل صادم، أضاءت طلقةُ استغاثة أخرى اللّيل. دام الضّوء ما يكفي تمامًا كي ترى إيسمي هيرام على ظهر المركب، يتفرّج بهدوءٍ جليلٍ فيما يتمّ التّجذيفُ بزوجته وعشيقها بعيدًا.

(١) مخاط الشّيطان: الخيوط الّتي تتراءى في الهواء عند شدّة الحرّ، يقال لها أيضا لعاب الشّمس وخيطُ باطل. (المترجم)

(٢) السّلويت silhouette: نوع من الفنون يعتمد على استعمال اللّون الأسود على خلفيّة بيضاء لإظهار الحدود الخارجيّة للشّكل، ويطلق عليه أحيانًا «التّصوير التّضاديّ» لأنّه يُنفَّذ بطريقة عكسيّة للإضاءة أو الرّسم. ويعتمد هذا الفنّ في الأساس على الرّسم، لذا يجب أن يكون فنّان السّلويت رسّامًا حتّى يجيد فيه. (التّرجمة)

لجنة مجلس الشّيوخ الأمريكي للتّجارة
التّحقيق في كارثة سفينة التّايتانيك

الأربعاء، ٣٠ إبريل ١٩١٢

شهادة السّيّد تشارلز فان هاوزن،

من ركّاب الدّرجة الأولى

السّيناتور سميث: بعد أن استفقتَ على الأصوات، ما الّذي فعلتَه؟

السّيد فان هاوزن: خرجتُ من حجرتي الخاصّة وتحدّثت إلى أحد المضيفين، فأخبرني أنّه تمّ إصدار الأوامر بارتداء الرّكاب لسُتر نجاتهم. أمضيت بعض الوقت أبحث عن صديقَيّ، السّيّد والسّيّدة هاربر، ووجدتهما على ظهر المركب، قرب أحد قوارب النّجاة.

السّيناتور سميث: ألم يكن ثمّة ذعر أو ارتباك؟

السّيد فان هاوزن: كلّا. كان أحد الضّبّاط يوجّه النّساء والأطفال إلى القارب، رافق السّيّد هاربر زوجتَه يستحثّها على التّقدّم، فأخذتْ مكانًا مع الأخريات. ظللنا أنا والسّيّد هاربر على ظهر المركب بينما يتمّ إنزال القارب، وسمعنا صيحة من أحد أفراد الطّاقم. كان ثمّة امرأة في طابق سفليّ تريد ركوب القارب، لكنّ النّافذة ما كانت لتنفتح. عرضتُ أن أنزل لمساعدتها، كسرتُ النّافذة وساعدتها في الوصول إلى القارب. وبعد ذلك بقليل جدًّا، طُلِب منّي ركوب القارب.

السّيناتور سميث: من الّذي طلب منك هذا؟

السّيد فان هاوزن: السّيّدة هاربر، وبضعة آخرون.

السّيناتور سميث: من الرّاكبات؟

السّيد فان هاوزن: بدا أنّ فردَي الطّاقم يرحّبان بتقديمي العون، لا أظنّ أنّه كان لدى أيّ منهما الكثير من الخبرة في إدارة القوارب.

السّيناتور سميث: هل كان قارب نجاتكم يستوعب حمل المزيد من الرّكّاب؟

السّيد فان هاوزن: أجل، أظنّ ذلك. غير أنّني لا أستطيع الجزم إلى أيّ مدى كنّا لنحسن إدارته بحمولة كاملة، كان ذلك ليزيد صعوبة التّعامل معه كثيرًا.

السّيناتور سميث: كنت أنت الرّاكب الذّكر الوحيد؟

السّيد فان هاوزن: أجل.

السّيناتور سميث: سمعنا من شهود آخرين أنّ هناك رجلًا شوهد متنكّرًا بملابس امرأة كي يركب قارب نجاة، هل يُحتمل أنّ حيلة مشابهة حدثت على قاربكم؟

السّيد فان هاوزن: إطلاقا، لم أرَ أيّ دليل على سلوك جبان.

السّيناتور سميث: لقد أدلى أحد فردَي الطّاقم اللّذين كانا في قاربكم، السّيّد ويلز، شهادة تفيد بأنّك دفعت له عشرة دولارات بعد أن تمّ إنقاذك. ما كان سبب ذلك؟

السّيد فان هاوزن: كان السّيّد ويلز غاضبًا جدًّا لخسارة السّفينة. قال إنّ كلّ ما يملكه صار في قاع المحيط، وسيتوقّف دفع أتعابه بدءًا من ساعة الغرق.

قدّمت للسّيّد ويلز والسّيّد هيلي المال لشراء ملابس جديدة وحاجيّات شخصيّة أخرى عند الوصول إلى نيويورك، كان المبلغ هديّة.

السّيناتور سميث: إذًا فأنت لم تدفع لهما مقابل السّماح لك بركوب قارب النّجاة؟

السّيد فان هاوزن: كلّا، على الإطلاق. أيّ نوع من الرّجال أكون لو فعلت ذلك؟

آنا

حين غرقت آنّا هالفرسون للمرّة الأولى، انزلق جسدها ذو الرّبيع السّابع من عمره داخل المياه مثل حجر رُميَ في بركة رائقة. مصدومةً وتائهةً عمّا يحيط بها، قاومت القوّةَ الجاذبة نحو الأسفل لتنّورتها المتشبّعة بالماء، ثمّ التقطت يدٌ ذراعَها، انغرست الأصابع في جلدها بشدّة تركت انطباعَها كدمات أرجوانيّة رماديّة طيلة أيام تلت. رفع بابا آنا إلى قاربه، مثل ما يشدّ سمكةً بصنّارته، وراح يمسّد وجهها على نحو محموم، تسرُّعُ أنفاسه هو فقط ما أعلمها أنّه كان خائفًا.

كان ذلك هو اليوم الّذي قرّر فيه بابا أنّ آنا ستتعلّم السّباحة.

«لماذا؟»، سألته ماما، كما لو كان قد اقترح أن يعلّمها الطّيران: «لقد سقطت آنا لأنّها لم تكن منتبهة، والآن تعلّمت درسها».

«لن أصحبها معي مجدّدًا قبل أن تتقن السّباحة». نادرًا ما كان بابا يرفع صوته، لكنّه امتلك طريقة في رشق كلماته توضّح حالته عندما لا يكون في مزاج يسمح بالجدال معه.

نخرت ماما، وذلك صوت مألوف. كان لديها ما لا يحصى من الطّرائق الصّغيرة للتّعبير عن مشاعرها؛ رفع إحدى كتفيها، هزّة رأس صامتة، تحديقة جليديّة. كانت الحياة، بالنّسبة إلى ماما، حَملة وبيلةً من الخيبات والنّكسات، ولم تكن آنا واثقة إذا ما كانت ماما أكثر غضبًا بشأن السّباحة أم لكون آنا ستمضي وقتًا مع بابا، وقتًا من الأجدر إنفاقه في الأعمال المنزليّة.

لطالما كان آل هالفرسون مزارعين، لا صيّادي سمك، لكنّ بابا كان يجد متعةً في التّحدّي الكامن في استدراج سمكة إلى خيطه. وقد كان بوسع أصابع آنا النّحيلة استخراج أحشاء سمكة فرخ وتنظيفها خلال دقائق، والإيماءة الرّاضية الّتي تنالها من بابا كانت أفضل من أيّ مكافأة نقديّة. بابا كان مركز عالمها، وكانت ممتنّة لأيّ مدّة من الوقت تحظى بها في مداره. كان دائم الانشغال: يزرع، ويحرث، ويمدّ يد العون إلى الجيران الّذين ينتزعون رغيف عيشهم من نفس التّربة العصيّة.

وُلدت أكبر أخوات آنا، فريدا، في الأيام المتفائلة حين كان بابا يأمل ببيت مليء بالصّبيان ويكرّس كلّ ما ادّخره لشراء المزيد من الأرض؛ وعندما وصلت كريستن بعد سنوات ثلاث، بدأ يتراءى لبابا أصهارٌ مستقبليّون يعملون إلى جانبه يومَ تتصلّب يداه اللّتان أبلتهما العوامل الجويّة. أمّا آنا فكانت وافدًا مفاجئًا بعد عشر سنوات عاقرة، ولطالما وجّهت ماما اتّهامات إلى بابا بإفسادها بالدّلال.

كانت دروس سباحة آنا تنعقد في الصّباح، بعد أن يتمّ حلب الأبقار وعلف الخنازير. ترتدي سروالًا فضفاضًا تحت فستان رثّ تسلّمته عن فريدا، فستان كان لولا ذلك ليُقطَّع إلى خرق. تعلّمت أن تبقي رأسها مرفوعًا وتدسّ تنّورتها تحت السّروال، ممّا يترك لساقيها حرّيّة الرّكل. ورغم أنّ مياه البحيرة الجليديّة تثقّب بشرتها، فقد شقّت طريقها قدمًا، ونفسها توّاقة كي تكافأ بابتسامات بابا.

لم يكن آل هالفرسون ميسوري الحال، بيد أنّهم امتلكوا أرضهم الخاصّة، على عكس الكثير من الآخرين في قريتهم السّويديّة الصّغيرة. وغالبًا ما كانت ماما تضرب بآل أندرسون مثلًا على عائلة أسوأ حالًا بكثير؛ كان السّيّد أندرسون يكسب عيشه من عمله أجيرًا في الأراضي، والسّيّدة أندرسون جلدٌ شاحبٌ على عظم، طيفٌ أكثر من كونها امرأة من لحم ودم.

«تقديرات اللّه غامضة، أليس كذلك؟»، سألت السّيّدة أندرسون آنا ذات مرّة: «لا بدّ أنّ والدك، ذا الثّلاث بنات، يندب افتقاره لابن. بينما هآنذي، أمّ لصبيّين اثنين ممتازين، ومستعدّة لمنح أيّ شيء مقابل أن أحظى بابنة صغيرة».

لم تعرف آنا كيف تُحير جوابًا. تُرى أيكون من الخيانة الاعتراف بأنّ السّيّدة أندرسون على حقّ؟ كان بابا يحبّ آنا وأختيها، على طريقته الهادئة، بيدَ أنّ خيبة الأمل قد تركت وصمتها عليه، مثل ندبة أو عرَج.

كان السّيّد أندرسون معروفًا بعناده، وقال البعضُ إنّ الحادثة ذنبه هو، إذ انطلق بفرسه المسكينة كما لو كانت جواد سباق عربيًّا؛ ومن له أن يلوم الدّابّة الهرِمة المهزولة على رميه عن صهوتها؟ اللّه يعاقب المتكبّرين، هكذا تهامست النّمائم، لكنّ آنا كانت تعتقد أنّ اللّه لديه أشياء أفضل يفعلها عوضًا عن التّطفّل على شؤون أهالي الرّيف؛ فحيواتهم أدنى من أن يلاحظها.

لم تخدم وفاةُ السّيّد أندرسون أيّ غاية كبرى، سوى زيادة بؤس عائلته. كانت السّيّدة أندرسون السّقيمة تجلس مفجوعةً في بيتها المتداعي المكوّن من غرفة واحدة، معرِضةً عن رهط النّسوة العطوفات اللّاتي جئن للزّيارة، بينما يقطع ابناها، جوزيف وإميل، أميالًا على الأقدام كلّ يوم بحثًا عن عمل، مع أنّ إميل بالكاد يبدو قويًّا كفايةً لرفع مِذراة[1]. شبكة العلاقات العائليّة الّتي تتكفّل عادةً بسَنْد أيّ عائلة أخرى كانت قد ضويَت منذ زمن بعيد؛ فالسّيّدة أندرسون تتحدّر من نسب صيّادي سمك شماليّين، لا أحد منهم يتلهّف لإعالة المزيد من الأفواه، وشقيق السّيّد أندرسون الوحيد هاجر إلى أمريكا قبل سنوات. كان آل أندرسون وحيدين، وحتّى ماما المتقشّفة الّتي تكتنز البنس شعرت بالأسى عليهم. حين تزوّجت فريدا من أستاذ مدرسة وانتقلت إلى ستوكهولم، وحُكيَ

(١) المذراة أو الشّاعوب: أداة زراعيّة من المعازق، لها مقبض طويل وشوكات طويلة مدبّبة متباعدة، تستخدم لرفع وقذف الموادّ السّائبة مثل التّبن وأوراق النّبات والعنب والرّوث وغيرها. (المترجم)

بكريستن لمُزارع شابّ مهتمّ بتوسيع أملاك عائلته أكثر من العمل بأرض بابا، اقترحت ماما تسوية: يُعيَّن جوزيف وإميل أجيرين جديدين لدى بابا، مقابل الطّعام وأتعاب يتمّ تقاضيها عند الحصاد.

كونها لم تحظَ يومًا بأخ، استهجنت آنا في بادئ الأمر قضاء كلّ هذا الوقت في حضرة رجلين شابّين. كانت لهما طريقتهما المختلفة تمام الاختلاف في الحركة، وكذلك روائحهما المختلفة. إميل ذو الثّانية عشرة كان أخرقَ وحييًّا، بأسنان غير متناسقة وأنف ناتئ، بالكاد يستطيع إتمام جملة دون التّعثّر بكلماته، وبدا يجد مع الخنازير والأبقار راحةً أكبر منها مع بقيّة النّاس. رغم أنّه لم يكن أصغر من آنا إلّا بعام واحد، فقد نما فيها نوع حمائيّ من التّعاطف معه، وكانت ممتنّة أيضا للمساعدة الّتي يقدّمها في أعمال المنزل، إذ إنّ ذلك ترك لها ساعات فراغ ما كانت لتحظى بها لولاه.

راحت آنا تمضي الكثير جدًّا من ساعات الفراغ تلك في مراقبة شقيق إميل، جوزيف، محاولةً فهم مشاعرها المعقّدة. على عكس إميل، كان جوزيف يبقي مسافة بينه وبين آنا والمنزل؛ يظلّ في الخارج مع بابا حتّى غروب الشّمس، مفتخرًا بالكدح في العمل طيلة اليوم. بعمر السّادسة عشرة، كانت كتفاه تمتلئان، ووجهه يتقسّى في زوايا أكثر حدّة. كانت عيناه، حين تلتقيان بعيني آنا عبر طاولة العشاء، صافيتين وزرقاوين، مثل البحيرة في الصّيف. شيئًا فشيئًا وعلى نحو واعد، بدأ يرفع يده تحيّةً حين يلمحها في مكان ما من الحقل. وعوضًا عن المرور بها بصمت، بات يتوقّف ويسألها عمّا تفعله فيما هي تشاهد نور الشّمس يضرب بيت عنكبوت، أو تبحث عن أشكال حيوانات في الغيوم.

«أنت ترين أكثر ممّا يراه بقيّتنا»، قال لها ذات يوم.

هل كان ذلك إطراءً؟ كان فستان آنا ملتصقًا بظهرها بعد قضاء الأصيل في قلع الحشائش وتقشير البطاطا، وخدّاها متورّدين من الحرّ. أرادت أن تشيح

بوجهها، بيد أنّها أرادت كذلك أن تحدّق في وجه جوزيف. بدا مهتمًّا حقًّا بما يمكن أن تقوله.

«الجميع يرون الأشياء نفسها بالتّأكيد؟»، قالت على حياء.

«آه، لكنّ معظمهم لا يأخذون الوقت لينظروا».

ابتسم جوزيف، وشعرت آنا بالبهجة والأمل والرّعب تنثال في أوصالها، كلّها دفعة واحدة. كانت تعلم أنّ ليس لديها الكثير لتقدّمه- كانت بسيطة المظهر، بشعر منهَك داكن الشّقرة وبشرة مبقّعة- لكنّ جوزيف ينظر إليها كما لو أنّهما تبادلا سرًّا. ورغم أنّها لم تستطع استحضار شيء آخر تقوله، وأنّ جوزيف سرعان ما كان يرفع معزقته ويهمّ بالرّجوع إلى الحقل، فقد شعرت بأنّهما توصّلا إلى تفاهم غير منطوق.

حرست آنا إعجابها بجوزيف مثل كنز مخبوء، لكن عندما أفضت في نهاية المطاف إلى صديقتها سونيا، قالت الأخيرة إنّه من الواضح لأيّ شخص يملك شيئًا من العقل أنّ من المقدّر لجوزيف وآنا أن يتزوّجا.

«لقد رأيتُ كيف ينظر إليك بعد الكنيسة!» شاكستها سونيا. كانت ضئيلة القدّ مفعمة بالحيويّة، ولها ضحكة فوّارة تشدّ الآخرين إليها: «سيذهب إلى أبيك قبل أن تدركي الأمر».

لم تكن آنا قد نشأت على الاعتقاد بالحبّ مشبوب العاطفة؛ كان نزوعها إلى جوزيف بسيطًا ومباشرًا، مثل حالها هي نفسها. وببلوغها ربيعها السّابع عشر، حين بدأ بابا يمرّر تلميحات عن الجيل التّالي وأحفاد يركضون بين الدّجاج، باتت آنا تأخذ كلّ نظرة يرنو جوزيف إليها بها عبر الطّاولة وكلّ إيماءة يتبادلانها في فناء الحظيرة على أنّها إقرار باتّفاقهما: أجل، أنا أختارك.

ثمّ جاءت الرّسالة من أمريكا، أولى رسالتين ستغيّران حياة آنا. كتب عمّ جوزيف، توماس، عن توافر الكثير من العمل جيّد المردود في مناشر الخشب بمينيسوتا؛ كان قد ادّخر مالًا كافيًا لرحلة جوزيف، إن أراد القدوم.

قرأ جوزيف الرّسالة على آل هالفرسون، ثمّ سألهم: «ما رأيكم؟»، وعيناه تلتمعان سرورًا.

أرادت آنا أن تقول، لا. أو، لا أعرف كيف ستبدو حياتي دونك. غير أنّها اكتفت بالإيماء بينما طقطقت ماما بسقف حلقها امتعاضًا واتّكأ بابا على كتف جوزيف ليقرأ العرض بنفسه. وفيما هم منشغلون، استأذنت آنا بهدوء وركضت إلى مخزن التّبن كي تبكي.

توقّع جوزيف من آنا أن تسعد من أجله، مثل ما ادّعت هي طيلة الوقت حتّى توديعه عند محطّة القطار. بدت السّيّدة أندرسون وإميل بنفس البؤس الّذي كانت آنا تشعر به: ناحت والدة جوزيف على أنّها قد لا ترى ابنها من جديد قطّ، وكان إميل يشعر بالغيرة لأنّه ليس ذاهبًا إلى أمريكا أيضا.

في بدء الأمر، كان غياب جوزيف لا يُحتمل؛ ألفت آنا نفسها تبحث عنه، مثل ما كانت تفعل لسنوات، وتشعر بخيبة جديدة كلّما أدركت أنّه ليس موجودًا. من وقت إلى آخر، كانت آنا تفكّر أن تفضي إلى إميل، الّذي لا بدّ أنّه يشتاق إلى جوزيف مثلها، لكنّه لم يظهر اهتمامًا بالتّحدّث إليها في مسائل شخصيّة كهذه. كان قد نما إلى طول يقارب طول أخيه إلّا أنّه نحيل صلب أكثر ممّا هو متين البنية، وذراعاه قويّتان لكن هزيلتان، وجهه متهدّل بشكل طبيعيّ في تعبير حِداديّ ونادرًا ما يبذل جهدًا لتغييره. وعلى عكس جوزيف، لم يُبدِ إميل اهتمامًا بما تفعله آنا أو تفكّر فيه؛ لم يوحِ قطّ بأنّه رأى فيها شيئًا أثار إعجابه.

الرّسالة الثّانية المغيّرة للحياة جاءت بعد أكثر من عام، عقب بضعة أشهر من وفاة السّيّدة أندرسون. كانت ماما قد أبلغت جوزيف بالنّبأ السّيّئ

بواسطة برقيّة، وتوقّعت آنا أن يحتوي الظّرف الّذي وصل بعد بضعة أسابيع من مينيسوتا على تشكّرات مهذّبة لكن موجزة؛ كان جوزيف يكتب مثل ما يتكلّم، بجمل قصيرة مباشرة. لذا فقد فوجئت حين أخرج بابا عدّة صفحات من الظّرف، وعلمت على الفور أنّ هذه الرّسالة ستكون مختلفة.

بدأ جوزيف بالتّحايا المعتادة وآماله بأن تكون جنازة والدته قد شهدت حضورًا جيّدًا، وعبّر عن أساه لفقدانها وأسفه لعدم مقدرته على القدوم. بفقدانهما كلا والديهما، كتب جوزيف، كان قد قرّر أنّه يحسن بإميل القدوم إلى أمريكا للعيش معه. لم يأتِ العرض مفاجئًا لآل هالفرسون- فقد توقّعوه منذ وفاة السّيّدة أندرسون، وكانت آنا متأكّدة أنّ إميل سيتلهّف للذّهاب. لكن حين قرأ بابا الكلمات، لم يتغيّر تعبير إميل الخالي من الانفعال.

تابع بابا القراءة بصمت، ثمّ رفع ناظريه يعلوه تعبير ينمّ عن البهجة.

«اسمعوا!»، هتف قائلًا: «هناك المزيد. يقول جوزيف: «لقد ادّخرت ما يكفي لرحلة إميل، وبدأت العمل على قطعة أرض خاصّة بي في مزرعة عمّي، وبذلك أجد نفسي في وضع مناسب للزّواج، وما من زوجة صالحة كفتاة سويديّة طيّبة»».

نظر بابا إلى ماما، ثمّ إلى آنا. صارت واعية تجاه كلّ نفس ثقيل تسحبه، شهيقًا وزفيرًا. لا يوجد إلّا سبب واحد يدفع جوزيف إلى كتابة شيء كهذا إلى والديها، سؤال واحد لا غير كان يتهيّأ لطرحه. ارتعش فم ماما؛ وراح إميل يعبث بأحد أظافره.

كانت تلك هي المرّة الأولى والأخيرة الّتي تشعر آنا فيها بسعادة كاملة صريحة.

استأنف بابا القراءة: «آمل أن توصلوا كلامي إلى امرأة شابّة أكنّ لها الإعجاب منذ زمن، حيث إنّني لست على معرفة وثيقة بوالديها...»

لم يبدُ ذلك منطقيًّا. كيف لا يكون جوزيف على معرفة وثيقة بوالدَي آنا؟ نظر إميل إلى بابا، الّذي بدا حائرًا بنفس الدّرجة.

«أطلب منكم التّحدّث نيابة عنّي إلى والد سونيا غوستافسون».

خبا صوت بابا.. سونيا؟.. شعرت آنا بالآخرين ينظرون إليها، وكلّ تحديقة تلذع جلدها.. بالطّبع.. لقد كانت سونيا جميلة واجتماعيّة؛ كانت سونيا فتاة من النّوع الّذي سيريد رجل مثل جوزيف الزّواج منه تمامًا. لم يكن لآنا الحقّ بالاستياء، أما كانت لتنتقي الخيار نفسه لو كانت محلّه؟

قرأ بابا ما تبقّى من الرّسالة بنبرة ازدادت قتامة بشكل ملحوظ. كان جوزيف قد خطّط للتّرتيبات بالفعل؛ إن ذهبت سونيا وإميل بالرّحلة نفسها سويّة، ستعتني زوجة عمّه بسونيا إلى أن يُتاح عقد الزّواج. كان ينتظر الجواب بلهفة، ويأمل أن يأتيه من قبل سونيا بذاتها. انتهت الرّسالة ببضع كلمات خُربشت على عجل جعلت صدر آنا ينقبض أسًى: «بلّغوا آنا تحيّاتي- آمل أن تبتهج بهذه الأخبار السّعيدة».

بالكاد كان ثمّة شيء من الابتهاج. طوى بابا الصّفحات ببطء ودسّها في الظّرف مجدّدًا، بينما راحت ماما تحدّق في المدفأة وصنّارتا حياكتها صامتتان. دفع إميل كرسيّه إلى الخلف وخرج من المنزل دون أن ينبس ببنت شفة، وراحت آنا تشاهده من النّافذة وهو يذرع الحقل الأماميّ، متتبّعًا الأثلام الّتي خلّفتها الحراثة بقدميه. بدا مستاءً، إلّا أنها لم تستطع التّفكير في سبب لذلك. في ما بعد، حين سألته إذا ما كان مسرورًا بذهابه إلى أمريكا، قال أجل بالطّبع، لكنّ تعبيره ظلّ حداديًّا. كم من شيم إميل، قالت آنا لنفسها، أن يكتئب من عرض سيرحّب به أيّ شخص مكانه بشدّة.

سونيا هي من اقترحت أن تأتي آنا إلى أمريكا هي أيضا. كانت قد وافقت هي ووالداها على اقتراح جوزيف بسرعة، إذ إنّ المستقبل المتوقّع لفتاة في

الرّيف السّويديّ محصور في أن تكون زوجة مزارع فقيرة يضنيها العمل، أو خادمة فقيرة يضنيها العمل. أمّا في أمريكا، فيمكن للمرء شراء أرضه الخاصّة، وإقامة عمله الخاصّ، وتحديد مستقبله بنفسه.

كانت سونيا صديقة عطوفة ومخلصة بما يكفي لتضع مشاعر آنا فوق سعادتها هي، أقسمت لآنا إنّها لم تعلم شيئًا عن نوايا جوزيف، وإنّها ستلغي الزّواج إن كان ليسبّب الألم لآنا. فأكّدت لها آنا أنّ الأمر لا يهمّ، قالت إنّها تنظر إلى جوزيف مثل أخ وإلى سونيا مثل أخت، وإنّهما زوج مثاليّ، وكلّ ذلك كان صادقًا من قلبها. أسرّت سونيا بقلقها حيال قطع كلّ تلك الرّحلة دون رفيق سوى إميل، أفلن يكون من الممتع لو تأتي آنا معهما؟ بوجود كلّ ذلك العمل موفور الدّخل في أمريكا، فقد يغريها البقاء للإقامة حتّى.

كان ذلك محض كلام، في بادئ الأمر. إذ كانت آنا تعلم أن لن يكون بمقدورها ترك الوطن إلى الأبد؛ فكونها البنت العزباء الصّغرى، هي الّتي يُتوقّع منها الاعتناء بوالديها حين يهرمان. كانت لتهرس لهما طعامهما عندما تسقط أسنانهما، وتفرّغ مرحاضيهما المتنقّلين حين يصبحان طريحَي الفراش، لكن هل سيكون من الخاطئ أن ترى شيئًا من العالم قبل ذلك؟ أن تكون قرب جوزيف مجدّدًا، حتّى لو لن يكون لها يومًا؟

كانت ماما على ارتيابها المعهود؛ مثل جزيرة حجريّة في بحر متلاطم، تحارب ضدّ التّغيير، حتّى وهو يهدّد بابتلاعها. أمّا بابا فهو من حثّ آنا على الذّهاب، فعرض أن يدفع تكاليف سفرها وقال لها إنّها ستستردّ المال عشرة أضعاف في أمريكا.

اعترف بخجل متردّد أنّه استلف قروضًا حين كان الحصاد مجدبًا؛ فلو أمكنها أن تتحصّل على معيشة جيّدة لسنة أو اثنتين، سيساعده ذلك على تصفية ديونه. حتّى إميل استطاع أن يقوم بعرضٍ مقنع للحماسة حين سألته

آنا إذا ما كان يجدر بها مرافقتهما. إمّا أنّها لم تكن تثير سخطه بالمقدار الّذي تظنّه، أو أنّه ببساطة شعر بالامتنان لوجود وجه أليف آخر من الوطن.

كانت آنا تعلم أنّها تبدو مثل يقطينة ريفيّة ساذجة في طريقها إلى غوتنبرغ. تلك كانت أول مرّة تبتعد فيها عن المنزل، وأوّل مرّة تستقلّ القطار. غير أنّ حماسة سونيا كانت معدية، إذ جلبت معها كتيّب عبارات إنجليزيّة وأصرّت أن تتمرّنا، وراحت تقهقه أمام محاولات آنا لتشكيل الأصوات غير المألوفة.

– «هاو دو يو دو؟»

– «بليزد تو ميت يو».

خلال الرّحلة البحريّة الّتي استغرقت يومين إلى ميناء هول، وعلى القطار عبر جنوب إنجلترا، وفي أرصفة ساوثهامبتون البحريّة، كانت آنا تبحر بعينيها الدّهشَتين: الضّجّة، الحشود، حجم قبّعات السّيّدات؛ لكنّ شيئًا من ذلك لم يتكفّل بتهيئتها لضخامة التّايتانيك. خطت مقتربة من سونيا وإميل وهم يستعدّون للصّعود إلى متن السّفينة، إذ شعرت بالحاجة إلى طمأنينة ذراعيهما على كلا جانبيها.

«يا له من منظر، أليس كذلك؟»، سأل إميل. كلّما زاد ابتعادهم عن الوطن، زاد تخلّيه عن تجهّمه الفطريّ؛ حتّى إنّه بدا سعيدًا بحقّ.

ابتسمت سونيا، لكن كان بمقدور آنا أن تحسّ بتوجّسها، هي نفسها كانت تشعر بما هو أكثر من توتّر بسيط وهم ينجرفون داخل دوّامة الدّرجة الثّالثة ويُساقون إلى كبائنهم. كان يتمّ إيواء النّساء العزباوات في مؤخّر السّفينة، والرّجال العازبين في المقدّمة، لذا تبادلت آنا وسونيا عبارات وداع متعجّلة مع إميل ورتّبوا للّقاء في قاعة الطّعام لاحقًا. لم تكن آنا متيقّنة تمامًا من نوع وسائل الرّاحة الّذي ستغطّيه تذاكر الدّرجة الثّالثة خاصّتهم؛ كانوا قد تبادلوا النّكات حول أنّهم سيضطرّون إلى النّوم على أراجيح شبكيّة أو فوق أكوام قشّ

على ظهر المركب. ولسرورها، كانت الكابينة وضّاءة ونظيفة، والطّلاء حديث بحيث أمكنها شمّ رائحته. كان ثمّة سريران بطابقين، يؤويان معًا أربعة ركّاب. جرّبت سونيا حنفيّة الحوض وهتفت مبتهجة: «ماء ساخن!»

فتحت فتاة ذات شعر أحمر أخّاذ الباب، تتبعها رفيقة ثدياء أقصر قامة. قالت الصّهباء شيئًا بدا مثل «هَلو!»، لكنّ لهجتها كانت غريبة فلم تستطع آنا أن تتيقّن من كونها إنجليزيّة. قذفت ذات الشّعر الأحمر حقيبتها على السّرير السّفليّ الأيمن، وطرحت سؤالًا على آنا وسونيا. حدّقت الفتاتان السّويديّتان إليها، وراحت شريكتا كابينتهما الجديدتان تقهقهان، فأشارت آنا إلى نفسها مؤخرا قائلة: «آنا، من السّويد». ومثل سرب من الطّيور الثّرثارة، سرعان ما أخذن يتبادلن التّحيّات والأسماء. كان اسم الصّهباء بريدجت، من إيرلندا؛ والأخرى هي ماري، قريبتها. كان لهما أقارب في نيويورك، والسّبب الّذي تسافران من أجله كان معقّدًا ومحيّرًا بحيث لم يقدّم كتاب عبارات سونيا أيّ عون لفهمه. لكن لم يبدُ ذلك ذا بال، إذ كان التّواجد في حضرة بريدجت وماري يجعل آنا ترغب بالضّحك دون سبب. ورغم أنّها لم تفهم الكلمات الّتي تستخدمها بريدجت، فقد فهمت جوهر ما كانت تقوله: إنّنا شابّات ننعم بالحرّيّة، وسنحظى بوقت لا مثيل له.

لم يختلط كلّ ركّاب الدّرجة الثّالثة بمثل هذه السّهولة. كان أبناء البلد الواحد يميلون إلى ملازمة مواطنيهم، وتشارك إميل كابينة مع ثلاثة رجال نرويجيّين منطوين على أنفسهم. كان يتناول الطّعام مع سونيا وآنا ويماطل في تسكّعه معهما بعده، متجنّبًا قاعة المدخّنين، حيث يقضي معظم الرّجال العازبين أمسياتهم.

كان يقول: «بالكاد أستطيع التّنفّس هناك، عدا أنّني لا أحبّ الحشود».

كانت بريدجت وماري مسافرتين برفقة مجموعة شبّان من بلدتهما- وظهر أنّ اسم كلّ واحد منهم هو براين، ممّا يثير الارتباك- بيد أنّ إميل

لم يُبدِ اهتمامًا للقائهم، أو للاستماع إلى الموسيقى الّتي عزفها بعض الرّكّاب الإيرلنديّين ذات ليلة بعد العشاء

راحت عينا سونيا تنظران بلهفة فيما يترافق الأزواج في الرّقصة، وكان إميل قد همّ بالابتعاد متوقّعًا من الفتاتين أن تتبعاه، لكنّ سونيا تلبّثت في مكانها مماطلة في الانسحاب. اندفع أحد من يسمّون براين إلى الأمام، ومدّ يديه يدعوها، فنظرت سونيا إلى آنا. لا يحسن بي أن أفعل، صحيح؟، كانت عيناها تسألان، وأجابت آنا بصمت: هيّا، استمتعي. حوّلت انتباهها من جديد نحو إميل، الّذي كان قد عبر الباب بالفعل. سيكون تصرّفًا لطيفًا تجاه سونيا أن تقوم بإلهائه، فلن يسرّه أن يرى خطيبة أخيه تراقص شخصًا آخر.

الهواء في الخارج كان باردًا لكنّه منعش بعد جوّ القاعة المكتظّ المخنوق. تبعت آنا إميل على ظهر المركب ثمّ توقّفت بجانبه عند الإفريز. انتظرت أن يسأل أين سونيا، لكنّه بدا قانعًا بالوقوف هناك بهدوء، مستمتعًا باستجمام قصير بعيدًا عن الضّوضاء. نظرت آنا إلى النّجوم وحاولت أن تجد المجموعات المتألّقة الّتي كان بابا قد دلّها عليها؛ لعلّه يكون في الخارج الآن، يحدّق في سماء اللّيل نفسها.

«أتودّين سماع الموسيقى؟»، سألها إميل: «يمكننا أن نعود، إن أردتِ».

«المكان لطيف هنا»، قالت آنا.

«هل تستمتعين بالرّحلة؟»

كان بوسع آنا أن تحسّ بالجهد الّذي يحتاجه لإجراء حوار بسيط حتّى. منذ مغادرة الحقل، بات إميل يحاول أن يهندم نفسه، فيملّس شعره الجامح ويحرص على أن تكون قمصانه مثنيّة بأناقة. ومع ذلك، كان لا يزال نفس الـ«إميل» الّذي لطالما عرفته: معقود اللّسان مع الغرباء، وأخرق مرتبك حتّى حين يتحدّث إلى آنا، رغم عهدهما ببعضهما. لم تكن آنا نفسها كثيرة الكلام، لكنّها تشعر أنّها مهذارة بالمقارنة مع إميل.

«أوه، أجل»، قالت آنا: «المركب أجمل بكثير ممّا توقّعت. غير أنّني أفتقد البيت بالفعل، كنت أفكّر في بابا لتوّي».

قال إميل: «أجل»، وكان الصّمت الّذي تبع ذلك طويلًا إلى درجة تجهّزت آنا معها لاقتراح أن يذهبا لسماع الموسيقى في النّهاية. ثمّ، أخيرًا، قال إميل: «أنا مسرور لأنّك أتيتِ».

لم ينظر إليها وهو يقول ذلك. إن كان مسرورًا، فلمَ يبدو بهذا البؤس؟

«كيف سيكون وضعنا حسب رأيك؟»، سألته: «في أمريكا؟»

كانت تأمل أن يلهي السّؤالُ إميل عن استغراقه الغامض في التّفكير، لكن لم يبدُ أنّ الأمر زاده إلّا تبلبلًا. راح يدوّر حزامه حول وسطه، كما لو أنّ ذلك سيساعده على تقويم أفكاره: «جيّد، كما أتمنّى».

كانت بريدجت لتنساق إلى التّشتّت مع رجل مثل إميل، لكنّ آنا أكثر صبرًا. «سيبدو الوضع غريبًا بادئ الأمر»، قالت: «لكنّنا سنعتاد عليه، ألا تظنّ ذلك؟ مثل حال السّفينة؛ في اليوم الأوّل لم أستطع استيعاب الطّعام على العشاء، خيارات كثيرة جدًّا! أمّا الآن، فيبدو الأمر طبيعيًّا».

أومأ إميل برأسه.

«كما أنّ جوزيف سيكون هناك».

كان التّلفّظ باسمه تجاوزًا. حاولت آنا ألّا تكرّر ذلك أكثر من اللّازم، لأن الطّرب المرافق لتصوّر جوزيف نادرًا ما كان يفوق الحزن الّذي لا مناص من أن يتبعه. راح إميل يجرّ قدميه ببطء، وانزلقت يده على الإفريز حتّى كاد يلمس يد آنا. نظرت إلى كتفيه المتوتّرتين ووجنتيه الورديّتين ففهمت على حين غرّة سبب تبلبله المرتعش. ألم تكن تشعر بعقدة لسان مشابهة في حضرة جوزيف على الدّوام؟

يا لإميل المسكين.

قال متلعثمًا: «حين يتمّ زواج جوزيف وسونيا...»

صمتٌ آخر خجِلٌ من نفسه، كما لو كان إميل يرجو أن تخمّن آنا ما تبقّى.

«أجل؟»، قالت تحفّزه. لو أنّها لم تستحثّه على المتابعة، لما تمكّن من إتمام كلامه.

«يمكننا أن نتزوّج نحن كذلك».

رغم أنّ إميل استحضر شجاعته ليعبّر عن مكنونه، لم يكن قد نظر إلى آنا مباشرة بعد. متذكّرةً لذعة الرّفض بأدقّ تفاصيلها، حاولت أن تجد ألطف طريقة لصدّه.

«فكّر في عدد الفتيات الجميلات اللّاتي ستلتقي بهنّ في أمريكا!»، قالت بابتسامة معابثة.

«لا أريد الزّواج من فتاة أمريكيّة»، أجاب إميل: «أريد زوجة سويديّة صالحة».

«مثل أخيك».

باتا يشعران الآن كما لو كان جوزيف يقف معهما، حضور غير مرئيّ ومع ذلك واضح لا لبس فيه.

«أنا لا أستعجل الزّواج»، قالت آنا.

«قولي إنّك ستفكّرين في الأمر»، انحنى إميل نحو آنا، وأصبحت عيناه تحدّقان في عينيها وتستجديانها. كرهت نفسها لتسبّبها في مثل هذا الألم، غير أنّ إيهامه سيكون

أكثر قسوة. كان إميل طفلًا في نظرها، صبيًّا مفرط النّموّ يمثّل عواطف بالغين.

«أنا ممتنّة للطفك، لكن...»

«هذا ليس لطفًا!»، لم يسبق لآنا أن سمعت إميل يتكلّم بهذا الحسم: «لقد أردت الزّواج منك منذ وقت لا أتذكّره»، تابع بتصميم غير عابئ لصمت آنا المصدوم: «لم أكن سأقول أيّ شيء قبل أن نستقرّ، أردت أن أثبت قدرتي على القيام بنفسي أوّلًا، بيد أنّني لا أريدك أن تعودي إلى السّويد... أريدك أن تبقي»، ثمّ أضاف مخفضًا صوته: «سأفعل كلّ ما بوسعي لأجعلك سعيدة».

في نزوة عرفان بالجميل، أخذت آنا يده. أرادت أن تقول له إنّها معجبة بصراحته وإنّه سيظلّ يعني لها دائمًا، لكنّ هذا قد يرفع آماله لا غير. ستبقى المشاعر الّتي تكنّها لإميل ظلًّا باهتًا لمشاعرها نحو أخيه.

«إميل، لا أستطيع. إنّ جوزيف...»

أرجوك لا ترغمني على قول هذا، توسّلت آنا بصمت. خلال كلّ تلك السّنوات الّتي أمضوها معًا، لا بدّ أن يكون إميل قد خمّن. كان موجودًا عندما كانت آنا تقتفي جوزيف في أنحاء الحقل، وتراقبه بلهفة ملتاعة. كان موجودًا عندما قرأ بابا رسالة جوزيف معلنًا اختياره لزوجته، لا بدّ أنّ إميل رأى الضّعضعة الّتي اعتلت وجه آنا.

«أعلم أنّك كنت تأملين الزّواج من جوزيف»، لم يبدُ إميل مستاءً، بل مصمّمًا وحسب: «ألا ترين؟ إن تزوّجتِ منّي، سيظلّ بإمكاننا أن نكون معًا، جميعنا. جوزيف وسونيا وأنت وأنا، سيكون لنا أن نعيش قرب بعضنا، ونربّي أطفالنا معًا، سنكون عائلة».

أخيرًا، فهمت آنا التّضمينات الكاملة لعرض إميل. كان يعلم أنّها واقعة في غرام جوزيف، وتقبّل الأمر، لأنّه تفهّمه. ألم يكن إميل يؤلّه جوزيف تمامًا مثل ما تفعل آنا؟ كان إميل معتادًا على المرتبة الثّانية.

تراجعت آنا برفق، كانت تعلم أنّ عليها رفض اقتراحه، بيد أنّها لم تكن جاهزة لأن تقول لا كذلك. ما كان لها أن تنكر المشاعر الّتي أثارها تصريح إميل، مشاعر بعيدة عن الأخوّة. في ضوء القمر، بدا إميل أكبر سنًّا، برزت زوايا وجهه، فاستطاعت آنا أن تتبيّن ملامح الرّجل الّذي سيصير إليه. ستجعله الجدّيّة الّتي أثقلت كاهله في صباه يبدو ذا طلعة مرموقة مع تقدّمه في العمر، كما أنّها كانت تعلم علم اليقين أنّه سيظلّ عطوفًا دائمًا.

أيمكن لزيجة ما أن تُبنى على حبّ مشترك لشخص آخر؟

الكثير من الأسئلة ولا إجابات واضحة، ليس الآن الوقت المناسب لحسمها.

«لستُ متأكّدة»، قالت آنا، وكانت تلك الصّيغة الأبسط للحقيقة.

بدت الرّاحة جليّة في سرعة ردّ إميل: «انتظري قدر ما تشائين، لن نعاود الحديث في الموضوع قبل أن تصبحي جاهزة».

«علينا أن ننظر ما الّذي استجدّ مع سونيا».

كان إميل متلهّفًا مثل آنا لإنهاء الحديث، إذ سارع ليتصدّر طريق العودة على الدّرج. وجدا سونيا تقف قرب بريدجت في بهو الطّعام، ووجهها متورّد. قالت سونيا لهما إنّها متعبة، وإن كان إميل قد تساءل عن سبب كون وجه سونيا نديًّا من العرق، فهو لم يسأل. تمنّت آنا ليلة سعيدة لإميل وتبعت سونيا عبر القاعة نحو قسم النّساء، في خروج سريع متهوّر ستندم عليه لبقيّة حياتها. لماذا لم تبقَ؟ كانت تريد أن ترقص، وكان إميل لينضمّ إليها لو طلبت منه. كانت لتجرّب شعور أن تطوّقها ذراعاه، ولربّما يكون ذلك كافيًا ليُعلِمها إذا ما كان بوسعها أن تنمّي حبًّا تجاهه ذات يوم. ليتها حظيت بتلك الذّكرى السّعيدة الوحيدة، لتزِنَ بها كلّ الذّكريات الأخرى.

لم يكن ثمّة رقص في اللّيلة التّالية؛ خُصِّصَت الآحاد لنشاطات أكثر ورعًا، ومع ذلك استحال قمع الدّرجة الثّالثة في صمت خاشع لائق. بعد العَشاء، بدأ عازف بيانو يدقّ ترانيم مبهجة، وغضّ المضيفون الطّرف عن حلقات لعب الورق الّتي كانت محظورةً رسميًّا في يوم الرّبّ. تصرّفت آنا وإميل بتهذيب لكنّهما كانا نائيين عن بعضهما، ولاذا كلاهما بسونيا كوسيلة إلهاء عن مستقبلهما غير المحسوم.

أخذت سونيا، المتعطّشة لمعرفة المزيد عن خطيبها، تستحثّهما على التّحدّث عن طفولة جوزيف، لذا حكت لها آنا عن مطاردته لخنزير صغير شارد ذات مرّة قاطعًا نصف القرية، ووصف إميل كم كان بوسع جوزيف أن يكون عنيدًا في صباه أمام والدهما الّذي ضاهاه عندًا. شكّلت كلّ ذكرى خيطًا ربط أكثر بين آنا وإميل. في ما مضى، ما كانت لتقول إنّها سعيدة في طفولتها قطّ، لقد تلقّت الحبّ والرّعاية من والديها وأخواتها، إلّا أنّ أيامها كانت تتابعًا مستمرًّا من الواجبات الّتي لا رأي لها فيها أو خيار. باتت آنا ترى الأشياء على نحو مختلف الآن، من خلال عينَي سونيا. فوسط كلّ متطلّبات حياة الحقل، كان ثمّة لحظات من القناعة، بل حتّى من البهجة، لحظات كانت تغضّ بصرها عنها إلى حين تذكّرتها مع إميل.

كانت القاعات العامّة تُغلق عند العاشرة في ليالي الأحد، لكنّ آنا انسحبت إلى كابينتها قبل ساعة لتدرس في كتاب العبارات الإنجليزيّة.

مع مشارفتهم على الوصول، بدأ ينتابها قلق أكبر حيال التّحدّيات الّتي تنتظر: العثور على طريقهم من الرّصيف البحريّ إلى محطّة القطار، أخذ المواصلات الصّحيحة، الحصول على توجيهات للوصول إلى البنسيون في سانت بول، حيث يفترض بجوزيف أن يلتقيهم.

آخر ذكرى واضحة لديها قبل الارتطام كانت تمرّنها على السّؤال: هل هذا هو القطار إلى شيكاغو؟

لا بدّ أنّها غطّت في النّوم والكتاب على صدرها، لأنّه سقط على الأرض بصوت مكتوم حين بدأت تستفيق. كان ثمّة أصوات تلغو أمام الباب، نظرت آنا في أنحاء الكابينة بحثًا عن ماري، الّتي كانت تُنهض نفسها.

«ما الأمر؟»، قالت ماري.

كلمات بسيطة بما يكفي لتفهمها آنا، فرفعت كتفيها. أخفضت بريدجت وسونيا رأسيهما من السّريرين العلويّين، تطرحان الأسئلة نفسها بالإنجليزيّة والسّويديّة. كانت بريدجت، ولا عجب، أول من قامت من سريرها وخرجت لتتحرّى، وحين عادت تتوثّب متحفّزة، لم تستطع آنا فهم ما كانت تقوله؛ كلمة «جبل جليديّ» ليست واردة في كتاب العبارات. سمعت المضيف الّذي يتحدّث السّويديّة يسير عبر الممرّ ويصيح: «ابقين في كبائنكنّ! ارجعن إلى كبائنكنّ!»

كانت بريدجت وماري تنتعلان حذائيهما، فتساءلت آنا إذا ما كان المضيف الإنجليزيّ يعطي تعليمات مختلفة. عندما أبقت الفتاتان الإيرلنديّتان الباب مفتوحًا كي تتبعهما آنا وسونيا، هزّت سونيا رأسها.

«علينا أن نفعل كما قيل لنا»، قالت لآنا.

وبذلك انتظرتا. لم تعرف آنا كم طال جلوسهما هناك، تستمعان إلى الجلبة في الخارج، وتتساءلان إذا ما كان المضيف سيعود أبدًا ليخبرهما ما تفعلانه. بدا أنّ ساعات انقضت، ثمّ سمعتا وقع أقدام يرنّ عبر الممرّ، ودخل إميل يتمايل من خصاص الباب. قميصه يتدلّى سائبًا من بنطاله، وشعره فوضويّ كما لم تره آنا من قبل.

«ما الّذي تفعله هنا؟»، سألته سونيا، إذ إنّ تواجد شابّ في قسم النّساء مخالفة خطيرة.

«ثمّة مياه»، كان إميل يلهث بين أنفاسه: «في المقدّمة».

تبعت آنا عينيه حين أمال رأسه إلى الأسفل، كان قماش أطراف بنطاله مبلّلًا.

- «المياه تتدفّق حول بعض الكبائن، لقد بحثت عنكما في كلّ مكان».

- «قال المضيف...»

«عليكما الخروج!»، ألحّ إميل: «الآن!»

أومأت آنا ووضعت وشاحها وانتعلت جزمتها، دون أن تتكلّف عناء ربط السّيور.

أخذت سونيا حقيبتها، متجاهلة احتجاج إميل، كانت كلّ نسوة القرية قد قدّمن لها هدايا عرس- مناديل مطرّزة وأثواب نوم، وغطاء طاولة كتّانيّ جميل- فلم تقبل أن تتركها خلفها. تبعت آنا وسونيا إميل نحو الدّرج، ومرّوا بمجموعة من النّساء يعتمرن أوشحة رأس داكنة، ويتحلّقن حول حشد من الأطفال الصّغار. سألت إحداهنّ آنا سؤالًا بلغة خشنة المخارج، فلم تستطع إلّا أن تهزّ رأسها. بدا أنّ الجميع يبحثون عن إجابات، لكنّ أحدًا لا يملك إجابة يقدّمها.

أحسّت آنا بالهواء الجليديّ ينبعث نحوها مع اقترابهم من الباب الّذي يفضي إلى الخارج. أمسك إميل بذراعها وجرّها لتحاذيه، ثمّ سأل حالما خطوا إلى ظهر المركب: «أتريان الآن؟»

كانت قطع الجليد متبعثرة على امتداد فسحة أرضيّة الخشب المكشوفة تتراكم في أكوام مرتفعة كيفما اتّفق بمحاذاة الإفريز. تعجّبت آنا من أين جاء كلّ هذا، وكيف استقرّ به المطاف على السّفينة. جعلها صوت ارتطام مكتوم قريب تقفز في مكانها، غير أنّ ضحكة تلت ذلك مباشرةً أعلمتها أنّ بريدجت كانت على مقربة. نظرت آنا باتجاه الصّوت فرأت شريكتها في الكابينة على

الطّرف المقابل، وسط مجموعة صاخبة مرحة تتقاذف قطع الجليد في ما بينها. وخلفهم، في الطّابق المرتفع المخصّص للدّرجة الأولى، استطاعت آنا أن ترى ظلالًا تتفرّج على المشهد من علٍ، والأرجح أنّهم يرفعون رؤوسهم في أنفة من هذه التّصرّفات الغريبة.

«إنّني أتجمّد»، قالت سونيا برعدة مبالغ فيها: «فلنذهب إلى الدّاخل».

صحبهما إميل إلى قاعة الطّعام، الّتي كانت قد تحوّلت إلى نقطة التّجمّع الرّئيسيّة لركّاب الدّرجة الثّالثة الحائرين. جوقة متنافرة من الأصوات البشريّة، تتحدّث بدستة من اللّغات المختلفة، تطرح الأسئلة نفسها وتتشارك نفس الأخبار غير المؤكّدة. هل كان صحيحًا أنّهم اصطدموا بحوت؟ إلى أين يفترض بهم الذّهاب؟ السّفينة على وشك الغرق... لم تتضرّر السّفينة إلّا بشكل طفيف وسرعان ما سيتمّ إصلاح الأعطال... سمعت آنا الاسم «ماركوني» عدّة مرّات، وعندما سألت إميل عن معناه قال لها إنّ عمّال الاتّصالات اللّاسلكيّة على التّايتانيك يرسلون رسائل إلى سفن أخرى قريبة. وإذ اطمأنّت، ضغطت آنا على يد سونيا.. النّجدة قادمة..

دخلت مجموعة من المضيفين، يحملون على أذرعهم أكوامًا من أغراض بيضاء ضخمة. بوغت الرّجال من قبل الرّكّاب القلقين، وراحوا يصيحون بتوجيهات بالإنجليزيّة، فتُرجمت كلماتهم على الفور لتتناقلها التّمتمات في أنحاء القاعة: سُتر نجاة، قوارب نجاة، تعليمات القبطان. ساعد إميل سونيا وآنا على شدّ أحزمة سترتيهما قبل أن يرتدي سترته.

«هيّا بنا»، قال يستحثّ الفتاتين نحو الباب، حيث كان النّاس قد أخذوا يتدافعون في نوبة جنون من أجل العبور.

قام مضيف يبدو عليه الإنهاك بتوجيه النّاس نحو درج عادةً ما كان مغلقًا ببوّابة حديديّة.

«النّساء والأطفال»، راح يكرّر: «النّساء والأطفال». وبالنّسبة إلى من لا يتحدّثون الإنجليزيّة، اتّضحت الرّسالة حين أمسك أحد البحّارة برجل حاول أن يعبر. دفع البحّار الرّجلَ بعيدًا، مسبّبًا موجة من التّعثّر والصّياح.

تنحّت سونيا عن الجمهرة المحتشدة، وقالت: «يجدر بنا البقاء معًا».

«اذهبا!»، أمرها إميل: «سأعثر عليكما لاحقًا».

في كلّ مكان حولهم، انفجرت جدالات مشابهة: آباء وأمّهات وأبناء وبنات، يحثّ واحدهم الآخر على الذّهاب أو البقاء. كانت آنا قد تقبّلت إميل وصيًّا عليها دون سؤال؛ ففي عالمها، تفعل النّساء ما يأمرهنّ الرّجال به. لكنّ ترْكه هناك، وسط البلبلة، بدا تصرّفًا خاطئًا يسحق الرّوح، لقد كان فردًا من العائلة.

استمرّت المماحكات فيما تتدفّق المياه بلا هوادة من شقّ تحت مستوى سطح البحر، دون أن يدركوا كم كان الوقت ضدّهم. وفي النّهاية، أفلت إميل تنهيدة محبَطة وقال: «لديّ فكرة».

عاد بهما مارًّا بقاعة الطّعام ثمّ صعد إلى سطح الدّرجة الثّالثة. كانت الفسحة المكشوفة مهجورة تقريبًا، في ما خلا بضعة أشخاص يتحرّكون على غير هدى عند قاعدة رافعة قائمة في وسط السّفينة، رافعة كانت تُستخدم لتحميل الأمتعة في ساوثهامبتون.

أوسع إميل خطاه نحوهم، قدماه تنزلقان على الخشب المبلّل، وتحرّكت آنا وسونيا بحذر خلفه. نادى إميل على أحد شركائه النّرويجيّين في الكابينة، وتشاور الرّجلان سريعًا في ما بينهما.

التفت إميل إلى آنا: «سنتسلّق، إلى قوارب النّجاة».

«لا يمكننا!»، احتجّت سونيا: «ذلك السّطح مخصّص للدّرجة الأولى!»

«ما الّذي سيفعلونه لنا الآن؟»، جادلها إميل: «السّفينة تغرق!»

فهمت آنا متأخّرةً لماذا كانت خطاها متقلقلة هكذا: السّفينة آخذة بالميلان. عمّقت الصّدمة والخوف حواسّها، فتشبّثت بالرّافعة تلتمس الطّمأنينة من صلابتها.

كان النّرويجيّ قد بدأ بالفعل يختبر مواطئ القدم، متحرّكًا مثل عنكبوت على قضبان الفولاذ، وثمّة رجل آخر يتزيّا بزيّ موحّد أبيض لعمّال المطبخ قد قطع نصف المسافة على الجانب الآخر. أشار إميل إلى سونيا.

احتجّت قائلة: «حقيبتي...»

«اتركيها».

بدت سونيا على وشك البكاء. وأرادت آنا أن تبكي هي الأخرى، حين فكّرت في ما كانت قد تركته في الكابينة. أفضل جواربها، قبّعتها الوحيدة، فستان يوم الأحد خاصّتها. لا شيء ذا قيمة، ومع ذلك فكلّ قطعة لا تقدّر بثمن، لأن ذلك كان كلّ ما تملك.

«سنحضرها لاحقًا»، قالت آنا.

كان للثّقة الّتي ألقت بها الكذبةَ الأثرُ المرغوب. وضعت سونيا حقيبتها أرضًا، وأمسكت بأوّل قضيب مستعرَض.

تسلّقت آنا بمحاذاتها، أيديهما وأقدامهما تتحرّك في إيقاع متردّد مشترك. حين بلغتا إفريز ظهر المركب العلويّ، انحنى النّرويجيّ وساعدهما.

توقّعت آنا أن تُقابَل بالصّياح أو تُزجَر من هناك على الفور، لكنّ النّاس الّذين رأتهم سابقًا يحملقون مشدوهين في الجليد كانوا قد اختفوا.

من نقطة الرّؤية هذه، أحد أعلى المواضع على السّفينة، كان مصير التّايتانيك واضحًا على نحو يثير القشعريرة. قيدومها يتحدّر بشدّة نحو الأسفل، على بعد بضع أقدام لا غير من الماء، وقوارب النّجاة الّتي كانت معلّقة على طول حواف السّطح اختفت.

فداحة الغياب أسكتتهم. لقد كانت قوارب النّجاة نورَهم الهادي، قناةً تُحيل خوفَهم إلى فعل. والآن، لم يكن ثمّة مكان آخر يذهبون إليه.

«لا يمكن أن تكون القوارب قد ابتعدت، يمكننا اللّحاق بها».

كان صوت إميل حازمًا، لكنّ وجهه جعل آنا تريد أن تنتحب. كان يحاول حثيثًا أن يثبت نفسه، أن يُظهر أنّه رجل يستطيع حماية النّساء اللّاتي تحت جناحه، بيد أنّه لم يكن قد تجاوز السّابعة عشرة.

انهمرت الدّموع الّتي كانت سونيا قد كابدت لحبسها في السّابق مدرارًا فوق وجنتيها: «لا أعرف السّباحة».

«ستبقيك سترة النّجاة عائمة»، قالت آنا: «وأنا سأساعدك».

لم يكن تسلّقهم المذعور على الرّافعة قد مرّ دون أن يُلحَظ، فبدأ ركّاب آخرون من الدّرجة الثّالثة يتوافدون من على الإفريز. مثل سراطين تشقّ طريقها نحو مستوى أعلى من الأرض عند ارتفاع المدّ، راحوا يعْدُون إلى مؤخّر السّفينة.

ربض إميل يثبّت ظهره على الإفريز ليضادّ انحدار سطح المركب المتزايد، وقال: «ما علينا إلّا الصّمود قليلًا بعد، إلى أن تصل سفينة إنقاذ».

تذكّرت آنا الحديث عن ماركوني وتمنّت أن يكون حقيقيًّا. انزلق أحد الكراسي مارًّا بهم، فتعاظمت دموع سونيا إلى نشيج.

لا يمكنني أن أقول لها إنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام، فكّرت آنا. ما من كلمات لطيفة بمقدورها أن تهمّش الرّعب الوشيك. بدأت ساقاها تؤلمانها من الجهد المبذول للحفاظ على انتصاب قامتها، كلّ ما استطاعت فعله هو أن تعتصر كتفي سونيا وتقول لها الكلمات الّتي تخفق في أوصالها مثل نبض القلب: «جوزيف في انتظارنا، فكّري في جوزيف».

كانت قدم إميل مستندة إلى قدم آنا، ووزنه يدفعها. راحت تشاهد بوز السّفينة ينزلق داخل الماء. وتحت سطح المركب، كانت الأطباق تتهشّم في صلصلة بعيدة، إلّا أنّ صوت إميل كان ثابتًا وهو يقول لهما إنّ الطّريقة الأكثر أمانًا للخروج هي أن يلتقوا بالبحر طواعيةً، أن يقفزوا إليه قبل أن يسحبهم هو.

خرجت موافقة آنا على شكل تنهيدة أكثر ممّا هي كلمة. كانت قد أصبحت على ركبتيها، وسونيا منهارة إلى جانبها. يدها خَدِرة من فرط تشبّثها بالإفريز. حينذاك خفّ الضّغط، عندما أمسك إميل آنا بإحدى ذراعيه وسونيا بالأخرى. أنزلت سونيا وجهها نحو حضنها، لكنّ آنا شاهدت المياه تتقدّم ببطء لا يكلّ فيما تنزلق التّايتانيك بوداعة إلى قبرها.

«الآن!»، صاح إميل.

انزلقوا على أرضيّة السّطح، ثمّ سقطوا في الماء، كومةً من الأطراف البشريّة. انطلق البرد عبر أوصال آنا في ألم منفجر؛ أرادت أن تصرخ، لكنّها لم تستطع. كانت سونيا تطفو قربها، عيناها شنيعتا الضّخامة في ضوء القمر، وإميل على مقربة. كان من المستحيل استيعاب جسامة ما يحدث: السّفينة الغارقة، الحُطام الطّافي حولهم، الصّراخ الّذي يفلّع سكونَ اللّيل القطبيّ.

«الأضواء»، لهث إميل، وأنفاسه تشكّل غيمة من الدّخان.

البرد يبطئ أفكار آنا كما يفعل بحركاتها، رأت وهجًا متقطّعًا وسط حطام الأغراض المحيط بها فحاولت أن تتبيّن ماهيّته. يراعة؟.. ملاك؟.. ثمّ تذكّرت- كما لو أنّها تحلم- ما كان إميل قد قاله عن قوارب النّجاة؛ لقد كان الوميض البعيد فانوسًا.

حاولت آنا أن تَحجب في ذهنها صراخَ الرّكّاب الّذين ما زالوا متمسّكين بالإفريز، يكافحون للتّشبّث بسفينة ستتخلّى عنهم قريبًا. مدّت نفسها إلى الأسفل، مستحثّة ساقيها الخدرتين على مطاوعة أوامرها العقليّة. ركلت جزمتها لتتخلّص منها- حمدًا لله أنّها لم تربطها!- ورفعت تنّورتها، ثمّ دسّت أطرافها في سترة النّجاة. راحت تدفع المياه براحتيها، بحزم وثبات، كما علّمها بابا. وببطء، وجدّ كبير، أخذت آنا تسبح. لكنّ إميل لم يستطع أن يجاريها. كان متشبّثًا بسونيا، الّتي تبثّ شفتاها المرتجفتان نشيجًا ثابتًا خفيضًا، فلم تكن حركاته المحمومة تسحبه إلى الأمام. لن يتمكّن من المضيّ بسونيا مسافة كافية.

احتاجت آنا إلى استحضار كلّ ما تملك من قوّة للتّفكير، ناهيك عن التّكلّم.

«سأحضر القارب».

شعرت بثقل شفتيها، وكانت وجنتاها متخشّبتين؛ خرجت الكلمات مختلطة. لكنّ العرفان بدا على سونيا- حتّى أنّها حاولت الابتسام- فشدّ جهدها من عزيمة آنا.

كانت آنا واعية على نحو باهت بالانهيارات وأصوات الصّرير المعدنيّ مع تشقّق التّايتانيك، إلّا أنّها لم تنظر إلى الوراء. انفجر جؤار صاخب ملأ الهواء حولها، وماج المحيط على أثره. انهال الماء المالح عليها من كلّ صوب، وراح يمرجحها ويشدّها إلى الأسفل؛ الفزع يبهرها، ورئتاها تصرخان طلبًا للهواء.

إنّها في السّابعة من عمرها، في البحيرة، تغرق. ثمّ انبثق رأسها من الماء، تعوّمها سترة نجاتها. تجرّعت الهواء المصقع، وسفعت برودتُه حلقها.

كانت سونيا تصرخ، صيحاتها تنضمّ إلى مئات أخرى في جوقة من الذّعر. الأمواج سحبتها بعيدًا هي وإميل، وشاهدتهما آنا يكدحان للعودة إلى جوارها. إميل متشبّث بسونيا، أنفاسه ثقيلة للغاية، ودّت آنا لو تقول له أن يصون قواه، لكنّها لم تستطع تحريك شفتيها. أخذت تبحث بلهفة عن الضّوء، وحين انجرفت كتلةٌ ثقيلة نحوها لترتطم بها، لم تجفل ولو قليلًا لمّا رأت أنّها رجل ميت، وجهه متهشّم إلى عظام ودماء. لقد عاودها المنظر بعد سنوات، في كوابيس، لكنّها تلك اللّحظة كانت منيعة ضدّ فظاعات كهذه، كلّ ما يهمّها هو من ما زالوا أحياء.

كان وجه إميل محمرًّا، وشعره- على غير العادة- ينساب أملس فوق جبهته. بدا أكبر سنًّا بكثير، كما لو أنّ كلّ دقيقة مذ غادروا السّفينة زادته عقدًا من الزّمن. كان يحاول أن يقول لها شيئًا، وأومأت آنا كما لو أنّها تفهمه. تمنّت لو يكفّ عن محاولته الكلام؛ كان ذلك يكلّفه جهدًا بالغًا. دفعته موجة لطيفة إلى الأمام، واستطاعت آنا أن تسمع الحشرجة في صوته.

«أنا آسف»، كان يغمغم: «أنا آسف».

على حافّة نطاق رؤيتها، لمحت آنا وميضًا من الضّوء. فتلت رأسها نحوه وظنّت أنّها رأت حدود جسد بشريّ، بحّار، يحمل قنديلًا.

«إنّهم قادمون»، صاحت بإميل: «القارب قادم».

جثمت سونيا بثقلها على صدر إميل، ورأسها فوق كتفه. هل أصيبت؟ كانت آنا تعلم أنّها أملهم الوحيد في الإنقاذ؛ عليها أن تتابع الرّكل وتحريك ذراعيها، حتّى لو لم تعد تستطيع أن تحسّ بأطرافها.

راحت تفكّر في جوزيف، ظلٌّ ذهبيّ أغبش في أمريكا متخيَّلةٍ من مراع لا تنتهي. لا يمكن أن يخسر زوجته المستقبليّة وأخاه في ليلة واحدة، لن تسمحَ أن يقاسي هكذا ألم. أرجوك، راحت تتوسّل إلى الله: أنقذ سونيا وإميل، إنّني أقدّم حياتي عن طيب خاطر في مقابل حياتهما.

لم يعد إميل يحاول أن يسبح، راح ينساب مثل ورقة على الماء، مسلّمًا نفسه للتّيّارات، ذراعاه تطفوان على جانبيه بلا فائدة. كانت سونيا قد رحلت. مدّت آنا يدها والتقطت يد إميل، كان لحمها مثلّجًا إلى درجة أنّها لم تشعر ببرودة لحمه. يده صلبة وقويّة، يدٌ اعتادت على حمل أعباء الآخرين، يدٌ ما كانت لتفلتها أبدًا.

«تعال»، نخرت آنا، وأخذت تركل وتركل، حواسّها كليلة بحيث لم تستطع أن تميّز إذا ما كانت تحرز أيّ تقدّم. الماء يلتفّ حولها مثل عناق، وثمّة مجذاف يناوش كتفها.

نادى صوتٌ، وأطبقت أصابع صلبة على ذراعها.

مثل بابا تمامًا، قالت آنا لنفسها، بينما ينزلق إميل مبتعدًا.

لجنة مجلس الشّيوخ الأمريكي للتّجارة
التّحقيق في كارثة سفينة التّايتانيك

الخميس، ٢٥ إبريل ١٩١٢

شهادة إدموند هيلي، بحّار

السّيناتور بيركينز: على متن أيّ قارب غادرتم السّفينة؟

السّيّد هيلي: رقم ٢١، سيّدي.

السّيناتور بيركينز: من كان المسؤول؟

السّيّد هيلي: أنا، سيّدي.

السّيناتور بيركينز: كم عدد الرّكّاب الّذين كانوا معك على متن القارب؟

السّيّد هيلي: ثلاثة عشر، سيّدي.

السّيناتور بيركينز: هل كان للقارب أن يستوعب المزيد؟

السّيّد هيلي: أجل، سيّدي. عدد إضافيّ لا بأس به.

السّيناتور بيركينز: لماذا لم يتمّ تحميل قارب النّجاة كامل استيعابه؟

السّيّد هيلي: لم أتبيّن السّبب يا سيّدي، الضّبّاط هم الّذين قرّروا من سيركب.

السّيناتور بيركينز: ما الأوامر الّتي تلقّيتها لدى مغادرة السّفينة؟

السّيّد هيلي: أشار السّيّد مردوك، الضّابط الأوّل، نحو ضوء بعيد وقال إنّها سفينة أخرى جاءت لإنقاذنا. كان يفترض بنا توصيل ركّابنا إلى هناك والعودة من أجل المزيد. استغرق تحريك القارب بشكل صحيح بعض الوقت، وحين بحثنا عن الضّوء، كان قد اختفى.

السّيناتور بيركينز: والتّايتانيك؟

السّيّد هيلي: التّايتانيك اختفت هي الأخرى.

السّيناتور بيركينز: هل سمعت أيّ صرخات من أناس في الماء؟

السّيّد هيلي: أجل يا سيّدي، صرخات مروّعة.

السّيناتور بيركينز: هل استطعتم إنقاذ أيّ منهم؟

السّيّد هيلي: لقد سبحت فتاة سويديّة نحونا، فقمنا بانتشالها. كان ذلك بعد غرق السّفينة بقليل.

السّيناتور بيركينز: هل استطعت أن ترى آخرين في الماء؟

السّيّد هيلي: لم يكن قنديلنا يعمل كما ينبغي، وكانت الرّؤية صعبة. بيد أنّي سمعت أصواتًا، على مقربة. رأيت أنّه يجدر بنا محاولة الوصول إليهم، لكنّ اقتراحي قوبل باعتراضات من بعض الرّكّاب، تخوّفوا من أن تغمرنا المياه إن حملنا المزيد على متن القارب.

السّيناتور بيركينز: هل أعطيت الأمر بالمغادرة؟

السّيّد هيلي: لم يتمّ إعطاء أيّ أوامر. بدأ رجلان على متن قاربنا بالتّجذيف نحو قوارب النّجاة الأخرى، لم يعترض أحد سوى واحدة من الرّاكبات، أمّا البقيّة فكانوا متلهّفين للمضيّ.

السّيناتور بيركينز: في تلك الأثناء، هل كنت لا تزال تسمع صيحات الاستغاثة؟

السّيّد هيلي: أجل يا سيّدي.

السّيناتور بيركينز: إلى متى ظللت تسمع صيحات كتلك؟

السّيّد هيلي: استمرّت مدّة معتبرة.

(طلب الشّاهد استراحة قبل متابعة الإجراءات ليستعيد زمام نفسه)

السّيّد هيلي (يتابع): أكره أن أتفكّر في الأمر يا سيّدي، كان ذلك أكثر صوت سبق أن سمعته ترويعًا.

القسم الثّاني
بعد

تشارلوت

سبتمبر ١٩٣٢

«لن تخمّني من لقي حتفه!»، هتف تيدي رانجر.

كانت تشارلوت بالكاد تستطيع سماعه بسبب ضوضاء الأصوات المتنافرة المعتادة في مكتب لندن ريكورد: رنين الهواتف، الطّقطقة المعدنيّة لمفاتيح الآلات الكاتبة، النّكات السّاخرة للمراسلين الصّحفيّين الّذين يضربون على هذه المفاتيح. استطاعت تشارلوت أن تستجمع تعبيرًا ينمّ عن اهتمام فاتر؛ لو أنّ أحدًا ذا أهمية حقيقيّة مات، لكان تيدي يجأر بالأوامر بدلًا من التّهادي على مهله نحوها.

رفع تيدي برقيّة بيده: «تشارلز فان هاوزن، قبل يومين».

لا يمكن أن يكون الإحساس الّذي انتفخ داخل تشارلوت أسًى. لقد انقضت عشرون سنة على آخر مرّة رأت تشارلز فان هاوزن فيها، وحتّى حينذاك، بالكاد كانا يعرفان بعضهما. ومع ذلك فقد استقرّ الخبر في جسدها مثل تفشّي مرض فجائيّ، فأبطأ منعكساتها وأفكارها. ظهرت صورة، واضحة مثل مشهد ثابت من فيلم، لتشارلز في قارب النّجاة، متشبّثًا بمجذاف، ووجهه محمرّ من الجهد والبرد. ما كان يُفترض أن تعبأ تشارلوت بموته، لكنّها فعلت.

كان تيدي، وما هو بالأحمق، ينظر إليها بنفس التّعبير الرّاعش الّذي يعلوه كلّما ترسّخت شائعة دسمة ما لتصير إلى حقيقة: «هل كنت تعرفينه؟»، سألها.

«ليس هنا»، غمغمت تشارلوت.

أشاحت بوجهها وأشارت إلى تيدي كي يتبعها، ثمّ سارت به إلى باب كُتِب عليه «ثيودور رانجر، رئيس التّحرير»، وأومأت إلى سكرتيرته حين مرّا بها. لدى دخولهما، جلست تشارلوت على الكرسيّ المقابل لمكتب تيدي وأسندت ظهرها. لو كان ثمّة أيّ أحد آخر في الغرفة، للزمت طرف مقعدها في تأهّب محتشم، لكن لم تكن هناك حاجة إلى مراعاة الرّسميّات حين يكونان بمفردهما.

«ليظنّن المرء أنّ هذا مكتبك أنت، لا مكتبي»، زجرها تيدي.

- «كان يمكن أن يكون كذلك، لو أنّني رجل».

- «ألم تندثر المتبجّحات بحقّ المرأة في الاقتراع مع اندثار التّنانير الضّيّقة الّتي تسبّب العرج؟ أم أنّ موضتهنّ قد عادت؟»

شعرت تشارلوت كما لو أنّها تخلع حذاءً ضيّقًا. هنا، على انفراد، لم تكن مضطرّة إلى مخاطبة تيدي بـ«السّيّد رانجر» أو الإذعان لآرائه؛ كانت تتمتّع بحصانة تاريخهما المشترك. لقد تضيّقت صدرات تيدي خلال السّنوات الّتي عرفته تشارلوت فيها، مثل ما تبدّلت طلعتها الّتي كانت أخّاذة ذات زمن، لكنّهما بلغا كلاهما مستوى من النّجاح كان ليسرّ النّسختين الشّابّتين منهما. في الحادية والأربعين، باتت تشارلوت تعلم أنّها لم تعد جميلة، بيد أنّها أجادت ثاني أفضل الخيارات. فمن خلال استثماراتها في أفضل الملابس ومصفّفي الشّعر ضمن إمكانيّاتها المادّيّة، كانت تنضح بأناقة عفويّة، ذات تأثير لا يتحقّق إلّا بإخفاء المجهود الّذي وراءه.

«أخبريني»، قال تيدي منتقلًا دون تمهيد إلى نبرة المدير الجلفة الّتي يستخدمها في الاجتماعات: «أنت، وفان هاوزن».

«كنّا على متن قارب النّجاة نفسه»، قالت تشارلوت.

كان لهذه المعلومة أثر مبهج جليّ على تيدي: «أحقًّا؟»

«بالكاد دار بيننا حديث»، من الأفضل أن تسحق آماله وتسدّ الطّريق على أيّ أسئلة أخرى: «ما الّذي حلّ به؟»

«لا أدري، عدا أنّ موته كان فجاءة. يُفترض أنّه كان في مثل سنّنا، ألا تظنّين؟» أومأت تشارلوت موافقة. كان يبدو أكبر بكثير حينذاك، وافترضت أنّ المال هو السّبب. ترعرع ولديه من يُعنى بخدمته، مجرّد ذكر اسمه يستحضر الإيماءات والانحناءات المعجبة، لقد وُلد متمتّعًا بالثّقة الّتي استغرقت تشارلوت سنوات كي تبنيها لنفسها.

«أفضّل ألّا أكتب النّعي، إن كان هذا ما تفكّر في طلبه»، قالت تشارلوت.

«أوه، الأمر يستدعي أكثر من ذلك»، قال تيدي: «إنّه سبق صحفيّ كبير: أحد أغنى الرّجال في أمريكا، النّاجي سيّئ السّمعة من غرق التّايتانيك، الّذي لم يستطع دحض الشّبهات الّتي كلّلت حياته الوجيزة للغاية».

«يبدو أنّك كتبت المقال وانتهى الأمر».

«بوسعي أن أفعل»، قال تيدي: «لكن فكّري كم سيكون ذلك أفضل مع لمستك الخاصّة. كيف كان حقًّا؟ وزوجته... هل كانت في قارب النّجاة هي الأخرى؟»

أومأت تشارلوت. تذكّرت إيسمي في مقدّمة القارب، متلفّعة بالفراء، تتشبّث بذراع تشارلز. وكيف كانت تهتف بتشارلوت كي تهدأ، ويتلوّى وجهها في تعبير يشي بذعر مستفَزّ.

«أتظنّين أنّها ستوافق على التّحدّث إليك؟»، سألها تيدي.

رمقته تشارلوت بأقسى خزراتها: «نحن لسنا صديقتين».

- «سيكون ثمّة مبلغ محترم في الموضوع. ستدفع نيويورك إكسبرس ما فتح ورزق مقابل الحقوق الأمريكيّة للمقابلة، وسأحرص أن يتمّ تعويضك بشكل لائق، علاوة على أنّك ستحصلين على رحلة مجّانيّة إلى نيويورك. فلمَ لا تصنعين منها إجازة؟ يمكنني أن أؤمّن لك عطلة لبضعة أسابيع، إن أردتِ».

- «أخبار التّايتانيك أخبار قديمة، لا أحد يأبه بها».

- «قرّاؤنا يحبّون الرّجوع إلى الفضائح الجيّدة، وأنت تعرفين هذا أكثر من غيرك».

الفضائح، في نهاية المطاف، هي تخصّص تشارلوت. إذ كانت تتمتّع بموهبة في الاحتفاء بنخبة المجتمع ونقدهم نقدًا لاذعًا في آن معًا، فتُحوّل أحداث حيواتهم المنزليّة بسرّائها وضرّائها إلى قطع ميلودراميّة تليق بالأوبرا الفاخرة. ولو أنّ المتوفّى شخص آخر غير تشارلز فان هاوزن، لكانت تشارلوت قد أنهت عمودها الصّحفيّ خلال ساعة. وبالفعل، كانت أفكارها السّديميّة قد بدأت ترتّب نفسها في جمل: «الوريث الوسيم لثروة مصرفيّة بارزة في بوسطن، فان هاوزن الّذي نجا بأعجوبة من غرق التّايتانيك، بمصير سيطارده خلال سنواته اللّاحقة. إذ رغم أنّ إنقاذ فان هاوزن ألقاه في حضن الغرام، ما كان له أن يهرب من السّؤال الّذي خيّم على ما تبقّى من حياته: لماذا عاش هو بينما هلك كثيرون غيره؟»

لكنّ هذا لم يكن من نوع المقالات الّذي يمكن لتشارلوت أن تصوغه باستخدام مستحضرها المعتاد من الكليشيهات والعواطف المبتذلة. الكتابة عن تشارلز فان هاوزن ستعني ركوب سفينة وعبور الأطلسيّ، شيئًا كانت تتجنّبه منذ عودتها إلى إنجلترا في ربيع ١٩١٢. ستعني مواجهة إيسمي ومطالبتها بأن تعيش إحدى أسوأ ليالي حياتها من جديد. ورغم ذلك، لم تستطع تشارلوت إلّا

أن تتساءل ما الّذي كان قد حلّ بهما، هل كان تشارلز وإيسمي سعيدين؟ هل توصّلا إلى التّصالح مع ماضيهما؟

طوال عشرين عامًا، تعمّدت تشارلوت تجنّب التّفكير في قارب النّجاة، لكن الآن ثمّة شُدَفٌ من الماضي تناديها، تتملّق لها كي تنظر إلى الوراء ولو لمحًا. فكّرت في الفتاة السّويديّة آنا، السّيّدة تريلوني وطفليها المرتاعَين، السّيّد هيلي البحّار الّذي لطالما اعتزمت أن تشكره بطريقة لائقة لكنّها لم تفعل قطّ.. ما الّذي حلّ بهم؟

ربّما، على الأقلّ، كان من الآمن أن تتذكّر.

«حسنًا»، قالت تشارلوت: «الأفضل أن أذهب دون أن أكتب إلى السّيّدة فان هاوزن، فأباغتها. لكنّني أحيطك علمًا، من الوارد جدًّا أن تصفق الباب في وجهي».

«لن يحدث هذا معك يا عزيزتي»، قال تيدي متهلّلًا: «أنا أثق بقدرتك على الإقناع».

سأجعل ماكلارين يرتّب لتواصلك مع الإكسبرس»، عادةً ما كان تيدي ونظيره في نيويورك يتشاركان الموارد والنّصائح ويشجّعان على السّرقة الفكريّة الّتي يقوم بها مرؤوسوهما من حين إلى آخر: «متى يمكنك أن تغادري؟»

إن كانت تشارلوت ستذهب إلى أمريكا حقًّا، فهناك التزام واحد تتعامل معه قبل ذلك.

- «سأحتاج بضعة أيام كي أرتّب أموري، لنقل يوم الاثنين».

- «جيّد جدًّا، كلّفي أغنيس بإجراء التّرتيبات».

وقفت تشارلوت تتهيّأ للمغادرة، لكنّها قبيل بلوغ الباب توقّفت واستدارت إلى الخلف.

«عليك أن تلفّق سببًا وجيهًا لإرسالي، لا أريد لأحد أن يعرف أنّني كنت على متن التّايتانيك».

السّبب الوحيد الّذي جعل تيدي يعرف هو أنّه كان هناك، في تلك اللّيلة الموحشة من إبريل حين وصلت كارباثيا إلى نيويورك. المطر والبرد جعلا معظم النّاجين من التّايتانيك يلزمون مكانهم تحت ظهر المركب، غير أنّ تشارلوت وبضعة آخرين تجمّعوا على الإفريز ليشاهدوا نهاية الرّحلة. لم تكن صورة أفق المدينة المضاءة على قدر المنافسة مع الطّقس، ممّا بهّتَ الأضواء محوّلًا إيّاها إلى سديم غائم. كان ذلك بعيدًا جدًّا عن الوصول الحماسيّ الّذي تخيّلته تشارلوت ذات زمان، فلم تعد قادرة على دحر السّؤال الّذي تعقّبها طيلة الأيام الأربعة الماضية: ماذا الآن؟.. كانت تحتاج إلى المال، تحتاج إلى خطّة، لكنّها اعتمدت على ريج في كلّ ذلك. ماذا عساها تفعل دونه؟

لدى اقتراب السّفينة من الرّصيف البحريّ، ضجّ حشدٌ من القوارب السّريعة يمخر باتجاه بدن كارباثيا. فتق وميضُ الكاميرات الظّلام، وراحت أصوات الصّيحات تتوارد من ظلال بشريّة على متونها.

«هل أنتم من التّايتانيك؟»

«مئة دولار تقدّمها صحيفة نيويورك وورلد مقابل لقاء حصريّ!»

«هيّا، اقفزوا، سننتشلكم. أسهل مال ستجنونه يومًا!»

فكرة القفز جعلت تشارلوت تشعر بالغثيان، غير أنّها لم تدر ظهرها. كان ثمّة شيء آسر في فظاظة هؤلاء الرّجال. منذ الغرق، باتت تشارلوت تشعر أنّها مشلولة، تتنفّس وتأكل بشكل ميكانيكيّ، وبالكاد تتحدّث. كان الرّكّاب على متن كارباثيا ودودين، يقدّمون كبائنهم وملابسهم الزّائدة بتعابير اهتمام صامت.

بالنّسبة إلى تشارلوت، بدوا مثل ملائكة، مخلوقات طيّبة النّيّة لكنّها ليست حقيقيّة تمامًا. سمعت كلامًا يشير إليها بـ«ناجية» فوجدت المصطلح يلائمها بدقّة؛ كان كلّ ما فعلته هو أنّها لم تمت. أفكارها، عواطفها، مطامحها- كلّها تجمّدت بسبب ما مرّت به.

والآن، فيما هي تنظر إلى الصّحفيّين، بدأت تشارلوت تدفأ. هذه هي أمريكا، نشيطة لا تهاب، حتّى في وجه المأساة. لم ترغب بالتّحدّث إلى المراسلين- لم ترغب بالتّحدّث عن التّايتانيك، أبدًا- لكنّها أُعجبت بالحماسة المتوقّدة الّتي حثّتهم على الخروج في مثل هذه اللّيلة البائسة. كم عساه يكون مثيرًا، الاندفاع إلى مسرح الأحداث الدّراماتيكيّة، دون معرفة بما قد يجيء به اليوم التّالي. تمنّت تشارلوت، بكلّ اللّهفة، لو يتسنّى لها أنً ترى العالم من خلال أعينهم التّوّاقة الفضوليّة.

مع اقتراب السّفينة أكثر من رصيف كونارد البحريّ، رأت تشارلوت أن ثمّة جمهرة قد تجمّعت. في كلّ اتجاه، على مدّ بصرها، كان المتفرّجون يحتشدون، ووجوههم تلوذ تحت مظلّات داكنة. لم تدرك قبل تلك اللّحظة أنّ أصداء خبر خسارة التّايتانيك كانت قد تردّدت عبر القارّات، وأنّ وصول كارباثيا منح عشرات الآلاف من النّيويوركيّين فرصة للتّعبير عن كربهم. حين نزلت تشارلوت من المعبر الشّبيه بالنّفق إلى منطقة الاستقبال على الرّصيف، شعرت بأنّها تُنتهك من قبل الأضواء وصيحات من يفتّشون عن أحبابهم. كان أحد المضيفين قد أخبرها أن ثمّة مؤسّسة خيريّة للسّيّدات ستساعد أيّ امرأة لم تلقَ من يستقبلها، لذا أومأت تشارلوت بامتنان حين سألتها امرأةٌ متصلّفة في منتصف العمر إذا ما كانت تحتاج إلى مساعدة.

قُدّمت لها القهوة، ثمّ صُحبت إلى غرفة مليئة بثياب التّبرّعات. أخذت تشارلوت فستانًا صوفيًّا بسيطًا وزوجًا من الجوارب بينما راحت نساء أخريات حديثات الزّواج يبحثن في الأكوام عن ملابس حِداد مناسبة؛ لم يكن عدد

الثّياب السّوداء يقارب الكفاية. بعد ذلك أُخذت النّساء إلى سيّارات أجرة وقيد بهنّ نحو فنادق ينزلن بها ريثما يتسنّى المضيّ بترتيبات السّفر لهنّ.

حاولت تشارلوت أن ترى شيئًا من المدينة بينما تعبر السّيّارة سريعًا في الشّوارع شبه الخاوية، إلّا أنّ كلّ ما مرّت به لم يبدُ أكثر من مصابيح غبشاء وواجهات محالّ مظلمة، رجال ونساء يركضون مندفعين ومعاطفهم المطريّة ترفرف عند ربلات سيقانهم. حين توقّفت سيّارة الأجرة عند فندق مونتريال، احتشد حولها جمعٌ من الرّجال في بدلات مشعّثة.

«ناجية من التّايتانيك؟ ناجية من التّايتانيك؟»

«هل من سيّدات إنجليزيّات؟ ستدفع صحيفة الرّيكورد مقابل قصصكنّ».

ميّزت تشارلوت اللّهجة من فورها: لندنيّ جنوبيّ تعلّم إضفاء شيء من التّهذيب على كلماته. أدارت ظهرها للصّوت- لم تكن قد رأت وجه الرّجل- وهرعت إلى دفء اللّوبي الوادع، حيث كان صفّ من الحمّالين والخادمات ينتظرون بتعابير تنمّ عن ترقّب فضوليّ. انضمّت تشارلوت إلى مجموعة من رفيقاتها النّاجيات، محرَجةً من شعورها الأشبه بشعور حيوان معروض في حديقة حيوانات. سمعت امرأة تنبّه ابنتها الصّغيرة: «لا تخبري أحدًا أنّك كنت على متن التّايتانيك».

أعلمهنّ مندوبٌ مرهَق تعلوه سيماء الاعتذار أوفدته شركة وايت ستار لاين أنّ جميع الرّكّاب سيبقون في نيويورك في الوقت الحاليّ، وفقًا لأوامر الكونغرس الأمريكيّ.

ستقوم الحكومة بإجراء تحقيق في حادثة الغرق، وعلى الشّهود المحتمَلين أن يظلّوا متوفّرين من أجل الاستجواب. أوصلهنّ الرّجل، بطريقة ملتوية، إلى فهم أنّ احتمال استدعائهنّ ضعيف؛ إذ لم تكن شهادة أرامل الدّرجة الثّانية على نفس أهمية شهادة النّاجين من الضّبّاط وركّاب الدّرجة الأولى المعروفين.

وخلال ذلك الوقت، سيتمّ دفع نفقات غرفهنّ وطعامهنّ، إضافة إلى تكاليف القطار إن خطّطن للسّفر على متنه، كما سيتمّ الحجز للرّاغبات منهنّ بالعودة إلى إنجلترا في رحلة وايت ستار التّالية.

وهذا ما ستفعله هي، قرّرت تشارلوت متبرّمة. ما الخيارات الّتي تملكها؟ لم يكن ثمّة شيء لها في نيويورك، ليس دون ريج. لا يمكنها القيام بعمليّة نصب وحدها في بلدة لا تعرفها، كما أنّ توقها للمغامرة كان قد ذبل في عرض الأطلسيّ. خالتها لن تمانع احتضانها، وسيكون بوسعها الانضمام إلى أخويها في الرّيف. هي لم ترغب يومًا في حياة قرويّة، لكنّه المكان الوحيد الّذي أمكنها أن تتخيّل بدايتها من الصّفر فيه.

تناولت أرامل التّايتانيك الفطور معًا في الصّباح التّالي، واتّفقت معظمهنّ أنّه سيكون من الأفضل البقاء داخل الفندق، بعيدًا عن الأسئلة والتّحديقات. كان المطر قد توقّف، وتوهّج نور الشّمس عبر نوافذ قاعة الطّعام. لم ترغب تشارلوت أن تبقى حبيسة غرف الفندق وسكونها المخمليّ؛ أرادت أن تكون في الخارج، ظلًّا مجهولًا وسط الحشود المتدافعة الصّاخبة. إن كانت هذه هي المرّة الوحيدة الّتي ستزور فيها نيويورك، فلمَ لا ترى شيئًا منها؟

كان ثمّة مراسلان متّكئان على طرف البناء يتحدّثان حين خرجت تشارلوت من الباب الأماميّ، ميّزت صوت الأطول قامة بينهما؛ الإنجليزيّ التّابع لصحيفة الرّيكورد. كان ذا شعر فاتح اللّون وقامة ممشوقة، واعتدل في وقفته حين رآها.

«أنت بعيد جدًّا عن الوطن»، قالت تشارلوت، تاركةً للهجةِ طفولتها أن تظهر للعلن.

تبدّل تعبير المراسل من الاهتمام الفاتر إلى الشّديد: «يمكنني قول الشّيء نفسه عنك يا سيّدتي».

قال الرّجل الآخر- وهو أمريكيّ- من غير تفكير: «هل أنت إحدى سيّدات التّايتانيك؟»

هزّت تشارلوت رأسها أن لا، فلوّح الإنجليزيّ- الّذي لا بدّ خمّن أنّها تكذب بيد أنّه لم يفضح الأمر- لزميله بإيماءة رادعة ومستأثِرة معًا: دعها وشأنها؛ إنّها لي، ثمّ اقترب نحو تشارلوت وتبعها حين أومأت له بما يدلّ على العرفان. لو أنّه طفق يطرح الأسئلة حينذاك- لو أنّه استفزّها بأيّ طريقة- لكانت أسرعت من خطوها وتركته خلفها، لكنّ صمته المحترم منحها وقتًا للتّفكير. تذكّرت تشارلوت شرارة الحسد الّتي اتّقدت حين رأت الصّحفيّين ينادون من الماء، كان هذا الرّجل يشكّل مدخلًا إلى ذلك العالم.

توقّفت تشارلوت عند نهاية الشّارع وتكلّمت دون أن تنظر إلى المراسل: «سأتحدّث إليك. لكن ليس في الفندق، في مكان آخر».

فقال: «ثمّة مقهى عند النّاصية، هل يفي ذلك بالغرض؟»

من كلمة «مقهى»، توقّعت تشارلوت صالة لشرب الشّاي، تدور فيها الأحاديث الخافتة على طاولات أنيقة تعلوها أوانٍ خزفيّة تضاهيها أناقة. غير أنّ المنشأة الّتي دخلاها كانت صاخبة مثل نادٍ ليليّ، والزّبائن عيّنة شاملة من طبقة نيويورك العاملة، بدءًا من موظّفات المتاجر وانتهاءً بمندوبي المبيعات. بدا الجميع يضحكون أو يتصايحون، وأحاديثهم تتألّف من أصوات بقدر ما هي من كلمات. تقدّم المراسلُ تشارلوت نحو زاوية خلفيّة، حيث اتّضح من إيمائه إلى أحد النُّدُل أنّه من روّاد المكان المنتظمين.

«فلنتخلَّ عن الأدبيّات الرّسميّة، هل تمانعين؟»، قال لها: «الشّاي هنا كريه للغاية؛ لن يزيد على جعلك تحنّين إلى الوطن. القهوة مقبولة، واللّيموناضة لذيذة لا بأس بها، سأطلب بعض الكعك كذلك. لست متأكّدًا من وضع شهيّتك، في مثل هذه الظّروف، لكنّني أشعر بالنّهم».

تدفّقت كلماته دون توقّف أو نفَس يُذكر. وبعد أن أخذ النّادل الطّلبات، انحنى المراسل إلى الأمام، مانحًا تشارلوت كامل انتباهه.

«اسمي ثيودور رانجر»، بدأ حديثه: «تيدي، بالنّسبة إلى أصدقائي وإليكِ، إن شئتِ.

أنا مراسل لندن ريكورد في نيويورك. أصحاب الجريدة يريدون كلّ رواية تخصّ التّايتانيك أستطيع الحصول عليها، دون أيّ حدّ لنفقاتي. إن سلّمتهم ما يريدونه، ستكون تلك انطلاقةً في مسيرتي المهنيّة».

ربّما يبدو تيدي مثل تلميذ مدرسة، بوجنتيه الملساوين إلى درجة تجعله بالكاد يحتاج أن يحلق، مع ذلك رأت تشارلوت فيه روحًا من نفس جِبِلّتها، لم يراوغ في الكلام حول مبتغاه ولا داهنها بتعاطف زائف. كانت صحيفة الرّيكورد مألوفة لديها؛ اعتادت والدتها على شرائها، حين كانتا تستطيعان تحمّل كلفة الصّحف. عرفت تشارلوت تمامًا نوع المقالات الّتي ستنشرها الرّيكورد عن التّايتانيك: روايات متوهّجة عن أبطال الدّرجة الأولى الّذين قضوا نحبهم بشجاعة فوق ظهر المركب، احتفاء جيّاش العاطفة بزوجاتهم وأطفالهم، توصيف طَروب للكنوز الّتي غرقت في قاع البحر.

كانت الأفكار تتوارد بسهولة، دون جهد تقريبًا.

لعلّها تكون ملائمة حقًّا لهذا النّوع من العمل.

«يمكنني أن أدفع خمسين دولارًا مقابل قصّتك، إن كانت قصّة جيّدة»، تابع تيدي: «وأكثر، إن كنتِ قد رأيتِ ما حدث للقبطان أو أحد المليونيرات».

لم يكن من الصّعب الإتيان بكذبة مقنعة. كان بمقدور تشارلوت أن تقول لتيدي إنّها رأت الكابتن سميث ينقذ رضيعًا من موت محتوم، أو إنّها سمعت آخر كلمات السّيّد غاغينهايم. مبلغ خمسين دولارًا سيكون كافيًا ليغيّر حياتها،

لفترة من الزّمن. لكنّها، ما إن ينفد، حتّى تعود من، حيث بدأت: وحيدةً على غير هدى.

«أشكّ في أن يكون لقصّتي كبير قيمة»، قالت مبرّرة: «ركبتُ قارب نجاة، ورحنا نطوف في الأنحاء لبضع ساعات إلى أن تمّ إنقاذنا»، لم تفكّر ولو لمرّة أن تقصّ عليه ما تبقّى: «لكن ثمّة طريقة أخرى يمكننا أن نتساعد عبرها».

نظر تيدي إليها خِلوَ الوجه، ينتظر أن يتمّ إقناعه.

– «احتمال أن تتحدّث النّساء اللّاتي أقيم معهنّ في الفندق إلى أكبر من أن يتحدّثن إليك. يمكنني أن أدوّن ما يقلنه، ثمّ تستخدمه أنت في إحدى مقالاتك. أظنّ أنّهنّ سيوافقن، إن جعلتُ الأمر يبدو نبيلًا. بوسعي أن أقول لهنّ إنّ ذلك سيكون تكريمًا لساعات أزواجهنّ الأخيرة، أن يشاركن ذكرياتهم. بيد أنّه لا ضير من عرض مبلغ إلى جانب ذلك».

– «وأنت ستتقاضين أجرًا مقابل خدماتك؟»

– «أجل، لكنّ الأمر أكثر من ذلك. أريد أن أفعل ما تفعله، اتّخذني متدرّبةً لديك، علّمني».

بدا تيدي متشكّكًا: «ليس الأمر بهذه السّهولة...»، شرع يقول.

«لن تخسر شيئًا إن جرّبتني».

قابلت تشارلوت تيدي بأكثر ابتساماتها غنجًا. ربّما لم تكن تلك أكثر استجابة لائقة لأرملة شابّة، لكن بدا أنّها ليّنت تعنّت تيدي.

«أريني ما يمكنك فعله أوّلًا»، قال لها: «إن أتيتِني بشيء جيّد بحلول السّاعة الثّالثة، سيتاح لنا الوقت لنشره في صحيفة الغد».

«سأقابلك في لوبي الفندق»، قالت تشارلوت وهي تقف وتبدأ بارتداء معطفها، يجب ألّا تترك له وقتًا ليعيد التّفكير: «شكرًا جزيلًا لك يا سيّد رانجر».

في ذلك اليوم الأوّل المندفع، أقنعت تشارلوت ثلاثًا من رفيقاتها الرّاكبات بالتّحدّث.

ورغم افتقارها لأسماء الدّرجة الأولى، سُرَّ تيدي من القصص الّتي جاءته تشارلوت بها. كانت إحدى النّساء قد رأت ضابطًا يطلق النّار ليمنع التّزاحم على أحد قوارب النّجاة؛ والتأم شمل أخرى مع ابنها على متن كارباثيا بعدما ظنّته قد غرق.

في ذلك الأصيل، رافقت تشارلوت تيدي إلى مكتبه- غرفة معتمة مجهّزة بطاولة مكتب وآلة كاتبة وغبار تراكم طوال عقد من الزّمن- وشاهدته وهو يجدل الكلمات الّتي جمعتْها كما ينسج الحائك خيوطه، فيمزج ألوانًا أحاديّة في قطعة قماش معقّدة.

كانت أصابع تيدي المسعورة تحوّل الحقائق الجافّة إلى دراما تشدّ نياط القلب، وحين انتهى هرعا إلى مكتب التّلغراف. نقل رسالته إلى لندن بشيفرة رموزها شبيهة بالكتابة الاختزاليّة، ومع ذلك بقيت تشارلوت مذهولة من الكلفة الّتي لا شكّ أنّ ذلك تطلّبها.

لقد سلبت العمليّةُ المائجة بمجملها لبَّها، وقالت لنفسها: هذا ما خُلقتُ كي أفعله.

العمل الصّحفيّ يتطلّب لسانًا ذلقًا وبديهة سريعة كما قال لها تيدي، وكانت تشارلوت تتحلّى بكلتا المزيّتين. لقد وثقت النّاجياتُ اللّاتي حاورتهنّ بها وأخبرنها قصصهنّ، كما سبق ووثق السّادة الّذين كانت تسرق منهم ذات زمان ببراءتها، ما كان ليُشتبه بدوافع خفيّة لدى شخص له مظهر تشارلوت.

وبتعلّمها كيفيّة بناء إطار المقالة حول ما يقوله النّاس- وذلك عملٌ يقوم على التّرجمة والخلق معًا، اكتشفت تشارلوت أنّ الكتابة تجلب لها نفس الرّضى الّذي كان ينتج عن وضع مخطّط برفقة ريج. كانت تسمح لها أن تكون شخصًا آخر، شخصًا يعيد تشكيل الواقع المعاند في قالب سرديّ ذي نهاية مُرضية.

حين بدأ مجلس الشّيوخ تحقيقه في الكارثة، سافرت تشارلوت إلى واشنطن العاصمة، بصفة أحدث مراسلي الرّيكورد. وهناك، لم تحتج إلّا شيئًا من كركرة البنات الخجولة، حتّى يدعوها بقيّة المراسلين إلى مقعد تسعى الأنظار إليه في الصّفّ الأوّل. في قاعة الاستماع المكتظّة، أصغت إلى شهادة السّيّدة ماكبرايد وتشارلز فان هاوزن.

لقد عرّجا على حقيقة ما حدث، بالطّبع، لكنّ تشارلوت شعرت- للغرابة- أنّها عديمة الصّلة بقصّتيهما. لم يبدُ لما وصفاه علاقة بها، ولم تسجّل أيّ ملاحظات. بيد أنّ الأمر اختلف حين قدّم السّيّد هيلي شهادته، لقد كان هنالك شيء بينهما في القارب، ثقة فوريّة لم يسبق أن شعرت بها تجاه أيّ شخص آخر. حفر بؤسُه في وجدان تشارلوت كما لو كان الألم ألمها هي، وللحظة سخيفة واحدة، أرادت أن تقفز من مكانها وتدافع عنه أمام كلّ هذه الوجوه المُدينة: ليس الذّنب ذنبه! لكن بدلًا من ذلك، أرخت كتفيها وأزلقت نفسها لتنخفض على كرسيّها، راجيةً ألّا يراها السّيّد هيلي. لم تكن قد تحدّثت معه منذ الإنقاذ، وصُدمت كيف بهّتَ الأسى ملامحه الّتي كانت تتّسم بالثّقة، ومع ذلك فقد ردعها الخجل عن تقديم كلمة طيّبة، أو حتّى إقرار بحضوره. ما الجدوى؟ سيظلّ السّيّد هيلي شيئًا يذكّرها بالماضي، بليلةٍ كانت قد اعتزمت أن تنساها. لم تكن تنظر إلّا نحو المستقبل.

عندما بدأ التّحقيق البريطانيّ في مايو، استدعي تيدي وتشارلوت إلى لندن. بحلول ذلك الوقت، كانت تشارلوت قد باتت متلهّفة للعودة إلى الوطن- سئمت من الانتباه المتواصل الّذي يرافق الأجنبيّ- لكنّها لم تحسب حسابًا للصّعوبة

الّتي قد تكتنف الرّحلة. مع إقلاع السّفينة عن الرّصيف البحريّ، شعرت بارتجاف أطرافها من توتّر الأعصاب. ما كان أحد ليعلم ذلك بالنّظر إليها؛ استطاعت أن تدردش مع تيدي وتصرّفت بودّ مرِح مع المضيفة الّتي رافقتها إلى حجرتها الخاصّة، لكنّها بالكاد كانت تطيق البقاء تحت ظهر المركب. ما دامت في الخارج، تمسح الأفق بنظرها، كانت قادرةً على كبح ذعرها، بيد أنّ العشاء يلقي بها في دوّامة من الخوف.

تتصوّر أرضيّة صالة الطّعام تميد بها، والأواني الخزفيّة تسقط وتتهشّم، والماء ينصبّ من النّوافذ المشقوقة. لم يكن النّوم ممكنًا في اللّيلة الأولى، ليس وأذناها دائمتا التّيقّظ لصيحات أو طرق على الباب. لم تمنحها همهمة المحرّك الثّابتة أيّ طمأنينة، إذ كانت تتوقّع انقطاعها في كلّ لحظة. كادت فكرة قضاء ثلاث ليالٍ أخرى في مثل هذا العذاب أن تبكيها.

في الأمسية الثّانية، ماطلت تشارلوت بقاءها مع تيدي في رواق الدّرجة الثّانية بعد العشاء. وحين لمحته يتثاءب سرًّا خلف يده المرفوعة، سألته أن يوصلها إلى حجرتها. لم تكلّف نفسها عناء إيجاد ذريعة مناسبة حتّى، لعلمها فقط أنّ كلّ دقيقة تمضيها في صحبته تُخصَم من وقت شعورها بالخوف. حتّى إذا بلغا الباب، أخذت بيده دون كلام ومضت به إلى الدّاخل.

كان تيدي، حاله في ذلك حال أيّ مراسل جيّد، يعلم أنّ هنالك أوقاتًا يُفضَّل فيها عدم طرح الأسئلة. وإن كان قد فوجئ بتلقّيه قبلة من امرأة ترمّلت مؤخّرًا، فلم يُظهر ذلك، وقابل تودّدَ تشارلوت بإذعانِ كيّس رَضيّ. لم تكن تنوي أن تشدّه إليها هكذا، أو تجذب قميصه، غير أنّها حالما لامست راحتُها بشرةَ ظهره العاري، أدركت أنّها كلّما استمرّت في ذلك طال بقاء تيدي معها، وبهذا تابعت تشارلوت تمثيلها.

فطنت إلى أنّ الأمر سخيف بالأحرى، كلّ هذه الأنفاس اللّاهثة والعبث المرتبك بالثّياب، ومع ذلك فقد حاولت الحفاظ على الرّصانة الّتي رأت أنّ

مناوشةً كهذه تتطلّبها. ولدى انهيارهما على السّرير، وإجفال كلّ منهما إذ افترقا ليعدّلا التواء معاصمهما وتشنّج سيقانهما، ضحك تيدي. وجاء إدراك تشارلوت أنّه لا يشترط بالعلاقة الجسديّة أن تكون صارمة الجدّيّة- حتّى إنّ العمليّة برمّتها قد تكون طريفة- بمثابة إنقاذ ليأسها. شعرت كأنّها طفلة من جديد، كلّها عيونٌ يُشرِع الفضولُ أجفانَها، وتعيّن عليها تذكير نفسها بأنّها لم تكن عذراء بريئة في نظر تيدي، بل امرأةً جرّبت سريرًا زوجيًّا. تسرّع قلب تشارلوت عندما ناور تيدي فوقها، لكنّ الفعل لم يكن مؤلمًا بالقدر الّذي توقّعته. وحين قضى تيدي وطره، انزلق إلى جانبها بغمغمة راضية ونظر إليها بامتنان يبلّل عينيه، أمام تلقّيه هبةً غير متوقَّعة السّخاء. أحسّت تشارلوت بدفء جسده يتغلغل في جسدها، ويسترضي قلقَها في مكان عميق تحت جلدها. وعندما همّ بالابتعاد عنها، طلبت منه البقاء، ففعل. وطوال ما تبقّى من الرّحلة، قضت ليلها متحشّرةً قربه، تنام بعمق لم تذقه منذ دهور.

لم يكن حبًّا. لقد وجدت تشارلوت في تيدي ما يخمد ظمأها، لا أكثر، واستمرّ واحدهما في إخماد ظمأ الآخر من وقت إلى وقت، كلّما شعرا بالوحدة أو الإحباط أو أرادا الاحتفال بنجاح مهنّيّ ما على نحو أهوج سكران. أخبرت تشارلوت تيدي من أول الطّريق أنّها ليست مهتمّة بالزّواج، وإن كان تيدي يوطّن نفسه على غير ذلك، فلم يفشِ لها قطّ.

كانت تشارلوت تعلم أنّهما سيشكّلان زوجًا منزليًّا متقلقلًا، فبغضّ النّظر عن واجهة تيدي الهنيّة المرحة، لقد كان عظيم الطّموح مثلها تمامًا. عندما تقدّم تيدي لخطوبة امرأة ذات ذهنيّة بيتوتيّة ملائمة، وصلت استراحاتهما الجسديّة إلى نهايتها، دون أيّ حسرة من طرف تشارلوت. بحلول ذلك الوقت، كان لها عشّاق آخرون، رجال يجذبون اهتمامها ويرفّهون عنها، رجال ظنّت نفسها واقعةً في غرام متأجّج معهم إلى أن كُشف غموضهم فذبل الانجذاب. في العمل وفي السّرير، كانت تشارلوت دائمة الانشداد نحو ما هو جديد.

لم تكن حياتها كصحفيّة تختلف كثيرًا عنها كلصّة. فرغم أنّ تشارلوت لم تعد تبتكر شخصيّات بأسماء وقصص مختلقة، ظلّت تمثّل أدوارًا، وتبدّل بين أنساق كلامها وسلوكيّاتها المتكلّفة كي تستدرج من تستهدفه إلى الوثوق بها. عندما تحدّثتْ إلى طبّاخة اشتُبه بها في تسميم ربّ عملها السّكّير، كانت لوتي، ابنةَ شوارع جنوب لندن الزّعراء العصاميّة. وحين تجوّلت في معرض تشيلسي للزّهور، كانت السّيّدة إيفرز، الزّوجة المحترمة من الطّبقة الوسطى. ربّما اقتصرت مقالات تشارلوت على الصّفحات النّسائيّة، حيث يعمل المراسلون دون توقيع أسمائهم، بيد أنّ تقدير العامّة لها لم يكن هدفها قطّ. ما كان يهمّ تشارلوت هو نجاحاتها الخاصّة الأكثر شخصيّة: إقناع مستهدَفٍ ممانع بمنحها لقاء حصريًّا، فرش غرفة بيدسيت[١] خاصّةٍ بها قرب حديقة هايد بارك، تقليب طالبي القرب بخبرة بهلوان كالكرات بين يديها بحيث لا يعلم واحد منهم بوجود الآخرين أبدًا.

لعلّ تشارلوت لم تكن أرملة بحقّ، لكنّها عاشت بتلك الصّفة، لمعرفتها أنّ لقب «سيّدة» يعطيها مكانة اجتماعيّة ما كانت لتحظى بها كـ«آنسة». وقد آتى زواجُها المزيَّف أُكُلَه على وجه التّحديد خلال الحرب، حين أجرت حوارات مع نساء أخريات فقدن أزواجهنّ فشاركتهنّ الدّموع بين حين وآخر. كتبت تشارلوت مقالات كثيرة جدًّا عن شبّان خُطفوا مبكّرًا من عائلاتهم، وهي تحاول حثيثًا استحضار

ملاحم بطوليّة عن الشّباب الواعد والتّربة الفلمنكيّة[٢]، حيث لقي الجنود الشّبّان حتفهم. ومع الوقت، عانت الفقدان بنفسها، ضابط شابّ غادر إلى

---

(١) Bedsit: نمط سكنيّ شائع في بعض أنحاء المملكة المتّحدة وإيرلندا، يتألّف من غرفة واحدة للفرد وحمّام مشترك لجميع القاطنين، وجاءت تسميته الإنجليزيّة من المزاوجة بين كلمتي النّوم والجلوس. (المترجم)

(٢) الفلمنكيّة: نسبة إلى مقاطعة فلاندرز أو الإقليم الفلامنديّ، وهو قسم في شمال بلجيكا يتحدّث سكّانه الهولنديّة، ونتيجة للأهمّيّة التّاريخيّة الّتي اكتسبتها المقاطعة، صار المصطلح يُطلَق على كلّ مناطق بلجيكا الّتي تتكلّم باللّغة الهولنديّة. (المترجم)

الجبهة قبل أن تصل معه إلى تحرّرها المعتاد من الوهم. علمت أنّ حِدادها كان على الفكرة الّتي يمثّلها أكثر ممّا هو على الرّجل نفسه، إذ كان سيخيّب أملها أو يثير ضجرها لا محالة، لكنّ ذلك لم يقلّل من حقيقيّة حزنها على الإطلاق.

ولقد صنع تيدي، على نحو غير متوقَّع إلى حدٍّ ما، اسمًا لنفسه كمراسل حربيّ جَسور، وأوصلته تلك السّمعة إلى تعيينه رئيس تحرير للرّيكورد في عام ١٩٢٥.

خصّص لتشارلوت عمودًا صحفيًّا وعلاوةً سخيّة، وفجأةً فرضت «تقارير السّيّدة إيفرز» نفسَها كقراءة يوميّة لدى أيّ شخص يرغب أن يستمتع بينه وبين نفسه بمذاق السّلوك الشّائن- الّذي يشجبه في العلن- لمن يسمّون بالشّبّان اللّامعين. طلاقات فضائحيّة، ورثةٌ شبّان يتنازعون على ثروة «جدّو»، أطفالُ علاقاتِ حبٍّ سرّيّة وعشيقاتٌ يتمّ إسكاتهنّ بالمال- كانت تشارلوت تكتب عن كلّ ذلك بمهارة ظريفة متّقدة البديهة. لقد كان شبّان عشرينيّات القرن منهلًا لا ينضب للمواد الصّحفيّة بعد نزع هالة الوهم عنهم.

وقد بدّلت تشارلوت من حالها مع مرور الوقت، إذ ترك التّعصّبُ النَّتِنُ الّذي اتّصف به صباها الإدواردي[1] مكانَه لعلامات صحّة أنيقة ناعمة على أسلوب آرت ديكو[2]. أذعن شعرُها المجعّد- الّذي كان في ما سبق جامحًا- وتحوّل إلى تموّجات مارسيل[3] أنيقةٍ ملساء، كما تخلّت عن قمصانها النّسائيّة

(١) نسبة إلى العصر الإدواردي: الفترة الّتي حكم فيها الملك إدوارد السّابع وريث الملكة فيكتوريا وابنها الوحيد، وامتدّت بين ١٩٠١ و١٩١٠، وعادة ما يتضمّن مصطلح «العصر الإدواردي» بضع سنوات سبقت حكمه وتلته وصولًا إلى الحرب العالميّة الأولى. (المترجم)

(٢) Art Deco: موجة في الفنون البصريّة بزغت في فرنسا على أعتاب الحرب العالميّة الأولى، وراجت بين عامي ١٩٢٠ و١٩٣٩، أثّرت بالعديد من الفنون كالعمارة والتّصميم الدّاخليّ والموضة والرّسم والتّصميم الرّقميّ والسّينما وتصميم المجوهرات. (المترجم)

(٣) تموّجات مارسيل: أسلوب في تصفيف الشّعر (نسبة إلى مخترعه الّذي تتباين الرّوايات حول هويّته) درج في الثّلاثينيّات وكان يقوم على استخدام ملاقط تجعيد شعر ساخنة. (المترجم)

مخرّمة الأطراف وتنانيرها البيتيكوت[1] لصالح بدلات الصّوف حادّة الأناقة. وبعبورها لثلاثيناتها وانتقالها إلى الأربعين، فقدت تشارلوت شهيّتها نحو تبديل أدوارها. اشترت شقّة في بلغرافيا، وربّت لنفسها حلقةً من الأصدقاء المولعين بالفنون، واستقرّت في دورها ككاتبة عمود الرّيكورد الاجتماعيّ المسلّية بشكل لاذع. ولم يسأل أحد قَطُّ عن السّيّد إيفرز. مثل تشارلوت، كان رفاقها قد أداروا ظهورهم للماضي عن سابق تصميم.

لكن بالطّبع، كان من المستحيل الهروب من ذلك الماضي بالكامل، وبالأخصّ حين يقوم عمل المرء على الاتّصال الدّائم بمستجدّات يومه. من وقت إلى آخر، تقرأ تشارلوت عن أحد رفاقها من ركّاب قارب النّجاة: السّيّد ويلز، الوقّاد الفظّ، الّذي لقي مصرعه في معركة يوتلاند عام ١٩١٦؛ أو المرأة العجوز، السّيّدة دانينغ، الّتي ماتت بعد الهدنة[2] بوقت غير طويل. بيد أنّ تشارلوت لم تقم بأيّ جهد لمعرفة ما حلّ بالآخرين، ومن بين كلّ الأشخاص على متن قارب النّجاة، كان الشّخصُ الوحيد الّذي يمرّ بخاطرها على الإطلاق هو السّيّد هيلي. خلال سنواتها الأولى في الرّيكورد، بينما كانت تنغمس بحماسة في حياتها الجديدة، لم يكن يبارح ذاكرتها، مثل ما يُلوِّعُكَ كتابٌ هجرتَه فيرّغبك بنهايته المجهولة ويمنعك عنها معًا. لم تقابل يومًا رجلًا آخر شعرت معه بمثل تلك الألفة الفوريّة، والأمر لم يكن متعلّقًا بمظهره وحسب، رغم أنّ تقاسيمه كلاسيكيّة الوسامة كانت قد جعلت منه أثيرًا لدى المتفرّجات في جلسات الاستماع.

---

(١) Petticoat- وكلّ ما في هذه الفقرة يدور حول أزياء درجت في تلك الحقبة ولم يعد لها أثر تقريبًا الآن. (المترجم)

(٢) الإشارة هنا إلى هدنة كومبين الأولى الّتي وُقّعت بين الحلفاء والإمبراطوريّة الألمانيّة في ١١ نوفمبر ١٩١٨، وتشير إلى نهاية القتال في الحرب العالميّة الأولى وانتصار الحلفاء وهزيمة ألمانيا، ولكن دون استسلام بالمعنى الصّحيح. (المترجم)

كان شيئًا ما في الرّجل بحدّ ذاته، حسًّا متأصّلًا بالشّرف قام مقام الصّابورة(١) لروح تشارلوت الضّالّة. ألفت نفسها تتساءل عن حاله وما يفعله وإذا كان لا يزال في البحر، وهل يحدث له أن يفكّر في التّقديرات الفظيعة الّتي واجهوها على متن قارب النّجاة. تخيّلت تشارلوت السّيّد هيلي يظهر على عتبة بابها ويدعوها إلى الشّاي، فجلبت لها فكرةُ رؤيته نوعًا من الرّضى الباعث على السّلام.

كان ذلك تفكيرًا حالِمًا على أيّ حال، لأن السّيّد هيلي لم يكلّف نفسه قطّ مشاقَّ البحث عنها. وكان بوسع تشارلوت أن تقصد الاستعلام حوله إن شاءت؛ سيكون في سجلّات شركة وايت ستار لاين بيانات عن عائلته وآخر عنوان معروف له، لكن إن فعلتْ وكتبت إليه، فماذا عساها تقول؟ كلّ ما في حوزتها كان ذكريات عن عواطف من سنين خلت، عواطف قد لا يرحّب بها أو يقابلها بالمثل. وبذلك، مع كلّ حوافزها طيّبة النّيّة والّتي يكمن فيها احتمال المذلّة في آن، كان من الأسهل ألّا تفعل شيئًا.

حُدِّدَ موعد اللّقاء الّذي كانت تشارلوت تترقّبه متهيّبةً في يوم السّبت، قبل يومين من مغادرتها إلى أمريكا. وصل السّائق في تمام السّاعة الثّانية، واتّخذت تشارلوت مقعدًا داخل طمأنينة الرّولز رويس الفارهة مستقرّةً في جلستها طوال الرّحلة الّتي استغرقت ساعةً إلى الرّيف. كان في حقيبة يدها رسالة أُرِّخَت في ٢٣ نوفمبر ١٩٣٠، وطُبعَت على قرطاسيّة نُقشَ فوقها «غرينجر وأبناؤه، محامون». طوال سنتين تقريبًا، بقيت الرّسالة مستلقية تحت حزمة من الرّسائل في الدُّرج السّفليّ لمكتبها، فيما ينخر الاتّهامُ الصّامت لحروفها ضميرَ تشارلوت.

---

(١) الصّابورة: ثقل يوضع على السّفينة للحفاظ على توازنها، خاصّةً عندما تفرغ من الحمولة. (المترجم)

«السّيّدة إيفرز العزيزة،

أكتب إليك بالنّيابة عن موكّلتي، ليدي أبتون، زوجة المرحوم فريدريك سانت فون، لورد أبتون. إلى جانب فجيعتها الحديثة، لقد عانت ليدي أبتون فقدانَ أصغر أبنائها، جورج سانت فون، على متن التّايتانيك. وهي الآن، منذ فترة من الزّمن، ترجو التّوصّل إلى موقع سيّدٍ باسم ريجينالد إيفرز، واحد من معارف ابنها ظهر اسمه في قائمة بالمواطنين البريطانيّين الّذين نجوا من حادثة الغرق، آملةً أن يستطيع السّيّد إيفرز تزويدها برواية لساعات السّيّد سانت فون الأخيرة.

لم نُوفَّق، في سياق تحرّياتنا، إلى الوقوع على عنوان أو سجلّ وظيفيّ للسّيّد إيفرز، ونعتقد باحتمال أن يكون قد غيّر اسمه أو انتقل إلى خارج البلاد. على أيّ حال، كان قد ظهر في قائمة النّاجين كذلك اسمٌ لسيّدةٍ تُدعى إيفرز، ونحن نكتب الآن بِنيّة أن نستعلم إذا ما كنتِ حضرتك زوجةَ السّيّد ريجينالد إيفرز أو على صلة قرابة به. إن كان ذلك، هلّا تفضّلتِ بالكتابة إلينا في أقرب وقت مناسب لك؟ ستقدّم أيّ معلومة تعيننا في بحثنا عزاءً عظيمًا لليدي أبتون.

مع فائق المودّة،

أوزوالد غرينجر»

لم تكتب تشارلوت ردًّا، كيف لها أن تخبر السّيّد غرينجر بما حدث لجورجي وريج؟ بيد أنّها في الوقت نفسه لم تتخلّص من الرّسالة. أقنعت نفسها أن لا علاقة تربطها بآل سانت فون، وأنّ أحزان شخص غريب ليست أمرًا يعنيها. ومع ذلك لم تستطع تشارلوت ألّا تفكّر في المرأة المسكينة، الّتي لا تزال في حِداد على ابنٍ لم يرجع إلى بيته قطّ. وبما أنّها باتت تتهيّأ الآن لمواجهة ماضيها هي نفسها، بدا من القسوة الّتي لا يبرّرها ضميرٌ أن تحرم أمًّا أسيانة من بادرة

عطف لطيفة. لم تكن تشارلوت مستعدّة للبوح بكلّ شيء؛ فهي ليست مَدينةً لليدي أبتون بالحقيقة، لكن ربّما يكون من شأن بضع أكاذيب مؤدّبة أن تكفي لتسكين شعورها بالذّنب.

لقد سبق لتشارلوت أن حضرت نصيبَها من الحفلات المنزليّة، لذا لم تشعر بارتعاش في أعصابها مع اقترابها من قصر السّنديان، القصر الّذي انتهت إليه رحلةٌ طويلة مرعبة بالسّيّارة. لكنّ نزهاتها السّابقة كانت عبارة عن تجمّعات بهيجة لهواةِ حفلات باذخة وأعيانِ مجتمع يحيّون بعضهم بالقبلات وهتافات تقول «يا للبهاء!» و«عزيزي!»، أمّا هذه المرّة فهي مدعوّة من قِبَل غريبة، دون فكرة عمّا ينتظرها. كان المهمّ أن تحافظ على هدوئها، مهما تكن الأسئلة الّتي تُطرح عليها، يجب ألّا تشتبه ليدي أبتون في كون جورجي أكثر من أحد المعارف العَرَضيّين خلال رحلة على متن سفينة.

لم يتفوّه السّائق بشيء وهي يفتح باب السّيّارة لتخرج تشارلوت، وكان يقف في المدخل كبيرُ خدم يرتدي زيًّا يعود إلى ما قبل الحرب، وجهه صورة للصّرامة المتجهّمة، وظلّ هو الآخر صامتًا حين سارت تشارلوت في الرّدهة، وهي كهف معتم مكسوّ بألواح الخشب كان هنري الثّامن ليشعر داخله أنّه في بيته.

«ستستقبلك ليدي أبتون في الغرفة الصّباحيّة(١)»، قال كبير الخدم وظهره لتشارلوت فيما يقود الطّريق.

شعرت تشارلوت بالاستنكار ينبعث عنه مثل كولونيا قويّة الرّائحة، فتميّزت من الغضب وعزّة النّفس. لقد انقضى وقت طويل على آخر مرّة عوملتْ فيها بمثل هذا التّكبّر الزّنيم؛ فالدّوائر الّتي كانت تتنقّل ضمن إطارها ترحّب بكتّاب الطّبقة العاملة جنبًا إلى جنب مع ذوي الألقاب الأرستقراطيّة. إن أظهرت ليدي أبتون مثل ازدراء كبير خدمها، فلن تطول الزّيارة.

---

(١) الغرفة الصّباحيّة: مصطلح متعارف عليه ضمن المنازل الكبيرة القديمة في المملكة المتّحدة، يُطلَق على غرف المعيشة الّتي تصلها الشّمس في الصّباح. (المترجم)

كان لقصر السّنديان سكونُ متحف، أو مراسم تأبين ميت، وجاءت الغرفة الصّباحيّة- بمدفأتها ذات الحجم الأكبر من المعتاد وأرائكها البالية وصورها العائليّة- على قدر توقّع تشارلوت، غير أنّ ليدي أبتون لم تكن كذلك. لقد تصوّرتها تشارلوت نموذجًا أرستقراطيًّا أصيلًا، بكتفين متخشّبتين وشفتين أكثر تخشّبًا، لكنّ المرأة الّتي نهضت لترحّب بها كان لها وجه مُجوًّى[1] وجسد عديم الشّكل خليقان بِجَدّةٍ أو زوجةِ مُزارع، امرأةٍ تولي أكبر جهدها لعملها لا لمظهرها.

كانت تتزيّا بشَملة قديمة الطّراز تبلغ كاحليها، وشعرها الأبيض مكدّس في كومة متداعية تثبّتها في مكانها دبابيس ماسيّة.

«سيّدة إيفرز»، قالت لها: «شكرًا لقدومك».

لان تحفّظ تشارلوت الأوّليّ: «ليدي أبتون، من دواعي سروري».

تردّدت ليدي أبتون للحظة، تنقّلُ نظرها بين كبير الخدم وتشارلوت، ثمّ قالت أخيرًا: «سنتناول شايًا»، وفيما سار كبير الخدم مبتعدًا، أشارت نحو الأريكة: «تفضّلي».

بدأت تشارلوت تشعر بارتياح أكبر. لقد سبق أن مرّت بهذا الوضع؛ فحاورت نساء مسنّات في غرف مثل هذه تمامًا، وجلست على أرائك ذاوية بنفس الدّرجة. كانت تعرف كيف تبدي الافتتان حين يهذرن دون ترابط، ومتى تومئ بتفهّم إزاء شكواهنّ من أحدث الفظاعات المعاصرة. هيّأت نفسها لاستهلال الحديث ببضع طرائف وربّما بعض النّوادر غير الخبيثة من نمائم لندن، إلّا أنّ ليدي أبتون فاجأتها مرّة أخرى، إذ تكلّمت بصراحة ومباشرة متخفّفةً من الدّردشة المهذّبة.

---

(١) مجوّى: أي تركت فيه العوامل الجوّيّة أثرها. (المترجم)

«سيّدة إيفرز، أنا خسرت كلّ شيء أحببتُه».

اقتفت عينا تشارلوت عينَي ليدي أبتون إلى رفّ المدفأة، حيث يوجد صفٌّ من الأُطُر الفضّيّة المتقلقلة المبعثرة. رأت في أحدها وجه جورجي يردّ إليها نظرتها، فباغتها الأمر كصدمة بدنيّة، لم تكن هيّأت نفسها للشّعور الّذي قد يرافق رؤيته من جديد. بدت عيناه تحدّقان نحوها مباشرةً، وتطالبانها بتفسير ليس بمقدورها أن تقدّمه.

«لم أعد استقبل الزّوّار»، قالت ليدي أبتون: «لم أعد أخرج. أنا أعيش هنا، وحيدة، دون رفيق سوى الذّكريات».

نهضت ومشت إلى المدفأة، وأخذت أكبر صورة ثمّ عادت بها إلى تشارلوت.

وضعت تشارلوت الإطار الضّخم في حضنها ونظرت إلى صورة صبيّين في الزّيّ المدرسيّ، يتموضعان للتّصوير على المشى الأماميّ لقصر السّنديان.

«ولداي، جورج وتوم»، قالت ليدي أبتون: «أغلى صبيّين يمكن أن تتخيّليهما».

دخلت خادمة بصينيّة الشّاي، فوضعت تشارلوت الصّورة جانبًا ممتنّةً للمقاطعة.

كانت قد أجرت حوارات مع عشرات من النّسوة اللّاتي تركت الحربُ ندوبَها فيهنّ، ومع ذلك لم تكن تستطيع أن تحجب نفسها بالكامل عن آلامهنّ. كلّ جنديّ مات خلّف جحيمًا من الأسى، يتصاعد لظاه زوابعَ من أولئك الّذين أحبّوه.

تمتمت تشارلوت: «أنا في غاية الأسف»، بادرة فارغة، لكن كان من المهمّ أن تقول شيئًا، أن تتلافى إغواء الدّموع.

أخذت ليدي أبتون الصّورة وأقعدتها بحنان على الوسادة بجانبها، بنفس الطّريقة الّتي ربّما كانت تُقعِد بها ابنيها ذات زمان قبل أن تقرأ لهما قصّة.

«سكّر؟»، سألتها ليدي أبتون.

أومأت تشارلوت، فصبّت اللّيدي الشّاي. وقدّمت لها طبقًا من البسكويت، أخذت منه قطعتين، مع أنّها بالكاد وجدت رغبة للأكل. كلّما سارعت في بلوغ لبّ ما تريده ليدي أبتون، استطاعت الذّهاب مبكّرًا، كما أنّها بدأت تقلق فعلًا- إن طال اللّقاء كفاية- من أن تُدعى للبقاء على العشاء.

«ابنك توم»، قالت تشارلوت: «هل فُقد في الحرب؟»

أومأت ليدي أبتون: «في إيبر[1] بعد شهر من التحاقه لا غير».

«يا لها من خسارة أليمة»، قالت تشارلوت متمنيّة لو كان لديها المزيد لتقوله، موقنة أنّها لا تملك ذلك. هي لم ترَ صورة لرجل في زيّ رسميّ على الرّفّ، لكنّها كانت متأكّدة أنّ العائلة لا بدّ قد كلّفت أحدهم بإنجاز صورة شخصيّة لتوماس سانت فون في هندامه العسكريّ قبل ذهابه إلى الجبهة، وهي على الأغلب قرب سرير ليدي أبتون، تبكي عليها كلّ ليلة.

«دعوت مجموعة من أصدقاء دراسته إلى هنا بعد الهدنة بحوالي سنة»، قالت اللّيدي: «الّذين نجوا من بينهم. أحدهم فقد كلتا ساقيه في معركة السّوم[2] ولا بدّ أنّ ذلك كان فظيعًا، لكنّه تحامل على نفسه ببراعة. جميعهم فعلوا ذلك، من أجلي. كان من المبهج جدًّا أن نتحدّث عن توم، النّاس لا يريدون للمرء أن يتحدّث عن الموتى ما إن يرحلون، فذلك يشعرهم بالضّيق، لكن كيف لك أن تطلبي من أمٍّ التّظاهرَ بأنّ أطفالها لم يوجدوا يومًا؟ شذرات

---

(١) Ypres: مدينة في بلجيكا. (المترجم)

(٢) معركة السّوم: معركة وقعت على ضفّتي نهر السّوم في فرنسا بين القوّات الألمانيّة وقوّات الحلفاء ضمن الحرب العالميّة الأولى وكبّدت الطّرفين خسائر كبيرة. (المترجم)

السّعادة القليلة الّتي أشعر بها منذ دهور تكون حين يتسنّى لي مشاركة الآخرين بذكريات ولديّ».

أومأت تشارلوت وهي تفكّر أنّه ما كان يجدر بها القدوم، كانت تتوقّع حديثًا رسميًّا موجزًا، لا هذه النّجوى الصّادقة إلى حدّ الألم.

«لقد حزنت على توم للغاية، بالطّبع فعلت، بيد أنّني كنت متهيّئة لفقدانه، من يوم غادر. كنت أترقّب ذلك حتّى، رغم أنّني لم أجرؤ على قول هذا لأحد آنذاك. كان قلبي مفطورًا من الأساس، كما ترين، لوفاة جورج. فقدت ولدي العزيز الغالي دون إنذار، ولم أحظَ بجثّة أدفنها حتّى... لقد دمّرني ذلك».

قالت تشارلوت لنفسها إنّ أسى ليدي أبتون لا يخصّها بشيء، لكنّها شعرت بكرب المرأة يتسرّب من خلال درعها، ويُعديها بالذّنب، فقالت: «لقد كان شابًّا يُبهج النّفس».

أشرق وجه ليدي أبتون: «أليس كذلك؟»

إن كانت اللّيدي تتوق إلى الحديث عن ابنها كلّ هذا، فلمَ لا تشبع لها رغبتها؟ ذلك أفضل من مشاهدتها تبكي.

«كما تعلمين، لقد كان من معارف زوجي، السّيّد إيفرز»، تابعت تشارلوت. لم يكن لديها فكرة عن درجة اطّلاع ليدي أبتون على علاقة ريج وجورجي، الأفضل أن تكون شديدة الحذر: «لم ألتقِ به قبل إبحارنا، لكنّ ريجينالد عرّفنا على بعضنا على متن السّفينة. أذكر أنّني رأيتُ فيه واحدًا من أكثر الرّجال الّذين شاهدتهم وسامةً، لكنّه لم يكن مختالًا بمظهره على الإطلاق. وعلى الفور، عبّر عن رغبته في أن نكون صديقين».

وفي موجة تذكار مرهفة العواطف، عاد إليها كلّ شيء: عينا جورجي المستعطفتان كعيون الجراء، المتعطّشتان لتلقّي استحسان تشارلوت، وتحويمُه المستمرّ حولها.

لقد تصرّفت بشكل بغيض، بالكاد كانت تطيق أن تنظر في وجهه دون عبوس، لكنّ ليدي أبتون لا تعرف ذلك. راحت تشارلوت تمحّص ذكرياتها، وتنتقي منها الأجزاء الّتي تظهرها هي وجورجي في أفضل صورة، فتصف جولاتٍ على ظهر المركب وأحاديثَ وديّةً خلال الوجبات. أنصتت ليدي أبتون جذلى، كأنّ الصّور المبتذلة الّتي ترسمها تشارلوت حكايةٌ مفعمة بالإثارة، إذ كانت قصصًا لم تهرّئها اللّيدي بالتّذكّر الدّؤوب. أتاحت هذه الحكايات لها أن تتخيّل جورجي لا يزال يشقّ طريقه عبر الأطلسيّ، غيرَ مرئيّ بيد أنّه لم يَضِعْ بعد.

وقد استطاعت تشارلوت حتّى أن تجعل ليدي أبتون تضحك: «لا أصدّق أنّه أخبركِ عن حصان أختي!»، قالت بقهقهة طفوليّة متحرّجة: «مسكين برانسر، كان حصانًا مشاكسًا»، ثمّ عاد الحزن ليكتسحها، مثل غيوم تعتم قمرَ منتصفِ ليلة: «اضطررنا إلى قتله في النّهاية».

الموت والمزيد من الموت. حاولت تشارلوت جهدَها لتفكّر في قصّة تلهي ليدي أبتون، شيء مسلٍّ يبقي المزاج رائقًا. كانت بالفعل قد بهرجت الحقيقة حتّى بات يصعب تمييزها، وهمّت باختراع حديث حين سألتها ليدي أبتون بمباشرة محرجة: «أتعلمين ما الّذي حدث بجورج؟ في النّهاية؟»

أخيرًا، السّؤال الّذي كانت تشارلوت تخشاه. هزّت رأسها قائلة: «لقد غادرتُ على قارب نجاة، قبل أن تغرق السّفينة».

- «مع زوجك؟»

- «لا».

«لكنّه نجا»، قالت ليدي أبتون.

هذا خاطئ، فكّرت تشارلوت: لا يجدر بي تضليل هذه المرأة المسكينة. لكنّها كانت قد قطعت وعدًا، فخافت من عواقب الإخلال به.

«تمّ إنقاذه لاحقًا»، قالت تشارلوت: «في قارب آخر».

«هل أخبرك ما حدث بجورج؟»

مرّة أخرى، هزّت تشارلوت رأسها، بقوّة أكبر ممّا سبق: «لم نتحدّث عن الغرق، كان الأمر صدمة كبيرة».

«أتفهّم هذا. عليك ألّا تشعري بالأسى من أجلي، لقد سبّب الأمر بلبلة كبيرة لنا نحن كذلك. في البدء، قيل لنا إنّه تمّ إنقاذ جورج، وفي اليوم التّالي ورد اسمه ضمن قائمة في الصّحيفة، بالرّكّاب المفقودين. وبعد ذلك، حين وصلت سفينة الإنقاذ إلى نيويورك، تلقّينا برقيّة...»، توقّفت لتأخذ نفسًا مرتعدًا: «وحتّى حينذاك، لم أفقد الأمل، ظننت أنّ جورج قد يدخل من الباب ويخبرني أنّ الأمر كان برمّته خطأ لا أفظع منه».

كانت تبتسم وتبكي في آن واحد، وشعرت تشارلوت بأنّ الخزي يثقل كاهلها. لم تتوقّع أن تحبّ ليدي أبتون هكذا، لكان الأمر أهون بكثير لو كانت اللّيدي متعالية وبغيضة، حينها كان سيسع تشارلوت أن تسير مبتعدة وهي موقنة أن ثمّة سببا وجيها لأكاذيبها. أمّا الآن، فلم تكن متأكّدة تمامًا.

«رأيت اسم السّيّد إيفرز في قائمة النّاجين، وأردت أن أكتب إليه»، قالت ليدي أبتون، وكان صوتها ثابتًا رغم الدّمع الّذي التمع في عينيها: «لكنّ زوجي لم يقبل بذلك.

سُمح لي بشهر من الحداد، لا أكثر. أزال زوجي كلّ أغراض جورج، وحُظر على الحديث عنه، كأنّه لم يوجد يومًا. رأيت أنّ ذلك قد يكون أفضل، وأنّني سأتعافى إن لم أُطنب في التّفكير. ثمّ فقدنا توم، وبالكاد بكيت. بحلول ذلك الوقت، لم تتبقَّ لديّ مشاعر. لم يكن زوجي رجلًا يسهل العيش معه، لكنّني كنت أعرف حدودي.

كان هو صانع القرار، وكنت أفعل ما يريده. منذ وفاته، وجدت نفسي على غير هدى، أمشي في أنحاء هذا البيت الشّاسع وحيدةً، وأفكّر في طفليَّ حين كانا صغيرين، يركضان على الدّرج أو يتوسّلان إلى كي أشاركهما الشّاي في غرفتهما. كان زوجي ليجد كلّ هذا إغراقًا مريعًا في الذّات، بيد أنّ الأمر يسعدني»، اجترحت ليدي أبتون ابتسامةً مكسورة: «هل يبدو هذا جنونًا؟»

«كلّا»، قالت تشارلوت متسائلةً إذا ما كان الأسى قد خبل اللّيدي بالفعل.

«يسرّني جدًّا أنّك تفهمينني»، بدت ليدي أبتون سعيدة للحظة: «أجد عزاءً كبيرًا في أن يُتاح لي التّحدّث عن ولديّ، أشعر كما لو أنّهما أُعيدا إليّ، بطريقة صغيرة ما».

يا لها من حياة مؤسفة، قالت تشارلوت في قرارتها. لقد عاشت في جلباب زوجها المستبدّ وحُرمت من الحداد على ابنيها. وليس للمرّة الأولى، هنّأت تشارلوت نفسها لعدم إقدامها على الزّواج.

«الشّيء الوحيد الّذي ما زال يؤرّقني هو التّفكير في ساعات جورج الأخيرة»، تابعت ليدي أبتون: «وعدم معرفتي كيف مات. تذكّرت موضوع السّيّد إيفرز وقلت لنفسي أن أحاول العثور عليه، فوجّهت محامي عائلتنا لإجراء التّحريّات، لكن بدا أنّ السّيّد إيفرز قد اختفى»، تهدّل وجه اللّيدي: «يا ربّاه، لم يخطر ببالي حتّى أن أسأل، هل هو...؟»

تسارع ذهن تشارلوت. ماذا يجدر بها أن تقول؟ سيكون الأسهل أن تخبر اللّيدي أنّ ريج مات، سينتهي الحديث، وتستطيع تشارلوت أن تحمل درب طريقها. لكنّها، بدلًا من ذلك، ألفت نفسها ترفع كتفيها.

- «إنّه حيّ، إلى حدّ علمي. نحن مفترقان منذ بعض الزّمن».

- «أكره أن أزعجك، الأمر فقط... أنّني لا أستطيع ردع نفسي عن التّساؤل عمّا حدث. جميعنا سمعنا قصصًا مروِّعة عن أشخاص تجمّدوا حتّى الموت

أو علقوا في حجراتهم الخاصّة، وستكون مكرمةً إلهيّةً لو أعرف أنّه لم يعانِ. وبالنّظر إلى أنّه هو والسّيّد إيفرز كانت تربط بينهما صداقة خاصّة...»

رمقت ليدي أبتون تشارلوت بنظرة سريعة ذات مغزى. بتلك النّظرة الواحدة، أخبرت تشارلوت أنّها تعلم الحقيقة عن ابنها وريج، حقيقة لن تقرّ بها صراحةً أبدًا.

«لقد كانا سويّةً حين رأيتهما آخر مرّة»، قالت تشارلوت بحذر: «لا أظنّ أنّ ريج كان ليترك جورجي وحده»، لم تكن متأكّدة إذا ما كان ذلك سيواسي اللّيدي أم لا.

«ومع ذلك، فقد نجا السّيّد إيفرز فقط».

لم يكن ثمّة شيء اتّهاميّ في نبرة ليدي أبتون؛ فقد قالت ما قالته كإقرار بحقيقة بسيطة. كلّ ما استطاعت تشارلوت التّفكير فيه هو وجه ريج حين رفضتْ أن تساعد جورجي في ارتداء ملابسها، والطّريقة الّتي تبدّل بها تعبير ريج من الالتياع إلى التّفهّم، وكيف صاح عندما مرّ قارب النّجاة قرب النّافذة مرغمًا إيّاه على التّوقّف كي يتسنّى إنقاذ تشارلوت. تذكّرت آخر نظرة لمحت بها جورجي- مرتعدًا وحائرًا، مثل هرّة مُعنَّفة- وصدمها أن تتذكّر كم كانت تكرهه، بدا ذلك همجيّةً انبعثت عن ذاتٍ أكثر بدائيّة.

«أتظنّين أنّ السّيّد إيفرز قد يأتي في زيارتي، لو طلبتُ منه؟»

حاولت تشارلوت أن تقارب الحقيقةَ ما وسعها ذلك: «لقد ظلّ في أمريكا، لا أظنّ أنّه عاد إلى إنجلترا منذ ذلك الوقت».

«بوسعي أن أرسل رسالة، إن كان لديك عنوانه».

«نحن لا نتراسل»، قالت تشارلوت بجفاء، ثمّ اقترحت- ضدّ رغبتها تقريبًا: «أنا مسافرة إلى نيويورك خلال بضعة أيام، قد أستطيع العثور عليه، يمكنني المحاولة».

افترّت شفتا ليدي أبتون عن ابتسامة ملتوية لتشارلوت، تعبير كان مصرًّا على إظهار التّقدير إلى درجة أصابت تشارلوت بالغثيان: «سأكون في غاية الامتنان، إنّه للطف شديد منك أن تسايري امرأة عجوزًا مثلي. سماع قصصك، والحديث عن جورج... لقد كان ذلك عونًا كبيرًا».

راودت تشارلوت شكوكٌ حول ذلك. لقد ارتابت في أن يكون نكشُ أسئلة ليدي أبتون عن موت جورجي قد زاد الطّين بلّة، لكنّها لم تستطع الاستمرار في حجب نفسها عن أسى اللّيدي. حتّى الطّريقة الّتي كانت تنظر بها إلى تشارلوت- بلهفة مفعمة بالأمل- كانت بمثابة صدى لابنها، وتذكير لاسع بأنانيّة تشارلوت وغيرتها. ليدي أبتون لم تكن كما توقّعت على الإطلاق؛ فماذا لو كان ذلك ينطبق على جورجي هو الآخر؟ لو أنّ تشارلوت منحته فرصة ليثبت خطأها؟

لم يكن الخجل يردع تشارلوت عن الكذب يومًا، عندما ينصبّ ذلك في خدمة غاياتها، لكنّها شعرت الآن بعبء دهائها. كان للتّرتيبات الّتي اتّخذتها على متن كارباثيا عواقب لم تتنبّأ بها قطّ، ستحمل ألم ليدي أبتون- عن استحقاق- إلى أن تستطيع وضع الأمور في نصابها.وإن لم تستطع، ستواسي نفسها بمعرفة أنّها بذلت قصارى جهدها.كانت تشارلوت تعلم، علمَ اليقين، أنّ بعض الأخطاء لا يمكن إصلاحها أبدًا.

إيسمي

خطت إيسمي فان هاوزن خطواتها الأولى بحذر، تتوثّق من أن يكون كعب قدمها ثابتًا قبل أن تنقل وزنها إلى القدم الأخرى. كانت شديدة التّذبذب مؤخّرًا. في اليوم السّابق، تعثّرت وكادت تسقط في الرّدهة، أمام عينَي السّيّدة غيرستنر. توصّلت إلى مراوغة ما حدث بالضّحك، لكنّ المأزق كان وشيكًا. لم تكن إيسمي لتحتمل أن تتسبّب في جعل أفراد الطّاقم يغتابونها أكثر ممّا يفعلون أصلًا، لا سيّما أنّ سمعتها متقلقلة مثل أعصابها.

كان ينبغي بزائرتها الغامضة أن تكون أكثر لباقة من أن تأتي في العاشرة صباحًا، فالوقت لا يزال مبكّرًا جدًّا على أن يواتي التّواصل الاجتماعيّ. حين داهمت السّيّدة غيرستنر غرفة نوم إيسمي، لتخبرها أنّ لديها ضيفًا غير متوقّع، أبقت إيسمي وجهها محتجبًا تحت الأغطية وهي تسأل عن هويّته، لم تكن تشعر بعد بالجاهزيّة لمواجهة ضوء النّهار. قالت المدبّرة لإيسمي إنّ المرأة لم تقدّم بطاقة خاصّة.

«لقد قالت إنّها صديقة قديمة أرادت أن تفاجئك، لديها لكنة- إنجليزيّة على ما أظنّ».

كان نقص المعلومات هذا مزعجًا، بيد أنّه فعّال كذلك. لقد انقضى أسبوعان على وفاة تشارلي، وأسبوع على جنازته. تجنّبت إيسمي رؤية أيّ أحد بتمثيلها دور الأرملة الحزينة، وذلك لا يجانب الحقيقة. لقد كانت في حزن حقيقيّ، على ما هو أكثر من تشارلي بكثير. إلّا أنّ الفضول على كلّ حال جاء كافيًا ليتغلّب على نُوَامِها، فاستطاعت أن تُنهض نفسها وتقوم عن السّرير.

اغتسلت في الحمّام، ورأسها ينبض كلّما انحنت فوق الحوض، ثمّ أخذت وقتها لتقرّر ما ترتديه. كانت خيلاء إيسمي شكلًا من أشكال حفظ الذّات، وما كان لها أن تتخلّى عن خصلتها النّيِّقة[1] هذه ببساطة لأن تشارلي رحل. لقد بلغت أربعينها قبل الحادثة ببضعة أشهر، ورغم أنّ ذلك لم يكن حجرَ علّام في طريقها ترغب بالإقرار به صراحةً، فقد اشترى تشارلي لها الزّهورَ وصحبها إلى العشاء في الخارج. لو أرادت، لأمكنها أن تختار تَذكُّرَ تلك الأمسية كأمسية سعيدة. لقد حاولت حثيثًا أن تستمتع، وبدا تشارلي ممتنًّا لجهدها، رغم أنّه أمضى نصف وقت الوجبة يقفز من طاولة إلى أخرى ليلقي التّحيّات. حين لمحت إيسمي نفسها في مرآة غرفة الزّينة، فوجئت مفاجأة سارّة. فبفضل الثّروة الّتي تنفقها على كريم الوجه وصبغة الشّعر، لم تزل تحتفظ بجاذبيّة طلّتها، بالنّسبة إلى امرأة في عمرها، حيث لا مناص من التّغيّرات.

استقرّ رأي إيسمي على فستان من الحرير الأخضر الدّاكن، مناسب لأرملة دون أن يكونٍ بالغ الكآبة. كان بوسعها أن تتذكّر، على نحو ضبابيّ، أثواب الحداد الّتي أُرغمت على ارتدائها عندما توفّيت والدتها. حمدًا لله أنّ ذلك التّقليد اندثر باندثار الفيكتوريّين، إذ لم يكن الأسود يتماشى على الإطلاق مع سحنة إيسمي. جلست إلى مزينتها، وراحت أصابعها تتنقّل بثقة بين عبوات مستحضرات التّجميل وفُرَشِها. سرعان ما أُخفيت آثارُ الحرمان من النّوم بالبودرة وقلم تخطيط العين، وأعادت مسحةٌ من أحمر الشّفاه الحياةَ إلى فمها. لم تكن وجنتها تحمل تقريبًا أيّ أثر للجرح الّذي أصيبت به على متن قارب النّجاة، مع أنّها خشيت آنذاك أن يترك تشوّهًا دائمًا. وما كان لها أن تفعل بشعرها إلّا القليل، غير أنّها ملّسته إلى الخلف قدر ما استطاعت. عادة ما تجيء مصفّفة شعرها، السّيّدة فولينسكي، كلّ يومين، لكنّ إيسمي كانت قد أعطتها أسبوع عطلة.

---

(١) النّيِّق: هو من يبالغ في تجويد أموره (من لبس ومأكل... إلخ). (المترجم)

كانت إيسمي تدرك أنّ حذاء جلد التّمساح قد لا يكون الخيار الأكثر حكمة، إذ إنّه عالٍ وضيّق أكثر من بقيّة أحذيتها، وكادت أن تقع في مأزق حين خرجت من غرفة الزّينة وأوشكت على السّقوط. إلّا أنّه كان الأنسب لفستانها، وإيسمي ترفض التّنازل حين يتعلّق الأمر بالأزياء؛ سيتعيّن عليها أن تحذر لا أكثر.

واجهت لحظةَ تشوّش عند أعلى الدّرج، فدار رأسها وترنّحت متّكئة على الدّرابزين، لكنّها استطاعت أن تحافظ على انتصاب قامتها، بغضّ النّظر عن طعنات الألم الّتي أمطرت جمجمتها من الدّاخل. طوّقت الخشب بأصابعها وصلّبت ذراعها، وتولّت نسخةٌ داخليّة واثقةُ الخطوِ من نفسها توجيهَ النّسخة الخارجيّة الّتي تكابد الأمرّين: ارفعي كتفيك، جلّسِي ظهرك، القدم اليسرى، القدم اليمنى. وبتركيز عاقد العزم، وصلت إلى قاعدة الدّرج وسارت بخطوات سلسة متوازنة نحو الصّالون الأماميّ، ولم يتضعضع اتّزانها إلّا عندما رأت المرأةَ الواقفة عند المدفأة. إذ، رغم القبّعة المائلة الّتي غطّت نصف وجه الزّائرة، علمت إيسمي من تكون لفورها.

«تشارلوت إيفرز»، قالت المرأة مادّةً يدها.

«أتذكّر»، أجابت إيسمي، دون أن تأخذ بها.

غار وجه تشارلوت نحو الأرض، كانت تتمتّع بذوق يكفي كي تشعر بالإحراج على الأقلّ. أول ما بدر إلى إيسمي كان أن تنادي على السّيّدة غيرستنر وتطلب منها مرافقة تشارلوت إلى الباب. كيف تجرّأت على القدوم هكذا، دون سابق إنذار؟ إلّا أنّ ومضة الغضب الأوّليّة سرعان ما أفسحت مكانها للإدراكِ المحبِط بأنّ زيارة تشارلوت كانت أكثر شيء مثير للاهتمام يمكن أن يحدث في هذا اليوم، أو أيّ يوم آخر ضمن المستقبل المنظور. لو غادرت تشارلوت الآن، ستظلّ إيسمي تتساءل عن سبب مجيئها أبدًا.

«اجلسي من فضلك»، قالت إيسمي على نحو مقتضب جافّ دون أن يكون فظًّا تمامًا: «سأرسل في طلب القهوة».

لم تكن السّيّدة غيرستنر تحوم في الممرّ، كما يُفترض أن تفعل حين يكون لدى آل فان هاوزن أحد، لذا استأذنت إيسمي للتّغيّب قليلًا. خلال الدّقيقة الّتي استغرقتها كي تتبع مدبّرة منزلها إلى المطبخ، فكّرت في تقديم المعجّنات كذلك، ثمّ قرّرت ألّا تفعل. لا داعي لتشجيع الاسترسال في الزّيارة قبل أن تعرف ما وراء تشارلوت. وإذ أذهلها التّرقّب، كادت تصطدم بعضادة باب في طريقها إلى الصّالون، فحملت نفسها على التّوقّف لتهدئة أنفاسها.

يجب ألّا ترى تشارلوت مدى مواشكتها نحو فقدان السّيطرة.

«آمل ألّا أكون سبّبت لك أيّ عناء»، قالت تشارلوت حين عادت إيسمي.

«ما من عناء»، أجابت إيسمي: «نادرًا جدًّا ما نستقبل زوّارًا هذه الأيام... تكاد الطّبّاخة تفقد رشدها من الملل».

قصدت أن تلطّف الجوّ، لكن لم يبدُ أنّ تشارلوت قد استأنست. كان على إيسمي الاعتراف أنّ التّقدّم في السّنّ لم ينل من تشارلوت، رغم أنّ الزّمن قد قسّاها كذلك.

ثمّة إقدام في نظرتها وجدته إيسمي مهولًا، بدت كأنّها ترى ما خلف سلوكيّات الضّيافة المهذّبة في إيسمي فتشاهد الطّريقة المذلّة الّتي تتحامل بها فقدانَ تشارلي.

«لقد سمعت عن زوجك»، قالت تشارلوت بلباقة رسميّة: «أنا في غاية الأسف».

«شكرًا لك»، لم يكن بمقدور إيسمي قطّ أن تجد ردًّا مناسبًا على تعابير التّعاطف طيّبة النّيّة من هذه الشّاكلة. أكان يجدر بها أن تبتسم بشجاعة أم تذرف دموعًا متكلّفة الأناقة؟ لقد فقدت قدرتها الغريزيّة على تحديد اللّائق من الأمور. قالت: «إنّه للطف بالغ من طرفك، أن تحضري شخصيًّا. لم أكن أعرف أنّك تقيمين في نيويورك».

«أنا لا أقيم هنا، لقد عدت إلى لندن عقب الغرق بقليل».

إذًا لماذا أنت هنا؟ تساءلت إيسمي، لكنّها أوصت نفسها بالصّبر وانتظار تشارلوت حتّى تكشف ما في جعبتها.

«لقد تبعثرنا جميعًا، أليس كذلك؟»، قالت تشارلوت، كما لو كانتا تتحدّثان عن أحوال أصدقاء دراسة قدامى: «هل رأيت أيّ أحد من القارب، في ما بعد؟»

«حسنًا، تشارلي، بطبيعة الحال...»

انتبهت إيسمي إلى تشارلوت وهي تهيّئ نفسها لإظهار الأسى.. لا.. يجب عليها ألّا تتكلّم عن تشارلي..

«وسابين، خادمتي».

أومأت تشارلوت.

«بقيتْ معي لسنوات»، أردفت إيسمي: «تبيّن أنّها خيّاطة جيّدة، فبدأت تصنع الفساتين لي، ثمّ أرادت صديقاتي منها أن تصنع ثيابًا لهنّ، فتطوّر الأمر من هناك. باتت تملك بوتيك خاصًّا بها الآن، في جادّة ماديسون أفينو».

«هنيئًا لها»، قالت تشارلوت: «لكنّني فوجئت، فقد كانت تبدو كائنًا صغيرًا مهادنًا».

أجابت إيسمي: «لا تزال كذلك، من بعض الأوجه. لا أظنّ أنّني سمعتها ترفع صوتها يومًا، غير أنّها تمتلك قوّة من نوع هادئ. كنت أعتمد عليها بمقدار كبير، في تلك الشّهور التّالية، وكانت شديدة الوفاء. كان ذلك يعني لي كثيرًا، وحزنتُ لخسارتها كخادمة بالطّبع، لكنّني فعلت كلّ ما استطعته لأساعدها على الانطلاق بالمتجر. أنا فخورة جدًّا بها».

ماذا كانت إيسمي دون سابين يا ترى؟ لقد كانت سابين هي من واست إيسمي حين بكت على هيرام، عشيّة زواجها من تشارلي. لطالما كانت تصغي؛ لطالما تفهّمت.

«وهل تتذكّرين السّيّدة ماكبرايد وأختيها؟»، تابعت إيسمي: «لقد اعتدن الاتّصال بي، عندما يأتين في زيارة إلى نيويورك. هي توفّيت منذ عشر سنين تقريبًا، وكذلك السّيّدة ويستلي العامَ المنصرم. لا أظنّ أنّ صغراهنّ لا تزال قادرة على السّفر».

«أتساءل ماذا حلّ بالفتاة السّويديّة الصّغيرة»، قالت تشارلوت.

«آنا»، أجابت إيسمي. هي كذلك كانت تتساءل، تذكّرت المرأةَ الشّابّة محدودبةً وسط القارب، ترتعد، والصّدمة قد شدهت وجهَها.

«لم أعد قادرة على السّفر بحرًا منذ ذلك الحين»، قالت إيسمي: «كان ذلك يثير جنون تشارلي، فلطالما أراد أن يُمضي عطلةً صيفيّة في فرنسا أو إيطاليا. كان يقول إنّه ما من متعة في المال إن لم ينفقه المرء، وأنا أعرف آلاف الأشخاص الّذين يعبرون الأطلسيّ كلّ عام دون أدنى خطر، إلّا أنّني لا أستطيع تصوّر نفسي على متن سفينة. ربّما تكونين واحدةً من القلائل الّذين يتفهّمون السّبب».

«أجل»، قالت تشارلوت: «لقد رتّبت شركة وايت ستار لاين لرحلتي إلى الوطن، ورافقني الرّعب طيلة الوقت. لم أطأ متن مركب من جديد قبل هذا الأسبوع».

لم يبدُ الأمر منطقيًّا. أيكون موت تشارلي قد زعزع تشارلوت إلى درجة جعلتها تقهر خوفها من الإبحار، فقفزت على متن سفينة، وهرعت لترى إيسمي، امرأةً لم تتحدّث إليها منذ عشرين عامًا؟

«يشرّفني أنّك تكبّدتِ هذا الجهد من أجلي»، قالت إيسمي.

ضرب ذلك على عصب، إذ أشاحت تشارلوت بوجهها. كان ثمّة ما وراءها دون شكّ. دخلت السّيّدة غيرستتر تحمل صينيّة، فتوقّف الحديث ريثما تمّ صبّ القهوة وتقديمها. وحين غادرت، أبقت إيسمي الفنجان عند شفتيها، ترتشف على مهل.

سترغم تشارلوت على البدء بالحديث.

«لقد تصدّر خبر وفاة السّيّد فان هاوزن كلّ الصّحف في إنجلترا»، قالت تشارلوت.

«ربّاه»، لم تدرِ إيسمي إذا ما كان عليها أن تُسرَّ أم تُذعَر: «لم أعلم أنّه معروف هكذا هناك».

«لقد كان زواجكما واحدة من القصص السّعيدة القليلة الّتي نتجت عن نكبة التّايتانيك»، قالت تشارلوت: «منحتما النّاس الأمل حين لم يتوفّر الكثير منه».

كان لدى إيسمي ألبوم قصاصات في غرفتها، مليء بشذرات تعود إلى أسبوع زواجها. لم يزل بإمكانها ترداد العناوين: «انتصار الحبّ على الخسارة»، «قصّة رومنسيّة بعيدة الاحتمال على متن التّايتانيك»، «إحدى أرامل التّايتانيك تتزوّج من منقذها». لقد بدا كما لو أنّ العالم بأسره يناصر وصولها هي وتشارلي إلى السّعادة.

كان ثمّة أنواع أخرى من المقالات كذلك، لكنّها لم تقتطعها.

«هنالك أناس كثر، في إنجلترا وأمريكا، ما زالوا ينظرون إليك بإعزاز كبير»، قالت تشارلوت بلطف من شأنه أن يجعل إيسمي ترى فيها صديقة لولا أنّ دفاعاتها كانت متيقّظة.

«لقد ذُهلت لعدد رسائل التّعزية الّتي تلقّيتها، من قبل غرباء لا تربطني بهم صلة»، قالت إيسمي: «هذا يغمرني بالمشاعر».

«النّاس يشعرون بأنّهم يعرفونك، حتّى لو لم يلتقوا بك يومًا. وهم قلقون حيال تصبّرك على ما حدث، يجب أن تعلمي ذلك».

كانت تشارلوت منحنية إلى الأمام، وقد تراخى صوتها حتّى صار شبيهًا بصوت منوِّم مغناطيسيّ في عرض جانبيّ. تذكّرت إيسمي أنّها لم تكن بهذا الدّهاء في قارب النّجاة، كانت تظنّ أنّ الصّياح والتّشدّق سيجلب الآخرين إلى صفّها، وذلك ما لم يحدث، بالطّبع.

«أنا مراسلة لدى صحيفة لندن ريكورد»، قالت تشارلوت: «وأودّ أن أوصل قصّتك، قصّتكما أنت والسّيّد فان هاوزن».

انكمشت إيسمي منتبذة. لقد دخلت تشارلوت بيتها مستهترةً تتخفّى خلف تمتمات التّعاطف والاهتمام المنحول، ظنًّا منها أنّ بوسعها خداعها كي تطاوعها على ما تريده. أسقطت إيسمي الفنجان وطبقه فأحدثا صلصلة على الأرض، ثمّ وقفت والإهانات والأسئلة تدور دوّامات في رأسها، لكنّ كلّ ما استطاعت قوله هو: «اخرجي».

نهضت تشارلوت بأناة، مثل فأرة تسترضي قطّةً تذود عن منطقتها: «أعتذر إن كنت ضايقتك. أنا واثقة أنّك تعرّضت إلى محاولات تقرّب من كلّ أنواع الصّحف والمجلّات، وظننت أنّك قد توافقين على إجراء حوار مع شخص تعرفينه، في سبيل أن تلقي العبء عن كاهلك».

«لماذا عساي أثق بك؟»، صاحت إيسمي. أرادت أن تزعق بصوت عالٍ تهتزّ له الثّريّات، أن تتيه في سورة غضب تدفعها بعنف خارج اجتياح الذّكريات الضّاري.

استدارت، أسرع من اللّازم، فارتطمت ركبتها بطربيزة واختلّ توازنها. وفيما هي تترنّح يأخذها الغثيان، سمعت تشارلوت تعتذر وتقول إنّ بوسعها أن تتّصل بها في فندق الميتروبوليتان إن هي غيّرت رأيها. لم تلتفت إيسمي نحوها،

لم تنظر إلى الخلف وهي تتمايل خارجةً من الغرفة ثمّ تصعد الدّرج، شاقّة طريقها المتعثّر نحو غرفة النّوم، لتعود إلى الكوميدينو والقنّينة الّتي تجلب لها راحةً كريهة الطّعم لكنّها مضمونة.

وداعًا لانتصار الحبّ على الخسارة.

غطّى شراب الجنّ سقف حلقها مثل كفّارة دوائيّة. والآن إذ عادت إيسمي إلى أمان ملجئها في الطّابق الثّاني، فيما السّتائر مسدلة في وجه ضوء الشّمس المُتَّهِم، شعرت بإعجاب ناقم نحو جرأة تشارلوت. لقد مرّ وقت كانت فيه إيسمي لتستقبل اهتمامًا كهذا بالتّرحاب والملاطفة، وقت رأت فيه الصّحف حلفاءً لا أعداء. ما كانت لتمانع القيام بدور عاشقة شابّة حزينة العينين، عاشقة كانت سعادتها أثمن بسبب حسرة القلب الّتي تشوبها، وبدا آنذاك أنّ الجميع أراد لها ولتشارلي أن يعيشا في تبات ونبات.

لن يشكر أحد لها أن تعترف بأنّ حياتهما لم تكن كذلك.

بعينين مبتلّتين، وهي تطوّق نفسها بحزن مغرق في الذّات، أخذت إيسمي صورة الزّفاف ذات الإطار الفضّيّ عن منضدتها ووضعتها بجانبها وهي تندسّ تحت الأغطية. لقد أحبّها تشارلي، في البداية على الأقلّ؛ كانت متأكّدة من ذلك. لكنّه أحبّها بالطّريقة الرّحراحة الّتي كان قادرًا عليها، وليس بالإخلاص والتّكريس العنيد الّذي ينكّه ضجرَ الرّوتين اليوميّ. قضت إيسمي سنوات تتساءل عمّا أخطأت في فعله، ثمّ سنوات بعدها تُلقي أكوام اللّوم بالرَّفْش على تشارلي.

ومؤخّرًا فقط توصّلت إلى الاعتقاد بأنّهما كانا ملعونين بالإخفاق منذ البدء، قبل عناوين الصّحف الفوّارة بكثير. لقد كانت اللّحظةُ الّتي شدّت فيها تشارلي إلى قارب النّجاة- دون أدنى تفكير، تدفعها الحاجة إليه ببساطة- هي اللّحظة الّتي خسرته فيها.

من أين كان لهما أن يتنبّآ بعواقب ذلك التّصرّف بعينه؟ كانت إيسمي في غاية الامتنان لوجود تشارلي معها، ولمعرفتها أنّه حيٌّ يُرزق. كما أنّ إنقاذه لم يكن تصرّفًا أنانيًّا بالكامل، إذ ربّما غرقوا جميعًا لو لم يكن تشارلي هناك، يحتفظ بصفاء ذهنه ويجذّف حتّى تتشنّج يداه من الألم. في تلك اللّيلة، كان يستحيل تخيّل أنّ كلّ قرار صغير يمكن أن يتعاظم لاحقًا ويتجاوز المنطق، أو أنّ تلك البادرة العفويّة قد تُتَّخَذ دليلًا في محكمة الرّأي العامّ. كانت إيسمي تعلم أنّها لم تكن حذرة كما ينبغي، لكنّها كانت شابّة ومذعورة وحائرة، والشّيء الوحيد الّذي جعلها تشعر بتحسّن هو تشارلي. لم يزل بوسعها أن تتذكّر كيف كانت رائحته حين دفنت وجهها عند عنقه، مُسكرة للغاية، وملكها هي وحدها. لقد نزّ دفؤه في أوصال إيسمي مثل عقار مسكِّن، ودسّت يدها داخل جيب معطفه، حيث قبضت أصابعه على أصابعها تسوقها إلى ذلك حاجة ضارية. كان تشارلي مرساتها، تثبّتها في مكانها.

في الأيام الّتي أعقبت إنقاذهما، باتا أكثر مراعاة للحشمة. كان تشارلي شديد القلق والاهتمام على متن كارباثيا، يتحرّى أخبار صحّة إيسمي وينضمّ إليها على الوجبات، إلّا أنّهما لم يتحدّثا على انفراد قطّ؛ إذ شُملت إيسمي برعاية نفس نساء مجتمع فيلادلفيا اللّاتي كانت تنظر إليهنّ باحتقار متبرّم ذات زمان. كانت السّيّدة ثير والسّيّدة وايدنر قد ترمّلتا مؤخّرًا أيضا- وفُجعت السّيّدة وايدنر بابنها كذلك، فوجدت إيسمي السّكينة في رفقتهما الهادئة. لم يُنتظر منها- في حضرتهما- أن تتحدّث أو تكون فاتنة، وتسنّى لها أن تستطعم راحة نجاتها ببساطة.

حزنت إيسمي على هيرام بطريقة ميكانيكيّة يحرّكها الواجب. لم تفتقده بحقّ حتّى عادت إلى فيلادلفيا، تجوب أنحاء بيتهما الشّاسع، وتشعر بشعور طفلة تلعب «بيت بيوت». سيظلّ الكرسيّ الّذي يترأّس طاولة الطّعام له دائمًا، حاله حال الأريكة الفرديّة في غرفة الجلوس الّتي لم يزل شكل جسده منطبعًا

عليها. لم يكن الأمر مختلفًا عن المعيشة برفقة شبح، لكنّ إيسمي لم تبكِ قبل مجيء أخته للزّيارة، ووجهها سقيم ملطّخ. فيما راحت الأخت تتحدّث بتردّد عن أخيها الّذي فقدته، شعرت إيسمي بكامل فداحة غياب هيرام. كانت تنفر من فتوره وتثاقله، غير أنّه كان رجلًا طيّب القلب، واستحقّ أفضل ممّا كان.

لكنّ شعور إيسمي بالذّنب تجاه هيرام لم يقلّل من رغبتها في تشارلي بأيّ شكل.

كان ثمّة ما هو حتميّ في زواجهما، وأقرّت كلتا عائلتيهما أنّ تشارلي قد تولّى دور وصيّ إيسمي، لكنّ مراعاة إتيكيت الحداد ظلّت واجبة. بالنّسبة إلى إيسمي، كان ذلك يعني شهورًا من اتّصالات التّعزية وتناول الوجبات بمفردها. وجدت في مراسلاتها مع تشارلي خطَّ إمداد حيويّ، إذ فقط في رسائلها كان يتسنّى لها أن تكشف عن ذاتها الحقيقيّة؛ وتعطّشها لتشارلي ومستقبلهما. ورغم أنّها كثيرًا ما فكّرت في جسد تشارلي، وهي في سرير وحدتها، فقد منعتها الأدبيّات الاجتماعيّة عن لمسه حتّى. حين جاء تشارلي إلى فيلادلفيا في طلب إيسمي، استقبلته مع أبيها والسّيّدة إيرز بالغة اللّطف الّتي قامت مقام وصيفة لها. وعندما أمضت إيسمي بضعة أيام في بوسطن بدعوة من والدته، نزلت في جناح ضيوف على جانب المنزل المقابل لغرفة تشارلي، وشعرت أنّها تحت مراقبة وانتقاد دائمين.

لكنّ إيسمي كانت خيار تشارلي، وما كانت والدته لتنكر أيّ شيء على أصغر أبنائها المعبود الّذي نجا من التّايتانيك بأعجوبة. إن كان تشارلي يريد الزّواج من إيسمي، فله ذلك.

عندما أعلنت الخطوبة، بعد انقضاء ستّة أشهر على حادثة الغرق، كان تشارلي وإيسمي قد أرسيا بنود حياتهما الزّوجيّة بالفعل. سيبدآن بداية جديدة في نيويورك، حيث كان معارف تشارلي من هارفارد قد عثروا له على

عمل مصرفيّ مسبقًا، وتهيّأ والداه ليشتريا لهما منزلًا فاخرًا لائقًا. حرصت إيسمي على أن تتصرّف باحتراس مع عائلة هيرام وأصدقائه، فراحت تصف القران المرتقب بصيغة عمليّة أكثر ممّا هي عاطفيّة، إلّا أنّها رأت كم جرحَ الخبر أخت هيرام. لم يكن سهلًا عليها أن ترى أخاها يُستعاض عنه بهذه السّرعة، لكنّها كانت كريمة ومنحت إيسمي مباركتها.

«ما كان هيرام ليريد لك أن تبقي وحيدة»، قالت لها: «أنت شابّة جدًّا، والحياة كلّها أمامك».

وفيما أخذها غثيان الذّنب، تذكّرت إيسمي آخر لمحة من هيرام وهو على ظهر المركب، يشاهدها ترحل بصبر رزين. هل ظلّ يرى فيها زوجة وفيّة، في تلك اللّحظات الأخيرة؟ فكرة أن يكون قد ذهب إلى موته وهو يعرف بأمر تشارلي بدت لها فجأة خيانة أعظم من قلّة وفائها، إذ كان ذلك خطأً لن يتسنّى لها تصويبه أبدًا.

وفي ساعات الصّباح الباكرة الموحشة الّتي سبقت زفافها، بينما كانت إيسمي تذرع مكانها وتحكّ عينيها المحتقنتين محمرّتي الأجفان، وصل بها الأمر إلى أن تبوح بندمها لسابين، الّتي هزّت رأسها نفيًا حين سألتها إذا ما كان هيرام قد شكّك في غياباتها المسائيّة مرّة. كانت سابين أكثر براءة من أن تكذب، لكنّ إيسمي لم تجد العزاء في تطميناتها، فلو أنّ هيرام قد شكّ في إخلاصها، ما كان ليسِرّ بمخاوفه إلى خادمة.

أقنعت إيسمي نفسها أنّ قلّة النّوم هي ما جعلها باهتة الحماسة في ما يفترض أن يكون أسعد لحظاتها. كان الزّفاف مناسبًا لظروفهما: مراسم بسيطة أقيمت في منزل عائلة تشارلي، لم يحضرها إلّا ذوو القرابة الأسريّة. حين تلت إيسمي نذور زواجها، شعرت كما لو أنّها تمثّل فانتازيا مُحكَمة الحبكة: هكذا سيبدو الزّواج من تشارلي فان هاوزن. ولو أنّ ليلة زفافهما كانت مخيّبة للأمل، إذ خلت من الشّغف الّذي ميّز ترابطهما على متن السّفينة، فلم تسمح

إيسمي لنفسها أن تُسهِب في ذلك. كانا يحتاجان وقتًا ليعيدا اكتشاف بعضهما، وهذا كلّ شيء.

ولم يحدث لهما قبل اليوم التّالي- عندما غادرا إلى محطّة القطار- أن يدركا كم كانت حياتهما قد تغيّرت، إذ احتشدت بائقة من المراسلين والمصوّرين على طول الرّصيف أمام المنزل، وتعيّن على تشارلي وإيسمي أن يشقّا طريقهما بينهم بالمناكب ليبلغا السّيّارة، وكان ثمّة المزيد من الصّحفيّين ينتظرونهما في نيويورك.

تظاهرت إيسمي أنّها تجد في الأمر إزعاجًا مقلقًا، بيد أنّها كانت مسرورة في سرّها.

لطالما علمت أنّها وتشارلي ينتميان إلى بعضهما؛ والآن، بدا أنّ العالم يوافقها.

لكنّ الحبّ الحقيقيّ لا يبيع الصّحف لمدّة طويلة. فخلال بضعة أيام، ظهرت مقالات أخرى، تطرح أسئلة حول تشارلي وكيف استطاع أن ينجو، في حين لقي الكثير من سادة الدّرجة الأولى الآخرين حتفهم. الإشاعة القديمة عن رجل تسلّل إلى أحد قوارب النّجاة متنكّرًا بزيّ امرأة- السّيرة الّتي ظنّت إيسمي أنّها انتهت وانقضى أمرها في جلسات استماع مجلس الشّيوخ- كانت قد نُبِشَت وأعيد إخضاعها للبحث.

بات المبلغ الّذي دفعه تشارلي لرجلَي الطّاقم موضع تساؤل مرّة أخرى، وحُرِّفَ كرمه إلى شيء مخز. وما زاد الطّين بلّة هو إحجام تشارلي عن التّصدّي لكلّ ذلك، فكان كلّما دافعت إيسمي عنه يتقهقر أكثر.

والآن ها هي ذي تشارلوت، تنبثق مثل شبح من ماضي إيسمي المؤرّق. أكبر سنًّا بطبيعة الحال، وأقلّ تكلّفًا، لكنّها لا تزال ذاتها على نحو لا لبس فيه. كانت تشارلوت واحدة من أولئك النّسوة المحظوظات اللّاتي لا يعتمد إغراؤهنّ على

الصّبا وحده، وكان مدهشًا بحقّ كيف تذكّرتها إيسمي بهذه السّرعة، رغم أنّهما لم تمضيا سويّة إلّا بضع ساعات منذ زمن سحيق. لكن، والحقّ يقال، تلك السّاعات كانت قد مرّت كما السّنين. التّفكير في قارب النّجاة جعل إيسمي تتوق جسدًا إلى تشارلي الّذي كان ذات زمان، الرّجل الّذي أخذ بيدها حين سحبته. خلال كلّ طقوس الفقد الّتي مرّت بها منذ وفاة تشارلي، كانت إيسمي تكدح كي تتحدّث عن زوجها دون التّلميح إلى خيبتها أو تعاستهما. والآن، شعرت بتوق راجف إلى تشارلي الّذي قضى نحبه قبل ذلك بكثير. ما زالت تحبّ ذلك الرّجل- وستبقى دائمًا- وقد حرّر إدراكُها ذلك الدّموعَ الّتي لم تكن تعلم حتّى أنّها موجودة.

لم تتحدّث إيسمي وتشارلي عن القارب قطّ؛ لقد اقتدت به وحاولت أن تنسى. لكنّها رغبت- استجابةً منها لصدى ذاتها الشّابّة الّتي خبلها الحبّ- أن تتحدّث عمّن كان في موضع المعبود منها، فتعيش كلّ لمسة وشعور مرّة أخرى. لقد كانت تشارلوت موجودة آنذاك، ولعلّها تفهم ذلك.

مسحت إيسمي وجهها بكمّيها وجرّت نفسها لتنهض عن السّرير. ومن هاتف الممرّ، اتّصلت بفندق الميتروبوليتان وتركت رسالة للسّيّدة إيفرز، تسألها إذا ما كان بمقدورهما اللّقاء. ثمّ استحمّت وأخذت قيلولة، وحين استيقظت بانتعاش متجدّد يقارب الصّحو، كانت تنتظرها ورقة ملاحظة كُتبت بخطّ يد السّيّدة غيرستنر الأنيق على المنضدة قرب سريرها: السّيّدة إيفرز تدعوك ضيفةً على العشاء في فندق الميتروبوليتان عند الثّامنة مساءً. فطنت إيسمي إلى أنّ تلك كانت المرّة الأولى الّتي ستغادر فيها المنزل منذ جنازة تشارلي.

كان الميتروبوليتان واحدًا من تلك الفنادق المخلخلة متكلّفة الأرستقراطيّة الّتي تظلّ قيد الخدمة بفضل أسعارها الأدنى من سعر السّوق والتّسويق الشّفهيّ(١). النّوع بعينه الّذي يجتذب مَن يحسبون للبنس مِن المسافرين

(١) التّسويق الشّفهيّ: نوع من أنواع التّرويج غير المدفوع- مكتوبًا أو شفهيًّا- حيث يقوم العملاء

الإنجليز، كما قالت إيسمي لنفسها وهي تترجّل من سيّارة الأجرة. البوّاب بطيء الحركة ويبدو أبكم، لكنّ إيسمي ارتاحت للتخفّف من المداهنة الّتي كان يمكن أن تنتظرها في الرّيتز أو الوالدورف، فوجدت أيّما نعمة سماويّة في أن تكون مغمورة.

كانت تشارلوت تنتظر في اللّوبي رديء الإضاءة الّذي يقبّض النّفس، وتصدّرت الطّريق داخل قاعة الطّعام الّتي تضاهيه كآبة. صحبهما كبير النّدل إلى طاولة عند النّافذة الأماميّة، بعيدة بما يكفي عن بقيّة الرّوّاد القلائل. طلبت إيسمي الحساء، كعادتها؛ ففي مساعيها للحفاظ على قوامها، كانت قد اعتادت على التّنقير في الوجبات أكثر من تناولها. وبهدف ادّخار قواها التّحادثيّة لما سيأتي، وافقت رأي تشارلوت في أنّ الجوّ كان لطيفًا، وأنّه من المؤسف رؤية كلّ أولئك المتشرّدين وقد خيّموا في سنترال بارك. سألت تشارلوت عن أبناء إيسمي، فشعرت الأخيرة بومضة فخر أقامت أودَها. لقد حقّقت نجاحًا في ذلك الجانب من حياتها، على الأقلّ.

«روبي يرتاد هارفارد، نحن فخوران به كثيرًا...»، تلعثمت إيسمي وتوقّفت للحظة: «أقصد... أنا فخورة كثيرًا. إنّه ذكيّ وعطوف، وليتك ترينه في ملعب كرة القدم! ما من أحد بوسعه أن يجاريه».

ابتسمت تشارلوت بما بدا سرورًا صادقًا، بيد أنّها ما كانت لتعرف كم كان روبي استثنائيًّا بحقّ. لقد ورث تهلّلَ تشارلي وضحكة إيسمي الفوّارة، لكنّ طيبة أصله كانت مدعّمة بنزعة حمائيّة لا تكلّ تجاه من يحبّهم. ما كانت الجنازة لتمرّ بسلام على إيسمي لولا وجود روبي بجانبها، يدسّ يده ليسند مرفقها فلا تتعثّر. وحتّى في طفولته، كان هو من يستطيع أن يستجرّها بعذب الكلام لتخرج من غرفتها حين لم ترغب بشيء إلّا أن تفرغ قنّينة الشّراب ودمعَها، كانت لديه طريقة بمناداة «أمّي؟» تضفي على صوته ما يمسكها فلا تستطيع مقاومته.

الرّاضون بإخبار النّاس عن مدى رضاهم عن شركة أو منتج أو خدمة أو حدث ما. (المترجم)

«أمّا روزي- روزاليند- ففي الثّالثة عشرة، وهي حاليًّا لدى والدة تشارلي، في بوسطن. السّيّدة فان هاوزن مكلومة بحقّ، كما قد تتخيّلين».

لطالما كانت السّيّدة فان هاوزن قاسية، ولقد أغرقها موت تشارلي في يأس تامّ الأركان. لم تكن إيسمي تحتمل التّواجد في حضرتها، إذ إنّ السّيّدة فان هاوزن كانت تلومها على تعاسة تشارلي جهرًا، ناسيةً أنّ الزّواج الفاشل إنجاز مشترك، وأنّ تشارلي لم يلتزم بجانبه من الصّفقة تمام الالتزام.

«ألديك أبناء أنت؟»، قالت إيسمي.

هزّت تشارلوت رأسها: «لا، أنا لم أتزوّج»، ثمّ- كفكرة متأخّرة تقريبًا- أضافت: «من بعد السّيّد إيفرز».

كانت إيسمي تهمّ أن تتصرّف بلباقة وتسأل كم دام زواجهما، بيد أنّ تشارلوت بدت عازمة على تحريك المحادثة بعيدًا عمّا يخصّها.

«أنا في غاية السّرور لأنّك وافقت على رؤيتي»، قالت تشارلوت ومدّت يدها في حقيبة اليد الموضوعة على الأرضيّة قرب كرسيّها: «سأسجّل بعض الملاحظات الآن، إن لم تمانعي، ثمّ يمكننا القيام بالحوار الرّسميّ بعد ذلك».

هزّت إيسمي رأسها: «جئت لأخبرك أنّني لن أجري حوارًا، يمكنك وضع هذا جانبًا».

وجّهت نظرها إلى القلم في يد تشارلوت. ساد الصّمت للحظة بدت تشارلوت خلالها تفكّر إذا ما كان الأمر يستأهل الجدال، ثمّ أعادت القلم إلى مكانه.

«حسنًا».

لم يكن ثمّة سبب يدفع إيسمي إلى إطالة البقاء في قاعة تلطّخ الصّلصةُ المُراقة سجاجيدَها المتهرّئة وتجعل إضاءتُها المتقاعسة الجميعَ يبدون مرضى،

كانت لتستطيع استحضار ما يكفي من الأحاديث السّطحيّة حتّى تنتهي من الوجبة وتغادر قبل أن تقول أشياء ستندم عليها لاحقًا، لكن ما الّذي لديها كي تعود إليه؟ منزل خاوٍ.. سريرها.. القنّينة..

لن يمرّ وقت طويل قبل أن ينفد الرّمق الأخير من الكحول، وليست لدى إيسمي أدنى فكرة عن كيفيّة العثور على مُهرِّب؛ كان تشارلي هو من يتولّى هذه التّرتيبات. ستساعدها المماطلة في هذا اللّقاء على الاقتصاد في ما تبقّى لديها.

لكنّ ذلك لم يكن السّبب الرّئيسيّ لاختيار إيسمي أن تبقى. لقد كانت تشارلوت آخر شخص ينبغي أن تُسِرّ له- صحفيّة، من بين كلّ النّاس!- ومع ذلك فقد وثقت بها دون أن يردعها ذلك. انتبهت، بخضّة، إلى أنّ تشارلوت كانت تنظر إليها بنفس الطّريقة الّتي اعتادها تشارلي، حين كانا في إنجلترا، قبل أن يتبادلا أولى قبلاتهما. كانت نظرة من النّوع الّذي يجذب شخصًا إلى آخر: أريد أن أعرفك، أخبرني من أنت.

وبذلك غامرت إيسمي، كما سبق وفعلت مع تشارلي.

«أتودّين سماع القصّة الحقيقيّة لزواجي؟»، سألتها.

بدت تشارلوت متيقّظة.

«لا يمكنك تدوين أيّ شيء، كما لا يمكنك أن تطبعي شيئًا ممّا أقوله. لديّ بعض المحامين الجيّدين جدًّا تحت تصرّفي إن اخترتِ الإخلالَ بهذه الشّروط».

«ما من حاجة إلى المحامين»، قالت تشارلوت: «سأحتفظ بما تقولينه لي سرًّا أيًّا كان».

لعلّها تقنع بالاستماع ببساطة، بعد كلّ شيء. كان ثمّة الكثير ممّا تريد إيسمي أن تقوله، اعترافات ما كانت تستطيع قطّ أن تبوح بها لابنيها أو

لرفيقات الغداء الّتي تشير إليهنّ بالصّديقات. كانت الحقيقة تفور، بعد عقود من قمعها، ولم تعد إيسمي تشعر بالجلادة الكافية لاحتوائها. بدت تشارلوت فجأة الشّخصَ الوحيد الّذي يهمّ، الشّخص الوحيد الّذي من شأنه أن يمنح التّبرئة.

«قصّة التّايتانيك الرّومنسيّة العظيمة خاصّتي»، بدأت إيسمي بنغمة دراماتيكيّة: «أنا أؤمن بها تمامًا مثل ما يفعل أيّ شخص. كنت غارقة في هيام تشارلي، من قبل قارب النّجاة حتّى. لقد التقينا في إنجلترا، كما ترين، ورأيت فيه أكثر الرّجال الّذين عرفتهم وسامةً وكمالًا. كنت متزوّجة، وأعلم أنّ هذا كان خاطئًا، لكنّني ببساطة لم أستطع أن أقاومه. لا بدّ أنّك اشتبهتِ...»، رمقت إيسمي تشارلوت بنظرة، لكنّ وجه الأخيرة احتفظ بكامل اتّزانه. إمّا أنّها فعلًا لم تكن تعلم، أو أنّها أستاذة في الكذب: «أخشى أنّني لم أكن شديدة الاحتشام»، تابعت إيسمي: «لا شكّ أنّك لاحظت كيف كنت أتشبّث به».

«لم ألاحظ الكثير ممّا يخصّك أو يخصّ السّيّد فان هاوزن»، أجابت تشارلوت: «كنت مستغرقة في مخاوف أخرى».

لقد مات بسببك! كانت تشارلوت قد صرخت. بدت مشوّشة آنذاك، ممّا سهّل تجاهل الأمر. تساءلت إيسمي إذا ما كانت تشارلوت لا تزال تعتقد ذلك، كانت تخاف أن تسأل.

«لقد شعرت بأسف شديد على السّيّد هاربر»، قالت إيسمي: «كان زوجي رجلًا طيّبًا، لكنّني لم أكن واقعة في حبّه قطّ، مثل ما كان حالي مع تشارلي. لم أكن في غاية السّعادة مع هيرام- أظنّ أنّ هذا واضح، نظرًا إلى سلوكي- لكنّني ظننت أنّ الأمور ستختلف مع تشارلي. كان الهوى قد بدأ يجمع بنا، لذا لم يكن ثمّة شكّ أنّنا سنحظى بزواج ناجح. هكذا يفترض أن تسير الأمور، أليس كذلك؟»

«أودّ أن أعتقد هذا».

«هل كنتِ غارقة في الحبّ حين تزوّجتِ من السّيّد إيفرز؟»، سألتها إيسمي. كان واضحًا أنّ السّؤال أخذ تشارلوت على حين غرّة. راحت عيناها تجوبان المطعم، كما لو قد تعثر على الكلمات المناسبة في زاوية قصيّة ما. وفي النّهاية، كلّ ما قالته كان: «أجل».

«لا بدّ أنّك تظنّينني شخصًا فظيعًا».

«لا»، امتدّت يد تشارلوت دون تفكير فوق الطّاولة في بادرة تطمين: «لم نكن أنا وريجينالد ثنائيًّا مثاليًّا تمامًا. لقد مررت بأوقات كرهته فيها، أنا أيضا».

لامس الاعتراف إيسمي على نحو غير متوقّع، وكانت ربّما لتطرح بضعة أسئلة أخرى عن ريجينالد إيفرز لو لم يرجع النّادل حاملًا طعامهما. أخذت إيسمي تعبث بالكريم النّافر من حسائها فتدوّره وتشاهد خيوطه البيضاء تتمدّد، وأصابتها الرّائحة بالغثيان. وبدأت تشارلوت بلحمها المشويّ، تاركةً لإيسمي أن تتحدّث.

«من المريع الاعتراف بهذا، لكنّني رأيت في الغرق علامةً على أنّنا أنا وتشارلي كنّا مقدَّرَين لبعضنا. لو سار كلّ شيء كما خُطِّط له، كنّا لنتودّع في نيويورك، فأعود إلى حياتي المملّة مع هيرام، ويُجمَع تشارلي بوريثة ما أو بأخرى. ما كان واحدنا ليرى الآخر بعد ذلك. حين ظهر تشارلي عند تلك النّافذة- عندما ساعدك على ركوب القارب- بدا الأمر من صنيعة القدر. لم يكن هيرام قد مات بعد حتّى، لكنّني شعرت أنّ زوجي الحقيقيّ أُنقِذ».

أجفلت إيسمي من إحساسها بالدّموع تخز عينيها. فمهما بلغت أوجاع قلبها الخاصّة، لم تكن السّيّدة إيسمي فان هاوزن تجعل نفسها فرجة في العلن. أجبرت نفسها على ابتلاع ملعقة من الحساء، محاولةً تنظيم أنفاسها.

«ومن ثمّ تمّ إنقاذنا، وبإمكانك تخمين ما تبقّى. بتّ أتبادل الرّسائل مع تشارلي، ولم يمضِ وقت طويل حتّى بدأنا الحديث عن الزّواج. أعلم أنّ بعض النّاس قالوا إنّنا نتسرّع، لكنّني لم آبه»، حاولت إيسمي أن تغالب صورة أخت هيرام، ووجهها الّذي تُصلّبه ابتسامةٌ مرغَمة: «لقد جعلتنا حادثة الغرق نصمّم على اتّباع قلبينا. إن كان من الممكن للمرء أن يموت غدًا، فلمَ لا يعيش اليوم؟»

تلك كانت إحدى المقولات الأثيرة لدى تشارلي، مقولة كان يسعد إيسمي أن تحيا وفق مقتضاها في السّنوات الأولى. غير أنّها لم تبق ملهِمةً بنفس الدّرجة لاحقًا، حين كانت إيسمي حبلى ومنهَكة وتشارلي يعلن أنّه سيأخذ دروسًا في الطّيران أو يذهب في رحلة صيد لمدّة أسبوع مع أصدقائه. وكما لو كان لديه واجس بالموت المبكّر، فقد حظي تشارلي بأكثر من حصّته من المغامرة خلال سنواته الثّلاث والأربعين.

«لقد نشرت جميع الصّحف في إنجلترا مقالات عن زفافكما»، قالت تشارلوت: «كانت صورتكما تظهر في كلّ مكان».

«هل كتبتِ عنه أنت؟»

«ليلتي مع عاشقَي التّايتانيك؟» قالت تشارلوت بتهكّم: «لا، لم أخبر أحدًا أنّني التقيت بكما. لا أحد تقريبًا ممّن أعمل معهم يعرف أنّني كنت على متن التّايتانيك، إلى هذا اليوم».

«لقد كانت الشّهرة ممتعة نوعًا ما»، إلى أن بدأت النّمائم وصار تشارلي يمزّق الصّحف كلّما ظهرت مقالة جديدة، لم تكن تشارلوت في حاجة إلى سماع كلّ هذا: «كنت أستمتع في إقامة بيت لنا، والحديث إلى تشارلي على العشاء كلّ ليلة- كنّا نضحك طوال الوقت، غير مصدّقين تمامًا أنّ الأمر حقيقيّ. بدا أنّني حظيت مؤخرا بكلّ شيء أردته يومًا».

لقد كان العام الأوّل سحريًّا، كلّ يوم يبدأ وينتهي بالقبلات. الحماسة الكامنة في إقامة أولى حفلاتهما، ومفاجأة تشارلي البهيجة حين أخبرته إيسمي أنّها تنتظر طفلًا. بدا ذلك كأنّه منذ زمن غابر، قديم إلى درجة أنّ كلّ العاطفة كانت قد نزّت من ذكرياتها وانتهت. كان بوسع إيسمي أن ترى وجهيهما، وإيماءاتهما، ونظراتهما الحنونة، لكنّ تلك كانت صورًا جامدة، لا شيء أكثر.

«ما كان لي أن أتوقّع بقاء الأمور على سحريّتها إلى الأبد، بالطّبع. كان تشارلي شديد التّهوّر- وذلك واحد من الأشياء الّتي أحببتها فيه- لكنّ الأمر كان عصيبًا عليّ، في بعض الأحيان.

كان يكره عمله، لذا يعود إلى البيت نكِدًا، ويرغب في ما ينسيه ذلك، بيد أنّني أكون متعبة بعد يومي مع الطّفلين...» بما أنّها كانت قد شعرت بحدّة فقدان أمّها هي نفسها، فقد صمّمت إيسمي على أن يكون حضورها فعّالًا ومرئيًّا في حياة روبي وروزي. كانت لديهم مربّية، كحال كلّ عائلة أخرى عرفوها، لكنّ إيسمي هي من كانت تستيقظ مع الطّفلين وتطعمهما فطورهما، هي من كانت تغنّي لهما حتّى يناما. لم تكن قد فكّرت قطّ، آنذاك، ولو حلمًا في أن تحبس نفسها بعيدًا عنهما، الأمر الّذي صار إلى عادة كثيرة الحدوث.

ينطلق تشارلي إلى لونغ آيلاند لقضاء عطلة الأسبوع، أو إلى منزل قريبه في بوسطن، ويترك إيسمي بمفردها، أمًّا شابّة لم تضحك لها عشرينيّات القرن أبدًا. لم تعرف تمامًا متى بدأ تشارلي بخيانتها، غير أنّ ميله إلى إخفاء الأمر راح يقلّ مع الزّمن. لعلّه ظنّها لن تعبأ، بعد ما كانت قد فعلته لهيرام. لكنّ الأمر آلمها، أكثر بكثير ممّا كان يعرف.

«توصّلت إلى الشّعور بالأسف الشّديد على نفسي»، قالت إيسمي لتشارلوت: «كنت أتساءل ما الّذي أخطأنا به، وبدأت أرى أنّني أتعرّض للعقاب، لقاء الطّريقة الّتي عاملت بها زوجي الأوّل. جعلني ذلك أفكّر في هيرام، وأدركت

أنّني لم أمنحه فرصة عادلة حقًّا. كنّا مختلفين كثيرًا، وكنت أراه دقّةً قديمةً[١] مملّة، لكنّه ما كان أبدًا ليعاملني كما عاملني تشارلي.

ما كان ليذهب إلى فلوريدا في نزوة وينسى إخباري طوال ثلاثة أيام، ما كان ليتركني وحدي حين أصيبت روزي بالحمّى وأعياني الخوف. كانت لديه رتابة اعتدت أن أجدها مضجرة، إلى أن بتّ أعيش مع نقيضها. الأمر مضحك نوعًا ما، أليس كذلك؟ هناك كنت، متزوّجة مؤخرا من الرّجل الّذي ظننته حبّ حياتي، ولم يسبق لي أن شعرت بمثل تلك التّعاسة».

شجّع صمت تشارلوت المتعاطف إيسمي على المتابعة.

«حالما تقبّلتُ بؤسي، صارت الأمور أسهل»، حاولت إيسمي أن تضحك، لكنّ الضّحكة خرجت بشكل خاطئ، أشبه بسعلة: «سخّرت طاقتي لطفليّ والعمل الخيريّ، أيام كاملة مرّت كنّا خلالها أنا وتشارلي في البيت كلانا لكن لم نتكلّم. ولم يكن الذّنب ذنبه بالكامل، كنت أعرف كيف كانت طبيعته منذ بداية كلّ شيء– رجل من النّوع الّذي يبادر تجاه زوجة رجل آخر. لماذا عساي أُفاجأ من كون الزّواج يصيبه بالضّجر؟»

خلال الانحرافات الضّالّة الّتي شابت بداية قصّتهما، وجدت إيسمي أنّ الطّريقة الأفضل لشدّ انتباه تشارلي كانت في قذف الإهانات وكؤوس النّبيذ على طول أرضيّة غرفة الطّعام، لقد كانت المشاهدُ الدّراميّةُ وحدها الطّريقةَ الّتي تنتهي بهما معًا إلى السّرير. ومع نضوج الطّفلين وازدياد ملل إيسمي وإنهاكها، بدأت تنام في إحدى غرف الضّيوف. كانت تجد رضًى فعّالًا في أن تصفق الباب وتصيح «أكرهك!» دون الاضطرار إلى النّظر في وجه تشارلي. ألا يشكّل هذا مادّةً دسمة للصّحف؟

(١) دقّة قديمة: تُقال في اللّهجات الدّارجة للأشياء قديمة الطّراز أو الأشخاص المتمسّكين بعادات عفا عليها الزّمن. (المترجم)

«من الطّبيعيّ أن يكون لديك ما تندمين عليه»، قالت تشارلوت: «لا سيّما وأنت ما تزالين في الحِداد».

«لقد خذلته، في نهاية المطاف»، نطقت إيسمي الكلمات شبه مهموسة، ولم تتأكّد أنّها ستقولها حتّى خرجت منها: «كان يمرّ بوقت عصيب، مؤخّرًا. ما عادت لمصرفيّي وول ستريت شعبيّة يُعتدّ بها هذه الأيام».

كان ثمّة رسائل غاضبة وتهديدات بدعاوى قضائيّة. امرأة حانقة تخبّط على الباب الأماميّ، وتتّهم تشارلي بسرقة مدّخرات عمرها، فلا تعرف إيسمي كيف تتخلّص منها دون الاتّصال بالشّرطة، ممّا لا يكون من شأنه إلّا أن يجترّ المزيد من الانتباه إلى المسألة الخسيسة برمّتها. لقد تجاهلت الاتّصالات اللّيليّة المتأخّرة، وعناوين الصّحف الّتي تقول إنّ مصرف تشارلي على شفير الانهيار. كان تشارلي قد سخّف كلّ ذلك بالضّحك، فبدا منيعًا على الانحطام كعهده، ولم تدرك إيسمي هي الأخرى كم كانت السّنين قد أهزلته.

«مات تشارلي في حادث سيّارة، كما قد سمعتِ غالبًا. تعيّن على أن أتعرّف على جثّته».

توقّفت إيسمي عن الكلام، تتذكّر بقعة الدّم على معطف محقّق الوفيّات خالص البياض في ما خلاها. كانت تلك البقعة هي كلّ ما استطاعت أن تنظر إليه فيما راح الرّجل يشرح ما قد حدث لوجه تشارلي. كان يبذل غاية جهده ليشمل التّفاصيل في كلامه، فأخبر إيسمي أيّ جزء من السّيّارة اصطدم بأيّ جزء من الشّجرة، وكيف أدّت تلك الزّاوية وتلك القوّة بالتّحديد إلى قذف جسد تشارلي من الزّجاج الأماميّ. طمأنها أنّ الأمر سار سريعًا؛ تشارلي لم يعانِ. أم ترى كان ذلك ما يقوله لكلّ فرد عائلة مكلوم يزور غرفة عمله الموحشة؟ أخبر إيسمي عن بقع الويسكي على قميص تشارلي والقنّينة الّتي كانت في السّيّارة، ظنًّا منه أن قد يريحها أن تعرف كيف حدث الأمر: شرب أكثر من اللّازم، فقد السّيطرة، ثمّ حادثة مؤسفة.

لكن ثمّة بضع حقائق ذات صلة لم يكن المحقّق يعرفها. كان تشارلي يمتلك طبيعةَ ثورٍ ولم ينل السُّكرُ منه يومًا، مهما يكن العدد الّذي يتجرّعه من كؤوس الويسكي والصّودا. لقد عبرت إيسمي معه في السّيّارة نفسَ الطّريق بحذافيره مرّات لا تحصى إلى المنزل الرّيفيّ الّذي كانا يستأجرانه كلّ صيف، ولم تره يزلّ ولو مرّة واحدة.

كان يعرف كلّ منعطف، كلّ تلّة، كلّ خطر محتمل. لو أنّ سيّارته قد انزلقت وارتطمت بشجرة بقوّة تكفي لتفتّت عظم وجنتيه وتُهشِّم جمجمته، فقد حدث ذلك لأنّه أراد له أن يحدث. لقد أراد أن يموت.

قرّرت إيسمي أن لا مغزى من الاستحياء: «لقد قتل تشارلي نفسه»، قالت لتشارلوت.

انفرجت شفتا تشارلوت، بمقدار صغير فقط: «هل أنت متأكّدة؟»

«متأكّدة بما فيه الكفاية. هذا سخيف للغاية، لكنّني غاضبة عليه لعدم تركه رسالة أكثر ممّا لإقدامه على الفعلة ذاتها. كنت لأتمكّن من مسامحته لو أنّه شرح فقط».

لكن ماذا كان لها أن تنتظر من رجل مثل تشارلي؟ ما إن يتّخذ القرار بإنهاء حياته، حتّى يرغب بالمضيّ إلى إنجازه. ومع ذلك، لقد كان مدينًا لإيسمي بكلمة وداع. كانت لتتدبّر أن تكتب شيئًا، لو أنها مكانه.

لقد أحببتك، أنا آسفة.

«لا أظنّه سامحني قطّ على إنقاذي له»، قالت إيسمي: «ما كان ليصل إلى قارب النّجاة لولاي، أنا الّتي سحبته، ولقد حمل ذنب ذلك على كاهله منذئذٍ».

لم تكن إيسمي، في خدر حداد تَرَمُّلِها في فيلادلفيا، قد رأت النّظرات الّتي تحمّلها تشارلي خلال تلك الأسابيع الأولى في بوسطن، عندما كان يُشار إليه

سخريةً بـ«أكثر الرّجال الأحياء حظًّا». لقد تندّر تشارلي على الشّائعات، ممّا جعلها تظنّ أنّه لم يلقِ لها بالاً. غير أنّ كلّ حملقة كانت تنضاف إلى الوزن الّذي حطّمه نهاية الأمر، لم يعد قطّ الفتى المتلهّف الّذي قبّل إيسمي في تلك السّقيفة الرّاشحة المتضعضعة. لقد تحلّلت نهايتها السّعيدة إلى ضباب من الخيبة والكحول، وكلّت عواطفُها إلى غير رجعة.

لكن ربّما لم يكن قلب إيسمي قد توقّف عن العمل بالكامل، إذ راح ينعصر في صدرِها مع تجعّد وجهها، وانسفحت الدّموع على خدّيها. كانت واعيةً على نحو خافت بتشارلوت وهي تنهض عن الطّاولة وتتّجه نحوها فتضمّ كتفيها بذراعها.

بعينين مغمضتين، ألقت إيسمي نفسها على تشارلوت، والنّشيج يرجفهما كلتيهما.

كانت ثمّة أصوات، متموّجة وسريعة، لكنّ إيسمي لم تستطع فهم ما قيل.. لم تحاول.. وقفت، منصاعةً مثل دمية مصنوعة من الخِرَق، بينما أسندتها تشارلوت وسارت بها إلى خارج القاعة، عبر اللّوبي، نحو المصعد. رمق عامل المصعد، الأكبر من صبيّ بقليل، إيسمي بتحديقة مكدَّرة من تحت طاقيّته الحمراء الأنيقة، فلاذت بالرّكن لتبكي. راحت تبكي فيما قعقع المصعد نحو الطّابق العاشر، وبكت وهما تدخلان غرفة تشارلوت. حين أنزلتها تشارلوت على السّرير بحنوّ، انطوت إيسمي على نفسها تطوّق صدرها بذراعيها، لتدعّم ذاتها الخَرِبة. جلست تشارلوت بجانبها في صمت، وكانت حكيمة بما يكفي لتعرف أن ما من شيء يُقال.

في ما بعد، حين تراخى نشيج إيسمي إلى أنفاسٍ يتخلّلها الفُواق، كان هنالك طبيب، يتحدّث إلى تشارلوت، لا إليها. أعطى إيسمي شيئًا ما كي تنام، وكان ذلك بهيًّا: إكسير انساب في حلقها وحاك القطع المكسورة إلى بعضها.

نقلها الدّواء من غرفة الفندق الكامدة إلى ذكريات أكثر حيويّة من اللّحظات الأصليّة الّتي تستردّها.

كان تشارلي هناك، يحمل روزي الرّضيعة، ويغنّي أغنية عن بوم وقطّة. كان بوسع إيسمي أن تتحسّس الرّقّة الزّغباء لرأس روزي والقوّةَ الواثقَةَ ليدَيْ تشارلي. رأت تشارلي في يوم زفافهما، ينظر إليها بنصف ابتسامة متوتّرة، وانداحت النّشوة الطّروب في أوصالها مثل حمّى: أخيرًا، إنّه لي. كانت مع تشارلي في مكتبة التّايتانيك، حينما كان بمقدور لمسة مختلسة واحدة أن تسوقها إلى نصف جنون من اللّهفة.

المكتبة.. ثمّة شيء كانت إيسمي تحتاج أن تتذكّره بشأن المكتبة.. حاولت أن تترسّم الكراسي ورفوف الكتب، لكنّ الصّورة كلّما زادت في محاولة استحضارها كانت تبهت أكثر. كان صوت ينادي اسمها، ويشدّها بعيدًا.

فتحت إيسمي عينيها ورأت تشارلوت جالسة على طرف السّرير. رغم أنّ السّتائر كانت مفتوحة، لم تُضئ النّافذةَ إلّا لمحةٌ مريضةٌ من ضوء النّهار. لا بدّ أنّ هذه من الغرف الأرخص المطلّة على مَنوَر تهوية.

«كم السّاعة؟»، سألت إيسمي، وشعرت بلسانها منتفخًا وجافًّا. «إنّها العاشرة»، قالت تشارلوت: «لقد أرسلتُ رسالةً إلى منزلك، قلت فيها إنّك توعّكتِ».

نهضت إيسمي جالسة. كانت لا تزال في فستان الحفلات من اللّيلة السّابقة؛ غير أنّ حذاءها منزوع: «أعتذر عن إقلاق راحتك».

«كيف تشعرين؟»، سألت تشارلوت.

«أفضل بكثير، شكرًا لك»، أنزلت إيسمي قدميها عن السّرير وسوّت تنّورتها. كان بوسعها أن ترى مرحاضًا عبر باب ضيّق في الرّكن- للغرفة حمّام خاصّ، الحمد لله: «هل يمكنني أن أغتسل؟»

«بالطّبع»، بدا أنّ تشارلوت تجد الموقف بجملته باعثًا على الاضطراب مثل إيسمي: «سأطلب بعض القهوة، ما رأيك؟»

انسحبت إيسمي إلى الحمّام واقتربت من المرآة بحذر. لم يكن الأمر بالسّوء الّذي خشيته: معظم شعرها محتفظ بتموّجاته، ووجهها شاحب لكنّه صارم. لقد حظيت بنوم ليلة هانئة على الأقلّ. بل أكثر من ليلة هانئة؛ كانت قد غابت عن الوعي لما تجاوز اثنتي عشرة ساعة. لم تتذكّر أنّه قد سبق لها ونامت طويلًا هكذا.

بعد تجرّع ثلاث كؤوس من الماء وغسل وجهها، شعرت إيسمي بالتّوق إلى المغادرة. تذكّرت، بشيء من القلق، كم كانت صريحة على العشاء. ما الّذي جعلها تتحدّث بتلك الطّريقة؟ وفوق ذلك أن تنهار بالكامل، وسط مطعم... لقد وضعت نفسها في موقف غاية الإحراج. الأفضل أن تفعل ما كانت تفعله دائمًا عندما تستيقظ على ومضات خاطفة ضبابيّة لكن مقلقة من اللّيلة السّابقة: تتظاهر أنّ شيئًا لم يكن.

عندما خرجت إيسمي إلى غرفة النّوم من جديد، كانت تشارلوت تعبث بفنجانين خزف فوق صينيّة فضّيّة، والإرهاق بادٍ عليها. كان المرء ليعتقد أنّها هي الّتي احتاجت طبيبًا في اللّيلة السّابقة. رأت إيسمي عبوة حبوب على الكوميدينو فدسّتها في حقيبة يدها.

«سكّر؟ قشدة؟»، سألتها تشارلوت.

«أنا حقًّا على أن أهمّ بالذّهاب».

لم يكن ثمّة شيء على جدول إيسمي، لكنّها كانت تشعر بنفور متزايد من صحبة تشارلوت. في اللّيلة الماضية، كانت تشارلوت قد أعطت انطباعًا بأنّها صادقة ومتعاطفة؛ وإيسمي رأت فيها صديقة. لكنّها لم تكن صديقة، أليس كذلك؟.. تشارلوت صحفيّة، حبًّا بالله.. حتّى في هذه اللّحظة، قد تكون تخطّط

لمقالتها التّالية: «أرملة التّايتانيك تبقّ البحصة[1]!». إن كان ذلك، فستتلقّى صحيفتها زيارةً من فريق محاماة عائلة فان هاوزن.

«أوه، ظننتُ...»، همّت تشارلوت بالكلام.

«استمتعي بما تبقّى من زيارتك»، قالت إيسمي. الأفضل أن توضّح عدم نيّتها على رؤية تشارلوت من جديد: «هل ستبقين في البلدة طويلًا؟»

«سأغادر إلى كاليفورنيا عمّا قريب»، أجابتها تشارلوت.

«لتفاجئي صديقًا قديمًا آخر؟»

أومأت تشارلوت لإيسمي إيماءة إقرار: لقد وصلت الرّسالة. «يمكنك أن تقولي ذلك».

كانت تصطنع التّكتّم عن عمد، مستفزّةً إيسمي كي تسأل. مَن عساه يقطن في كاليفورنيا بين من كانوا على متن قارب النّجاة؟ أحد طفلَي تريلوني ذينك، ربّما؟ أخذت إيسمي حقيبتها وقبّعتها، بحركات التّباهي بالثّقة المألوفة. لم يكن انهيار البارحة إلّا زلّة عارضة.

التفتت إلى تشارلوت وواجهتها صراحة: «كلّ ما أخبرتك به أمس في غاية السّرّيّة».

- «أعلم ذلك».

- «لا يمكنك أن تخبري أحدًا، ولا أن تكتبي عنه».

- «سبق ووعدتك ألّا أفعل، وعد شرف».

جذبت إيسمي قبّعتها في إيماءة تؤكّد انصرافها وخرجت. شعرت بأمل مفاجئ وهي تدخل المصعد، قد لا يكون قول الحقيقة ذلك الخطأ الفادح.

---

(١) «بقّ البحصة»: تعبير في اللّهجة الدّارجة يفيد الإفشاء عن سرّ كُتم طويلاً. (المترجم)

لقد جعل مشاعرها أخفّ ثقلًا، وأقلّ ارتهانًا بالماضي. وإذ أنعشها النّشاط الصّاخب لجادّة بارك أفينو، قرّرت إيسمي أن تعود إلى البيت سيرًا. أرادت أن تستعيد الشّعور المحبّب الّذي كان يعتريها أول استيقاظها، أيام كانت لا تزال تستدفئ بابتسامة تشارلي المتيّمة.

توقّفت إيسمي قليلًا أمام واجهة متجر قرطاسيّة، يسطع فيها صفٌّ من الأزهار الورقيّة ناعمة الألوان. لقد جاءت إلى هنا مرّات عديدة، لتطلب بطاقات دعوة إلى العشاء في ليالي رأس السّنة وحفلات الشّاي الخيريّة. من هنا استلمت صندوق كروت ملاحظات بعد بضعة أسابيع من زفافها، وابتسمت جذلى حين رأت عبارة «السّيّدة تشارلز فان هاوزن» محفورةً بالذّهب. لقد أصبح اسم تشارلي اسمها، وسيظلّ كذلك دائمًا. كان تشارلي حبّها الأعظم وخيبتها العظمى، الشّخص الّذي دارت في فلكه نصفَ حياتها.

ضربت الحقيقةُ إيسمي مثل موجة جانحة: لن أراه من جديد.

ترامت السّاعات أمامها، امتدادٌ أجردُ من أيام خاوية تفضي إلى سنين خاوية. ومع ذلك، للمرّة الأولى منذ وفاة تشارلي، لم تشعر بأنّ ملاذ سريرها الوثير يشدّها إليه.

أرادت لفورة المدينة أن تجرفها: مربّيات الأطفال ومسؤوليّاتهنّ، رجال الأعمال وبائعو الصّحف، قبّعات ربّات المنزل الثّريّات الجديدة الزّاهية، عمّال التّوصيل المندفعون في مسارات تناورُ أيَّ شخص يتوانى في سيره. أرادت أن تتحرّك بينهم دون كلام أو ملامسة، مثل شبح، فتجرّب إنسانيّتهم من خلالهم. لم تكن نيويورك أسهل مكان يُعاش فيه على الدّوام، حتّى إن كنت تملك المال، لكنّها كانت وطنها؛ كانت تنتمي إلى هنا.

خطر لإيسمي أن تعرّج إلى سنترال بارك، السّير في حديقة الحيوانات سيذكّرها بالمرّات العديدة الّتي صحبت فيها روزي وروبي إلى هناك في

صغرهما. نظرت إلى ساعة يدها وأدركت أنّ السّاعة تقارب الحادية عشرة، ستكون سابين تهمّ بفتح متجرها، على بعد بضعة شوارع لا غير. انتابت إيسمي فجأة رغبةٌ ملحّة برؤيتها، فعلى عكس الكثير من الأخريات اللّاتي تسمّيهنّ صديقات، سابين لم تكن ترهقها. كانت هادئة ومراعية، لا تقاطع أبدًا، ويسعدها دائمًا أن تصغي. وللمرء أن يخمّن كيف كان لطف إيسمي يعني لها الكثير، نظرًا إلى الهوّة الاجتماعيّة بينهما.

حثّت إيسمي خطاها. كم ستفاجأ سابين لدى سماعها عن تشارلوت! لن تروي إيسمي لها كلّ شيء، بالطّبع؛ ما من سبب للتّطرّق إلى شكوكها حول ميتة تشارلي. كانت مهمّتها، بوصفها أرملة تشارلي، أن تحمي ذكراه، من أجل ولديهما. وإضافة إلى ذلك، هي لم تكن تعرف ما حصل يقينًا، فما يدريها أنّه ليس حادثًا في النّهاية؟

لقد سمعت إيسمي ذات مرّة شيئًا مفاده أنّ الاعتراف جيّد للرّوح، وقالت لنفسها آنذاك إنّها سفاسف كاثوليكيّة عتيقة كئيبة. الآن فطنت إلى بلاغة الفكرة: لقد اعترفت لتشارلوت فشعرت بخطاياها تمحى. أرادت هذه النّسخة المولودة مجدّدًا من إيسمي أن تمطر الآخرين بالحنان. كانت سابين، بالنّسبة إلى شريحة معيّنة من مجتمع نيويورك، تجسيدًا للأناقة الأوروبيّة، لكنّ إيسمي عرفتها عندما كانت خادمة فندق لا تمتلك أيّ أسلوب. إنّ ثقة إيسمي هي ما سمح لسابين بالازدهار.

وسط نفير سيّارات الأجرة وفوضى الأجساد، أحسّت إيسمي بشرارة بهجة أخذتها بغتة. لزمن طويل كانت ترى في السّعادة حقًّا لها، وحين تسرّبت من يديها بحثت عمّن تلقي باللّائمة عليه. لكن ماذا لو كانت مخطئة؟ ماذا لو أنّ السّعادة الحقّة لا تجيء إلّا في هذه اللّحظات الصّغيرة، الّتي يضمن لها صَغارها بالذّات أن يتمّ التّغافل عنها؟ لقد تطلّعت إلى الزّواج كي يتمّمها، لكنّه ما كان ليفعل، بأيّ شكل.

لو أنّ التّايتانيك لم تغرق، وعاد هيرام وإيسمي إلى فيلادلفيا، لكانت تحسّرت على تشارلي بقيّة حياتها. كان ليظلّ الرّجلَ المثاليّ دائمًا، فترفعه إلى مرتبة سامية مستحيلة قبالة هيرام. المضحك في الأمر أنّ تشارلي لم يرتقِ إلى تلك المرتبة هو الآخر، لكنّ إيسمي ما كانت لتعرف لو لم تتزوّج منه.

شدّت إيسمي حقيبة يدها إليها، فسمعة خشخشة العبوة داخلها. من يوم وفاة تشارلي، بدت اللّيالي لا تنتهي. تتقلّب وتتلوّى في فراشها، أو تغوص كارهةً في أحلام مأزومة تتركها ترتجف. التّفكير في الحبوب منحها إحساسًا بديعًا بالهدوء؛ لم يعد النّوم شيئًا تخافه، ففيه سيلتئم شملها بأعزّ ذكرياتها. ثمّة فقط حوالي العشر حبّات في العبوة، لكنّ إيسمي كانت تعرف أنّ بوسعها دائمًا الحصول على المزيد، فهي على صلة بنخبة من أفضل الأطبّاء، أليس كذلك؟ ستأخذ العدد الّذي تحتاجه لتطرد الرّؤى الّتي أرّقتها في أفظع لياليها، اللّيالي الّتي رأت فيها هيرام يتمايل في الماء، ويحدّق إليها بتبريحٍ خالد.

آنا

لم تكن آنا تقرأ المجلّات الأمريكيّة قطّ، لكنّ السّيّدة ويكستروم في متجر جمعيّة الفلّاحين التّعاونيّة كانت تفعل، وكان ثمّة واحدة مفتوحة على طاولة الحساب حين دخلت آنا. نظرت إلى الصّفحات لمحًا وهي تنتظر السّيّدةَ ويكستروم ريثما تجلب المزيد من الخميرة من المخزن. بوضعها المقلوب رأسًا على عقب، بدت الكلمات فوضى متشابكة من الخربشة السّوداء، غير أنّ إحدى الصّور لفتت انتباهها: صورة عن قرب لوجه لرجل أسود الشّعر بارز الذّقن. وكانت هنالك صورة أصغر بجانبها، تُظهر ثنائيًّا في ملابس الزّفاف.

مدّت آنا يدها وقلبت المجلّة لتواجهها. بدا الرّجل كأنّه يحدّق من الصّفحة، نحو آنا مباشرة. أكبر سنًّا، لكنّه يُميَّز على الفور. التّعليق تحت الصّورة يقول: «تشارلز فان هاوزن، يموت عن ٤٣ عامًا».

«وسيم الطلّة، أليس كذلك؟»

كانت للسّيّدة ويكستروم طريقة مربكة في الظّهور من العدم؛ لم تسمعها آنا وهي عائدة.

«يقول السّيّد ويكستروم إنّني حمقاء إذ أهتمّ لأمور العائلات الثّريّة، لكن ما باليد حيلة. أحبّ مشاهدة صور الحفلات والملابس هذه»، دفعت المجلّة أقرب نحو آنا: «يمكنك أن تأخذيها إن أردتِ»، ثمّ بتأهّب: «خمسة سنتات».

دسّت آنا المجلّة في سلّتها وشاهدت السّيّدة ويكستروم تسجّل المبلغ في دفتر حساباتها. أشعرت عمليّةُ الشّراء آنا بالخسّة، فابتسرت كلمات وداعها، دون أن تكلّف نفسها مراجعة قائمة مشترياتها كما تفعل عادةً. كانت واثقة أنّها نسيت شيئًا ما، لكنّ ذلك لم يستحقّ تكبّد إحراج البقاء.

لقد جاءت آنا إلى المتجر مشيًا؛ كان الجوّ لا يزال دافئًا كفاية، في أواخر سبتمبر، ولم تكن تحتاج أغراضًا كثيرة. لكنّها ما إن بدأت السّير عبر الشّارع، تُوزّعُ الإيماءات على بعض المعارف دون أن تبطئ كي تحادثهم، حتّى تمنّت لو أنّها استقلّت الكارّة[1]. ستستغرق نصف ساعة كي تصل إلى البيت، وكانت تريد أن تصل دون مِطال، إلى الملاذ الهادئ، حيث يمكنها أن تؤوّل مغزًى لضيقها المتصاعد. لقد مات تشارلز فان هاوزن، ولا ينبغي للأمر أن يكون ذا بال.

لم تكن تعرفه؛ ما من سبب يدفعها إلى الاستياء. ومع ذلك، كان بوسعها أن تشعر بعينيه تثقبانها. حيّرها التّعليق الوارد تحت صورة الزّفاف، إذ كانت تظنّ أنّه هو والسّيّدة في قارب النّجاة متزوّجان أساسًا آنذاك. كانا يتبادلان تعلّقًا عاطفيًّا كبيرًا؛ وذلك أمر مؤكّد، لأن آنا تتذكّر تشبّثها بجنبه وقبضها على ذراعه طلبًا للطّمأنينة. كانت أكثر امرأة سبق لآنا رؤيتها إبهارًا، بمجوهرات تتلألأ في شعرها، ولم تعرف قبل اليوم أنّ اسمها كان إيسمي.

بصمت، راحت آنا تجرّب الطّرائق المحتملة لنطق الاسم: إيس-مي؟ إس-ميه؟.. بدت الأصوات غرائبيّة على نحو غامض، كحال المرأة نفسها. وللحظة لم تدم طويلًا، فكّرت آنا في إرسال رسالة تعزية، لكنّها نبذت الفكرة حالما خطرت لها تقريبًا. هي نادرًا ما كانت تكتب الرّسائل بالإنجليزيّة، لقلّة ثقتها بدقّة النّحو والتّهجئة، وحتّى لو فعلت وكتبت، فأيّ نفع يرتجى من ذلك؟ الغالب أنّ إيسمي لا تتذكّرها أصلًا، عدا بصفتها فتاة مجهولة تنتحب. لو مرّت

(١) الكارّة: عربة حصان تُستخدم لنقل الأغراض والأشخاص. (المترجم)

إحداهما بالأخرى في الشّارع لما ميّزت إيسمي قطّ الشّخصَ الّذي صارت آنا إليه: ربّة منزل وأمّ تحرِفُ عيناها الكاسفتان وثيابُها البسيطة أيَّ انتباه. رغم المزايا الكثيرة الّتي تنعم بها، كانت آنا لا تزال تتحاشى أن تُلاحَظ؛ طريقتها في التّكفير عن عيش حياة لم تستحقّها.

قرّرت آنا أن تضع المجلّة في كومة الحطب. لم تكن تطيق صبرًا على سوداء الكآبة المُغرِقة في الذّات، خاصّة في ذاتها هي، وما كان ثمّة ما يُرتجى من إطناب التّفكير في شيء لا يمكن تغييره. ومع ذلك، حالما عادت إلى البيت، ألقت آنا السّلّة في الممرّ الأماميّ وصعدت الدّرج. فتحت الصّندوق الّذي عند قدم سريرها وراحت تقلّب اللُّحُف والبطّانيّات المطرّزة، كلّها حيكت قرب المدفأة في أمسيات شتويّة ساد فيها الظّلام سريعًا. في قعر الصّندوق كان ثمّة معطف صوف أسود، مجعّد تفوح منه روائح النّفتالين لكن لم يصبه تغيير في ما خلا ذلك.

ارتدته آنا دون تفكير، فشعرت بثقل كتفيه يستقرّ فوق كتفيها. شملَ مقاسُه قدَّها النّاحل، وتدلّى الكمّان بعد أصابعها. شعرت به كأنّه امتداد لها، بطريقة يتعذّر شرحها، غير أنّها أعمق من المنطق. سيظلّ دائمًا تذكارًا بتلك اللّيلة والخيار الآثم الّذي اتّخذته لاحقًا، لكنّها تعلم أنّها– إن مُنحت فرصة العودة– كانت لتفعل ما فعلته تمامًا بحذافيره.

كان المعطف يخصّ المرأة الإنجليزيّة، تلك الّتي تولّت آنا برعايتها حين انتُشلت إلى قارب النّجاة. كانت المرأة أخّاذة الجمال– مثل ملاك، وفقًا لآنا– وتتحدّث بصوت ثابت مطَمئن، رغم أنّ آنا لم تستطع فهم معظم ما كانت تقوله. وفيما راح الآخرون حولهما يهذرون في غمغمة مربكة من الصّياح والهسهسة، لفّت المرأة معطفها حول آنا بنباهة أموميّة. كان معطفَ رجل،

أكبر من مقاس آنا بكثير، وقد تغلغلت داخل الصّوف، ويداها وقدماها تنبض من البرد. كان شعورها بالرّاحة طاغيًا، وذهنها مبعثرًا من الكارثة الّتي نجت منها، إلى درجة أنّها استغرقت بعض الوقت قبل أن تتذكّر أنّ سونيا وإميل ما زالا في الماء. المرأة الإنجليزيّة كانت الشّخص الوحيد الّذي حنا على آنا حين بكت.

لقد قدّمت المرأة نفسها باسم تشارلوت، اسم بدا لآنا برقّة الدّانتيل الفاخر. بعد سنوات، أرادت آنا أن تسمّي ابنتها الأولى تشارلوت، لكنّ جوزيف أثناها عن ذلك؛ كان يرى أنّه ينبغي لأبنائهما أن يحظوا بأسماء أمريكيّة بسيطة. لم تقل آنا لجوزيف لماذا اقترحت الاسم، لم تكن تتحدّث إليه عن قارب النّجاة.

كانت آنا قد قامت بمحاولة فاترة لإرجاع المعطف لتشارلوت بعد أن تمّ إنقاذهم.

على متن كارباثيا، تمّ تصنيف النّاجين من التّايتانيك بنفس الكفاءة الّتي تُصنَّف بها المنتجات في خطّ إنتاج داخل مصنع، إذ هُشَّ كلّ راكب إلى درجته المناسبة، فحاولت آنا أن تشدّ انتباه تشارلوت فيما تُقتادان باتجاهين مختلفين. هزّت تشارلوت رأسها، وأشاحت صارفةً مساعي آنا لتمرير المعطف إليها وهما تُرسلان كلٌّ في طريقها.

انضمّت آنا إلى صفّ من المهاجرين المرَّغين بالأوساخ في قاعة طعام الدّرجة الثّالثة؛ موكب من أشباه الموتى، يجرّون أقدامهم نحو نسختهم البحريّة الخاصّة من بوّابات القدّيس بطرس اللّؤلؤيّة. مُنحت آنا بطّانيّة ووسادة ووُجّهت إلى رواق الدّرجة الثّالثة، وارتاحت إذ وجدت بريدجت وماري هناك، تنتحبان لكن لم يمسسهما أذى. بدموع أكثر ممّا بكلمات، أخبرتا آنا أنّ شلّة الـ«براين» قد فُقدوا، لكن حين سألتا عن سونيا، لم تستطع آنا غير أن تهزّ رأسها. قد تسمح للحزن بالفرار إن فتحت فمها، ولطالما قال بابا لها إنّ

الانتحاب والهذر الأرعن ليسا طريقةً لتكريم الموتى. مثل التّايتانيك نفسها، يجب أن يُدفن أساها في البحر.

بحلول اليوم التّالي، كان ركّاب الدّرجة الثّالثة قد زادوا تصنيفَ أنفسهم تصنيفًا حسب اللّغة والجنسيّة. راحت آنا تحوّم قرب مجموعة من الفتيات السّويديّات، ممتنّةً للألفة الّتي وجدتها في حديثهنّ لكن عاجزة عن الإتيان بجهد لتوطيد صداقة. قال المضيف السّويديّ الأمريكيّ الّذي كان قد صار الوصيّ غير الرّسميّ عليهنّ إنّ باستطاعتهنّ إرسال البرقيّات إلى عائلاتهنّ، فطفقت الأخريات يخربشن الرّسائل بلهفة في المفكّرة الّتي زوّدهنّ بها، إلّا أنّ آنا لم تستطع إيجاد الكلمات المناسبة. كيف يمكنها إخبار والديها بأنّ سونيا وإميل قد ماتا؟ ومن سيخبر جوزيف؟

في النّهاية، سلكت آنا مَخرج الجبناء. دوّنت اسم والدها ومسقط رأسها، ثمّ الكلمتين التّاليتين: أنا بأمان. لم ترسل برقيّةً إلى جوزيف، قالت لنفسها إنّها ستكتب من نيويورك، حين يكون قد تسنّى لها الوقت لترتّب أفكارها.

بيد أنّ أفكارها لم تكن أقلّ تشوّشًا حين وصلت كارباثيا إلى نيويورك. كان لبقيّة الفتيات السّويديّات أصدقاء أو أقارب يلتقون بهنّ؛ ولم يكن لآنا أحد. صدمها حشد النّاس الّذي رأته متجمّعًا على الرّصيف البحريّ وأصابها بالذّعر؛ كيف سيتسنّى لها العبور بينهم؟ أخبرها المضيف إنّه نظرًا إلى الظّروف الخاصّة لوصولهم وجعجعة التّعاطف العامّ العنيفة، سيتمّ إعفاء ركّاب الدّرجة الثّالثة من الإجراءات المعتادة في إيليس آيلاند.

«هل كنت تخطّطين لمتابعة السّفر من نيويورك؟»، سألها.

لم تقل آنا شيئًا. إن ظلّت على مخطّطاتها الأصليّة وذهبت إلى مينيسوتا، سيتحتّم عليها إخبار جوزيف أنّ أخاه وزوجته المستقبليّة قد ماتا كلاهما. ستظلّ دائمًا تذكارًا بخسارته الفظيعة.

«يمكن لجمعيّة إعانة المهاجرين السّويديّين أن تساعد في التّرتيبات»، قال لها المضيف: «سيدفعون تكاليف رحلة القطار ويقدّمون لك طعامًا وملابس جديدة، حتّى أنّهم قد يستطيعون أن يحجزوا لك رحلة العودة إلى السّويد، إن كان ذلك ما تفضّلينه».

تمنّت آنا لو يخبرها الرّجل ببساطة ماذا تفعل، عوضًا عن إثقالها بعبء اتخاذ القرار. علا وجهَه العبوس مبديًا اهتمامه، فيما راح الصّمت يستطيل بينهما.

«سأبقى»، قالت آنا أخيرًا. لقد اتُّخِذ القرار بدافع من الإعياء أكثر من أيّ شيء آخر؛ لم تكن آنا قادرة على مواجهة رحلة بحريّة أخرى ببساطة. لكنّ صورة جوزيف، والأسى يكلّله، طبّقت عليها قوّة شدّ خاصّة بها. فبقدر ما كانت آنا تتهيّب إخبارَه، رأت من الرّحيم أن يسمع الخبر من صديق لا من غريب. ولن يعني مجرّد ذهابها إلى مينيسوتا أنّها ستستقرّ هناك؛ إذ بوسعها دائمًا أن تعود إلى الوطن. لكن حتّى آنذاك، كانت آمال آنا تتبعثر في طرقات من احتمالات لن تعترف أبدًا أنّها تتبعها. كان جوزيف- الّذي لم تزل تحبّه بما يتجاوز أيّ منطق- يريد الزّواج، والآن لم تعد لديه زوجة.

في خضمّ فوضى نزول الرّكّاب، فقدت آنا أثر بريدجت وماري، فشقّت طريقها وحيدة نحو امرأتين ترفعان لافتات كُتبت بالسّويديّة. لقد جاءت كلتاهما من السّويد أيضا، قبل أكثر من عشرين عامًا. قالتا لها إنّ المهاجرين الجدد في أمريكا يؤخذون تحت جناح أولئك الّذين سبقوهم، وكلّ جيل يرفع الجيل الّذي يليه. أخذت إحدى المرأتين آنا إلى شقّتها في سيّارة أجرة؛ كانت تلك أول مرّة تركب آنا فيها سيّارة على الإطلاق. في المطبخ، راحت ثلاث فتيات يحدّقن في آنا بأعين مشرعة، وسألتها كبراهنّ دون تمهيد إذا ما كانت على متن السّفينة الّتي غرقت. لحسن الحظّ، زجرتهنّ أمّهنّ وقدّمت لآنا غرفة نومهنّ تلك

اللّيلة. وجاء النّوم سريعًا مثل نعمة، رغم أنّ آنا ما كانت تظنّ ذلك ممكنًا. لعلّها كانت الرّائحةُ العالقة لملفوف الكرنب، الّتي ذكّرتها ببيتها.

بعد فطور تألّف من خبز الجاودار والجبنة، قدّمت المحسنة لآنا مؤونة من أجل المرحلة التّالية من رحلتها: تذاكر قطار إلى شيكاغو وسانت بول، وحقيبة تحتوي على فستانين وملابس تحتيّة وحذاء جديد، وأضافت بنات المرأة بعضًا من شرائط شعرهنّ. حاولت آنا أن تحتجّ- كان ذلك أكثر ممّا تستحقّ- إلى أن قيل لها إنّ جمعيّة الإعانة قد غُمرَت بالتّبرّعات لصالح النّاجين من التّايتانيك، كان الجميع يريدون المساعدة بأيّ شيء يقدرون عليه.

كانت محطّة القطار غاصّة مربِكة، حشود من النّاس تتزاحم في كلّ اتجاه. بالنّسبة إلى آنا، بدت متاهةً هائلة، قد تُدفع فيها خارج مسارها فتُساق إلى السّكّة الخاطئة قبل أن تدرك ذلك. عانقت حقيبتها أمامها بكلتا ذراعيها، وعثرت على أحد المستخدَمين وأرته تذكرتها. قلّب المستخدَم آنا بعينيه، ووجد النّتيجة مخيّبة- لن يحصل على بقشيش مكافأة لصنيعته- غير أنّه قادها حانقًا إلى الرّصيف الصّحيح. لم يكن القطار المتّجه إلى شيكاغو مكتظًّا بشدّة، ولم يوجد في مقصورة آنا مسافرون آخرون عدا زوجين أمريكيّين أكبر سنًّا، قنعا بالقراءة حالما علما أنّها لا تتحدّث الإنجليزيّة. أومأ الزّوج لآنا نحو مقعد بجانب النّافذة، وهناك بدأت رحلتها عبر أمريكا.

فكّرت في النّاجين الآخرين، وقد تبعثروا في جهات مختلفة مثل يعاسيب تترك آثارَها دوائرَ متموّجة على سطح بحيرة. كان الأسى لا يزال قابعًا هناك، رفيقًا أبديًّا غير مرحّب به، لكنّه لم يعد يشدّها من قلبها. للمرّة الأولى منذ أيام، شعرت بشيء يقارب القناعة. راحت ترنو من النّافذة، تعلم أنّه سيُنتظر منها أن تكتب إلى ماما وبابا عن انطباعاتها حول هذه البلاد الجديدة، لكنّها طوال الطّريق عبر أوهايو وإنديانا وويسكونسن لم تكن ترى سوى صور منعزلة:

حظائر حمراء، مداخن، حقول تمتدّ نحو الأفق. لم تكن تستطيع وضع ما رأته في توصيف أنيق.

كان جوزيف يعيش في مزرعة عمّه توماس على أطراف سانت بول، وقد كتب- في رسالته إلى السّويد قبل إبحار آنا- أنّه رتّب لحجز غرف في بنسيون تديره سيّدة تُدعى نورلينغ، حيث سيلتقي بهم حين يصلون. محطّة قطار سانت باول كانت بنفس ازدحام محطّة نيويورك تقريبًا، لكنّها أكثر ترحيبًا بفتاة لا تتحدّث من الإنجليزيّة إلّا قليلًا. أجاب موظّف تذاكر على أسئلتها المتردّدة بسويديّة طليقة متدفّقة؛ لقد هاجرت والدته- كما أخبرها- من هالاند قبل ثلاثين عامًا. وجّه الموظّف آنا إلى موقف التّرام في الخارج وقال لها إنّ منزل السّيّدة نورلينغ يقع في جادّة باين أفينو. لن يستغرق ذلك وقتًا طويلًا.

استقبلت آنا المدينة الجديدة بتيقّظ متوتّر، لكنّ خوفها تراخى إلى حدّ ما مع اقترابها من وجهتها. كانت المحالّ السّويديّة تُسطِّرُ باين أفينو، من المخابز إلى قاعات الرّقص، ورغم أنّ الأبنية لم تكن تشبه القرية الّتي ترعرعت فيها بشيء، شعرت أنّها تعود إلى وطنها. هنا، يمكنها أن تقرأ كلّ اللّافتات وتطلب المساعدة دون أن يُحدّق إليها بِحيرة. لم تعد غريبة.

كان منزل السّيّدة نورلينغ متداعيًا بالمقارنة مع جيرانه، بطلاء أبيض مقشور يكشف عن شرائط من الخشب العاري. الدّرجات الأماميّة مائلة إلى أحد جانبيها، والفناء الأماميّ الضّيّق يحوي من الأعشاب الضّارّة أكثر من الأزهار. ومع ذلك، فقد كان بجلالة قصر إن قورن ببيت آنا في السّويد. أحصت ثماني نوافذ، في الأعلى والأسفل، وبدت الشّرفة الأماميّة كبيرة بما يكفي لتتّسع لدستة أشخاص.

فتحت السّيّدة نورلينغ الباب وكشّرت في وجه آنا. لم يكن ذلك ما توقّعته آنا من امرأة تكسب معيشتها من الضّيافة، فشرحت لها بارتباك من تكون. دبّت

الحياة في السّيّدة نورلينغ على الفور، فأشارت إلى آنا بالدّخول ورأسها يومئ إلى أعلى وأسفل مثل ببّغاء.

«أوه، أجل، بالطّبع، تفضّلي بالدّخول»، قالت السّيّدة نورلينغ تقود آنا إلى الصّالون الأماميّ: «يا لك من مسكينة صغيرة، ومسكين جوزيف، لقد كان الأمر عصيبًا عليه».

شعرت آنا بصدرها يتضيّق.. أيكون جوزيف هنا؟

«لا شيء في الصّحف سوى أخبار التّايتانيك منذ أيام! النّاس لا يتحدّثون إلّا عن ذلك»، أشارت السّيّدة نحو طرابيزة بالكاد تظهر تحت كومة من الصّحف: «لقد احتفظت بها كلّها، إن أردتِ إلقاء نظرة؟»

رأت آنا صورة سفينة على الصّفحة العليا؛ وكادت ترتجف من النّفور: «لا، شكرًا لك»، استطاعت أن تقول وهي تشيح بنظرها.

- «آه، حسنًا، ها نحن أولاء، سالمون غانمون. يا لها من نعمة».

- «جوزيف يعلم بشأن أخيه إذًا؟»

أومت السّيّدة نورلينغ. إذًا لم تكن آنا بحاجة إلى القلق حيال إخباره بالنّبأ، لقد قطعت طقطقة أجهزة كارباثيا اللّاسلكيّة- بكلّ قوائم المفقودين والّذين تمّ إنقاذهم تلك- كلّ المسافة ووصلت إلى مزرعة في مينيسوتا.

«جاء جوزيف إلى هنا، بعد سماعه عن الغرق بقليل»، تابعت السّيّدة نورلينغ: «زوجة عمّه، أغنيتا، تكون ابنة أخي- أنا أعرف جوزيف مذ جاء من السّويد. يا له من شابّ رائع، متأكّدة أنّك تعلمين ذلك. قالوا إنّه كان ثمّة الكثير من الخسائر البشريّة، لكن لم يكن لدينا سبيل إلى معرفة من نجا ومن مات. كان من الفظيع رؤية جوزيف قلقًا هكذا، يذرع مكانه جيئةً وذهابًا، بيد أنّه لم يسعنا إلّا أن ننتظر.

وأخيرًا، بعد بضعة أيام، نشرت الصّحيفة قائمة رسميّة بالنّاجين. قرأها هنا، وعثر على اسمك، دون الاسمين الآخرَين».

آه يا جوزيف. لا بدّ أنّه راجع القائمة مرارًا وتكرارًا، آملًا أن يكون قد أخطأ. لا شكّ أنّه كان شجاعًا، آنا تعلم ذلك، لن يكون قد بكى.

«كان في غاية السّعادة، وهو يجري ترتيبات إقامتكم»، قالت السّيّدة: «التّفكير في ذلك يفطر قلبي، لقد كان متلهّفًا لرؤية السّيّدة الشّابّة الّتي سيتزوّجها، بالطّبع، لكنّه أخبرني كلّ شيء عنكِ أنت كذلك. حكى أنّكما ترعرعتما سويّة، مثل أخ وأخته.

قلت له إنّ بوسع الفتاتين أن تبقيا المدّة الّتي تحتاجانها ريثما توضع خطط الزّفاف، فأخبرني أنّه يأمل ألّا يطول ذلك. كان للمرء أن يرى أنّه متوتّر– كما يكون معظم الرّجال، قبل الزّواج– لكنّني كنت أعلم أنّه سيكون زوجًا جيّدًا. لقد بدأ بتشييد منزله الخاصّ، كما تعلمين، ولم يطق الانتظار حتّى يتباهى به أمام عروسه الجديدة...»

كان مؤلمًا، أكثر ممّا ينبغي، السّماعُ عن لهفة جوزيف إلى وصول سونيا، وكم كان يتطلّع إلى مستقبلهما المشترك.

خفتَ صوتُ السّيّدة نورلينغ، وطأطأت تنظر إلى يديها، اللّتين ارتاحتا آخر الأمر في حضنها. تباطأ الصّمت تقديرًا لأسى جوزيف، وفي النّهاية، كان على آنا أن تطرح السّؤال الّذي يجول في خاطرها منذ دخلت من الباب.

- «أما يزال جوزيف هنا؟»

- «لا، لقد ذهب إلى منزله منذ بضعة أيام. لا أظنّه توقّع منك متابعة طريقك إلى هنا– كلانا ظننّاك سترجعين إلى والديك في السّويد. سيُسَرّ جدًّا لرؤيتك، هل أهاتفه؟»

لقد قطعت آنا أكثر من ألف ميل لترى جوزيف، لكن الآن إذ بات التئام الشّمل هذا وشيكًا، شعرت بتوتّر لم يسبق له نظير. لم تشأ أن يكون تواصلهما الأوّل عبر الهاتف، فيتبادلان التّعاطف بنبرات متكلّفة، لم تدرِ حتّى إن كانت ستستطيع أن تتكلّم. كانت آنا تهزّ رأسها، محاولةً أن تفكّر كيف ستشرح، لكنّ السّيّدة نورلينغ كانت قد همّت بالوقوف: «هو لا يملك هاتفًا في منزله الجديد بالطّبع، لكنّني سأتحدّث إلى أغنيتا، ستعرف أين تجده».

انتظرت آنا في الغرفة ريثما تجري السّيّدة نورلينغ مكالمتها في البهو الأماميّ. كلّ ما استطاعت آنا سماعه كان بعض التّمتمات هنا وهناك: أتصدّقين؟ و: يا للعزيز المسكين. حاولت آنا أن تلهي نفسها عن طريق النّظر إلى رسوم التّطريز المؤطّرة على الجدار، لكنّ تلك ما انفكّت تذكّرها بجهاز عرس سونيا. كلّ تلك الأقمشة الّتي حيكت بشكل جميل، ترقد الآن في قاع المحيط.

عادت السّيّدة نورلينغ تتهادى وتعلوها سيماء السّرور، وانخرطت تسرد قصّة معقّدة عن مشكلة سيّارة وجداول مواعيد القطار، لم تعطِ آنا انتباهها لشيء منها تقريبًا، لأن كلّ ما أرادت أن تعرفه هو نتيجة القصّة: متى سترى جوزيف.

ليس قبل بعض الوقت، كما بدا، لأنّه لن يستطيع الوصول إلى البلدة حتّى وقت لاحق من ذلك المساء.

«على كلّ حال، إن أردتِ»، عرضت السّيّدة نورلينغ: «تقول أغنيتا إنّ شاحنة الحليب التّابعة لملبنة غولمان تأتي كلّ يوم في الخامسة. المكان ليس بعيدًا من هنا- أنا واثقة أنّهم سيقومون بتوصيلك، وسيُسعد أغنيتا أن تباتي اللّيلة عندها».

بدا التئام الشّمل بجوزيف في الرّيف- بيئته الطّبيعيّة- مناسبًا أكثر ممّا لو حدث داخل صالون السّيّدة نورلينغ. لذا قطعت آنا الرّحلة الّتي امتدّت ساعة

بشاحنة حليب، وستظلّ دائمًا تربط رؤيتها الأولى لموطنها الجديد بصليل الأباريق المعدنيّة وصفير السّائق المبتهج، أصوات شهدت على مرونة الرّوتين اليوميّ.

ترك عامل الملبنة آنا عند ناصية ممشى ترابيّ محفّر، يفضي إلى حظيرة متواضعة. محراث وعربة، مفكوكان عن الخيول الّتي تدبّ فيهما الحياة، يرقدان بوحشة في المسافة أمامها. إلى يسارها، مميّزًا بدرب ضيّق مرصوف بالحصى، ثمّةً منزل صغير، يجثم على قمّة مُرتفَع ليس عاليًا كفاية ليكون تلّة. كان بسيطًا وأنيقًا، مثل كوخ ريفيّ سويديّ، واستطاعت آنا مُذّاك أن تتصوّره من الدّاخل: صُوان تخت[1] وفرن مكسوّ بالسّيراميك- كلّ الأثاث الّذي يذكّرها بالوطن. ولئلّا تسمح لنفسها بالإغراق في التّردّد، سارت آنا إلى الباب الأماميّ وطرقته.

ما من مجيب.

بالطّبع لا، وبّخت آنا نفسها. سيكون جوزيف في الخارج، يعمل. لا يملك المزارعون وقتًا للجلوس والتّحسّر، ووفقًا لما تتذكّره آنا عن جوزيف، لم يكن حدوث وفاة في العائلة عذرًا. سينهمك في فرك المَرابط ونقل رُزَم القشّ حتّى تصرخ عضلاته طلبًا للرّاحة، فجوزيف لا يسمح لنفسه أبدًا بالاستراحة قبل أن ينجز العمل.

استدارت آنا تقصد نحو الحظيرة. كان بوسعها سماع الخيول تخبط بحوافرها وتصهل في الدّاخل، وحين اقتربت أكثر، استطاعت كذلك سماع صوت رجل، يتحدّث بنبرة خفيضة مريحة. كان باب الحظيرة مفتوحًا، ورأت آنا جوزيف في الدّاخل، يدعك فرسًا بفرشاة. سمحت لنفسها أن تستمتع بمراقبته قبل أن يعلم أنّها هنا.

---

(١) خزانة سرير أو سرير مغلق أو صندوق سرير: سرير يكون داخل قطعة أثاث شبيهة بالخزانة، وقد شاع استخدامه في أوروبا الغربيّة منذ أواخر القرون الوسطى. (المترجم)

«فتاة مطيعة»، كان يقول: «ها أنت ذي يا عزيزتي، فتاة مطيعة»، كلمات لم يكن معناها مهمًّا بقدر وقعِها.

بعد سنوات من استحضار صورة جوزيف، لم تستطع آنا ألّا تلاحظ التّفاصيل الّتي تضاربت مع ذكرياتها. شعره أكثر قتامة، على سبيل المثال، وأقصر؛ وقد قست تقاطيع ذقنه وفكّه، ففقدت كلّ أثر للاستدارة الصّبيانيّة. لكنّ حركاته كانت مألوفة بشكل مُجفِل: طريقة امتداد ذراعه عن آخرها مع كلّ حركة، كيف يرخي بثقله على إحدى ساقيه كي يتسنّى للأخرى أن تنقر على الأرضيّة. كانت لتعرف أنّه جوزيف حتّى لو لم ترَ وجهه.

كان بوسع آنا أن تظلّ واقفة مكانها، تراقبه، إلى الأبد. لكنّ الشّيء الوحيد الأسوأ من كسر سحر هذه اللّحظة سيكون لو يستدير فيراها تحدّق مشدوهة.

«جوزيف».

نطقت اسمه بعزم، وثقة لم تشعر بها. انتفض جوزيف مستديرًا وأسقط الفرشاة، تاركًا إيّاها تقعقع فوق ألواح الأرضيّة. اندفع نحو آنا، ورأت أنّه كان يبتسم، ابتسامة تشمل من البهجة والانفراج معًا. وسرعان ما بات جوزيف- الّذي سبق وعانق آنا مرّة واحدة، عناقًا مقتضبًا في محطّة القطار حين غادر إلى أمريكا- يطوّقها بذراعيه، ويشدّها إليه، كأنّما إلى داخله، كما لو كان لجسدها أن يلتحم بجسده إن فعل هذا، فيعافيه.

في تلك اللّحظة، أدركت آنا أنّها لم تغادر وطنها، بل عثرت عليه.

كانت آنا تريد البقاء، بيد أنّ المستقبل الّذي يلي بضعة الأيام المقبلة لم يكن طوع أمرها، وكانت لتفعل ما يريده جوزيف أيًّا كان. أمضيا ذلك المساء الأوّل في منزل توماس وأغنيتا، واتّفقا اتّفاقًا صامتًا أن يُعامَل هذا العشاء معاملة

زيارة اجتماعيّة، فلا تفسده التّراجيديا. كان أولاد عمّ جوزيف الثّلاثة الّذين في سنّ المدرسة مهذّبين بما يكفي لئلّا يطرحوا الأسئلة- رغم أنّهم اختلسوا نظرات فضوليّة نحو آنا- وراح توماس يستخبر عن أحوال معارف قدامى في الوطن.

يمكن لنمائم القرى الصّغيرة، مهما بلغت من بساطتها، أن تمتدّ دائمًا لتخلق أحاديث تغطّي فترة وجبة. بعد العشاء، رفعت أغنيتا وابنتها الأواني عن الطّاولة، وزجرت آنا لتخرج من المطبخ. قالت لها أن لا داعي للمساعدة، ولمَ لا تنضمّ إلى جوزيف في غرفة الجلوس؟ وكان توماس قد استأذن أساسًا، فقال إنّه سيقرأ في الطّابق العلويّ بعد أن يضع الصّبيَّين في سريريهما. من الواضح أن كان ثمّة مؤامرة عائليّة لمنح آنا وجوزيف بعض الوقت بمفردهما.

ليلتئذ، روت آنا لجوزيف ما حدث على السّفينة- بقدر ما طاوعتها قدرتها. حاولت أن تُظهر أنّ إميل وسونيا ماتا دون ألم، وإن كانت المواربات قد غطّت على شعورها بالذّنب، فلم تكن تلك غايتها الأساسيّة. قالت له إنّهما اصطدما بقطع من السّفينة، وكان الأمر سريعًا؛ لم يعانيا. بمجرّد التّلفّظ بالكذبة الأولى، بات أسهل أن تروي بقيّة الأكاذيب الّتي انبثقت من ذلك.

لم تقل شيئًا عن الرّجل الّذي رأته وهي في قارب النّجاة.

كانت تعلم أنّ الكلمات قاصرة أمام عمق ندمها، لكنّها حاولت: «أنا آسفة جدًّا، آسفة لأنّي لم استطع إنقاذهما».

قرّب جوزيف- ومرفقاه على ركبتيه- وجهه من وجه آنا: «لقد أنقذتِ نفسك، وأنا أحمد الله على ذلك».

كان ذلك آسرَ السّحر، أن تكون مركز اهتمام جوزيف.

«بشأن سونيا»، استهلّ جوزيف، فانقبضت آنا مهيّأة نفسها. الغيرة خطيئة، وعليها أن تتصرّف كالأخت الّتي يراها جوزيف فيها. «أعرف أنّها كانت

صديقتك»، قال: «وفاتها أمر فظيع، بيد أنّني لم أستطع الحِداد عليها. أشعر بالحزن، طبعًا، حين أفكّر فيها، لكنّنا بالكاد كنّا نعرف بعضنا»، رمق جوزيف آنا بنصف ابتسامة محرَجة: «لا أعرف حتّى لما أخبرك بهذا... يبدو بالغ القسوة».

إنّه يثق بي، فكّرت آنا بأمل واهٍ غير أنّه مشبوب العاطفة، على أن أثبت جدارتي بذلك.

«أنا أتفهّم»، قالت آنا: «لا عيب في الكلام بصراحة».

«إميل، رغم ذلك...»، ترك جوزيف الاسم معلّقًا، طيفًا في الغرفة المعتمة: «منذ يوم مجيئي إلى أمريكا، وأنا أخطّط لاستقدامه. بينما أحرث الحقل أو أشيّد المنزل، كنت أفكّر كيف أنّه سيكون هنا ذات يوم، يعمل بجانبي. ربّما كنّا لنبدأ مشروعًا معًا، ونبتني اسمًا لنا. ماذا سأفعل دونه؟ ما زلت لا أصدّق أنّه رحل حقًّا».

«أعلم ذلك»، قالت آنا بنبرة ذابلة. لم تكن تستطيع التّفكير إلّا في وجه إميل، متصلّبًا من البرد. أم تراه كان الرّعب؟.. سيتبعها هذا الوجه بقيّة حياتها.

«لستُ أحسدكِ على معاناتك»، تابع جوزيف: «لكنّك كنتِ هناك حين حدث ذلك.»

الأمر حقيقيّ، بالنّسبة إليك، بطريقة لا أتمثّلها أنا. لا أكفّ عن التّفكير في أنّ إميل وسونيا الآن في السّويد، وأنّ والدك سيشاركنا أخبارًا عنهما في رسالته القادمة. في ذهني، ما زالا حيَّين يرزقان».

لم تتوقّع آنا قطّ أنّ جوزيف يُضمر أخيلة أسيّة كهذه. لطالما كان عمليًّا للغاية، يتقبّل حياته كما هي عوضًا عن الإسهاب في تخيّل كيف يمكنها أن تختلف. ثمّ تذكّرت الطّريقة الّتي اعتاد أن ينظر إليها بها وهي تُعاين الأشكال المعقّدة لشبكة عنكبوت، لم يسخر منها يومًا أو يوبّخها على أحلام يقظتها. لعلّ

جوزيف كان يمتلك مخيّلةً أخصب ممّا افترضت هي، إذ كان واحدًا من أناس قلّة لم يروا في تفكيرها المستغرق مأخذًا.

قال جوزيف: «أنا ممتنّ لمجيئك، أجد عونًا في أن أعرف ما حدث».

والآن إذ أتمّت واجبها، ماذا بعد؟.. لا بدّ أنّ توجُّس آنا قد بدا عليها رغم تعبير وجهها الفارغ عن عمد، لأن جوزيف ابتسم لها.

«أتريدين أن تبقي؟ في أمريكا؟»

كان لذلك السّؤال، على الأقلّ، جواب سهل: «أجل، قيل لي إنّ أغنيتا كانت قد رتّبت لعمل، في تنظيف المنازل».

«سنتحدّث إليها في الغد»، استرخى وجه جوزيف وهو يُرجع ظهره فوق كرسيّه: «هذا جيّد، أنا مسرور».

- «سيتعيّن عليّ أن أنظر في شأن المأوى...»

- «أوه، لا تقلقي حيال ذلك. سيُسعد أغنيتا وتوماس أن يستضيفاك، طوال الفترة الّتي تشائينها. نحن بمثابة الأسرة، أليس كذلك؟»

إذًا فقد كانت السّيّدة نورلينغ على حقّ؛ جوزيف ينظر إلى آنا كأخت صغيرة، ممّا يعني أنّها لن تكون غير ذلك يومًا.

«أتعلمين؟ لقد جعلني أشعر بتحسّن، الحديث عن إميل»، قال جوزيف: «كما لو كان هنا معنا».

بالنّسبة إلى آنا، كان من المرعب أن تفكّر في إميل كروح أرِقة تتشبّث بها، رافضةً أن تُطلَق إلى حرّيّتها. لكن إذا كان حديث جوزيف عن أخيه سيمنحه ولو دقيقة من السّعادة، ستفعل آنا ذلك. ستنضمّ إلى جوزيف في استحضار ذكريات عن إميل كما اعتاد أن يكون، يومَ كانا صبيّين في السّويد. ستساعده

في الفرار إلى وقت كان فيه كلّ من يحبّهم أحياء- والداه وسونيا وإميل- وكان العُلّيق ناضجًا والحصاد سانحًا وثمّة غذاء كاف للجميع. هذا هو إميل الّذي على آنا أن تختار تذكّره، وليس إميل ذلك الّذي أراد الزّواج منها، أو الّذي نادي من البحر.

في الصّباح التّالي، أخبرت أغنيتا آنا أنّ العمل لا يزال لها إن أرادته، لكن لا حاجة إلى استعجال البدء، وأنّهم يرحّبون ببقاء آنا ضيفة في المزرعة لبضعة أيام قبل ذلك. باتت آنا تساعد في الاهتمام بالأطفال والطّبخ وتطعم الدّجاج وبقيّة الدّواجن، وكانت في نهاية الأصائل تذهب إلى حظيرة جوزيف وتشاهده يطعم الخيل ويعتني بها. بدا أنّ الألفة الّتي يفرضها الرّوتين تهدهد لجوزيف وتضفي عليه مزاج الفضفضة، وكانت آنا تومي بإعجاب وهو يتحدّث عن خططه من أجل المنزل والأساليب الزّراعيّة الحديثة الّتي يأمل أن يجرّبها. لقد بسط حياته أمام آنا مثل جواهريّ يفرد سلعته، آملًا أن تبهرها.

لم تعرف آنا لماذا يمنحه استحسانُها نوعًا محدّدًا من السّرور، لكنّه بدا يلتمسه بتوق. مع كلّ إطراء رصين تقدّمه- «يعجبني اللّون الأحمر الّذي انتقيتَه لمصاريع النّوافذ»- كان جوزيف يكشّر عن ابتسامة ويُميل رأسه بطريقة يقصد منها أن يتملّص من مديحها حتّى فيما هو يستطعمه. ولم يتطلّب الأمر مخادَعة من طرف آنا؛ إذ كانت مدهوشة بصدق ممّا قد حقّقه خلال بضع سنوات لا غير. لقد قطع بالفعل مسافةً لا بأس بها نحو إدارة مزرعته الخاصّة، وكان يجني في الشّتاء مبالغ جيّدة من العمل بالنّجارة في البلدة. لطالما كان جوزيف مجدًّا في عمله، وهنا في أمريكا، كان يلقى المكافأة مقابل ذلك.

بعد وصول آنا بأسبوع، رتّبت أغنيتا زيارةً لربّة عمل آنا الجديدة. كانت المرأة مسنّة يُعتنى بها من قِبل مدبّرة منزل تكاد تضاهيها عمرًا؛ ستتكفّل آنا بأعمال التّنظيف الثّقيلة. المنزل هادئ ومنظّم، والأجر- في نظر آنا- مسرف نظرًا إلى السّهولة النّسبيّة لمهامّها. وافقت على البدء في اليوم التّالي.

أخبرت جوزيف في وقت مبكّر من ذلك المساء حين ذهبت تستدعيه إلى العشاء.

لم يكن الرّبيع في مينيسوتا يقوى على منافسة شتائها المتلكّئ، وكان الهواء لاسع البرد. ومع ذلك، لم يبدُ جوزيف في عجلة من أمره للوصول إلى منزل توماس، إذ أبطأ خطوه حين بلغا قمّة المرتفَع قرب منزله وأشار نحو الحقول المُراحة(١).

- «لا شيء منها ملكي، كما تعلمين».

- «لكنّها مزرعتك».

- «إنّها أراضي عمّي. هو لا يأخذ منّي مقابل استعمالها، وكلّ ما أزرعه يكون ملكي، وهذا أكثر من عادل. غير أنّني جئت إلى أمريكا كي أملك شيئًا لي أنا، لا كي أعمل في ملكيّة شخص آخر».

توقّف جوزيف عن السّير، بدا قد قرّر أنّ الوصول على موعد العشاء بدقّة ليس بأهمّيّة ما أراد أن يقوله.

«أوّل مجيئي إلى مينيابولس، عملت في منشرة خشب ستّة أيام في الأسبوع، لاثنتي عشرة ساعة في اليوم. وأيام الآحاد، بعد الكنيسة، كنت آتي إلى هنا فأُجلي الحقول وأزرع المحاصيل. بدأت أجمع نفايات مخزن الأخشاب- من ألواح مَعيبة أو منشورة بقياس خاطئ- وشرعت أصمّم هذا المنزل. لطالما كنت مزارعًا، وربّما سأظلّ كذلك دائمًا، لكنّ العمل بالبناء أكثر إشباعًا. ففي الحقل، تزرعين المحاصيل، ثمّ تحصدينها، وتبدئين من جديد. أمّا حين تبنين شيئًا ما، فهو يدوم».

---

(١) إراحة الأراضي: تركها دون زراعة عمدًا بهدف توفير الرّطوبة الكافية والمواد الغذائيّة اللاّزمة لمحاصيل يشترط نموّها ذلك. (المترجم)

كم كان جوزيف محظوظًا، بامتلاكه مطامح واضحة هكذا. لم تستطع آنا التّفكير في أيّ شيء تجيده على وجه الخصوص، أو أيّ شيء ممّا تستطيع فعله ويكون من شأنه أن يترك أثرًا دائمًا.

«أنا أحبّ العيش في مزرعة- أن أزرع طعامي بنفسي، وأتناول الحليب والبيض الطّازج- لكنّ أعمال المزرعة ليست سبيلًا إلى الارتقاء في العالم. لقد قابلت رجالًا من السّويد والنّرويج وفنلندا جاؤوا إلى هنا دون شيء، والآن يعيشون في منازل كبيرة ويقودون سيّارات حديثة. أمريكا تغيّر طريقة تفكيرك يا آنا، إنّها تجعلك تصدّقين أنّ أيّ شيء ممكن».

ولقد كان كلّ شيء ممكن، بالنّسبة إلى أشخاص مثل جوزيف، أشخاص مستعدّين لخوض المخاطرات. لكنّ آنا لم تعد تفكّر أبعد من وجبتها التّالية بكثير، فكما تعلّمت حين غادر جوزيف السّويد؛ من الحماقة أن ترفع بصرك إلى مستقبل قد لا يكون لك أبدًا.

«كانت لديّ مخطّطات لبدء مشروعي الخاصّ؛ شركة أندرسون للعمران، يكون إميل شريكي فيها. لكن بعد رحيله...»

سحب جوزيف نفسًا عميقًا، فأحسّت آنا بإصراره على الثّبات، على مقاومة إغواء الدّمع.

«هذه كانت السّنة الّتي سأتزوّج فيها»، تكلّم جوزيف برقّة، دون أسف على نفسه:

«السّنة الّتي أفتتح فيها متجرًا أنا وإميل. أن يؤخذ كلّ هذا، خلال لحظة- لا يبدو الأمر ممكنًا».

«أعلم»، راح الهمس المألوف للذّنب يقترب منها، مثل متسوّل ملحاح لا يقبل أن يتمّ تجاهله.. لماذا أفلتِّ يد إميل؟ كان بإمكانكِ أن تنقذيه...

«لا بدّ أنّك تتساءلين عمّا يدفعني إلى إخبارك بكلّ هذا»، التفت جوزيف نحو آنا، فشعرت بجيشان مألوف من العرفان، كان جوزيف الشّخص الوحيد الّذي ينظر إليها بحقّ على الإطلاق: «السّبب أنّني أردتكِ أن تعرفي كلّ شيء. ستبدئين كسب المال بنفسك عمّا قريب، وسيتسنّى لك أن تفعلي ما يحلو لك. لكن قبل أن تغادري، أتساءل إن كان يمكن أن تفكّري في الزّواج منّي».

أحسّت آنا كما لو أنّ جسدها قد امتلأ فجأة بالهواء، وأنّها يمكن أن تنطلق طافيةً في السّماء. حافظت على خلوّ وجهها من التّعابير، كحصن خارجيّ يحمي الضّعف الّذي في الدّاخل.

«سنؤلّف ثنائيًّا جيّدًا، ألا تظنّين؟ فكلّ منّا يعرف عائلة الآخر، كما أنّنا منسجمان، وكلانا مُجدّ في عمله. ما رأيك؟»

كان هذا هو العرض الّذي تتمنّاه، أليس كذلك؟ العرض الّذي خطر ببالها مثل همسة يهمسها الشّيطان، عندما علمت بموت سونيا. لا يحقّ لها أن تشعر بالخيبة.

«نحن بمثابة العائلة أساسًا»، تمتمت آنا.

«بالضّبط»، قال جوزيف، وكان يبدو بائسًا، لا يشبه شخصًا متلهّفًا كي يصبح عريسًا على الإطلاق: «لا أقصد الانتقاص من احترام سونيا. سيتعيّن علينا أن ننتظر بعض الوقت، لا شكّ أنّ أغنيتا ستعرف ما هو اللّائق».

حاولت آنا استجماع تعبير مناسب ينمّ عن السّرور، لكنّها لطالما كانت رديئة في الكذب، كما أنّ جوزيف يعرفها منذ فترة تكفي لئلّا يغشّه تدليسها.

«أرجوكِ ألّا توافقي بدافع من اللّطف»، قال بهدوء: «أتريدين الزّواج منّي؟»

«أجل»، لكن ليس بهذه الطّريقة، فكّرت آنا: ليس بهذه الطّريقة أبدًا.

«ما المشكلة إذاً؟»

«إميل وسونيا»، قالت دون تفكير: «هذا غير عادل»، لم تستطع أن تخبره ما كانت تقصده حقًّا، أنّها لم تنوِ لأمنيتها أن تتحقّق من خلال موت شخص آخر.

«ألا ترين؟»، سألها جوزيف: «إنّهما السّبب الّذي يحثّنا على الزّواج، علينا أن نعيش وننجب الأطفال ونبني هذا المنزل، ونفعل كلّ الأشياء الّتي لم يستطيعا فعلها يومًا».

كان جوزيف يعتقد أنّ روحَي سونيا وإميل لم تزالا موجودتين برفقتهما، وخلال تلك اللّحظة، انتابت آنا رؤيا لوجه سونيا حين تحدّثتا بعد أن أرسل جوزيف عرض زواجه. لقد اعتذرت سونيا وتوسّلت الصّفح؛ ووعدت ألّا تقبل إن كان ذلك سيسبّب لآنا الضّيق والحزن. كانت آنا تعلم، بنفس يقينها لو أنّ سونيا قد اعترفت بنفسها، أنّ صديقتها ستُسَرّ لرؤيتها تأخذ محلّها زوجةً لجوزيف.

وإميل؟ كانت تكاد تسمع صوته فوق ظهر المركب المضاء بالقمر، أول مرّة رأته فيها رجلًا أكثر ممّا هو صبيّ. لم يلُم إميل آنا على حبّها لجوزيف، وما كان ليريد لأخيه الأكبر العزيز أن يكون وحيدًا، كان ليطلب من آنا أن توافق.

لو أنّ الميّتَين أرسلا مباركتهما، فقد أتت على شكل موجات باردة جعلت آنا ترتجف. انحنت إلى حضن جوزيف، فامتدّت ذراعه، وطوّقت كتفيها. فكّرت آنا في أبيها، رجل لم يتحدّث يومًا عن الحبّ لكنّه أبداه بمئة طريقة صامتة. ما كان لها أن تتوقّع خطابات رومنسيّة من رجل مثل جوزيف، لكنّه سيكون زوجًا جيّدًا، طيّبًا ويمكن الاعتماد عليه.

«سأقول لك شيئًا واحدًا»، قال جوزيف، وصوته يكاد يكون همسة في الظّلام: «لن تتجوّل السّيّدة جوزيف أندرسون في أنحاء البلدة بمعطف تبرّعات، لا بل معطف رجل فوق ذلك».

أطرقت آنا تنظر إلى حافّة المعطف الّتي تداعب كاحليها، والكمّين المثنيّين. وكما لو بقصد حمايته، شدّت المعطف أكثر حول جسدها.

«إنّه صوف من النّوعيّة الجيّدة»، قالت: «يمكنني تعديله كي يناسب مقاسي».

«هذه هي فتاتي»، قال جوزيف، وربّت على خدّها. ليست قبلة، لكنّها ثاني أفضل الخيارات، وكانت كافية كي تدفع آنا نحو ابتسامة بطيئة خجولة: «داهية مقتصدة لا تعدم الوسيلة، كنت أعلم أنّنا سنؤلّف ثنائيًّا طيّبًا».

حينذاك رأت آنا كيف سيكون الأمر: هي وجوزيف مقيّدان إلى بعضهما مثل ثورين، يعملان جنبًا إلى جنب؛ زواج مبنيّ على العمل المشترك والرّضى النّاتج عن الإجادة فيه. قبل أن تتلقّى التّبرّع من جمعيّة إعانة المهاجرين، لم تكن آنا قد حظيت بملابس جديدة تخصّها هي يومًا؛ لطالما كانت ترتدي ما تنبذه أختاها. والآن، ها هي ستحصل على زوج مستعمل، ربّما كان ذلك أفضل ما يمكنها أن تتمنّاه.

كانت آنا في التّاسعة عشرة حين تزوّجت من جوزيف في كنيسة ليك كروسينغ اللّوثريّة بعد ستّة أشهر. لم تعانِ أيًّا من حوادث العروس الشّابّة العاثرة الشّائعة؛ لا وجبات فطور محروقة ولا جوارب متقلّصة تصير موضع تندّر في أحاديث عشاء العطلات خلال سنوات قادمة. منذ البداية تمامًا، كانت ربّة منزل وطبّاخة مثابرة، وقال جوزيف إنّه لم يسبق لقمصانه أن كُويَت بهذا الإتقان. كانا- مثل ما قال جوزيف- ثنائيًّا طيّبًا، كلّ منهما مهذّب ومراعٍ، كلّ منهما يساعد الآخر دون حاجة إلى الطّلب.

كانت معظم أمسياتهما تنتهي وهما يتثاءبان في السّرير الّذي قدّمه لهما توماس وأغنيتا كهديّة زواج، يقبّل جوزيف آنا على جبهتها ويتمنّى لها ليلة سعيدة؛ فتنطوي هي على نفسها ضامّة ركبتيها إلى صدرها لتترك له المساحة

الّتي يحتاجها كي يتمدّد. في أماسي الآحاد، يتقرّب جوزيف منها ويضمّ ذراعيه حول خصرها؛ فتضع آنا يديها على ظهره وتشدّ. كانت علاقتهما الزّوجيّة تُتابَع بإجلال خليق بيوم الرّبّ، فتخضع آنا لواجب الزّوجة دون رهبة ولا ترقّب. تقول لنفسها إنّه ليس مطلوبًا من المرأة أن تستمتع بذلك، لكنّها تبتسم دائمًا حين يقضي جوزيف وطره، بنفس طريقة ابتسامها لقطّ الحظيرة حين يصطاد فأرًا: أحسنت، عمل جيّد.

حين انقلب الجوّ انقلابه الحاسم إلى الشّتاء، أخرجت آنا المعطف الأسود من صندوقها. استقرّت على مواضع القصّ وخياطة الدّروز الجديدة وعلّمت القياسات بالدّبابيس، ثمّ بدأت تشقّ البطانة، فقط لتكتشف سرّ المعطف. لقد وجدت خلف رقعة علامة الخيّاط السّميكة- «هافيلاند وأبناؤه»- ثلاث أوراق بنكنوت، قيمة كلّ منها عشرة جنيهات إسترلينيّة، وكان ثمّة المزيد من الأوراق المطويّة طولانيًّا داخل الياقة. لم تكن لدى آنا فكرة كم من الدّولارات قد تساوي خمسون جنيهًا، لكنّ الأوراق النّقديّة كانت ملساء وناضرة، كأنّها خارجة من المصرف لتوّها. فكّرت بغصّة في المرأة الإنجليزيّة، تشارلوت. لا بدّ أنّ المعطف كان لزوجها أو والدها، لرجل مات على الأغلب. هل كانت تشارلوت تعلم بشأن المال؟ لا يمكن، بما أنّها قدّمت المعطف لآنا بتلك التّلقائيّة.

تركت آنا نفسها تنظر إلى المال بعين الإعجاب بضع دقائق، وتقلّبه بالاتجاهين بين يديها. ثمّ جمعته في رزمة أنيقة وخبّأته داخل الدّرج العلويّ لمِزينتها، تحت ثيابها الدّاخليّة، بينما تفكّر في ما ستفعله بعد ذلك.

عقدت آنا كامل العزم على إرجاع المال إلى تشارلوت، وكانت المشكلة أنّها لا تعرف اسم عائلتها حتّى، ناهيك عن مكان سكنها. ظلّت المشكلة تضايقها بقيّة اليوم، إلّا أنّها لم تتفوّه بشيء عندما جاء جوزيف ليغتسل ولا حين جلسا على العشاء، قالت لنفسها إنّ الأمر لا يستحقّ إشغال باله بالمشكلة قبل أن تستقرّ

على حلّ لها. والحقيقة المخزية أنّ آنا- حتّى في تلك الأثناء- كانت تتساءل إذا ما ثمّة طريقة ما تمكّنها من الاحتفاظ بالنّقود.

لم تستسلم للإغواء من فورها. وفي رحلتها التّالية إلى سانت بول، قامت بزيارة السّيّدة نورلينغ وسألتها إذا كانت لا تزال تحتفظ بالجرائد من الأيام الّتي أعقبت غرق التّايتانيك. وكانت السّيّدة تحتفظ بها بالفعل؛ لقد وضعتها في صندوق مقتنيات ترى أنّها ستكون ذات قيمة كبيرة يومًا ما.

وبرغم إنجليزيّة آنا المحدودة، كان من المربك أن ترى الصّفحة تلو الأخرى وقد خصّصت للحديث عن الغرق. لم تفهم إلّا القليل من الكلمات: «مفقود» و«تمّ إنقاذه» و«مأساة». وفي نهاية المطاف، عثرت على قائمة بالنّاجين، مرتّبة حسب الدّرجة.

لم تكن آنا معتادة على تحليل الاختلافات الطّبقيّة الدّقيقة الّتي تُظهر نفسها عبر القبّعات والأحذية، لكنّها علمت أنّ تشارلوت كانت متأنّقة في هندامها أكثر من أن تكون من الدّرجة الثّالثة. لم تعثر على أحد اسمه تشارلوت في الدّرجة الأولى أو الثّانية، ثمّ انتبهت إلى أنّ السّيّدات غير المتزوّجات هنّ فقط من وردن في القائمة بأسمائهنّ الأولى. إن كانت تشارلوت متزوّجة، فستوضع باسم زوجها، ولم تكن آنا تملك أدنى فكرة عمّا عساه يكون ذلك.

مدفوعةً بالإحباط، راحت آنا تمسح كلّ صفحة على حدة، فتسير عيناها على المقالات سطرًا تلو الآخر. كانت الأسماء في كلّ مكان؛ بدا أنّ كلّ شخص نزل عن السّفينة قدّم قصّة بلائه لأحد المراسلين. لم تستطع آنا تخيُّل نفسها تخبر غريبًا بما حدث- لقد كان إخبار جوزيف صعبًا بما يكفي، بيد أنّ الآخرين وجدوا بالاهتمام متعةً بالغة. لم يظهر أنّ تشارلوت، على أيّ حال، كانت من بينهم.

طوت آنا الجريدة الأخيرة، عيناها تستحكّانها وكتفاها تتألّمان. هالها أن تدرك أنّها أمضت ساعة في هذا البحث المجدب، تعيش من جديد ليلةً كانت قد تعهّدت لنفسها أن تتركها وراءها، دون أن تقترب رغم ذلك خطوةً واحدة من إيجاد تشارلوت.

لقد فكّرت آنا باحتمالات أخرى. يمكنها أن تكتب إلى مكتب وايت ستار لاين في نيويورك، الّذي سيكون لديه سجلّات بالرّكّاب، كما يمكنها أن تطلب مساعدة جمعيّة إعانة المهاجرين السّويديّين. وبطريقة ما، لم تتوصّل آنا إلى كتابة هذه الرّسائل، ظلّت تعتزم ذلك كلّما فتحت درجها العلويّ وأخرجت زوجًا نظيفًا من الجوارب؛ بات ذلك واحدًا من تلك الأعمال المهمّة لكن غير الملحّة الّتي يبدو أنّها لا تُنجَز أبدًا.

وكلّما طال بقاء المال في المنزل، صارت آنا تفكّر فيه كأنّه لها. جوزيف يعمل منذ بزوغ الشّمس إلى ما بعد الظّلام، فيدير المزرعة بينما يقدّم خدماته المأجورة في مواقع البناء في آن معًا. لم تشته آنا مال تشارلوت لنفسها قطّ، بل فقط لقدرته على إعانة جوزيف. ماذا لو تمكّنا من تحمّل أجر من يساعدهما؟

ماذا لو اشترى جوزيف أحد تلك المثاقب الكهربائيّة الحديثة؟.. وكلّما فكّرت آنا بالإمكانيّات زادت سهولة التّبرير: جوزيف يحتاج النّقود أكثر من تشارلوت، الّتي لا تعرف على الأغلب أنّها كانت مخبّأة في المعطف، لن تفتقد تشارلوت ما لا تعلم أنّها تملكه.

ولو أنّ آنا لم تكن تنوي إبقاء النّقود، هل كانت لتخرج بعذر ممتاز بهذه السّهولة؟

بعد عام من زواجها، تلقّت آنا خبرًا من بابا بأنّ عمّهُ في ستوكهولم قد توفي. لقد كان عازبًا، ووحدانيًّا، وغريب الأطوار بعض الشّيء، بالكاد كانت تتذكّره من زيارة بالغة القدم، لكنّ موته بدا بمثابة علامة. بعد بضعة أسابيع،

قالت آنا لجوزيف إنّها ورثت بعض المال، وسيتمّ تحويله قريبًا إلى مصرف في مينيابولس.

لم يخطر لجوزيف أن يشكّك في قصّتها، لم يطلب أن يرى دليلًا على الميراث أو الحوالة المصرفيّة، ولم يسأل لماذا يترك رجل لم تكن آنا تتحدّث عنه إرثًا لها.

أخذت آنا الجنيهات إلى فرع مركز البلدة من مصرف وخزينة مينيسوتا، حيث صرّفتها مقابل ٢٥٠ دولارًا.

تلك اللّيلة، قلّدت آنا موظّف الصّندوق الّذي سلمّها الأوراق النّاضرة النّظيفة، وفردت الدّولارات على طاولة غرفة الطّعام فيما يشاهدها جوزيف مصعوقًا. حين استوعب حجم المبلغ، شدّ آنا إلى ذراعيه ودفن وجهه في شعرها.

«لقد انقلب حظّنا أخيرًا!»، قال والدّهشة تأخذ به.

ضحكا وتبادلا القبل، وضحكا بينما يتبادلان القبل، مذعنَين معًا للبهجة الّتي لم يكونا هانئَي البال يومًا بما يكفي للتّشبّث بها. وفي لحظة الشَّمَق[١] تلك، علمت آنا أنّها اتّخذت القرار الصّائب؛ لقد منحت جوزيف هِبة الحريّة.

مع توفّرِ المال لشراء أدوات جديدة واستئجار يد عاملة، أتمّت شركة أندرسون للعمران منزلها الأوّل قبل موعد التّسليم، وسرعان ما وقّع جوزيف عقودًا لثلاثة منازل أخرى. وبحلول الوقت الّذي كانت آنا تنتظر فيه طفلها الأوّل، بات لديهما أجيران يعملان في المزرعة وأصبح جوزيف يقضي معظم أيامه في البلدة. وحين كانت سارا تتعلّم المشي، أضافا طابقًا ثانيًا لمنزلهما، وأمضت آنا الصّيف تُميط المسامير المتناثرة عن طريق ابنتها الفضوليّة.

(١) الشّمق أو اليوفوريا: حالة ذهنيّة وعاطفيّة يشعر فيها الشّخص بإحساس شديد بالسّعادة والفرح والإثارة والانتشاء والشعور بالذّات. (المترجم)

وعندما بلغت سارا الرّابعة من عمرها وكان جون رضيعًا يُناغى، باع توماس لجوزيف حصّته من المزرعة، فأصبحا من مُلّاك الأراضي أخيرًا.

لم يكن ولدا آنا ذرّيّةَ مزارعين حقيقيّة إطلاقا، على عكسها هي وجوزيف، إذ كان الولدان ينظران إلى الخيول كرفاق لعب أكثر من ماكينات عمل، وإلى الحظيرة على أنّها باحة اللّعب خاصّتهما. كان يتمّ تكليفهما بالأعمال الرّوتينيّة اليوميّة، إلّا أنّهما لم يعرفا قطّ معنى أن يعتاش المرء على الطّعام الّذي يربّيه حصرًا. وبولادة سوزان، لم تعد الحقول تُفلَح، وتمّ بيع جميع الخيول عدا اثنين من أجل دفع كلفة سيّارة أولدزموبيل جديدة.

لو وقفت آنا وجهًا لوجه أمام ذاتها القديمة، لما شكّت أنّ تلك الفتاة الّتي في قارب النّجاة ستُذهل من كلّ ما قد حقّقته. باتت تملك حياة جيّدة، حياة سعيدة. أصبحت سارا الآن في نفس السّنّ الّذي بلغته آنا حين تزوّجت، لكن كان للابنة مطامح أعظم؛ إذ كانت ترتاد كلّيّة سكرتاريا في سانت بول. وكان جون، رغم أنّه لم يتجاوز الرّابعة عشرة، قد بدأ يتعلّم عن مهنة العائلة؛ وبدا يتحلّى بعمق هادئ دمث يذكّر آنا بإميل، ورأت أنّ بوسعه تحقيق أمور عظيمة إن هو خرج من قوقعته. أمّا سوزان فقد كانت لا تزال عملًا قيد الإنجاز، طفلة بعمر الثّامنة يتقلّب مزاجها بنفس السّرعة الّتي تتغيّر بها الأثواب الجديدة على منشر الغسيل، وكانت مدلّلة كعهد أواخر العناقيد غالبًا.

كانت آنا تعلم أنّ أبناءها يرون فيها امرأة قديمة الطّراز تعوزها أناقة عصرها، إذ كانوا يقلّبون أعينهم في محاجرها إزاء إنجليزيّتها الرّكيكة حين يظنّونها لا تراهم. ولم تكن تستطيع تذنيبهم لتفضيل جوزيف عليها، إذ كانت هي لتفعل الشّيء نفسه لو أنّها مكانهم.

كانت آنا جالسة على السّرير، تتشمّل بالمعطف مثل دثار، حين سمعت وقع أقدام تصعد الدّرج. لا بدّ أنّها سوزان، وقد عادت من المدرسة. علمت آنا أنّه يجدر بها النّهوض، لكنّها لم تستطع حضّ ذراعيها وساقيها على إطاعتها

بالكامل. اقترب الخطو أكثر، فرفعت نظرها ورأت جوزيف في مدخل الباب، ينظر إليها متفاجئًا.

«هل أنتِ على ما يرام؟»، سألها.

تمثّلت استجابة آنا الوحيدة في أن عكست حيرة جوزيف وردّتها نحوه.

«سألتقي السّيّد ويلتون في المصنع عند السّاعة الرّابعة، كنت أراجع المخطّطات ليلة أمس وتركتها على مكتبي».

سار جوزيف نحو السّرير ووضع يده على خدّ آنا. تأثّرت بالإيماءة، إلى أن وضع يده فوق جبينها: كان يتحقّق من وجود حمّى. نظر جوزيف إلى المعطف، فغاصت شفتاه في تكشيرة عبوس.

«ما الخطب؟»، سألها.

سؤال بسيط بما يكفي، سؤال شعرت أنّها مغمورة بالمشاعر أكثر من أن تجيب عنه. لقد أعادت رؤيةُ صورة السّيّد فان هاوزن إليها كلّ شيء: الرّجال خلف المجاذيف، ذراع تشارلوت حول كتفيها، عبراتها المتوسّلة هي نفسها. كان الزّمن والعمر قد نأيا بآنا عن تلك الفتاة الذّاهلة نصف المتجمّدة، إلى درجة ربّما صارت معها شخصًا آخر، لكنّها لم تزل تحمل ذنب ذاتها السّابقة.. لماذا؟.. لقد كانت شابّة جدًّا، مرعوبة جدًّا.. ألم يحن الوقت للصّفح عن تلك الفتاة المسكينة؟

تحدّثت بِلين، تنظر إلى وسادتها عوضًا عن النّظر إلى جوزيف، وحاولت أن تجعل زوجها يفهم: «لقد أعطتني امرأة إنجليزيّة هذا المعطف، حين تمّ انتشالي إلى قارب النّجاة. كنت أشعر ببرد شديد- بالكاد أستطيع أن أتنفّس. لفّته حولي، وشعرتُ كما لو أنّها أعادت إليّ الحياة. كان اسمها تشارلوت».

أصغى جوزيف جامدًا دون عاطفة، لم يكن من عادته أن يتحدّث لمجرد ملء صمت ما.

«إميل كان خلفي، لو أنّه كان أقرب ببضع أقدام وحسب، لقاموا بانتشاله هو أيضا.

رأيته في الماء- كان ينادي...»

بدأت آنا تبكي، دمعات صامتة تتحدّر بوقار كئيب على وجنتيها. بكت على إميل، الّذي كان قاب قوسين أو أدنى من أن يُنقَذ، وعلى نفسها، هي الّتي خذلته. كانت تعلم أنّه توجّب عليها أن تخبر جوزيف بكلّ شيء منذ وقت طويل أو ألّا تفعل على الإطلاق؛ ما كان فتح هذه السّيرة الآن ليخدم أيّ غاية عدا أن يضايقه. كان كلّما تحدّث إلى الأولاد عن إميل يروي قصصًا سعيدة، وتزداد ذكرياته عن أخيه لينًا مع الوقت. لم يكن من الرّأفة إرغام جوزيف على مواجهة حقيقة موت أخيه، لكن ألم تكن آنا تعلم طوال الوقت أنّها ستخيّب أمله، في النّهاية؟

مدّ جوزيف يده، ثمّ أوقفها في الفراغ، كما لو أنّ دموعها قد تُحرق. لم يكن جوزيف- ذو الحيلة الواسعة في ما يتعلّق بمهامّ الحياة اليوميّة- يملك الأدوات لإصلاحها هي. بهدوء، روت له آنا ما حدث في قارب النّجاة؛ الشّجارات، الصّرخات، التّهديدات.. كيف حاولت أن تجعلهم يفهمونها.. كيف باءت كلّ جهودها بالفشل.. راح جوزيف يصغي ببساطة، وحين رأت آنا بارقةَ الدّمع في عينيه، علمت أنّ عليها أن تكون قويّة، من أجله هو. مسحت وجهها وتمكّنت من تهدئة أنفاسها.

«لقد سألني إميل الزّواج منه»، همست: «على متن السّفينة».

«أحقًّا؟»، تقوّست شفتا جوزيف إلى ابتسامة كتومة: «ما كنت أظنّ أنّه ليتجرّأ».

بدا واضحًا أنّ البوح لم يأتِ صادمًا: «كنت تعلم؟»، سألته آنا.

«لقد كان واقعًا في حبّك»، أجاب جوزيف: «ألم يكن واضحًا؟ حتّى قبل مغادرتي إلى أمريكا، كان يقول إنّكما ستتزوّجان ذات يوم».

إذًا فقد كان جوزيف يعلم، قبل أن تعلم آنا بكثير.

انتظرها كي تكمل، وحين لم تفعل حثّها قائلًا: «وما كان جوابك؟»

«لم أجب. قلت إنّني لست متأكّدة، لكنّني كنت لأوافق، مع الوقت. أردت أن نكون سويّة جميعًا. كنت أحبّك كثيرًا- لا أذكر منذ متى- فكان الزّواج من إميل ثاني أفضل الخيارات بعد الزّواج منك»، أدركت آنا أنّ عليها إنهاء بوحها عند تلك النّقطة، لكنّ فضولها- أو ضعفها- كان أكبر من أن تقاوم: «ولهذا أتفهّم، كيف شعرتَ نحوي ونحو سونيا».

«سونيا؟»، انقلب وجه جوزيف، وتقلّصت عضلات وجنتيه.

- «هي كانت خيارك الأوّل، وكنت أنا ثاني أفضل الخيارات».

- «أتظنّين أنّني ما زلت أتحسّر على سونيا؟»

هزّت آنا رأسها أن لا، وأوشكت بشدّة على البكاء مجدّدًا. لم تكن تعرف كيف تتحدّث في أمور كهذه؛ لم يسبق لها هي وجوزيف أن حاولا. تنهّد جوزيف، ورغم أنّه كان يجلس بكامل ثباته، استطاعت آنا أن ترى المجهود الذّهنيّ الّذي يبذله لترتيب أفكاره قبل أن ينطق.

«كان خطأً، طلبي الزّواج من سونيا»، قال أخيرًا: «كنت وحيدًا، وأردت زوجة تذكّرني بالوطن. في ذهني، أنتِ كان محكيًّا بأمرك، لإميل...»

- «وكنت تنظر إليّ كأخت، أعلم ذلك».

- «صحيح، أجل. إلى أن جئتِ لتَريني، ذلك الأصيل في الحظيرة».

لم يزل المشهد حقيقيًّا وحيًّا لدى آنا؛ ذراعا جوزيف تتشبّثان بظهرها، وشعوره بالانفراج يفيض في أوصالها مثل محلول مقوٍّ.

«لو أنّكِ غرقتِ، وكانت سونيا هي الّتي نجت، ما كنت لأشعر بنفس البهجة. علمت هذا على الفور، آنئذٍ».

مدّ جوزيف يده إلى يد آنا وضغط عليها برفق. بتلك الكلمات القليلة، أخبر آنا كلّ ما كانت تحتاج أن تعرفه. هو لم يندم قطّ على زواجهما أو يتساءل عن شكل حياته لو كانت مع سونيا. كان جوزيف- حالما يعقد العزم على مهمّة ما- يحرص أن يتمّها بإتقان، ولم تكن واجبات الزّوج تختلف عن أيّ عمل آخر.

في الطّابق السّفليّ، فُتح الباب الأماميّ بجلبة؛ لقد وصلت سوزان إلى المنزل.

دفعت آنا المعطف عنها إلى طرف السّرير، واعتدلت في جلستها تسوّي شعرها، فيما وقف جوزيف وعدّل حزامه. كانت آنا محرَجةً أساسًا من جيشان عواطفها، لقد مرّت بلحظة من شعور غير معهود بالشّفقة على النّفس، لكنّ الوقت حان الآن كي ترى سوزان وتبدأ بإعداد العشاء. هل تركت المشتريات حقًّا ملقاة عند أسفل الدّرَج؟

ربّت جوزيف على كتف آنا، تربيتة أبويّة من نوع اللّمسات الّذي يُعَرِّبن عن حبّ لا يتزحزح ولا يساءل.

«هل تشعرين بتحسّن؟»، سألها.

ولمفاجأتها، كانت تفعل. لقد أقفلت آنا طوال سنوات على شعورها بالذّنب والخوف، لكنّ المشاعر- مثل فئران خلف الجدرانِ- كانت تخرمش كي تخرج، وتسومها العذابَ باحتجاجاتها المكتومة. والآن أُطلق سراح تلك المشاعر، فنالت آنا حرّيتها.

لكنّها، إذا كانت تريد إنهاء عذابات الماضي بحقّ، فعليها أن تخبره بكلّ شيء.

«ثمّة شيء واحد بعد»، قالت: «كان هنالك أوراق بنكنوت- جنيهات بريطانيّة- مخبّأة داخل المعطف. حاولت أن أعثر على تشارلوت كي أردّها إليها، لكنّني لم أستطع. لذا احتفظت بالمال وادّعيت أنّه جاء من عمّ أبي».

من بين كلّ الأشياء الّتي أخبرت آنا جوزيف بها ذلك اليوم، كان هذا الكشف هو الّذي صدمه أكثر من كلّ ما سواه: «ميراثك؟.. كذبتِ؟»

أومأت آنا، ووجهها يحمرّ: «أنا آسفة».

غير أنّ جوزيف لم يبدُ غاضبًا، بل بدا متأثّرًا ومعجبًا بالأحرى.

«حسنًا، لقد صبّ ذلك باتجاه الأفضل، ألا توافقينني؟ ربّما ما كان لي لولا ذلك أن أطلق المشروع قطّ. هل من جرائم أخرى تودّين الاعتراف بها؟»

«لا»، غمغمت آنا مطرقة نحو الأرض. سمعت جوزيف يضحك وأحسّت بيديه تطوّقان ذراعيها وتشدّانها إلى الأمام.

حين صعدت سوزان أندرسون راكضة على الأدراج بعد بضع ثوانٍ، استقبلها منظر مدهش: ماما وبابا يتعانقان، في منتصف غرفة نومهما. كان خدّ ماما مرتاحًا على صدر بابا، فظنّت سوزان أنّها تبكي. لكن لا، لم تكن تبكي؛ كانت تبتسم، وبابا ينظر إليها كأنّه أكثر رجال العالم حظًّا.

تشارلوت

بدت لوس أنجلس كأنّها دولة أخرى. وليس ذلك مستبعدًا، نظرًا إلى الوقت الّذي استغرقه الوصول إليها. الهواء هو السّبب، قالت تشارلوت لنفسها: مغبرّ وجافّ، الدّفء يهدهدك نحو الرّكود. لم تكن البلدة نفسها شيئًا ذا بال، في نظر عينيها المنهكَتين، لكنّها رأت في كلّ مكان علامات تدلّ على تنامي الطّموح: طواقم بناء وسقالات، سيّارات أنيقة وفارهة بما يكفي لتناسب مايفير[1] حسٌّ واعدٌ يخلب التّائهين ذوي العيون الحالمة فيصدّقون أنّ بوسعهم البدء بداية جديدة.

التّائهون ذوو العيون الحالمة... دوّنت تشارلوت العبارة في دفترها من أجل استخدام مستقبليّ. رغم نوافذها المفتوحة، كانت سيّارة الأجرة خانقة مكتومة، نفضت سترتها وأرخت بلوزتها المندّاة عن صدرها. لا شيء من الملابس الّتي وضّبتها كان مناسبًا لمناخ كاليفورنيا، فشعرت أنّها ناشزة ببدلتها التّويد البنّيّة، مثل طائر نمنمة تعوزه الأناقة في أرض فراشات وببّغاوات. لكنّ هذا كان المكان الّذي قادها تفتيشها عن ريجينالد إيفرز إليه، وبفضل تعويضات الرّيكورد السّخيّة، هنا سينتهي بحثها.

كان يمكن لتشارلوت أن تُهمل وعدها لليدي أبتون، ولكان ذلك أسهل من عدّة نواحٍ، لكنّ الفضول غلب التّعقّل. لم يرد اسمٌ لريجينالد إيفرز في دليل مدينة نيويورك الهاتفيّ، غير أنّ تشارلوت عثرت على اسمه وقد ذُكر مرّتين في أرشيف نيويورك إكسبرس، كلتيهما ضمن مراجعات نقديّة لمسرحيّات ظهر

---

(١) حيّ Mayfair: حيّ لندنيّ راقٍ يقع على حدود هايد بارك. (المترجم)

فيها بأدوار ثانويّة. أرسلها ذلك في جولة زيارات إلى مسارح، حيث أخبرها مدير في مسرح بالاس أنّه – أجل بالتّأكيد – يعرف ريجي إيفرز. لقد بات مخرجًا في كاليفورنيا الآن، يصنع الأفلام. هناك يكمن منجم المال، هذه الأيام.

أجّلت تشارلوت عودتها إلى لندن، وأقنعت تيدي بخطّتها لكتابة سلسلة أعمدة من هوليوود، واشترت تذكرة قطار عابر للبلاد (في الدّرجة الأولى، بالطّبع، بما أنّ الرّيكورد تدفع). قبل كلّ شيء، بطبيعة الحال، كان عليها أن تسلّم مقالتها عن تشارلز فان هاوزن. لقد انتحت زيارة تشارلوت إلى منزل إيسمي أكثر المناحي الممكنة كارثيّةً، لذا فوجئت بصدق حين وافقت إيسمي على اللّقاء بها في الفندق لاحقًا، وصُدمت أكثر حين انخرطت في اعترافاتها السّكرى.

في البدء، وخزت تشارلوت غريزتُها الصّحفيّة: يا للمقالة الّتي يمكن لهذا الكلام أن يصنعها! ستطاولُ بهجةُ تيدي القمر!.. لكنّها سرعان ما أدركت أنّها لن تكتب عن إيسمي أبدًا. كانت إيسمي أشبه بقطعة خزف فاخرة: رقيقة الجمال عن بعد، هشّة سهلة الانكسار عن قرب. اقتنعت أنّ زوجها قد أقدم على الانتحار، فراحت تخشخش في أنحاء ذلك القصر المتباهي، يكلّلها حزن بالغ الأسى. لطالما تذكّرتها تشارلوت امرأةً مدلّلة تبالغ في دراميّتها، ولعلّها لم تزل كذلك. غير أنّها تلك اللّيلة، في غرفة الفندق، شعرت أيضا بالأسف لحالها. لن يكونا صديقتين يومًا، ومع ذلك فقد شعرت تشارلوت بواجب حماية إيسمي دون أن يشكّل ذلك فرقًا.

في اليوم التّالي، أرسلت تشارلوت إلى تيدي لمحة وافرة عن حياة تشارلز فان هاوزن، «مغامر لا شيء يفوق شهيّته للحياة سوى شهيّته للحب». وصفته كزوج وأب مخلص، وأرفقت صورة لابن فان هاوزن الكبير، الّذي كان وسيمًا بما يكفي ليضمن ربع صفحة على الأقلّ. كتبت أنّ إيسمي كانت «تعيش في عزلة، والأسى يخفيها عن الأنظار»، الأمر الّذي كان صحيحًا.

والآن، كانت تشارلوت تشارف على التئام شملٍ جلَلٍ آخر. توقّفت سيّارة أجرتها عند فندق سلطان بالاس، الّذي بدا لها أشبه برؤيةِ مدمنِ أفيون لحصنٍ عربيّ أسطوريّ. كان تيدي قد رشّح المكان لها في آخر مرّة تحادثا.

«لقد نزل بلوم وودهاوس هناك، وقال إنّ المكان مليء بالكتّاب المخمورين الّذين لديهم كلّ النّمائم»، كان تيدي يتحدّث بصخب وعجلة، محاولاً أن يحشو المكالمة العابرة للأطلسيّ باهظة الكلفة قدر المستطاع: «سأنتظر تقارير يوميّة، احصلي لي على شيء يخصّ تشارلي تشابلن- إنّه إنجليزيّ، سيقبل أن يتحدّث إليك. وصور للنّجمات، وإن كنّ بريطانيّات، فزيادة الخير بركة...»

كان ثمّة مئذنتان تنتصبان لتحرسا مدخل الفندق على كلا جانبيه، والنّوافذ مؤطّرة بقرميد أزرق وأخضر فاتح. عبرت تشارلوت من الباب الأماميّ المقنطر إلى فناء تتوسّطه بركة سباحة مكسوّة بالموزاييك، وكانت هناك امرأة تطفو بصفاء وسط الماء، وشعرها مفرود حولها على شكل أشعّة تشبه رسم طفلٍ للشّمس. قالت المرأة- الّتي بالكاد تفاعلت مع وصول تشارلوت وأسئلتها- بكسلٍ إنّ المكتب يقع خلف الباب الأماميّ إلى اليمين، لكنّ أحدًا لم يكن في الدّاخل. انتظرت تشارلوت على أقرب كرسيّ استلقاء، شاعرةً بالكلفة والخفر مع مرور النّاس وهم يتصايحون على بعضهم ويتبادلون الإهانات الودّيّة. بدا السّلطان بالاس أشبه بمدرسة داخليّة منه بالفندق.

كان المدير، كما تبيّن، يجري تصليحًا في غرفة تشارلوت. وعندما عاد إلى المكتب أخيرًا، ورافقها حينذاك عبر الدّرج إلى الطّابق الثّاني، أشار إلى الرّقعة، حيث لم يزل الجصّ رطبًا. تعجّبت تشارلوت من الشّيء أو الشّخص الّذي أحدث فجوة كبيرة كهذه في الجدار، ولكنّها كانت متعَبة أكثر من أن تتكلّف عناء السّؤال. كانت غرفتها تفتقر إلى حيويّة بقيّة المبنى: هنالك سرير، وطاولة صغيرة، وكرسيّ، ولا شيء آخر تقريبًا. بدا تقشّف الغرفة الرّهبانيّ المسرح الأمثل للكتابة الجادّة- دون وسائل إلهاء، غير أنّ تشارلوت فهمت

بعد بضع دقائق أمضتها في تلك الفسحة الجرداء السّببَ الّذي يجعل الجميع يفضّلون التّجمّع حول البركة.

لم يمضِ وقت طويل قبل أن تنجرف تشارلوت عائدةً إلى الماء في الأسفل، يشدّها ما بدا أنّه حفلة كوكتيل تُقام كلّ ليلة. في بادئ الأمر، شعرت بارتباك غير معهود؛ لقد كانت واحدة من نساء قلائل ينزلن في الفندق، وأكبرَهنّ بفارق شاسع. كانت الأخريات ممثّلات وعارضات أزياء وراقصات، كلّ واحدة منهنّ أكثر فتنة ممّن قبلها. والرّجال يتراوحون بين شبّان جادّين يؤمنون أنّ من الممكن للأفلام أن تكون فنًّا عظيمًا، وآخرين من النّمط المسرحيّ السّاخر المتشائم الّذي لا يرى أهمّ من شيك راتب ثابت يصله من الاستديو. حين بدأت تشارلوت تعرّف عن نفسها، رُحِّبَ بها أول الأمر بحماسة مُطرِية.. مراسلةٌ سيّدة! من لندن!.. إلّا أنّ الجِدّة الكامنة في ذلك بليَت بعد بضع محادثات مفكّكة. هي لم تكن تعمل على فيلم، ولا تعرف أحدًا يعمل على فيلم، لذلك كانت جاذبيّتها محدودة.

غير أنّ تشارلوت توصّلت إلى ما يكفيها كي تحدّد إحداثيّاتها. قامت بتجميع بطاقات عمل ورتّبت زيارات إلى استديوهات تصوير، وشقّت طريقها بمعسول الكلام نحو غرف تبديل ملابس، وخربشت في دفترها فيما يتصدّق حرّاس قسم الإعلان عليها بقصص النّجوم الّتي صادق الاستديو على نشرها. (أجل، لقد كانت جوان كراوفورد ودوغلاس فيربانكس جونيور يترنّحان من السّعادة، إنّ زواجهما قصّة حبّ في الحياة الواقعيّة). وعلى غير المتوقّع، ألفت تشارلوت نفسها مسحورةً بالاصطناع الرّقيع لمواقع تصوير الأفلام: قلاع مبنيّة من الخشب المعاكس، ومعابد من الكرتون. لا شيء من ذلك حقيقيّ، ومع ذلك فكلّ شيء يقف بتحدٍّ.

هنا، يمكن لفتاة مزارعة من كانساس أن تعيد اختراع نفسها كأميرة بولنديّة، ويمكن أن يتحوّل ابنٌ خجول لمهاجرين إيطاليّين إلى بطل رومنسيّ. في بلدة لا تاريخ لها، يمكنك أن تكون أيّ شخص تريده.

كان هذا هو المكان الأمثل لرجل مثل ريج.

اكتشفت تشارلوت أنّ السّيّد إيفرز كان يعمل قيد عقدٍ مع شركة باراماونت، واستطاعت بلسانها المعسول أن تحصل من سكرتير استديو على عنوان منزله.

كان المنزل يقع في مكانٍ أشار مدير الفندق إليه باسم «التّلال»[١] ببساطة، لا يبعد كثيرًا عن الفندق، وبذلك لم يكن لها أن تتعذّر بالمسافة أو الصّعوبة فتتوانى عن قصدها.

ارتدت تشارلوت أفضل فستان نهاريّ لديها، كانت قد اشترته من أجل عطلة نهاية أسبوع في الرّيف حين أرادت نيل إعجاب سيّد محدّد تميّزه ندبة وعرج، ثمّ تبيّن أنّه لم يكن تمامًا بطلَ حرب كما يصف نفسه ضمنًا في كلامه. أضفى عليها الكمّان الطّويلان وفرجة العنق المرتفعة نسبيًّا مظهرًا وقورًا بالمقارنة مع قصاصات القماش الشّفّافة الّتي تتبختر فيها النّساء الأخريات بين جنبات السّلطان بالاس، بيد أنّ المظهر منحها أناقة شبه رسميّة بدت تليق بالمناسبة. عبرت فناء الفندق، وشعرت بالرّضى لاكتشافها أنّها لم تزل قادرة على لفت بعض الأنظار.

مع انتقال سيّارة أجرة تشارلوت من بين مباني الشّقق وبيوت البنغل[٢] إلى بساتين البرتقال وسفوح التّلال القاحلة، بدأت جسارتها تذوي. أيكون من الأفضل لو ترسل رسالة عوضًا عن هذا؟.. توقّف السّائق عند أسفل ممشًى ضيّق منحدر، ورمقها بنظرة متسائلة. لم تكن تشارلوت ترى أين ينتهي الممشى، لكنّها قرّرت أن ترحم مكابح السّيّارة ودفعت الأجرة.

---

(١) The Hills (في النّصّ الأصلّي): إشارة إلى مدينة «بيفرلي هيلز»، الواقعة غرب هوليوود. (المترجم)

(٢) Bungalow البنغل أو البنغلو: بيت من طابق واحد، وهو شكل بناء تمّ تطويره في منطقة البنغال بجنوب آسيا. (المترجم)

استجمعت شجاعتها وهي تترجّل من السّيّارة، وبدأت تكدح صعودًا. كان ثمّة أصوات تتنادي في مكان ما خلف سياج الشّجيرات على يمينها، تتخلّلها ضربات إيقاعيّة مكتومة. وبعد بضع خطوات أخرى، بلغت تشارلوت ارتفاعًا يكفي لترى ملعب تنس؛ رجلان يتقافزان جيئة وذهابًا على كلا الجانبين، وقميصاهما ناصعا البياض في تباين مع وجهيهما وأذرعهما المسمرّة. كان المنزل على يسارها، فيلا بلون أصفر زعفرانيّ وطراز إسبانيّ لها سقف من القرميد الأحمر. وكان ثمّة نصف دستة من السّيّارات المركونة على طول الممشى الدّائريّ، فتردّدت تشارلوت في مكانها؛ لم تكن تنوي اقتحام حفلة.

وفيما هي واقفة هناك، متلكّئة، خرج شابّ له وجنتان متورّدتان وشعر داكن ناعم من الباب الأماميّ متوثّبًا، مثل جرو فُكّ من رسنه، ثمّ كبح جماح نفسه حين رأى تشارلوت.

«مرحبًا!»

كانت لدى الأمريكان عادةٌ مستفزّة للأعصاب في تحيّة تشارلوت بحرارة تجعلها تتساءل دائمًا إذا ما سبق لها اللّقاء بالشّخص. ومع اقترابه، تأكّدت أنّهما لم يلتقيا من قبل، رغم أنّ وجهه من النّوع الّذي يبدو مألوفًا. كان له عظما وجنتين منحوتان وعينان مفعمتان بالعاطفة تناسب نجم شاشة، من أولئك الّذين تُقتطع صورهم من المجلّات وتُعلّق في غرف نوم الفتيات التّوّاقات الحزانى.

«هل أنتِ هنا لرؤية ريجي؟»، سألها.

«أجل»، خرجت الكلمة قبل أن تقرّر تشارلوت البقاء بشكل رسميّ.

مدّ يده قائلًا: «أنا بيرسي».

أسلوب عامّيّ خالٍ من الرّسميّة- أمريكيّ بشدّة. «تشارلوت».

صافحها بيرسي بحسم، وأدركت أنّها كانت تحدّق، لكن لم يبدُ أنّه يمانع. كان جذّابًا بحقّ، وحقيقة معرفته بذلك لم تنتقص من سحره. ثمّ فطنت تشارلوت أين كانت قد رأته: «هل شاركتَ في فيلم مع رامون نوفارو؟»، سألته: «شيء يخصّ القراصنة؟»

اتّسعت ابتسامة بيرسي، ممّا جعل وجهه يتألّق أكثر: «شقيّ في البحر، لا تقولي إنّك شاهدته؟ أخشى أنّه ليس أفضل أعمالي».

«أوه، لقد أحببته كثيرًا».

لم تكن تشارلوت قد أحبّته على الإطلاق- ما تمّ تمريره على أنّه حبكة الفيلم كان هراءً وجدانيًّا- لكنّها كانت قد قضت وقتًا في حضرة المسرحيّين يكفيها كي تعرف أنّ التّعليقات المحقّرة للذّات يجب أن تُقابَل دائمًا بالإطراء.

«أنت إنجليزيّة، ها؟»، سألها بيرسي: «أتعرفين ريجي مذ كان في البلاد؟»

أومأت تشارلوت: «صادف وجودي في البلدة، فرأيت أن أفاجئه. لعلّه ليس الوقت الأمثل، إن كان لديه زوّار...»

«أوه، إنّها الشّلّة المعتادة لا غير، ريجي يفتح البيت للجميع في عطلة الأسبوع. أنا ذاهب إلى المنزل لأحضر بعض الأسطوانات الجديدة، لكن بإمكانك الدّخول. كان ريجي عند بركة السّباحة، آخر مرّة رأيته».

كان المنزل من الدّاخل فسحةً مفتوحة مترامية الأطراف، أثاثه الخشبيّ الدّاكن وأرضيّته المرصوفة بقرميد الطّين النّضيج نقيضٌ معتم لشمس كاليفورنيا المشرقة.

قطعت تشارلوت منطقة الجلوس المركزيّة- ملؤها أرائك كبيرة الحجم وكراس تشبه العروش- نحو مجموعة من الأبواب الفرنسيّة المفتوحة. استرقت النّظر تطلّ على فناء مرصوف وبركة سباحة؛ وراءهما، تمّ نحت الأراضي

المنحدرة وتحويلها إلى سلسلة من التّراسات، أحدها مكسوّ ببساط غولف أخضر، وفي الأخرى زُرعت أشجار فاكهة وزهور. كانت البِركة شاسعة وبيضاء بياضًا يُبهر الأبصار، وعلى كلا طرفيها طاولات تعلوها مظلّات. تجمّع الزّوّار في مجموعات ثنائيّة وثلاثيّة، بعضهم على كراسي استلقاء، وآخرون سيقانهم في الماء. تردّدت تشارلوت في المدخل، تشاهد اللّوحة الحيّة كأنّها مشهد فيلم، وتنتظر وصول بطله.

حينذاك رأته، متلفّعًا بمِبذلٍ[1] كحليّ، في إحدى يديه غليون، وإبهامه يداعب قصبته.

خطت تشارلوت إلى الأمام، ودفعت أحد الأبواب المواربة وهي تعبره، فانجذب انتباهه إلى الحركة. نظر إليها أوّلًا بتأدّبٍ خالٍ من التّعابير وابتسامة تجريبيّة، ثمّ اقتربت منه، فهوت يدُه، وتدلّى الغليون من بين أصابعه، منسيًّا.

«تشارلوت؟»، قال الرّجل الّذي كان الجميع يعرفه باسم ريجي إيفرز، لكنّه بالنّسبة إلى تشارلوت سيظلّ دائمًا جورجي.

كما لو في حلم، حاولت أن تتكلّم لكنّها لم تستطع. بدا مستحيلًا أن يكون اثناهما هنا، في هذا الأصيل الكاليفورنيّ المشمس، في حين أنّ آخر مرّة شاهدا بعضهما فيها كانت على ظهر كارباثيا الغارق بماء المطر. لقد أفضى قرارٌ مندفع واحد إلى حياتين مختلفتين أقصى الاختلاف. بات شعره الذّهبيّ أكثر قتامة الآن، وخطّ فكّه أكثر بروزًا. لقد تقدّم في السّنّ، بلى، لكنّه لم يزل بالكامل جورجي الّذي يسهل التّعرّف إليه.

سار نحوها، فمه ملتوٍ في ابتسامة صلبة: «أظنّ أنّ هذا يستدعي الشّرب».

صحب جورجي تشارلوت نحو عربة مكتظّة بالمصافق الزّجاجيّة المنقوشة؛

---

(١) المِبذَل: تعريب يُعتمد للرّوب دو شامبر، وتُطلق الكلمة لغةً على كلّ ما يُرتدى. (المترجم)

وداعًا لحظر الكحوليّات[1]. صَبّ الويسكي والصّودا لهما كليهما، ثمّ رفع كأسه، فردّت تشارلوت برفع كأسها.

«نخب الأصدقاء القدامى»، قال جورجي.

لم نكن صديقين يومًا، فكّرت تشارلوت. «لسنا قديمين جدًّا، ما زلنا شابّين كما آمل»، قالت عوضًا عن ذلك.

كان هذا كافيًا لكسر التّوتّر، فضحك جورجي. أخذت تشارلوت رشفة من شرابها؛ لقد أعدّ المزيج قويًّا. جاء الرّجلان اللّذان يرتديان ملابس التّنس البيضاء يهرولان حاملين مضربيهما، ونادى أحدُهما: «ريجي! ستواجهني في المباراة التّالية!»

لوّح جورجي يصرفه: «أنا منشغل بأمر آخر»، قال بتأنّق أرستقراطيّ بالغ، كأنّه خارج لتوّه من مجلس اللّوردات: «جرّب اللّعب مع دانكي عوضًا عنّي، أراهن بخمسة دولارات أنّه سيهزمك في كلّ مجموعات المباراة».

ثار الضّحك بين الحضور، فذاع حسٌّ يوحي أنّ جورجي أبٌ متسامح تسلّيه طرائف تصرّفات الشّبّان الصّغار.

«فلنذهب إلى الدّاخل»، اقترح جورجي، وتبعته تشارلوت عائدة إلى المنزل.

تقدّمها عبر ممرٍّ إلى مكتبه، حيث كان أول شيء انتبهت إليه طاولة مكتب خشبيّة هائلة، والشّيء الثّاني الصّورة الفوتوغرافيّة الّتي تعلوها، وتُظهر جورجي مع ماري بيكفورد. إن كان الهدف هو إثارة إعجاب الزّوّار، فقد أدّت الغرض.

---

(١) الإشارة هنا إلى قانون حظر الكحوليّات في الولايات المتّحدة، وكان قانونًا فيدراليًّا يحظر بيع المشروبات الكحوليّة وتصنيعها ونقلها في البلاد خلال الفترة ما بين ١٩٢٠-١٩٣٣، ويستثني الملكيّة الخاصّة للمشروبات وتناولها. (المترجم)

«من أين نبدأ؟»، سألها جورجي، وذهوله بالكاد يموّه توتّره: «كم من الزّمن انقضى؟»

«عشرون عامًا»، قالت تشارلوت. ثمّ، لأن شعورًا سيّئًا كان ينتابها أصلًا لكونها باغتته: «جورجي، أنا آسفة...»

«جورجي.. لا أستطيع تذكّر آخر مرّة ناداني فيها أحد بهذا الاسم. بلى، أظنّني أستطيع.. لا بدّ أنّك أنتِ من فعل».

تلك الأيام المربِكة المريعة على متن كارباثيا.. تذكّرت تشارلوت، كما لو كانت الذّكرى قادمة من أحشائها، السّاعات الأولى الّتي تلت قارب النّجاة، وهي تجوب أقسام ظهر المركب، مفتّشةً في كلّ تجمّع من النّاجين عن وجه ريج. رائحة الدّثار المُلقى على كتفيها، صوفيّة ورطبة. كان بعض الرّجال قد استطاعوا الوصول إلى آخر قوارب النّجاة؛ وتمّ انتشال آخرين من الماء. إن كان ثمّة أحد يعرف كيف يتملّص من موقف ملعون كهذا، فهو ريج.

بدلًا من ذلك، عثرت على جورجي، رابضًا فوق أحد الكراسي القابلة للطّيّ، وجهه شاحب وخالٍ من الدّم. جورجي، الّذي لم تزد معاناتُه على أن عزّزت طلّته الوسيمة، مثل قدّيس فتيّ في لوحة من عصر النّهضة. زاغ قلب تشارلوت، فركضت إلى الكرسيّ، وسؤالٌ صامت يأكل وجهها.

هزّ جورجي رأسه: «ريج لم ينجُ».

«ما أدراك؟»، سألته ملحّة.

«لقد رأيته يموت».

بنبرة رتيبة فاترة، روى جورجي لتشارلوت ما حدث. لقد كانا قرب مؤخّر السّفينة، لا يدريان ما يفعلان مع استمرار ظهر المركب بالميلان، وآنذاك سُمع هدير ضخم؛ انفجار من نوع ما قلبَ إحدى المداخن. اصطدمت قطعة معدن

ملتوية بوجه ريج- لا شكّ أنّها قتلته فورًا- وبالكاد تسنّى الوقت لجورجي كي يستوعب رعب الموقف قبل أن تدفعه قوّة إلى الخلف، من فوق الإفريز. يائسًا وذاهلًا عن محيطه، راح يطرطش ويصيح حتّى بلغ قارب نجاة مقلوبًا جرفته المياه من السّفينة. لساعات، بقي واقفًا برفقة عشرين آخرين على صالِب[١] القارب المنحدر، يتشبّثون ببعضهم ليحافظوا على استقامة وقفتهم، وينحنون ليحافظوا على اتّزانهم مع كلّ انتفاخ للبحر.

حكى جورجي القصّة بصوت مسطّح محايد، كما لو لم يكن فيها ما يهمّ، فتمخّضت تشارلوت غيظًا. كيف يمكن لأحمق عديم الفائدة مثل جورجي أن يكون حيًّا في حين يموت ريج؟

كان ثمّة ضابطان يشقّان طريقهما على طول ظهر المركب، ويدوّنان رسائل النّاجين من التّايتانيك كي يُبرَق بها إلى أقاربهم. تحدّث الرّجلان بصوت هادئ، مراعيَين المعاناة الماثلة أمامهما.

«ماذا على أن أفعل؟»، غمغم جورجي، عيناه منكّستان، وأصابعه تعبث بطرف معطفه.

آخر همّي ما تفعل، قالت تشارلوت في قرارتها: لا أريد أن أراك بعد الآن.

«أخبر والديك أنّك على ما يرام»، قالت محاولةً الحفاظ على سويّة صوتها. بدا جورجي على أهبة البكاء، ولم يكن لديها جَلَدٌ لإثارة مشهد يستدعي الفرجة: «سيحوّلان لك المال إلى نيويورك، أليس كذلك؟ عندها يمكنك العودة».

«لا أستطيع أن أعود!»، استعطفت عينا جورجي عينيها، باهتياج: «لقد تبرّأ أبي منّي، قال إنّه يفضّل لو كنت ميتًا على أن أجلب الخزي للعائلة»، وأمام

(١) الصّالب: جزء كبير من القارب يكون تحت الماء، يشبه الزّعنفة، ويخدم غرضين: يحمل الصّابورة (الوزن الثّقيل الّذي يساعد على خفض مركز كتلة القارب)، وفي الوقت نفسه يساعد على منع القارب من الانجراف بفعل الرّياح. (المترجم)

اشمئزاز تشارلوت، بدأت الدّموع تترقرق فوق خدّيه: «والآن نال ما يتمنّاه. لم يبقَ لي شيء، بعد رحيل ريج. كان يجدر بي أن أموت، أنا كذلك».

كادت تشارلوت تقولها: أتمنّى لو فعلت. كانت شفقة جورجي النّوّاحة على حاله أكثر ممّا استطاعت تحمّله.

«ماذا علينا أن نفعل؟»، سألها.

علينا؟.. لم تكن تشارلوت تبيّت أيّ نيّة لربط مستقبلها بمستقبل جورجي، غير أنّ آخر بقايا وفائها لريج منعتها من أن تسير مبتعدة. تملّكتها بادرة فكرة، أخذت شكلًا وهي تتفحّصها من كلّ الزّوايا.. قد تنفع.

«ماذا لو كنتَ ميتًا؟»، سألته.

حدّق جورجي إليها، بعينين مشرعتين.

«يمكننا إخبار الضّابط الّذي يعدّ قائمة الرّكّاب أنّك ريجينالد إيفرز، وأنّك شاهدت جورج سانت فون يموت».

مال رأسه إلى الجانب، وتدلّت شفته السّفليّة، مثل طفل بنصف عقل.

«ستبدأ بداية جديدة. سأؤكّد أنّك زوجي حتّى نصل إلى نيويورك، وبعد ذلك تعتمد على نفسك».

كان استيعاب جورجي بطيئًا- ولا عجب- لذا جلست تشارلوت بجانبه وشرحت كيف ستسير الأمور، وكان تقاربُهما وتواطؤهما الأمرَ الّذي دعا مضيفًا يقترب إلى افتراض كونهما زوجًا وزوجة قبل أن يتفوّها بحرف. سألهما المضيف إذا كانا يريدان إحدى الحجرات الخاصّة المعدّة للأزواج، فرمق جورجي تشارلوت بطرف عينه، وردّت له النّظرة: كن رجلًا لمرّة، خذ قرارك.

«أجل»، قال جورجي بإيماءة سريعة: «جيّد جدًّا».

ما كانت تشارلوت لتقترح تبادل الأسماء قطّ لو أنّها فكّرت في ما سيتضمّنه ذلك: الأيام الّتي أُرغمت خلالها على أن تلزم جانب جورجي، والليّالي الّتي تشاركا فيها كبينة درجة ثانية تُمغِص النّفس. لحسن الحظّ، المزاج الهادئ لرفاقهما من المسافرين جعل الخداع أسهل، فلم يتعيّن عليهما تزييف البهجة أثناء جلوسهما جنبًا إلى جنب على كراسي ظهر المركب أو تكبّد الأحاديث على العشاء. كان ثقل الأسى المشترك يخيّم عليهما مثل ضباب، فيخلدان إلى سريريهما كلّ ليلة بكامل ملابسهما، مرهقَين وأرِقَين مع ذلك. في أول مساء، سمعت تشارلوت جورجي يبكي، رغم محاولته كتم الصّوت بوسادته، فتظاهرت بالنّوم. ولو أنّه بكى في اللّيالي التّالية، فهي لم تسمعه. لعلّه، مثل تشارلوت، تعلّم أن يفعل ذلك بصمت.

لم يتحدّثا قطّ عن ريج.

آخر مرّة شاهد فيها واحدهما الآخر كانت في مرفأ نيويورك، فيما كان المطر الأسود يجلد بسوطه مثل لعنة من الله، وذهب كلٌّ في طريقه من رصيف كونارد البحريّ. تقنّع جورجي بوجه شجاع، لكنّ تشارلوت كانت مقتنعة أنّه لن يصمد أسبوعا. سيتدبّر أموره لفترة- كانت قد رأت المال في جيب معطفه الدّاخليّ، لم تزل عينها النّشّالة حادّة. يمكنه تحمّل نفقات أسبوع أو اثنين في فندق جيّد؛ يمكنه شراء ملابس جديدة. بيد أنّه كان شابًّا صغيرًا مدلّلًا يخوض في مياه أعمق من طوله، سينتابه الذّعر عاجلًا أم آجلًا؛ وحينها سيرسل إلى أمّه يتوسّل العفو. وقبل انقضاء وقت طويل، سيكون قد عاد إلى عزبته الباذخة في إنجلترا، يقوم بواجبه المتوقّع منه.

طوال شهور بعد حادثة الغرق، ظلّت تشارلوت تترقّب أن ترى القصّة تجتاح الصّحف: «لقد عاد بمعجزة» أو «نجاة ابن لورد أبتون!». لكنّ جورج سانت فون لم يعد إلى بيته قطّ، واختفى في نهاية المطاف من وعي تشارلوت كذلك.

لقد كانت الأسابيع الأولى تلك صعبة، أقرّ جورجي الآن: «شعرت أنّني مهجور»، قال لتشارلوت، واستطاعت أن تسمع لومًا في السّكتة القصيرة الّتي أعقبت كلامه، واهيًا لكنّه موجود مع ذلك: «ثمّ التقيت بفتى في... في منشأة شُرب من نوع ما، كان يرى في نفسه متعهّدًا فنّيًّا فسألني إن سبق لي وفكّرت في التّمثيل».

استطاعت تشارلوت أن تتخيّل نوع «المنشأة» القذرة الّتي دار ذلك الحديث فيها. لا بدّ أنّ شابًّا مثل جورجي- وسيمًا وبريئًا وبريطانيًّا- كان هدفًا منيرًا سائغًا للماجنين.

لكنّ جورجي- على غير المتوقّع- استخدم مظهره لصالحه، إذ بدأ بمشاركات ثانويّة في برامج الرّقص والمنوّعات ثمّ ارتقى إلى الأدوار الرّئيسيّة، رغم صراحته المرحة بشأن انعدام موهبته.

«إن كنت تملكين أقلّ قدر من حسن المظهر وتتحدّثين كأنّك جئت من كامبريدج لتوّك، فلن يصعب تدبّر اختيارك للأدوار»، قال لتشارلوت: «لطالما عرفتُ أنّ عملي الرّئيسيّ كان أن أقف أمام الأضواء وأهمد هنالك لا أكثر، لم يتضمّن الأمر تمثيلًا حقيقيًّا».

بدا أنّ نقّاد المسرح يوافقون، بناء على ما كانت تشارلوت قد قرأته في الإكسبرس.

لعلّ ذلك ما دفع جورجي إلى التّحرّك خلف الكواليس، رغم قوله لتشارلوت إنّه سئم ببساطة من ترداد السّطور وأراد أن يفعل شيئًا أكثر تحدّيًا. بدأ كفنّيّ ديكور مواقع تصوير، ثمّ انتقل إلى كاليفورنيا عام ١٩٢٣، في الوقت المناسب تمامًا ليستغلّ فورة الصّور المتحرّكة(١) كانوا يتوقون إلى المخرجين آنذاك، ووفقًا

---

(١) Moving pictures: التّسميّة الّتي أُطلقت على الأفلام السّينمائيّة أول ظهورها (ولا تزال كمصطلح فنّيّ)، ومن هنا جاءت المفردة الأمريكيّة الحديثة Movie. (المترجم)

لما قاله، إلى درجة تجعلهم يسلّمون فيلم بكرة واحدة [١] لأيّ شخص يعرف كيف يشغّل كاميرا.

سألته تشارلوت إذا كان من الممكن أن تكون شاهدت أيًّا من أفلامه.

«ليس إلّا إن كنتِ مغرمةً بعقاب نفسك!»، ضحك جورجي، ولوّح بيده نحو الحائط خلفها. كان مكسوًّا بملصقات مبهرجة لنساء عابسات ورجال مقطّبين، والعناوين تعلوها بخطوط بيضاء عريضة: لقد أخطأتَ في حقّه، الشّيطان سيّدة.

«تخصّصي هو الفتيات الصّالحات اللّاتي تفسد أخلاقهنّ»، قال: «مخلوقة صغيرة عذبة تقع في شرَك الإغراء وتُقاد إلى حياة الجريمة. أحيانًا ينقذها حبّ رجل طيّب؛ وإلّا فتسقط في وابل من الرّصاص. أعمال مبهرجة رخيصة للغاية، وعادةً ما يُدرج اسمي في المقام الثّالث ضمن الشّارة، لكنّ الأمر وافر المتعة رغم ذلك. وكما ترين، المردود جيّد».

بدا يتوق إلى إثارة إعجابها، مع أنّ تشارلوت لم تستطع أن ترى السّبب. كلّ شيء في حياة جورجي الجديدة كان تقبيحًا لحياتها هي: المنزل الفخم، جمهرة الأصدقاء المتجمّعين حول بركة السّباحة، كومة المال الّتي جعلت كلّ ذلك ممكنًا. حين سألها جورجي عن أحوالها، شعرت تشارلوت ببريق الرّغبة يتسرّب من حياتها. بدت لها الشّقّة الّتي كانت شديدة الفخر بها الآن كئيبةً تقبّض النّفس، وعملها الفاتن ممارسةً روتينيّة مُكرَهة للابتهاج الصّاخب. كان لديها أصدقاء، بلى، لكنّهم أصدقاء حفلات عشاء، وأصدقاء ارتياد مسارح. نادرًا ما كانت لتدعو أحدهم إلى بيتها بعد ظهيرة يوم أحد، وليس فيهم تقريبًا من تأتمنه بما يكفي للفضفضة. كانت تركت جورجي يعيل نفسه، ففعلها، لقد أثبت أنّها على خطأ.

---

(١) فيلم بكرة واحدة: فيلم تكون مدّته ١٠-١٢ دقيقة (كرتون أو كوميديا على الأغلب) ويتمّ تصويره باستخدام بكرة واحدة، كان شائعًا في حقبة الأفلام الصّامتة. (المترجم)

حين عرض جورجي عليها جولة في المنزل، لم تضطرّ تشارلوت إلى تزييف انبهارها. كانت غرفة نومه ضخمة لكنّ السّكينة تلفّها، بأغطية بيضاء بالكامل ونوافذ مطلّة على الجبال، قالت لنفسها إنّ الاستيقاظ هنا لا بدّ يمنح شعورًا بأنّ المرء قد قطع نصف الطّريق نحو الجنّة. تبعت جورجي وخرجا إلى الشّرفة، حيث استطاعت أن ترى الملكيّة كاملةً. كان المزيد من الأشخاص قد تجمّعوا عند البركة، وأصوات طقّ الكؤوس والضّحك الثّمل عن عمد تتوارد إليهما في الأعلى.

من جديد، شعرت تشارلوت كأنّها تشاهد فيلمًا. الضّيوف كانوا محبّبين إلى النّفس جميعهم، يسيرون برشاقة راقصين عفويّة، وجوههم المفعمة بالحياة تجعل كلّ محادثة تبدو فاتنة، وتغوي تشارلوت باستراق السّمع.

لكن كان ثمّة شيء غريب في المشهد كذلك، شيء لم تستطع تشارلوت الإشارة إليه بالبنان حتّى ظلّت تتفرّج لبضع دقائق، نصف مصغية إلى تغنّي جورجي بالمنظر في دندنة رتيبة. شيئًا فشيئًا، وبعينين تتصيّدان جيئة وذهابًا، أدركت أنّ أغلب من في الحفلة رجال، وأنّ بعضهم يشابكون أذرعهم بطريقة تملّكيّة، وآخرين يتهامسون على مقربة من الأعناق والآذان، ويتبادلون ابتسامات متواطئة. لقد باتت تشارلوت أكثر حنكة وخبرة بالحياة والنّاس ممّا كانته على متن التّايتانيك؛ سبق لها أن حضرت تجمّعات مسرح شابك خلالها مصمّمو الأزياء أياديهم بأيادي راقصين في الزّوايا الخلفيّة. كانت تعلم أنّ أمورًا كتلك تحدث، لكنّها تتمّ في عالم ظلال بديل، لم تشهد من قبل سلوكًا كهذا يُطلق عنانه في العلن على هذه الشّاكلة.

إن كان بيت جورجي المفتوح ينقلب إلى ذلك النّوع من الحفلات، فمن الأفضل لتشارلوت أن تستأذن وتغادر. ورغم ذلك لم تستطع التّوصّل إلى الابتعاد، كانت تنظر إلى كلّ أولئك الممثّلين والمغنّين الشّبّان المحبّبين، النّابضين

بالحيويّة إلى ما يقارب الإشراق، فتشعر بحزن لا يُحتمل لأن الشّخص الّذي استحقّ أن يكون هنا ليس واقفًا إلى جانبها.

«كم كان ريج ليحبّ هذا»، تمتمت تشارلوت.

كان بوسعها أن تتصوّره بوضوح بالغ: يفترّ لها عن بسمة شيطانيّة متكلّفة، ويجذبها من يدها. تعالي يا لوتي، حان الوقت كي ننضمّ إلى المتعة، كان ليقول وكانت لتذهب، لأن اتّباع ريج كان أشبه بالوثب إلى وسط عرض للفرسان، لم تقابل قطّ شخصًا يلهمها أن تتصرّف هي نفسها بتلك الحرّيّة.

«أتفكّرين فيه كثيرًا؟»، سألها جورجي بهدوء.

«لا، ليس حقًّا»، قالت تشارلوت شاعرةً بالخزي من قلّة وفائها: «وأنت؟»

اكتفى جورجي بالغمغمة، صوت يمكن أن يعني «طوال الوقت» أو «من حين إلى آخر»، فتابعت تشارلوت التّفرّج على الحفلة، غير واثقة إلى أيّ حدّ يجدر أن تتابع هذه المحادثة.

«كان أسهل ألّا أنظر إلى الخلف»، قالت تفسّر لنفسها كما لجورجي: «كنت غاضبة منه بشدّة، في الأيام الّتي سبقت... الّتي سبقت وفاته. ولقد زاد ذلك من فظاعة الأسى كثيرًا، لمعرفتي أنّنا افترقنا على غير وفاق».

لا بدّ أن جورجي علم ما قصدته، غير أنّها لم تحتمل أن تنظر إليه فتتوثّق من ذلك. لقد كان حاضرًا هناك في نهاية المطاف، لقد سمع تشارلوت تزعق برفضها حين توسّل ريج إليها كي تساعده هو على التّنكّر بملابسها. لقد رأى تشارلوت تدير ظهرها، والغيظ يأخذ منها كلّ مأخذ؛ لقد شاهدها تتجاهل ريج حتّى وهو يخبّط على النّافذة ويوقف قارب النّجاة الّذي أنقذ حياتها. لو علمت تشارلوت أنّ تلك ستكون آخر لحظاتها مع ريج، فهل كانت لتتصرّف على نحو مختلف؟ هل كانت لتشكره وهي تعبر الفجوة في الزّجاج المهشّم؟ لم تقل

تشارلوت أيّ كلمة آنذاك؛ لم تنظر خلفها حتّى، كانت كبرياؤها تعني لها أكثر من التّلطّف بكلمة وداع أخيرة.

«لا حاجة إلى شعورك بالأسف»، قال جورجي، ولم تفهم تشارلوت مقصده في البداية، لأنّها ستظلّ تشعر بالأسف، لبقيّة حياتها، حيال الطّريقة الّتي عاملت ريج بها: «خطّة ريج الهزليّة لجعلي أتنكّر كأنّي أختك»، تابع شارحًا: «ما كنت لأفعل ذلك أبدًا، حتّى لو وافقتِ. ما كنت لأتركه».

لكنّني فعلت، فكّرت تشارلوت، وراحت تحدّق بثبات شديد إلى انخفاض الأرض البعيد وظلال الأشجار الممتدّة فوق العشب. يجب عليها ألّا تبدأ بالانتحاب أمام جورجي.

«لقد رأيت والدتك»، قالت تشارلوت دون تفكير: «قبل أسبوعين».

بدا جورجي حائرًا، كما لو قالت كلامها بلغة أجنبيّة.

«هذا هو سبب قدومي لرؤيتك- آسفة لأنّي لم أخبرك منذ البداية. إنّها تظنّك ميتًا، بالطّبع، وكانت تتساءل طوال هذا الوقت عمّا حدث، وإذا ما كنتَ عانيت في النّهاية. كانت تعلم بأمرك أنت وريج، وقد رأت اسمه ضمن قوائم النّاجين بعد الحادثة، وأرادت طيلة الوقت أن تجده وتسأله، لكنّها لم تجرؤ على فعل ذلك في حياة والدك».

كانت تشارلوت تعلم أنّها تتحدّث بسرعة كبيرة، مثل طفلة تدافع عن نفسها لتنجو من عقاب، لكنّها أرادت أن تنتهي وتحمل درب طريقها.

«أبي مات؟»، استحال تخمين ما يفكّر جورجي فيه، فوجهه كان في غاية الثّبات.

«ربّاه، لم أكن أفكّر... أجل، العام الماضي، كما أظنّ. وأخوك كذلك، في الحرب».

بدا أمرًا ناشزًا إخباره بهذه الحقائق الباردة في هذا المحيط، بينما يضيء الوهج الكهرمانيّ لشمس نهاية الأصيل وجهيهما. المنازل من مثل منزل جورجي مخصّصة للرّقص وأنخاب الشّامبانيا عند الفجر.

«لقد سمعتُ بما حدث لتوم»، قال جورجي: «كنت استعلم بشكل سرّيّ عن أحوال عائلتي من وقت إلى آخر، دون التّصريح بهويّتي طبعًا»، تنهّد يستجمع أفكاره: «كان توم يمعن في التّنمّر على حين كنّا طفلين، لكنّه عدا ذلك لم يكن فتى سيّئًا.

كان من النّوع الّذي يمكن أن يرمي نفسه أمام الجبهة الألمانيّة من أجل بلاده. لا بدّ أنّ ذلك قد مزّق أبي، لطالما كان توم المفضّل لديه، لأسباب واضحة».

«ذلك مزّق والدتك أيضا، لكنّها أخبرتني أنّ الأمر كان أصعب عليها بكثير عندما متّ أنت».

«حقًّا؟»، بدت المفاجأة صادقة على جورجي.

«لقد كتب محاميها إليّ، في الصّحيفة. ما زلت مسجّلةً في بعض الأماكن- مثل الاستمارات الرّسميّة وما شابهها- باسم السّيّدة ريجينالد إيفرز، وأظنّ أنّ ذلك ما مكّنه من العثور عليّ. طلبت والدتك أن أزورها، فأجّلتُ الزّيارة طويلًا، لكنّني في النّهاية شعرت بالذّنب لتجاهلي إيّاها ورتّبت لزيارة قصر السّندیان. إنّها معتكفة عمليًّا- لا تخرج على الإطلاق، وبالكاد ترى أحدًا. لقد وضعت صورًا لك أنت وتوم في كلّ أنحاء غرفة الجلوس، وظلّت تتحيّن الفرص لتخبرني عن ولديها العزيزين. شعرتُ بأسف شديد على حالها».

استدار جورجي بلا تمهيد ودخل إلى غرفة النّوم، وظلّت تشارلوت متردّدة في خصاص الباب، قلقةً من أن تكون أساءت إليه. فتح درجًا في منضدة قرب

سريره وأخرج سلسلة معدنيّة تتدلّى منها قطعة ذهبيّة دائريّة مثل بندول؛ ساعة جيب، وناولها لتشارلوت.

«هديّة من والدي[1] العزيز في عيد ميلادي الثّامن عشر».

نظرت تشارلوت إلى الغطاء، الّذي حُفر عليه شعار نبالة عائليّ، ثمّ فتحته ورأت الحروف «ج. س. ف.» بخطّ قوطيٍّ متقَن.

«أوشكتُ أن أبيعها»، قال جورجي: «خلال السّنوات الأولى تلك، في نيويورك، يعلم الله كم كنت أحتاج المال. ومع ذلك احتفظت بها، مثل أحمق رقيق العاطفة.

احتفظت بها لأنّها كلّ ما بقي لي من والديّ، رغم أنّني كلّما نظرت إليها تذكّرت كم يكرهانني... حين وجدني بوّاب الكلّيّة أنا وريج...»، توقّف جورجي ونظر إلى تشارلوت، كأنّه يقرّر كمّيّة ما سيرويه.

كان ثمّة كرسيّان منجّدان أمام نافذة إطلالة كبيرة، فجلست تشارلوت على أحدهما تقول له بعينيها إنّها ستصغي. استردّ جورجي السّاعة وجلس قبالتها، يمرّر رؤوس أصابعه على طول السّلسلة وحولها. ابتسم برقّة، طريقة جنتلمان لطمأنة من معه أنّه على ما يرام تمامًا ولن يثير البلبلة.

«حسنًا، لم يكن ثمّة مجال لإساءة فهم ما كنّا بصدده»، قال جورجي: «يمكنك أن تتخيّلي اللّغط. أُرسِلتُ إلى المنزل يجلّلني الخزي، وطُرِحَت إمكانيّة أن أتذرّع بحداثتي وجهلي وألقي اللّوم على ريج. لو أنّني أعربت عن توبتي بشكل لائق، لسُمح لي بالعودة في الفصل التّالي. لكنّ أبي لم يساير اللّعبة، كان مُزرقَّ الشّحوب، غاضبًا كما لم أره من قبل، يصيح أن ليس لديه ابن يُقْدم على هكذا أعمال منحرفة. لقد أدّى عرضًا رائعًا».

---

(١) Pater: وردت على هذا الشّكل الرّسميّ المستعار من اللاّتينيّة في النّصّ الأصليّ. (المترجم)

كان جورجي يروي القصّة باستخفاف، متظاهرًا أنّ الزّمن قد جرّدها من لذعتها، بيد أنّ تشارلوت رأت الجروح الّتي لم تُشفَ قطّ، والألم الّذي جعل جورجي يبغض نفسه، حتّى في هذه الأثناء.

«ظننت أنّ أمّي ستقف في صفّي»، تابع جورجي: «لطالما كانت تدلّلني، وظلّت تناديني طفلها فترة طويلة بعد تخرّجي في الحضانة، يحرجني قول هذا. طيلة وقت توبيخ أبي لي، لم تنبس أمّي ببنت شفة. وآخر الأمر، لبالغ صدمتي، طردني أبي من البيت. تصرّفٌ قروسطيّ للغاية، ألا توافقينني؟ طُردت وليس معي سوى الثّياب الّتي أرتديها، لحسن الحظّ كان ثمّة بضعة جنيهات في جيبي وحدّ ائتمانيّ في المصرف بكامبريدج، وإلّا فمن يدري ماذا كنت سأفعل. وبينما كان أبي يصيح بي أن أخرج، ظللتُ أنتظر من أمّي أن تهدّئ ثورته، أن تقول إنّه فعل ما يكفي، أو إنّنا سنناقش الأمر في الصّباح. لم تفعل أيًّا من ذلك، ظلّت واقفة مكانها، تتفرّج، فيما سرت مبتعدًا أبكي كتلميذ مدرسة. بدت كأنّها تحوّلت إلى جليد... هاتفتُ المنزل في اليوم التّالي، من النّزل الّذي قضيت فيه ليلتي في البلدة.

ردّت عليّ المدبّرة، فقلت: «هذا أنا، السّيّد جورج، أرجوك دعيني أتحدّث إلى والدتي»، فأجابت أنّها أُعلِمت أنّ ليدي أبتون لن تردّ على أيّ مكالمات. قلت: «ولا حتّى من ابنها؟»، فقالت إنّ تلك هي أوامرها، وفرط خيط دموعي دون مقدّمات- مثبتًا أنّ أبي كان محقًّا كما أظنّ. ما زلت أتذكّر الطّقّة حين أُغلِق الهاتف، كان ذلك هو الصّوت الّذي بترني من عائلتي إلى الأبد».

كان جورجي مؤدّيًا رغم كلّ شيء؛ أطرقت عيناه في إسدال جنائزيّ وهو يتنهّد، لكنّ ذلك لا يعني أنّ عواطفه لم تكن حقيقيّة.

«ريج أنقذني»، تابع: «يبدو هذا حماقة، أليس كذلك، بالنّظر إلى ما حدث؟ لكنّه احتضنني حين لم يكن لديّ أحد آخر. كتبت إلى أمّي بضع مرّات- عندما أخبرتها أنّني سأغادر البلاد، كنت واثقًا أنّها سترد، كي تقول لي وداعًا على

الأقلّ، لكنّها لم تفعل قطّ... لا أعرف إن كان ريج قد نوى أن يأخذني، أول تخطيطه لرحلته إلى أمريكا. لم نكن نتحدّث كثيرًا عن المستقبل- لم نتحدّث عنه إطلاقا، كي أكون صريحًا. لكن حين طلب منّي مرافقته وتحدّث عن كلّ المغامرات الّتي سنخوضها معًا، بدا لي أنّني مُنحت فرصة ثانية في الحياة. وحين فقدتُه»- توقّف جورجي عن كلامه لحظةً ليبتلع غصّة الألم- «... تحطّمت، غير أنّه لم يكن بوسعي العودة.

كنت أدين لريج بأن أعيش حياة حقيقيّة، مثل الّتي كان ليعيشها هو لو نجا. كان توسّلي الصّفح من والديّ ليُعدَّ خيانة لريج، عدا عن أنّه سيكون بلا جدوى. لم يكن لديّ شكّ أنّ والديّ يفضّلان رؤيتي ميتًا على أن يرياني صبيًّا مخنّثًا».

«أظنّ أنّ والدتك ستضحّي بأيّ شيء مقابل معرفتها أنّك حيّ»، قالت تشارلوت.

رفع جورجي كتفيه وأطرق ينظر إلى السّاعة: «إنّها السّادسة، سيكون جوليو يقدّم الكانابيه[1]».

«جوليو؟»

ابتسم جورجي: «كبير الخدم لديّ».

«يا إلهي، وهل يقدّم الطّعام بالزّيّ الكامل؟»

«المسكين، كان ليتفحّم من الحرّ»، وقف جورجي ومدّ يده.

في الأسفل، قرب البركة، كان أحدهم قد شغّل جهاز غرامافون، وراحت الأصوات تغنّي: «لا يعني اللّحن شيئًا! إن لم يكن يثير الرّقص!»

«عليّ أن أذهب»، قالت تشارلوت.

---

(١) الكانابيه: صنف من المعجّنات الصّغيرة الّتي تؤكل بلقمة واحدة. (المترجم)

«أوه، ابقي أرجوك، أودّ لو تبقين».

«هل أنت متأكّد؟ لا أدري»- كيف تصوغها بلطف؟- «لا أدري إن كان هذا التّجمّع من النّوع الّذي يناسبني».

«تخافين أن تفسدي؟»، ضحك جورجي مستظرفًا تحفّظ تشارلوت: «ليس ثمّة جنس جماعيّ، أعدك. عشاء وحسب، أودّ أن أعرّف الجميع عليك».

افترضتُ أنّ الأمر على العكس: أودّ أن أثير إعجابكِ من خلال التّباهي بكلّ أصدقائي المبهرين هؤلاء. تأثّرت تشارلوت على نحو غير متوقّع بصدقِ دعوة جورجي، ومنحها ذلك رعدة دافئة من السّرور، أعقبها سريعًا الظّمأ لمشروب آخر.

قالت: «هذا لطف كبير منك، قبلت».

خرجا من غرفة النّوم، وقاد جورجي الطّريق، ثمّ توقّف عند أعلى الدّرج وسألها: «ما زلتِ تعرّفين عن نفسك باسم السّيّدة إيفرز؟»

«أجل»، أجابت تشارلوت: «لم أعاود الزّواج. حسنًا، أنا لم أكن متزوّجة أساسًا، لكن لا حاجة لأحد بمعرفة ذلك».

«خطر لي للتّوّ أنّ تقديمك بهذا الاسم سيكون مربكًا. مرحبًا جميعًا، أودّ أن أعرّفكم على... السّيّدة ريجينالد إيفرز!»

ضحك كلاهما، وفوجئت تشارلوت من السّرعة الّتي تلاشت بها تحفّظاتها السّابقة. بعمر الثّامنة عشرة، كان جورجي أشبه بقلعة في موقع تصوير فيلم: واجهة بهيّة لا شيء خلفها. أمّا الآن، في أواخر ثلاثيناته، فقد نضج إلى ما صار عليه، وكانت تشارلوت مستمتعة برفقته بصدق، لعلّها قد تغيّرت هي الأخرى.

- «يمكنك ببساطة أن تقدّمني باسم تشارلوت- إحدى أولئك المُغامِرات الإكزوتيكيّات [1] اللّاتي ليس لهنّ اسم عائلة».

- «لا، لا. يتعيّن عليك أن تكوني روسيّة أو إيطاليّة من أجل ذلك، أنت بريطانيّة أكثر من اللّازم. اسم تشارلوت إيفرز سيفي بالغرض، سأقول إنّك قريبتي».

«اعتدنا على قضاء عطلات الصّيف سويّة، في الرّيف»، اقترحت تشارلوت.

- «وكانت المربّية توبّخنا دائمًا على جرينا في الأنحاء وإثارة الفوضى أثناء تناول الشّاي».

- «لقد كانت قاتلةَ متعة، أليس كذلك؟»

كم كان سهلًا أن تأخذ تلك الصّور المتخيَّلة شكلها: تشارلوت وجورجي طفلين، الوحل يلطّخ ملابسهما، يتناولان التّوست أمام مدفأة غرفة أطفال. يكبر الاثنان، حذاءاهما مرميّان جانبًا، يتبادلان الإهانات والقهقهات أثناء لعبة كروكيه. ارتسمت الذّكريات المختَرَعة لتشارلوت بتفاصيل جعلتها لا تختلف عمّا لو كانت حقيقيّة.

توسّعت المقبّلات والمرطّبات إلى عشاء من خمسة أدوار وجبات متلاحقة. أقعد جورجي تشارلوت على يمينه، وكان الحديث صاخبًا ومفعمًا بالحيويّة. الجميع أرادوا التّكلّم مع زائرة جورجي المفاجئة، وجعل الاهتمام تشارلوت تشعر بالرّضى.

أكثر من مرّة، حدث ما ذكّرها بمآثرها رفقة ريج، أثناء تبادلها هي وجورجي القصص المختلَقة عن طفولتهما، وارتجالِهما سويّةً بسليقة مؤدّيَين خبيرين.

---

(١) Exotic: تُعرّب أحيانًا على مصطلح «الإغرابيّة»، وهي ميل المرء إلى كلّ ما هو غريب عن ثقافته، ورأيتُ تعريبها بترك لفظها الأصليّ. (المترجم)

بعد تناول الحلوى، نُقل الغرامافون إلى غرفة الجلوس من أجل الرّقص، ولم تعدم تشارلوت الشّركاء. في لندن، كان من شأن هكذا هجوم ضارٍ من الجمال والموهبة أن يستفزّها أو يجعلها تُعرِض متهكّمة. أمّا هذه اللّيلة، فقد شعرت بسخاء أكبر.

معظم الأشخاص هنا كانوا صغارًا متعطّشين لتلقّي الاستحسان، وتجلّى أسهل شكل للّطف في توجيه كلام جميل إليهم ثمّ مشاهدتهم يتورّدون، كما لو كان الإطراء عملة وتشارلوت حاكمةً كريمة تلقي القطع النّقديّة من عربتها.

ولم يحدث قبل نهاية اللّيلة- إذ خرج الضّيوف إلى منازلهم في جماعات من اثنين وثلاثة، يودّعون بعضهم بقبلات أوروبيّة متقَنة على الخدّ- أن وجد جورجي وتشارلوت نفسيهما بمفردهما مجدّدًا. أصرّ على توصيلها بسيّارته عوضًا عن طلب سيّارة أجرة وشاكسها بشأن إقامتها في السّلطان بالاس، فيما حاجّته هي بأنّها وجدت الفندق بوهيميًّا على نحو عجيب. كان طقس اللّيل قد انقلب إلى نسمة باردة، فألحّ جورجي على تشارلوت أن تستعير إحدى ستراته. توقّفا عند الباب الأماميّ بينما وضع السّترة فوق كتفيها، وقهرت تشارلوت فجأة ذكرى قادمةٌ من الأعماق عن ريج. لقد وقف خلفها بالطّريقة نفسها تمامًا، يشملها بمعطفه ويلفّه بشدّة حول سترة نجاتها، مؤثِرًا إنقاذها على نفسه.

«إنّني أشتاق إلى ريج كثيرًا»، قالت تشارلوت: «لم أكن أدرك هذا، قبل اللّيلة».

شعرت بنفس الرّهبة الّتي تلوح في أفقها إزاء موعد تسليم مقالة، والحاجةِ الملحّة إلى وضع الكلمات في ترتيب مناسب بينما تتكتك الثّواني وتمضي: «لقد تصرّفتُ ببهيميّة معه، ومعك أنت».

مدّ جورجي يده، وفردت تشارلوت أصابعها منتظرة. لكن لا، كان يهمّ بتسوية ظهر السّترة لا غير، عيناه كانتا مشيحتين.

«الوضع، وضعي أنا وريج»، قال بهدوء: «لم يكن تبجّحًا رخيصًا، لقد كنت واقعًا في حبّه».

أرادت تشارلوت أن تخبر جورجي أنّها تتفهّم، لكنّها لم تتفهّم، على الإطلاق. يومَ التقت جورجي، كانت مفاهيمها عن الجنس مبهمة وتقوم بمعظمها على الكلام الشّائع؛ لم يكن قد سبق لها أن رأت رجلًا عاريًا حتّى، لكنّها علمت بيقين معتدٍّ بفضيلته أنّ ما يفعله مع ريج خاطئ. لم تسمح لنفسها قطّ أن تصدّق أنّ بين جورجي وريج عاطفة حقيقيّة لبعضهما، أو تفكّر كيف من شأن استنكارها الدّائب أن يكون قد جرحهما. لقد قالت تشارلوت لنفسها إنّ ما من شخص محترم يغفر سلوكًا كهذا، بيد أنّها لم تكن تلك الأسوةَ الحسنة للفضيلة هي ذاتها، نظرًا إلى الأشياء الّتي سبق وفعلتها.

لا، أدركت تشارلوت أنّ الأمر أعمق من ذلك؛ لقد حاولت أن تحرم ريج من السّعادة الّتي استحقّها لأنّها شعرت بالغيرة، لأنّه لم يخترها هي.

«ريج أحبّك كذلك، كما تعلمين»، قال جورجي.

«أرجوك»، اعترضت تشارلوت: «عليك ألّا تقلق حيال مراعاة مشاعري».

«أخبرتك، ألم أفعل؟ أنّه كان ينظر إليك كأخت؟ تلك كانت الحقيقة. لم يتحدّث قطّ عن أهله أو عن المكان الّذي جاء منه؛ كان يقول إنّك أقرب ما لديه إلى العائلة، حتّى أنّه قد أوشك على الزّواج منك».

«لقد أردتُ الزّواج منه، بشدّة»، قالت تشارلوت: «صدّني»، سخيفٌ بحقّ، كم لم يزل ذلك الرّفض يؤلم.

«معظم الرّجال من نوعنا يتزوّجون بالفعل»، قال جورجي: «إن أرادوا حياة طبيعيّة.

الأمور أكثر حرّيّة بقليل هنا في لوس أنجلس، إن توخّى المرء الاحتشام حيال وضعه، لكنّني تزوّجت لفترة من الزّمن أنا نفسي، في نيويورك. سادي، راقصة صغيرة ودودة، شابّة جدًّا، ساذجة جدًّا.. لم يدم ذلك أكثر من سنة.. لحسن حظّي، يظلّ المرء نكرة في هوليوود إلى أن يحظى بطلاقين على الأقلّ».

تساءلت تشارلوت إذا ما كانت سادي تلوم نفسها على انهيار الزّواج، تمنّت أن يكون جورجي قد تحلّى بما يكفي من الشّجاعة ليخبرها بالحقيقة.

«كان ريج أجدر منّي بالاحترام»، تابع جورجي: «أعرف أنّ من الغريب قول هذا، نظرًا إلى ماضيه. كان بوسعه أن يتزوّجك، وكنتِ لتتولّي له الطّبخ والغسيل وتربية الأطفال بينما ينطلق هو ويستمتع بمعابثاته الصّغيرة. كان الزّواج منك هو الخيار السّهل من عدّة نواح، لكنّه لم يقدم على ذلك لأنّه كان متعلّقًا بك للغاية. خشيَ أن تكتشفي منْ هو فتبغضيه على ذلك، ورأى الأفضل أن يفطر قلبك مباشرةً، حين كنت شابّة بما يكفي لتتعافي، راجيًا أنّك ستتفهّمين مع الزّمن، وأنّك لن تنفيه من حياتك».

«لم أكن أعلم»، نبض صدر تشارلوت بألم استحضرته الذّاكرة: «ظننت أنّك ستدخل وتنحّيني جانبًا... أوه، كلّ هذا يبدو في غاية السّخف الآن».

«كنّا مقحمَين في وضع مستحيل، أليس كذلك؟ كلانا واقعان في حبّ الرّجل نفسه، مثل ميلودراما رخيصة! وريج شعر بأسى فظيع، إنّه لشعور رديء حين يعلم المرء أنّه آذى شخصًا يهمّه».

ينبغي ألّا يكون ذلك مهمًّا، بعد كلّ هذا الوقت، لكنّ الكلام جعل قلب تشارلوت يتصاعد. رأت ريج كما عرفته أول لقائهما: مفعمًا بالحياة، حاضر النّكتة دائمًا؛ الرّجل الّذي غيّر حياتها. كان ريج ذلك قد انغمر في ظلّ الرّجل الّذي غرق، فعتّمت النّهايةُ على ما سبقها. لم يعد أيّ من ذلك يبدو ذا بال، كان يكفيها معرفة أنّ ريج أحبّها، أنّه أحبّها دائمًا.

«لقد حضّني ريج على الصّبر، وقال إنّك ستثوبين إلى رشدك»، أردف جورجي: «وأنا كنت متيّمًا بريج، لذا قمت بواجبي وتزلّفت إليك كلّ التّزلّف، لا عجب أنّك لم تطيقيني».

«كنت حقيرة معك!»، اجترحت تشارلوت ضحكة كئيبة.

«لقد اقترفتُ نفس الخطأ الّذي يرتكبه الممثّلون في تجارب الأداء، حين يكونون متلهّفين لنيل دور. يتحدّثون أكثر من اللّازم ويشنّون غارةً بتلك الابتسامات الواسعة، مستجدين الاستحسان. الأمر مرهق، وأولئك عينهم هم الأشخاص الّذين لا يحصلون على الأدوار قطّ».

كم من قسوةِ تشارلوت كان الجهل باعثها؟ لم أكن أعتقد أنّه يمكن لرجل أن يحبّ آخر، أرادت أن تقول لجورجي. أو، لم أصدّق أنّ مشاعرك كانت حقيقيّة. لكن بدلًا من ذلك، قالت ببساطة: «أنا آسفة».

«لا ضرورة للاعتذار، لكنّني أتقبّله بامتنان»، أجابها جورجي.

«ليس لديّ شكّ أنّ والدتك ستعتذر هي أيضا، إن قابلتَها». هزّ جورجي رأسه سريعًا، رافضًا انعطاف الحديث هذا، غير أنّ تشارلوت تابعت: «بدا لي أنّها كانت طوع بنان والدك تمامًا. وحين قاطعك، شعرتُ أنها لا تملك خيارًا إلّا أن تسايره».

«لقد كانت فيكتوريّةً بهذه الطّريقة فعلًا، في عبوديّةٍ للوردها وسيّدها».

«إنّها تندم على ما حدث، من أعماقها»، قالت تشارلوت: «لم أَعِدْها بأيّ شيء؛ قلتُ لها إنّني سأحاول إيجاد ريج حين آتي إلى أمريكا. لو أمكنك أن ترى وجهها... لقد بدا كما لو أنّ ذلك الأمل الضّئيل هو وحده ما يبقيها حيّة. أنا آمل أن تكتب إليها على الأقلّ، لكنّ القرار قرارك بالكامل».

«أهو كذلك؟»، سألها جورجي بتقريعٍ لاهٍ.

- «رسالة واحدة. بوسعك أن تسعد امرأة عجوزًا، ولا حاجة لأحد آخر أن يعلم أبدًا».

- «وإن لم أكتب، ستعودين إلى عتبة بابي، تسائلينني لم لم أفعل».

- «لقد حجزت في القطار والسّفينة- سأعود إلى لندن الأسبوع المقبل، ولن أزعجك مجدّدًا».

«هففف»، لم يبدُ لردّ جورجي معنى محدّد، رفع مفاتيح سيّارته قائلًا: «هيّا بنا؟»

أمضيا دقائق الطّريق العشر في صمت، يتحدّران أوّلًا في ثنايا طريق سفح خالٍ، ثمّ يمتزجان بموكب السّيّارات المتجوّلة عبر بيفرلي هيلز. شعرت تشارلوت بخواءٍ باعث على السّلام، مُطهَّر من الغضب والذّنب اللّذين لطالما ألقيا بظلّهما على أفكارها عن ريج. والآن، لم تتبقّ سوى الطّبقة الأعمق والأكثر صدقًا: العاطفة، والامتنان، ونفحة مرّةٌ حلوةٌ من النّدم.

توقّف جورجي أمام السّلطان بالاس وأطفأ السّيّارة، ثمّ التفت إلى تشارلوت وقال: «سأفعلها، سأكتب».

رمقته بنظرةِ مفاجئة مبالغ فيها من عينين مشرعتين.

«سأكون وحشًا إن لم أفعل»، قال.

ابتسمت تشارلوت، تفكّر كم ستفرح ليدي أبتون- هذا إن لم يتوقّف قلبها من الصّدمة.

«شكرًا لك»، قالت: «لا أظنّك ستندم».

«منذ يوم الغرق، عقدتُ عزمي على ألّا أحصّل سوى أقلّ قدر ممكن من الحسرات»، قال جورجي: «لقد اقترفت أخطاء، أكثر من حصّتي العادلة،

لكنّني لن أستلقي على سرير موتي وأنا أقول لنفسي: «أتمنّى لو فعلت ذلك». لقد فعلت كلّ شيء رغبت فيه».

«إذًا فأنت رجل محظوظ»، قالت تشارلوت.

تمنّت لو أمكنها أن تقول الشّيء نفسه، كان ثمّة عشرات الأشياء الّتي نوت أن تفعلها أو تقولها دون أن تتوصّل إلى ذلك قطّ. فكّرت في السّيّد هيلي، والرّسالة الّتي لطالما اعتزمت كتابتها. كم كانت جبانة.

«أتعلمين؟»، قال جورجي: «إنّهم يتوقون إلى مدرّسي الصّوت هنا، والاستديوهات تدفع مبلغًا مجزيًا إن كانت لكنتك أنيقة وأمكنك تعليم الفتيان المزارعين كيف يتكلّمون «بشكل لائق» مدّ لفظه للكلمة، مغاليًا في رنينها: «ليست لوس أنجلس مكانًا سيّئًا للعيش، الشّمس مشرقة على مدار العام، والبرتقال الطّازج متوفّر كلّ صباح على الفطور».

استطاعت تشارلوت أن تتصوّر الأمر، على نحو مقتضب، لكنّ ذلك المستقبل كان سرابًا. ربّما كان يمكن للفتاة الّتي ترجّلت من سفينة كارباثيا أن تبادر بمحاولة تجاهه، أمّا هي فقد قطعت مسافة أكبر بكثير من أن تعاود البدء.

«أخشى أنّ ذوقي قد درجَ على استساغة الضّباب والمطر»، قالت بمرح: «بيد أنّه للطفٌ بالغ منك أن تقترح هذا».

«إن حدث ورجعتُ إلى إنجلترا- ليس أنّني أخطّط لذلك- لكن إن رجعت، هل لي أن أتواصل معك؟»

«بالطّبع»، أجابت تشارلوت، ثمّ بدفء أكبر: «آمل حقًّا أن تفعل».

ابتسما لبعضهما، وشعرت تشارلوت بروح ريج معهما، تَكِزُ واحدهما ليقترب أكثر إلى الآخر. سيرقد في سلام، فكّرت تشارلوت بنزعة وجدانيّة غير معهودة، إن علم أنّنا صديقين.

لم يزل صوت جورجي وقيافته بريطانيّين، لكنّه تبنّى وضوحًا أمريكيًّا أعجب تشارلوت، لقد جاهر بأخطائه ولم يخشَ الحديث بصراحة عن الماضي. لو كان ظلّ في إنجلترا، ابنًا مطيعًا للورد أبتون، لما صار إلى الرّجل الجالس بجانبها قطّ، رجلا على سجيّته مع نفسه وفخور بالحياة الّتي كوّنها. ناولت تشارلوت جورجي إحدى بطاقاتها، لم تعلم إن كان سيتكلّف مجهود مراسلتها، أو إن كانا سيريان بعضهما من جديد. إذا لم يحدث، ستتفهّم. ستبدو لندن وقصر السّنديان نائيين للغاية غدًا، حين يستيقظ وينظر إلى الجبال من سريره الماموثيّ.

إلّا أنّ تشارلوت تمنّت ألّا تكون هذه النّهاية. لقد أعاد جورجي– كما أدركت– إيقاظ جزء منها دُفِن منذ وقت طويل، لقد ردّ لها ريج.

«لم أسألك»، قالت تشارلوت متردّدة: «هل كنت قريبًا من السّفينة عندما غرقتْ بالكامل؟»

أومأ جورجي.

«لا شكّ أنّ ذلك كان فظيعًا».

فهم جورجي من فوره ما قصدته تشارلوت بـ«فظيع»، وقال لها: «اضطررنا إلى دحر بضعة رجال عن قارب نجاتنا، وإلّا لكان انقلب».

ركّزت تشارلوت كامل جهدها على التّنفّس بثبات؛ ما من سبب للخوض في كلّ ذلك، ليس الآن.

«أتخيّل أنّ الأمر كان أكثر سهولة معكم»، قال جورجي: «اتّخذتم مقاعدكم وجذّفتم مبتعدين، لا؟ أكان ثمّة أيّ مليونيرات في قاربك؟»

«تشارلز فان هاوزن، والسّيّدة هاربر. لقد تزوّجا لاحقًا، كما سمعتَ ربّما»، قصدت تشارلوت أن تصدر الكلمات بلامبالاة مرحة، لكنّها خرجت على نحو

خاطئ؛ كان هنالك بعض حبسة في حنجرتها: «والسّيّدة دانينغ، والسّيّدة ماكبرايد. وكانت هناك فتاة سويديّة، مبتلّة بالماء حتّى النّخاع...»

كانت تحتاج أن توضّح أكثر، أن تشرح ما حدث بطريقة منطقيّة. تذكّرتْ مديرَ الفندق يبتسم لها ابتسامة عابثة ويخبرها أنّ لديه قناني ويسكي في الخلف، متاحة لقاء السّعر المناسب.

«كان ثمّة رجل، في الماء»، أفصحت تشارلوت، يستخفّها الطّيش من النّشوة بالصّراحة: «أتودّ الصّعود لتناول شراب؟ أنت الشّخص الوحيد الّذي قد يتفهّم من بين من أعرفهم».

القسم الثّالث
قارب النّجاة

١٥ إبريل ١٩١٢

١:٥٥ ص

التقط البحّار ياقة سترة نجاة آنا وسحبها. أمال اختلالُ الوزن المركب، فانزلق عكّاز المرأة العجوز من بين أصابعها، ليستقرّ بصوت ارتطام عند قدميها. المرأة الجالسة قبالتها تلهث وتشبّثت بالصّبيّ والفتاة اللّذين بجانبها.

تركل آنا ساقيها بهيجان، وبلا جدوى، فيما تضغط حافّةُ القارب على صدرها. كلّ نفَسٍ صِراع.

ثمّة خمسة عشر شخصًا في قارب النّجاة المُعدّ لحمل خمسة وستّين هذا. يجلسون على أربعة مقاعد خشبيّة طويلة، في حالات عاطفيّة تتراوح بين الكرب المتوتّر والصّدمة الذّاهلة عن الاستيعاب. الرّكّاب أمريكيّون وبريطانيّون وفرنسيّون؛ أحد عشر راشدًا وطفلان. فردا الطّاقم إنجليزيّان وغير متعوّدين على المناورة في عرض البحر، لم يتلقّيا تدريبًا في الإبحار ولا الملاحة، وكان تدريبٌ على قوارب النّجاة تمّ تحديد موعده ذلك الصّباح قد ألغي؛ إنّهما مدينان بنجاتهما للضّابط المجهول الّذي أضاف اسميهما إلى قائمة استنفار الطّوارئ. لقد انقضى أكثر من ساعتين بقليل منذ كشط الجبل الجليديُّ بدنَ التّايتانيك، ومرّت ساعة على إنزال أول قوارب النّجاة.

قارب النّجاة ٢١، واحد من آخر القوارب الّتي غادرت السّفينة، هو الآن في الماء منذ خمس دقائق.

نقل البحّار مَمسك قبضته إلى خصر آنا، ممّا زاد من ميلان القارب إلى الجانب.

تشبّثت إيسمي بالمقعد، حيث تجلس بين تشارلي وسابين، وجه الخادمة متقبّض من الخوف. في القسم الخلفيّ من القارب، ثلاث نسوة في منتصف العمر يطلقن العنان لكورس إغريقيّ من الاحتجاجات فيما يعصف الهواء بالرّيشات على قبّعاتهنّ.

إيسمي تضغط بمنديل تشارلي على وجهها لتوقف النّزف من وجنتها المجروحة، الجرح ليس مؤلمًا؛ لقد خدّر الهواء البارد جلدها، بيد أنّها تتساءل إذا ما كان سيترك ندبة وإذا ما كانت شخصًا فظيعًا لقلقها على مظهرها في وقت كهذا.

التّايتانيك تغرق؛ لقد انغمر القيدوم فعلًا، والماء مستمرّ في ارتقائه بلا هوادة، تاركًا في أثره بددًا من الحطام الطّافي. ركّاب قارب النّجاة ٢١ يشاهدون الشّخوص الضّئيلة البعيدة الّتي لا تزال على المتن وهي تحاول مماطلة المحتوم، فتندفع إلى الأعلى وميلان ظهر السّفينة يزداد انحدارًا فانحدارًا. الأمر يحدث أمام أنظارهم، لكنّه يبدو مستحيلًا رغم ذلك.

يسحب البحّار آنا إلى الدّاخل وهو ينخر، الماء يخرّ من حواشي فستانها، وتنهار هي محتمية بنفسها عند قدمَي تشارلوت. يستقرّ القارب مستعيدًا توازنه، وتنظر تشارلوت إلى الأسفل نحو المخلوقة الممرّغة تحتها، ذات الوجه المختبئ تحت كتلة متشابكة من الشّعر البنّيّ. أشكال يتعذّر تمييزها تتمخّض في مياه البحر المحيطة، وتشارلوت تبقي عينيها على الفتاة عوضًا عن ذلك.

ترى إيسمي شخصًا يتمايل في الماء، على بعد بضع ياردات. الوجهُ لمحةٌ غبشاء من الأبيض وسط ورطة من الكراسي والحطام، ولا تستطيع إيسمي تخمين ما إن كان رجلًا أم امرأةً، ميتًا أم حيًّا. ينظر تشارلي والبحّار واحدهما إلى الآخر، يتشاوران بصمت. لقد افترض تشارلي لنفسه نوعًا من السّلطة مسبقًا، ممّا لا ترى إيسمي فيه أقلّ من استحقاق له؛ من الطّبيعيّ بداهةً أن يتطلّع أفراد الطّاقم إلى جنتلمان من ركّاب الدّرجة الأولى للقيادة. تضع

المنديل على المقعد بينهما، لعلّ تشارلي يستخدمه ذريعةً للمسها، ولو للحظة فقط، لكن لا يبدو أنّه ينتبه.

«يجدر بنا الذّهاب»، يقول تشارلي.

تهمز نبرتُه الحاسمة البحّارَ فيبدأ بالعمل. كان هو وتشارلي قد أخذا مجذافين وجذّفا معًا ليبتعدا بالقارب عن السّفينة، لكنّهما لم يتقدّما إلّا قليلًا قبل أن يتوقّفا تمامًا حين رأيا الفتاة في طريقهما. الآن، يقطع البحّار الحبل الّذي يربط بقيّة المجاذيف ويناول أحدها لفرد الطّاقم الملتحي متجهّم الوجه في الخلف، الّذي لطّخ سخامُ غرف المحرّكات ملابسه.

«السّيّد ويلز، أليس كذلك؟»، يسأله السّيّد هيلي.

يومئ الوقّاد.

«البحّار القادر[1] إدموند هيلي. سندور بالقارب من جهة المقدّمة».

يأخذ السّيّد ويلز المجذاف ويدلّيه بين يديه ليختبر وزنه، ثمّ يوجّه الغادوف إلى خارج القارب ونحو الأسفل، ويطشطش به عند سطح الماء بلا فاعليّة.

«ما الّذي تفعله؟»، تصيح به إحدى العقائل الثّلاث.

«أنقذ حياتكنّ»، يردّ السّيّد ويلز.

«هل سبق لك وجذّفت من قبل؟»، ملفظها مزيج من سواكن بريطانيّة حادّة وحروف علّة أمريكيّة عريضة، لهجة واسعة الانتشار بين نساء المجتمع الموسرات كثيرات السّفر: «عليك أن تضعه في محبس المجذاف، كي يثبت في مكانه».

(١) بحّار قادر: رتبة بحريّة في السّفن التّجاريّة يكتسبها البحّار بعد تحصيله خبرة أكثر من عامين في البحر وإثباته كفاءته في واجباته. (المترجم)

بزفير أبحّ، يُقحم السّيّد ويلز مقبض المجذاف في موضعه: «لم يسبق لي أن أمسكت مجذافًا في حياتي»، يقول متبجّحًا بقلّة خبرته، فترمق العقيلة رفيقتيها بنظرة استنكار مزمومة الشّفتين. لا ينتبه، أو يتظاهر بذلك.

«سنحتاج شخصًا يوجّه الدّفّة»، يقول السّيّد هيلي، ناظرًا بتشكّك إلى الاحتمالات الّتي لديه. لن تجدي المرأة المسنّة نفعًا؛ ولا الأمّ المضطربة. المرأة الشّابّة الجميلة في الوسط قد تفي بالغرض- لقد حازت ثقتها الصّلبة بنفسها على إعجابه منذ ركبت القارب- غير أنّها مشغولة بالاعتناء بالفتاة الّتي أنقذوها لتوّهم. تلتقي عينا السّيّد هيلي بعيني امرأة في منتصف العمر لها كتفان عريضان وهدوء رصين يليق بناظرة مدرسة طويلة العهد بعملها.

«أنا من بورتسموث»، تقول: «أعرف القليل عن الإبحار».

كما تمنّى بالضّبط: لا مغالاة ولا تردّد. يأخذ السّيّد هيلي بيدها ويصحبها إلى المقعد المثلّثيّ الّذي يشغل الطّرف الخلفيّ من القارب، فتمسك المرأة الذّراع الخشبيّة وتدفعها من جهة إلى جهة، مختبرةً حركة دفّة التّوجيه في الأسفل. حين تومئ برضى، يستدير السّيّد هيلي عائدًا بحذر شديد إلى وسط القارب.

على المقعد الأماميّ، يثبّت تشارلي مجذافه، وترغم حركاتُه إيسمي على أن تزيح مبتعدة. تلزّ ذراعها وساقها اليمنى بسابين، ورغم الإحراج المتأتّي عن اقتراب المرء من خادمته إلى هذه الدّرجة، تتظاهر إيسمي أنّها لا تمانع. جميعهم عالقون في هذا المأزق معًا، وعليها أن تكون قدوة حسنة.

خلف سابين، يبدأ السّيّد هيلي بالتّجذيف. تهتزّ المقدّمة باضطراب، فينظر إلى الخلف نحو المرأة عند الدّفّة- ترفع له كتفيها بإيماءة تقول «لا تلمني»- ثمّ يرى مجذاف السّيّد ويلز متدلّيًا من محبسه، فيما هو يفرك يديه بعنفوان مبالغ به. لقد مرّت دقيقتان، والرّجل يتهرّب من واجبه منذ الآن. لا يقول السّيّد هيلي، المرتبك من ثقل القيادة، شيئًا. إن كانت كلّ هذه الحيوات

في يديه- مسؤوليّة غير مرغوبة لا تُحتمل- فلا يستطيع المغامرة باستفزاز الرّجلين الآخرين، إنّه في أمس الحاجة إليهما.

على بعد بضع أقدام من السّيّد هيلي، تشارلوت راكعة قرب آنا. لقد تجمّعت رامةُ ماء من فستان الفتاة المُشبَع، وتشارلوت تحسّ به يتغلغل في تنّورتها ويبرّد ساقيها.

«لا تقلقي»، تقول تشارلوت. تمدّ يدها حول ظهر آنا وتربّت على كتفها، بتردّد في البداية، ثمّ بثبات أكبر حين لا تلقى مقاومة منها: «أنت في أمان».

لا تفهم آنا ما تقوله تشارلوت، لكنّها تتعرّف إلى الحنوّ في صوتها. لا تستطيع التّوقّف عن الارتجاف. حتّى لو فقدت آنا نفسها الإرادة للمقاومة، فعضلاتها مصمِّمة على بثّ الحياة فيها من جديد.

لا شكّ أنّ الفتاة تتجمّد من البرد، تفكّر تشارلوت، فهي ترتدي فستانًا رقيقًا، ولا شيء حول كتفيها سوى شال، غارق بالماء بأكمله ومن المحتمل أنّه أشبه بقطعة جليد. تخلع تشارلوت معطف ريج وتلفّه حول آنا، ثمّ ترفعها إلى المقعد وهي تفرك يديها لتدفّئهما.

بالكاد تعي آنا جهود تشارلوت على نحو معتم، فذهنها يناضل ليفهم معنى ما حدث. لقد كانت على ظهر السّفينة برفقة إميل وسونيا؛ ثمّ أصبحوا في الماء. هل ماتت سونيا؟ حتّى التّفكير في ذلك يبدو خطيئة، كما لو كانت آنا تتمنّاه. كان إميل يسبح خلفها تمامًا، لكنّه ليس هنا، وهذا يعني فقط أنّهم سينتشلونه بعدها. يمكنها أن ترى البحّار، الّذي يبدو المسؤول، وهو يجيل نظره باحثًا.

يرفع السّيّد هيلي قنديله، الوهج واهٍ معاند رغم محاولاته لإذكاء الشّعلة، وضوء القمر ليس قويًّا كفاية لينير المعمعة المحيطة بهم. «أين اختفى؟»، ينادي.

«من؟»، تسأل المرأة المسنّة حائرة.

«كان هنالك رجل، بجوار الفتاة الّتي أنقذناها»، تقول إيسمي للمرأة المسنّة: «إنّنا نحاول العثور عليه».

التّصميم يعلو سيماء تشارلي بينما تمسح عيناه الظّلماء: «لقد كان قريبًا».

يدفع السّيّد ويلز مجذافه إلى الأسفل بحركة غاضبة، فيرشق العقائل في الخلف.

يرمقنه بغيظ، مبديات ثلاث نسخ من التّعبير نفسه. إيسمي مسرورة لرؤية أنّ بقيّة الرّاكبات يتطلّعن إلى تشارلي مثله مثل السّيّد هيلي طلبًا للإرشاد. وفيما تعدّل جلستها على المقعد، تلتقط لمحة من النّصف الخلفيّ للتّايتانيك، يرتفع مثل اتّهام من البحر. الصّورة المَسخيّة تسود الأفق، ومع ذلك فلا أحد يؤشّر أو يتنهّد أو يبكي. الرّاكبات يجلسن باعتدال صامتات، وتشيح العديدات منهنّ بوجوههنّ عن الكارثة الّتي تكشف نفسها. ومن توقها إلى أن تُظهر لتشارلي أنّها قويّة كالأخريات، تبتلع إيسمي فزعها.

«لا جدوى من البحث عنه الآن»، يقول السّيّد ويلز بحدّة: «إن بقينا هنا، سيبتلعنا الضّغط السّلبيّ».

تعبس الأمّ: «ماذا تقصد؟»

«السّفينة ستغوص، ووزنها سيجذب كلّ شيء حولها».

يثير إعلان السّيّد ويلز موجة من الذّعر بين الرّاكبات اللّاتي كنّ محتفظات برزانتهنّ. سابين تخفض رأسها وتضغط يديها معًا متضرّعة، فتتأثّر إيسمي وتتذكّر والد سابين وكيف وعدته أن تحافظ على سلامة ابنته، وتربّت على سابين تربيتة استحسان، طافحةً بحمائيّة أموميّة، غير أنّ عينَي الخادمة تظلّان مغمضتين. إنّها تلهج بالصّلاة للسّيّد هاربر، أكثر الرّجال الّذين تعرفهم طيبة.

«هل هذا صحيح؟»، تسأل إيسمي تشارلي هامسة: «هل ستبتلعنا المياه؟»

«لا أدري، قد يتشكّل ما يشبه الدّوّامة، بيد أنّه سيكون أكبر بكثير بحقّ الجحيم».

تجديف تشارلي بالجحيم هو ما يجعل إيسمي تدرك أنّه خائف أيضا.

«علينا أن نُعنى بسلامتنا نحن قبل كلّ شيء، أليس كذلك؟»، تسأل إيسمي السّيّد هيلي بتوتّر.

يتحدّث السّيّد هيلي إليها باحترام يليق بسيّدة ترتدي معطف فرو: «سأفعل كلّ شيء أستطيعه»، ثمّ يدير ظهره وينادي على المرأة الّتي تتحكّم بالدّفّة: «سننعطف نحو الميسرة».

خلفه، تبدأ أفكار آنا المشوّشة تتّضح.. إنّهم مغادرون.. لا يمكن! إميل هناك، في الماء، وإن لم ينتشلوه سيموت. تعتدل في جلستها مخضوضة، وتدفع ذراع تشارلوت عنها.

«إميل!»، تصيح آنا: «علينا إنقاذ صديقي!»

ترمقها تشارلوت بنظرة متعاطفة وحائرة في آن معًا. هي لا تفهم السّويديّة، بالطّبع، وآنا تحاول تذكّر الحوارات الّتي في كتاب عباراتها الإنجليزيّة. لقد درست تلك الصّفحات لساعات، لكنّ شيئًا من المحادثات الواردة فيها لم يهيّئها لهذا، كلّ ما تستطيع تذكّره هو كلمات طفوليّة غير مجدية: «قطار».. «خبز».. «من فضلك».. «اسمي آنا هالفرسون»، تلفظ الكلمات بلا تفكير، هذه هي الجملة الإنجليزيّة الوحيدة الّتي تخطر لها.

تشارلوت تبتسم، مثل أمّ صبورة تشجّع طفلتها على أولى خطواتها: «اسمي تشارلوت إيفرز»، تقول ببطء، مشيرةً نحو صدرها.

تكافح آنا لجعل تشارلوت تفهم: «اسم إميل أندرسون»، تحاول الكلام وهي تشير إلى السّواد في الخارج: «إميل!»

لا تجد تشارلوت إلّا أن تهزّ رأسها، باعتذار عاجز. لقد ظنّت في البداية أنّ آنا تتحدّث شيئًا من الإنجليزيّة، لكنّ الأمر لا يبدو كذلك. يا للمسكينة- لا بدّ أنّها تصيح متحدّثة عن شخص تركته خلفها على السّفينة؛ والدها، أو أخيها. تفكّر تشارلوت في ريج وينقبض صدرها من ألم حادّ مفاجئ، أين هو؟

تنظر آنا باهتياج إلى الماء. لا يمكن أن يكون إميل بعيدًا، هي تتذكّر آخر ركلة قامت بها لتبلغ القارب، وكيف ارتطمت قدمها اليسرى بشيء صلب. هل كان سترة نجاة إميل؟ وجهه؟ لا تظنّ أنّها قويّة كفاية لتؤذيه، لكن لا شكّ أنّ البرد أضعفه.

تفكّر في إميل، وهو يعاني نصفَ متجمّد، فيخفق قلبها مذعورًا. عليها إيجاده، إن مات وهو قريب هكذا من أن يُنقَذ، فلن تسامح نفسها أبدًا. لن تستحقّ الحياة.

تحاول آنا إخبار تشارلوت كلّ هذا، بنوبةٍ من كلمات تعرف أنّها لن تفهمها، وتأمل أن يكون اليأس في صوتها بمثابة شرحٍ كاف. ترمي بيديها باتجاه الماء، وتشير إشارات عشوائيّة، إلى أن تنبثق كلمةٌ إنجليزيّة في ذهنها، كلمة كانت سونيا قد أخبرتها أنّها ستفيدهما في سفرهما.

«النّجدة!»، تصيح آنا مشيرةً إلى خارج القارب: «النّجدة!»

تمسك تشارلوت بيدَي آنا الرّاجفتين، محاولةً تهدئتها.

«أجل»، تقول تشارلوت مع إيماءات مبالغ فيها: «نحن ذاهبون بحثًا عن النّجدة»، تلفظ الكلمة الأخيرة ببطء، مشدّدةً عليها من أجل آنا.

ينال القنوط من آنا، فتتمزّق دموعها. لعلّ الفتاة تحتاج أن تبكي ببساطة، تفكّر تشارلوت. لا غرابة، بعد كلّ ما مرّت به.

«اجعليها تكفّ عن ذلك»، تدمدم الأمّ من المقعد الخلفيّ: «ستثير اضطراب الطّفلين». يبدو الفضول على الصّبيّ والفتاة الجالسين إلى جانبيها أكثر من الاضطراب. تردّ الأمّ وجهيهما عن التّايتانيك، لكنّ الصّبيّ يستمرّ باستراق النّظرات.

«يا للمسكينة»، تقول المرأة المسنّة، ويداها- كتلتان متورّمتان من المفاصل الملتهبة والعروق المنتفخة- مستندتان فوق عكّازها: «لقد فقدت شخصًا ما، كما أتخيّل».

يجيش الغضب تحت احتشام الأمّ الإنجليزيّ البارد: «جميعنا فقدنا أشخاصًا». تشعر تشارلوت برغبة ملحّة في صفع المرأة. كيف تجرؤ أن تتحدّث كما لو أنّ كلّ شخص تُرك على التّايتانيك قد مات فعلًا! إنّ ريج أذكى شخص تعرفه تشارلوت، وهو ذكيّ بما يكفي ليجد طريقه إلى قارب نجاة آخر أو يتشبّث بقطعة حطام ريثما تصل مراكب الإنقاذ. غير أنّ تشارلوت لا ترى أضواء في الأفق، ولا حتّى وهج قنديل قارب نجاة آخر. أين ذهبت كلّها؟

الرّاكبات جالسات في وضعيّة الاستعداد، مثل جنود دمى، بينما ينعطف قارب النّجاة ببطء متيبّس. ينحني تشارلي والسّيّد هيلي مع مجذافيهما ثمّ يرتدّان مرارًا بحركات قويّة واسعة، لكنّ جهودهما بالكاد تكفي لزحزحة القارب. يشعل السّيّد ويلز غليونًا، أمام احتجاجات صاخبة من النّسوة في الخلف: «لا أقبل أن أعامَل بهذه الطّريقة!»، تعترض إحداهنّ، إلّا أنّ السّيّد ويلز يتظاهر أنّه لم يسمع، فيتابع التّدخين، متحدّيًا بكلّ نفَس يفلته.

معظم الأشخاص أداروا ظهورهم للتّايتانيك، يحجبون أنفسهم عن منظر دمارها، لكنّ إيسمي لا تستطيع الإشاحة بنظرها. تسمع قعقعة مكتومة مع التواء هيكل السّفينة وتحطّمه، المحرّكات والآليّات والعوارض الخشبيّة تنهار. ثمّة أثر منوّم لتداعي السّفينة الكسول، وإيسمي تتخيّل نفسها تصف المشهد

لأصدقائها في وقت ما من المستقبل. تخطر عبارة «عظيم بشكل مأساويّ» ببالها، ثمّ يأخذها الرّضى والاعتداد بالنّفس من شهادة هذا الحدث التّاريخيّ.

تشعر إيسمي بتبدّل المزاج العامّ في القارب. الفتاة المهاجرة هي الوحيدة الّتي تبكي، لكنّ بقيّة النّسوة يجاهدن للحفاظ على اتّزانهنّ. المرأة المسنّة شاحبة- كأنّها قد يُغشى عليها في أيّ لحظة- والأمّ تجيل نظرها بهيجان في الأنحاء، والنّساء في الخلف يتذمّرن بحدّة من دخان الوقّاد، كما لو أنّ لذلك أهمية في وقت كهذا! سيمسك كلّ منهم بخناق الآخر إن لم يقم أحد بفرض النّظام. تلتفت إيسمي إلى فرد الطّاقم الأصغر سنًّا، الّذي يبدو المسؤول. لديه وجه صريح صادق، وتمالك نفس يعجبها.

«سيّد هيلي، أليس كذلك؟»، تسأله إيسمي: «أنت المسؤول عن القارب؟»

- «أجل، سيّدتي».

- «نحتاج وسيلة إلهاء، رأيتُ أن أعرّفهنّ على بعضهنّ».

لا يرى السّيّد هيلي المغزى من الأدبيّات الاجتماعيّة في وقت كهذا، بينما هو يبذل كلّ قواه للابتعاد عن السّفينة، لكن إن وجدت المرأةُ الأمريكيّة الثّريّة ما يشغل الرّاكبات، فسيمنعهنّ ذلك عن مضايقته، على الأقلّ. يخمّن أنّ لديهم عشر دقائق على الأكثر قبل أن تختفي التّايتانيك، يدفع مجذافه إلى الأعلى والأسفل، إلى الخلف والأمام، متسائلًا لماذا لا يرى الضّوء الّذي أُمِر بالتّوجّه نحوه. لقد أخبره أحد الضّبّاط على المتن أنّ سفينة الإنقاذ لا تبعد إلّا حوالي الميل، لكنّ السّيّد هيلي لا يستطيع إيجادها. يجب ألّا يدع أحدًا غيره يعرف؛ فلن يؤدّي ذلك إلّا إلى إفشاء الذّعر. رجاؤه الوحيد هو أن يبقى قريبًا من بقيّة قوارب النّجاة، الّتي هي منذ الآن بعيدة على نحو مقلق.

تستدير إيسمي بجسدها كي تتواصل مع الأخريات بصريًّا: «علينا أن نعمل سويّة»، تقول بصوت مرتفع، فتجذب كلّ العيون على الفور: «إنّها الطّريقة

الوحيدة كي ننجو، لذا فلا ضير من أن نتعارف كذلك. أنا السّيّدة هيرام هاربر، من فيلادلفيا».

للحظة، تعي إيسمي عبثيّة مبادرتها. ها هي ذي، في عرض المحيط، تتصرّف كمن تستضيف حفل عشاء. بيد أنّ رفيقاتها من الرّاكبات لا يُبدين نفورًا من جرأتها، يراقبنها بتصميم، بشراهة، ممتنّات لإزاحة انتباههنّ عن سكرات موت التّايتانيك.

تُميل إيسمي رأسها قليلًا إلى اليسار، نحو تشارلي: «تشارلز فان هاوزن»، تقول: «من عائلة فان هاوزن من بوسطن».

تشعر بالرّضى من ردّة الفعل الّتي يثيرها اسمه: عيون مشرعة من التّقدير، وبضع تحديقات مباشرة. لقد رسّخت أحقّيّتها بتشارلي من خلال التّعريف عنه، لكنّها لا تتخيّل أنّ الأمر أثار أيّ ريبة: لا بدّ أن يكون واضحًا للجميع أنّها امرأة تسافر دون حمايةِ زوجها، وأنّه صديق للعائلة يقوم مقام المرافق لها. كان ثمّة دستة من حالات كهذه على متن التّايتانيك؛ والأمر محترم تمامًا. توجّه السّيّدة المسنّة نظرة حائرة إلى إيسمي، لكنّ الأخيرة بالكاد تلاحظ. إنّها أكثر انشغالًا بالنّسوة في الخلف، اللّاتي يبدون مسرورات بوجود فرد من عائلة فان هاوزن برفقتهنّ.

«خادمتي»، تقول إيسمي، مع إيماءة نحو سابين.

حركة جسدها الطّفيفة تترك التّايتانيك تظهر في المشهد. لا يزال مؤخّر السّفينة عائمًا جزئيًّا، وإيسمي تشعر بشيء من الذّعر السّاطع الوثّاب. لماذا لم يبتعدوا أكثر؟ كلّ شيء يجري بسرعة شديدة، لكن يجب عليها ألّا تتحدّث بالأمر، ألّا تقرّ بما يحدث على بعد ربع ميل. تستدير وتبتسم ابتسامة مشجّعة للمرأة مع الطّفلين.

«السّيّدة ديفيد تريلوني»، تقول المرأة بجفاء.

إنّها ترتدي معطفًا بنّيًّا وتعتمر قبّعة بسيطة؛ وطفلاها محزّمان بالملابس الثّقيلة كالمستكشفين في القطب الشّماليّ. بالحكم على نبرة المرأة، فهم بريطانيّون، من الطّبقة الوسطى، وليسوا معتادين على الحوار مع الغرباء.

«ابنتي تدعى إيفا، وهذا تومي. هو في السّادسة، وإيفا في التّاسعة»، بدأ صوت السّيّدة تريلوني يتلعثم: «سيتزوّج شقيق زوجي يوم الأحد، في نيو جيرسي».

ذراعاها يشبهان جناحين يطوّقان فرخيها، تنقّلهما بين رأسي الطّفلين وأكتافهما.

جميع من في القارب يستشعرون بأسئلتها الّتي لم تُنطق: هل سيكون هناك زفاف؟ أم جنازة عوضًا عن ذلك؟

تتكلّم المرأة المسنّة الجالسة على المقعد قرب السّيّدة تريلوني بعدها: «السّيّدة أبراهام دانينغ، إنّني عائدة إلى نيويورك بعد نقاهة في جنوب فرنسا من أجل صحّتي»، صوتها راعش من الشّيخوخة، لكنّها تتحدّث بثقة: «هذه هي رحلتي العاشرة عبر الأطلسيّ. لقد مرّت بقيّة الرّحلات كلّها دون مشاكل، ولا حتّى عاصفة مطريّة. اعتدت أن أمزح بشأن حظّي، أليس كذلك يا براكستون؟»، تدير كتفيها بنصف استدارة متيبّسة وتنظر إلى المرأة الممسكة بذراع الدّفّة: «ممرضّتي».

«صحيح يا سيّدتي»، صوت الممرضّة براكستون عميق، وطبيعتها تفتقد لحسّ الدّعابة، تمامًا من النّوع الّذي يمكن لإيسمي أن تتخيّله يتسلّط على مرضاه.

«لا شكّ أنّه باتت لديّ قصّة أرويها الآن»، تقول السّيّدة دانينغ: «أليست هذه حالنا جميعًا؟»

تهزّ رأسها بسخرية، ويبدو المرح في صوتها غير لائق بالنّسبة إلى تشارلوت، الّتي تقول: «تشارلوت إيفرز».

تفكّر تشارلوت، لوهلة، أنّ هذا ليس اسمها على الإطلاق، لا معنى له دون ريج.

تميل رأسها باتجاه آنا: «أخبرتني أنّ اسمها آنا هالفرسون، لكنّني لم أستطع فهم أيّ شيء عدا ذلك».

«هالفرسون؟»، تتساءل السّيّدة دانينغ: «نرويجيّة، أليس كذلك؟ سويديّة؟»

تومئ آنا برأسها، إنّها تعرف معنى كلمة «سويديّة» على الأقلّ. قلقها على إميل استقرّ داخل عظامها، ألمًا ثقيلًا. ماذا يمكنها أن تفعل، وهي لا تستطيع الإعراب لمن حولها؟ لقد رحل الآن، نال منه الموج أو البرد، وهي تتمنّى لو يسعها أن تقرفص في أسفل القارب، فقط لو تستطيع أن تستتر عن كلّ هؤلاء الأشخاص وأصواتهم فتأسى في سلام.

«يا لطيبتك إذ تعتنين بها يا آنسة إيفرز»، تقول إحدى النّساء في الخلف.

«السّيّدة إيفرز»، تصحّح لها تشارلوت.

«أستميحك معذرة»، تأخذ المرأة نفسًا عميقًا، إيماءة متفاخرة من النّوع الّذي يصدر عن المرء قبل أن يلقي خطابًا في غداء خيريّ أو يوبّخ خادمًا: «أنا السّيّدة ويليام ماكبرايد، وهاتان شقيقتاي، السّيّدة ويستلي والآنسة آرمسترونغ».

تقدّر تشارلوت أنّهنّ في الأربعينات أو الخمسينات، وجوههنّ تنويعات على سيماء واحدة؛ وجنات مستديرة، جباه مرتفعة، شفاه مقوّسة بطبيعتها إلى الأسفل. كلّهنّ ممتلئات نتيجة سنوات من العيش الرّغيد وعمل الطّبّاخين المهرة.

«آل آرمسترونغ من بالتيمور؟»، تسأل السّيّدةُ دانينغ.

«أجل»، تومئ السّيّدة ماكبرايد بفخرٍ أنيس: «لا أظنّ أنّنا تشرّفنا بمعرفتك على متن السّفينة؟»

«هذا ذنبي»، تقول السّيّدة دانينغ: «كنت أتناول الوجبات في حجرتي الخاصّة. لقد نلت شرف لقاء بورتر آرمسترونغ قبل سنوات عديدة، أهو من أقاربكم؟»

«والدنا»، تجيب السّيّدة ويستلي.

«يا للمصادفة»، تقول السّيّدة دانينغ: «لقد التقينا في ويستبورت، صيفَ دخولي إلى المجتمع. كان أحد أكثر رجال جيلي أناقة، ولم يكن ثمّة حصر لمعجباته».

تضحك الأخوات ضحكات مكبوتة مثل فتيات في حفل راقص لدخول المجتمع، ولا تفهم آنا لماذا تبتسم السّيّدات في القسم الخلفيّ من القارب. يبدو الأمر كما لو أنّهنّ لا يدركن أنّ العالم آخذ بالانهيار من حولهنّ. أهذا ما يعنيه كون المرء ثريًّا؟ ألّا يخاف أبدًا؟

سبق لإيسمي أن سمعت بآل آرمسترونغ؛ ليسوا من علية المجتمع تمامًا، لكنّهم يملكون أكوامًا من المال. السّيّدة ماكبرايد، الّتي تولّت دور النّاطقة الرّسميّة، تشرح أنّ الأخوات يسافرن كلّ ربيع. قصدن مصر في العام الماضي؛ وهذا العام أخذن دروس رسم في فلورنسا.

«نحن نختم كلّ إجازة ببضعة أيام في لندن، في فندق سافوي»، تشرح السّيّدة ماكبرايد: «كترحيب بالعودة إلى الحضارة. لا يمكن للمرء احتمال أكثر من مقدار ضئيل من الاغتراب، ألا توافقنني؟»

ينعطف القارب انعطافًا مفاجئًا نحو اليمين. لقد أمالت الممرّضة براكستون ذراع الدّفّة بقوّة أكبر من اللّازم، في نفس اللّحظة الّتي توقّف فيها السّيّد هيلي لمدّ يديه المتشنّجتين. المنظر تبدّل الآن، وسابين تشهق. تفلت السّيّدة تريلوني صرخة مكروبة قصيرة، ويهوي مجذاف تشارلي في حضنه. يراقب ركّاب قارب النّجاة ٢١ في رعب صامت مشهدَ طرف مؤخّر التّايتانيك وهو يتحرّك ويستقرّ ثم يغرق، ليختفي داخل المياه الحبريّة.

«كم السّاعة معك الآن؟»، ينادي السّيّد ويلز على السّيّد هيلي.

يرفع السّيّد هيلي ساعة جيبه قرب القنديل المرتعش: «الثّانية وعشرون دقيقة».

يفلت السّيّد ويلز زفيرًا مسموعًا: «الآن تنتهي أجورنا إذًا»، ثمّ يقول ردًّا على تحديقة من السّيّدة ماكبرايد: «سيوقفون احتساب أتعابنا بدءًا من لحظة غرق السّفينة».

ما من دوّامة، ولا ضغط سلبيّ. لقد اختفت السّفينة ببساطة. ومن الظّلام، تتجمّع دمدمةٌ وتتنامى، ثمّ تتمدّد إلى هدير وحشيّ من البرحاء والأسى. مئات الأصوات اليائسة تنوح وتصرخ، متوسّلةً الخلاص، وركّاب قارب النّجاة ٢١ ينصتون في صدمة صامتة. سيصف النّاجون من التّايتانيك الصّوتَ بأساليب مختلفة في الأيام والأسابيع القادمة: فواحد سيقارنه بالجراد في ليلة صيفيّة، وآخر بالهتافات في ملعب بيسبول حين يسجّل الفريق المحلّيّ هدفًا. لا أحد من بينهم سينساه أبدًا.

من المستحيل رؤية النّاس الّذين في الماء. يعيد السّيّد هيلي إيقاد القنديل، لكنّ الشّعلة تظلّ واهية. كلّ ما تستطيع تشارلوت أن تتبيّنه هو بضع بقع بيضاء- ستر نجاة، كما تفترض- وسط فوضى من الحطام. العويل الكابوسيّ يطعنها، كلّ صرخةٍ ضربةٌ موجّهة إلى صدرها وقلبها.

«ما الّذي يحدث؟»، تتساءل إيسمي، رغم معرفتها، غير أنّها ببساطة لا تستطيع تصديق أنّ هذا ممكن. لم يكن ثمّة حشود على ظهر السّفينة حين ركبت قارب النّجاة؛ فافترضت أنّ معظم الرّكّاب الآخرين كانوا قد غادروا بالفعل. من أين جاء كلّ هؤلاء النّاس؟

«لقد كانت الأوامر واضحة تمامًا»، تقول السّيّدة ماكبرايد: «طُلب منّا جميعًا الحضور إلى ظهر المركب»، في تلميح إلى أنّها فعلت واجبها، وليس للغرقى أن يلوموا إلّا أنفسهم على توانيهم.

يرفع السّيّد هيلي القنديل. بالنّسبة إلى تشارلوت، على بعد بضع أقدام، يبدو وجهه سقيمًا: «لم يكن هناك ما يكفي من قوارب النّجاة»، يقول.

«قالوا إنّ سفينة أخرى كانت قادمة»، تقول السّيّدة تريلوني: «من أجل الرّجال».

يقرّر السّيّد هيلي ألّا يجيب؛ بوسعها أن ترى بنفسها أنّ ذلك لم يحدث.

تنظر تشارلوت إلى وجه السّيّدة تريلوني الشّاحب والمحتفظ بهدوئه في آن معًا. إنّها تتقنّع بالشّجاعة من أجل الطّفلين، كما تعتقد تشارلوت، لكنّها تفكّر في زوجها دون شكّ. قد يكون هنا في الخارج الآن، ينازع من أجل حياته. وزوج السّيّدة هاربر كذلك، وجورجي وريج. الرّبّان والضّبّاط والمضيفون وعمّال غرفة المحرّك- كلّ أولئك الرّجال الّذين قاموا بواجبهم وغرقوا مع السّفينة. يبدو هذا موتًا نبيلًا، بيد أنّه ليس كذلك: إنّه صاخب وأليم ومروّع. لا أحد يستسلم للمياه دون قتال. عبر الضّجيج، تسمع تشارلوت صرخة عالية النّبرة تقتنع أنّها صادرة عن أنثى.

ثمّة نساء كذلك. يا إلهي الرّحيم، تقول في قرارتها، ربّما يكون هناك أطفال حتّى.

تلتفت تشارلوت إلى السّيّد هيلي، الّذي يحدّق في الخواء المائج. ضوء القمر الباهت لا ينير سوى أشكال وإيماءات هؤلاء المتشبّثين بالحياة. قوّته الوقورة الهادئة تمنح تشارلوت الأمل، إنّه البحّار البريطانيّ البارع، السّليل الرّوحيّ للسّير فرنسيس دريك واللّورد نيلسون، رجل يكون على سجيّته في الماء كما في اليابسة. سيعرف ما يجب فعله.

«علينا مساعدتهم»، يقول.

يرفع السّيّد ويلز عقيرته بعناد: «لن أعود إلى هناك».

«القرار للسّيّد هيلي، أليس كذلك؟»، تحتجّ تشارلوت.

يضع السّيّد هيلي القنديل: «سنفعل ما نستطيع».

يرفع مجذافه، لكنّ الآخرين جميعهم ينظرون حولهم، كأنّهم ينتظرون أوامر مضادّة.

لا تستطيع تشارلوت أن تفهم لماذا يتصرّف الجميع بهذا العجز، كلّ دقيقة يبدّدونها في الجدل تحتمل خسارة إنسان لحياته.

«سيّدة تريلوني»، تستنهضها تشارلوت: «قد يكون زوجك هناك...»

تهسّها السّيّدة تريلوني كي تخفض صوتها: «ليس أمام الطّفلين!»، تقول هامسة بغضب: «لن أسمح أن تتمّ مضايقتهما!».

سيتضايقان أكثر بكثير إن مات والدهما، تريد تشارلوت أن تردّ الصّاع، لكنّها تضبط نفسها؛ لن يتوصّلوا إلى نتيجة إن هم انحدروا إلى المناقرة. عينا تومي مغمضتان بشدّة، لكنّ تشارلوت تفترّ لإيفا عن ابتسامة مشجّعة.

«ستنتهي الأمور على ما يرام»، تقول تشارلوت، محاولة أن تكون لطيفة، لكنّ إيفا كبيرة كفاية لتعرف أنّها تكذب. تضغط وجهها الّذي تعلوه سيماء الحِداد على كتف والدتها.

«لا تتحدّثي إلى طفليّ مجدّدًا»، تأمرها السّيّدة تريلوني، ثمّ تشيح بتحدٍّ، نابذةً تشارلوت.

تلتقط تشارلوت مجذافًا وتقتعد الجانب المقابل للسّيّد هيلي من المقعد: «سأجذّف»، تقترح عليه، ثمّ تخاطب كلّ من في المركب: «من أيضا؟»

تشارلي متأهّب، إلّا أنّ التّوجّس يتبدّى عليه أكثر من الحيويّة وهو يسبر المزاج السّائد. تستغلّ إيسمي سكونه كي تقترب منه قليلًا، لو يكون بوسعها أن تلمسه فقط. تبسط إحدى يديها على المقعد بينهما، آملةً أن ينتبه. ضغطة واحدة هي كلّ ما تحتاجه لطمأنة مخاوفها. لو يتوقّف هذا النّحيب المتواصل، لو أنّها لا تخاف من كلّ هذه الأيادي اليائسة، أن تتشبّث بالقارب، فتشدّ وتدفع، وتقلبه بمن فيه. الصّرخات تصل إلى آنا مثل السّكاكين، تقطّعها بالذّنب.

تسمع إميل وسونيا، يطلبان أن يعرفا لماذا تمّ إنقاذها دونًا عنهما. لو أنّ بابا لم يتجاهل اعتراضات ماما ويعلّمها السّباحة، لما وصلت إلى القارب قطّ. لا شيء سوى قدرتها على الرّكل ودفع جسدها إلى الأمام مكّنها من النّجاة بأعجوبة. آنا ليست متأكّدة من معنى ما تقوله تشارلوت، لكنّ الواضح- من الطّريقة الّتي تومي بها إلى الماء- أنّها تريد العودة. تشير آنا إلى مجذاف تشارلوت، وتقوم بحركة تقصد بها أنّها تريد التّجذيف هي الأخرى. سيتطلّب ذلك أن تنتقل إلى مكان مختلف من القارب- لا يمكنها التّجذيف وهي جالسة بين تشارلوت والسّيّد هيلي- لذا تحاول النّهوض، لكنّ قدميها الحافيتين أصيبتا بالخدر منذ وقت طويل، وها هي تترنّح مستندةً على تشارلوت ثمّ تهوي في مكانها.

في القسم الخلفيّ من القارب، انكمشت الأخوات آرمسترونغ في تكتّل أكثر انغلاقًا ممّا سبق.

«لا أظنّ أنّ هذا أكثر التّصرّفات حكمة»، تقول السّيّدة ماكبرايد.

«لدينا مكان شاغر»، تجيبها تشارلوت مشيرةً نحو المنصّتين الخشبيّتين الممتدّتين على طول كلا جانبي القارب؛ إنّهما مصمّمتان كأماكن جلوس، ولا أحد يستخدم أيّ منهما: «يمكننا بسهولة استيعاب دستة من الأشخاص، وربّما أكثر».

«سيكون في هذا مخاطرة بحياتنا جميعًا»، يعترض السّيّد ويلز: «ستغمرنا المياه».

«يا لطف اللّه»، تقول السّيّدة دانينغ، ويضطرب تنفّسها.

تنهض الممرّضة براكستون من موقعها عند الذّراع وتنحني نحو ربّة عملها: «يجب ألّا تضايقي نفسك يا سيّدتي»، ثمّ تقول للسّيّد وليز على يمينها: «أتظنّ أنّ العودة خطيرة؟»

«إنّها بمثابة الجنون»، يجيبها.

أنّى له أن يعرف؟ تقول تشارلوت في قرارتها. إنّه وقّاد، عمل لا يختلف عن أعمال المصنع إلّا قليلًا، كما قد اعترف بالفعل أنّه لا يعرف شيئًا عن القوارب أو الإبحار. لكنّها تنتبه إلى طريقة إصغاء السّيّدة ماكبرايد وشقيقتيها إليه، كما لو كان وسيطَ وحي إلهيّ. لقد أزاحت السّيّدة تريلوني انتباهها عن طفليها وأخذت تصغي هي الأخرى. يومئ السّيّد ويلز، شاعرًا بالرّضى عن الانتباه، مثل ابن بحر أشيب حكيم، والجميع يمعنون في تجاهل تحديقة السّيّد هيلي المترقّبة.

«سيتسبّب ذلك في إثارة نوبة من الجنونٍ»، يقول السّيّد ويلز: «تخيّلوا كلّ أولئك المساكين يقاتلون لركوب القارب، لن أفاجأ إن انقلب».

تصدر عن الأخوات آرمسترونغ تمتمة متخوّفة موحّدة، والسّيّدة دانينغ تعبس. تأخذ الممرّضة براكستون علبة صغيرة من جيبها وتناولها حبّة.

«يجب ألّا تتوتّر»، تقول الممرّضة كما لو كانت السّيّدة دانينغ طفلة مرعوبة من قصّة أشباح: «إنّ قلبها ضعيف».

«رجاءً...»، يلحّ السّيّد هيلي محاولاً الحفاظ على سلطته، وتشارلوت تعرف أنّها الوحيدة الّتي بمقدورها استمالة الأخريات إلى صفّه.

«النّاس يموتون!»، تصيح.

لقد تجاوزَتِ الحدّ، تقول إيسمي في قرارتها، وتخمّن من تعابير رفيقاتها أنّ معظمهنّ يوافقنها. الأصوات القادمة من الماء مريعة كفاية دون تشدّق تشارلوت، هي ليست ربّان مركبهم الصّغير المرتعد؛ البحّاران هم من يعرفان الخيار الأكثر أمانًا، وتشارلي بالطّبع، إيسمي تعلم أنّه سيتّخذ القرار الصّائب.

«ليس علينا أن نرجع كلّ المسافة»، يقول السّيّد هيلي: «بل القليل بعد، بما يكفي لنرى إن كان بوسع أحد السّبّاحة نحونا».

تسوية متقلقلة، لكنّها أفضل ما يمكنه فعله في هذه الظّروف. يقحم السّيّد هيلي وتشارلي وتشارلوت مجاذيفهم في الماء الحبريّ؛ وينزلق القارب إلى الأمام. ربّما يكون السّيّد ويلز محقًّا؛ العودة إلى مكان الغرق قد تعرّضهم للخطر جميعًا، ويجب أن يكون ولاء السّيّد هيلي الأوّل للحيوات الّتي بين يديه أصلًا. مع ذلك، من المحتمل أن يستطيعوا إنقاذ بضعة أشخاص. ثمّة كتلة كبيرة تطفو قرب ميمنة القارب، بقايا يتعذّر تمييزها ممّا كان ذات مرّة أفخم سفينة رآها في حياته. يعطي السّيّد هيلي إشارة التّوقّف، وينتظر بثبات وتوتّر فيما تنهال عليه المناشدات من الماء مثل لعنات، يستحيل تعقّبها ويستحيل تجاهلها. إنّها أشباح ستطارده لبقيّة حياته.

تضع آنا المجذاف في حجرها شاعرةً بالعجز. لطالما كانت تفخر بقدرتها على تحمّل العمل الشّاقّ دون تذمّر؛ وبما أنّها لم تحظَ بالجمال ولا بالسّحر، كانت تلك مزيّتها الوحيدة. والآن، أصابعها المتيبّسة لا تستطيع الإمساك

بالمقبض حتّى. هذا لا يهمّ على أيّ حال، لأن الآخرين قد وضعوا مجاذيفهم أيضا، والقارب يتمايل على غير هدى. تحاول آنا تحريك أصابع قدميها، غير أنّ أطرافها لا تطاوعها. ترفع قدميها فتجدهما غارقتين بالماء، لا عجب أنهما لم تدفآ: ثمّة طبقة من الماء في قعر القارب.

يتبدّى الانزعاج على الأخوات آرمسترونغ من الصّيحات المستنجدة، كما لو كانت إهانة شخصيّة. الممرّضة براكستون تحوم قرب السّيّدة دانينغ، إذ يحتلّ اضطراب مريضتها الأولويّة على معاناة من لا تعرفهم. وقد انحسر فم السّيّدة تريلوني إلى خطّ مستقيم رقيق، وهي تضمّ طفليها بشدّة. عينا إيفا تهيمان، فيما هي تتابع خلسةً كلّ ملاحظة وخلاف، لكنّ تومي يطرق نظره إلى حجره، ويضغط بيديه على أذنيه.

تشارلي متحفّز، رجل مبادر يعاني الإحباط من كونه غير قادر على الإتيان بأيّ فعل. تحاول إيسمي لفت انتباهه، لكنّ ذهنه منشغل بالضّجّة؛ يحدّق إلى الماء مثل السّيّد هيلي. إنّه وسيم حتّى عندما يكون حزينًا، تفكّر إيسمي في ذلك وتتمنّى لو تستطيع تقبيله، لو تُبطِل كلّ هذا البؤس وتختبئ داخل الشّيء الوحيد الّذي يشكّل يقينًا لديها: حبّ تشارلي.

تشارلوت والسّيّد هيلي يتبادلان النّظرات. هي ليست واثقة من السّبب- ربّما كونهما بريطانيّين، أو لكنة الطّبقة العاملة الّتي يثابران كلاهما على إخفائها- غير أنّها تشعر بقرابة تجمعهما. ثباته يطمئنها، ورغم كونها بالكاد تعرف الرّجل، فهي تثق أنّه سيفعل الصّواب.

«أترى أحدًا؟»، تسأله تشارلوت.

«ليس بعد. من الصّعب الجزم بذلك، في الظّلام»، ثمّ يضيف بتردّد، كأنّه يعرف الجواب أصلًا لكنّه يجد نفسه مرغمًا أن يسأل على أيّ حال: «هل أنت مسافرة برفقة زوجك يا سيّدة إيفرز؟»

«أجل»، كذبة، «لديه شؤون عمل في أمريكا»، كذبة أخرى. لم يشكّل قول الحقيقة همًّا كبيرًا قطّ لتشارلوت، لكنّ تضليل هذا الرّجل المحترم يبدو لها خاطئًا.

«أنا آسف»، يقول السّيّد هيلي بهدوء، مقدّمًا تعازيه الصّامتة.

إنّه لا يعرف ريج، تقول تشارلوت في قرارتها ساخطة، ريج سيجد طريقة ما.

صيحات الاستغاثة مستمرّة، لكنّها تحوّلت إلى أصوات مميّزة منفصلة عن بعضها، معازف منفردة بدلًا من السّيمفونيّة.

«لقد خفّت»، يقول السّيّد هيلي.

وتفهم تشارلوت على الفور قصده من ذلك: لقد مات من النّاس ما يكفي لئلّا تغمرنا المياه. فتسأله: «ماذا يجدر بنا أن نفعل؟»

«واجبنا»، يجيب السّيّد هيلي، ثمّ يعلن مخاطبًا كلّ من في القارب: «أستطيع سماع أصوات، قريبة جدًّا. لن يتطلّب إيجادهم الكثير من الجهد».

تمسك تشارلوت مجذافها وتتوثّق من ثباته في المحبس، ويقوم السّيّد هيلي بالتّحضيرات نفسها، ثمّ ينظر إلى تشارلي، فيومئ الأخير له.

«هل أنت مستعدّ يا سيّد ويلز؟»، يسأل السّيّدُ هيلي.

يلقي الوقّاد مجذافه بتحدٍّ: «لن أذهب إلى هناك».

«أتظنّون...؟»، تترك السّيّدة ماكبرايد القسمَ الّذي لم يُنطق من السّؤال عالقًا بتؤدة.

أتظنّون أنّ هنالك أيّ جدوى؟

«سيكون ذلك مخالفة لأوامر الرّبّان»، يقول السّيّد ويلز.

استفزاز مدروس، يُقصد منه زرع الشّكّ بكفاءة الرّجل المسؤول عنهم. يحاول السّيّد هيلي الحفاظ على سويّة صوته: «ماذا تقصد؟»

«لقد أُمِرنا بالتّجذيف نحو السّفينة الأخرى».

لا مغزى من إخفاء الأمر على الرّكّاب بعد الآن: «لم أرَ أيّ أضواء»، يقول السّيّد هيلي: «لا أظنّها جاءت قطّ».

- «ألا يفترض بنا البقاء قرب بقيّة قوارب النّجاة إذًا؟»

- «بلى، وأين هي؟ هلّا رسمتَ مسارًا لنا كي نعثر عليها يا سيّد ويلز؟»

تحاول إيسمي ألّا تقلق. كانت واثقة حين انطلق قارب النّجاة أنّ إنقاذهم سيتمّ في أيّ لحظة، إلّا أنّ السّيّد هيلي محقّ. لم يظهر أثر لسفينة أخرى، كما أنّ بقيّة قوارب النّجاة اختفت. إنّهم يعومون وحدهم، على غير هدى، وسط البحر. هذا الامتداد الهائل للمياه يرعبها، وفجأة يبدو القارب واهيًا وعرضةً للأخطار المروّعة؛ بإمكان موجة كبيرة واحدة أن تقلبهم عن متنه جميعًا. تشدّ إيسمي معطفها أكثر حول صدرها، ممسّدةً الفراء، وهي تقول لنفسها إنّ عليها ألّا تفقد السّيطرة أمام تشارلي.

تنطلق صرخةٌ صافية من قلب الظّلام. تشارلوت تحسّ بقوّتها، مثل لكمة. إنّه صوت رجل؛ عميق. أيمكن أن يكون ريج؟ من السّخف التّفكير أنّه هو دونًا عن كلّ النّاس سيصل إلى هذا القارب بالتّحديد، لكنّ الشّكّ يستحكم ويضرب جذوره.

يمكن أن يكون راقبَ قارب نجاتها من المتن وسبح نحوه حين غرقت السّفينة، ألا يبدو هذا من أفعاله المعهودة؟

«فلنستدر!»، تصيح تشارلوت. تتلوّى جيئة وذهابًا، محاولةً جذب انتباه الجميع، وجسدها يستنفر من الأمل: «ثمّة شخص خلفنا!»

تهرع آنا لتأخذ المجذاف الّذي ألقاه السّيّد ويلز جانبًا. لا تعرف كيف لهذا أن يكون ممكنًا، لكنّ إميل هناك في الخارج. لقد سمعتْه، بوضوح، وهذا يعني أنّها حظيت بفرصة أخرى لإنقاذه.

«في كومّر[1]!»، تنادي.

تتبادل الأخوات آرمسترونغ نظرات حائرة، وحتّى تشارلوت تُفاجَأ من ثوران الفتاة المباغت.

«ما الّذي تقوله يا ترى؟»، تسأل السّيّدةُ دانينغ الممرّضةَ براكستون، وهما تراقبان آنا تصارع كي تثبّت المجذاف في مكانه. كان المنظر ليبدو هزليًّا في ظروف أخرى: مخلوقة صغيرة هزيلة تعارك قطعة خشب تقارب وزنها ولا تقلّ عنها نحولًا بكثير. ومع ذلك، تشعر إيسمي بإعجاب حسود تجاهها. قد لا تزيد جهودُ آنا من سرعة حركة القارب قيد أنملة، لكنّها مستعدّة على الأقلّ لبذل جهد، على عكس السّيّد ويلز المتقاعس ذلك. ما هي إلّا مسألة وقت حتّى يشعل غليونه ويستثير جولة تذمّر أخرى من السّيّدة ماكبرايد.

آنا تستطيع التّجذيف بإتقان يضاهي أيًّا منهم؛ لقد خرجت على متن قارب بابا مئات المرّات. لكنّها غير قادرة على إحكام قبضتها حول الخشب، ليس باستخدام يديها المتجمّدتين الشّبيهتين بالمخالب. بوسعها أن تبكي من الإحباط، بيد أنّها لن تفعل، لأن البكاء لن يزيدها إلّا ضعفًا. عليها أن تتحلّى بالقوّة، من أجل إميل.

---

(١) Vi Kommer: «نحن قادمون» بالسّويديّة. (المترجم)

في القسم الخلفيّ من القارب، السّيّد ويلز يعبس حَرِدًا، والأخوات آرمسترونغ يتمتمن في ما بينهنّ؛ لم يظهِرن كبير اهتمام بعمليّة الإنقاذ، لكنّهنّ لم يجاهرن بالاعتراض كذلك. إن استطاعت تشارلوت إقناع السّيّدة ماكبرايد بالمساعدة، ستحذو أختاها حذوها.

«نحتاج مشاركة أكبر عدد ممكن في التّجذيف»، تقول تشارلوت باذلةً جهدها لتهدئة صوتها، التّصاغر المؤدّب هو الطّريقة المناسبة لإقناع امرأة مثل السّيّدة ماكبرايد: «رجاءً، ليس لدينا متّسع من الوقت».

«لا أعرف ما النّفع الّذي يمكننا أن نقدّمه»، تقول السّيّدة ماكبرايد بتردّد: «أنا لم أجذّف منذ سنوات».

«وأنا أعاني من الرّوماتيزم في رسغي»، تضيف السّيّدة ويستلي رافعةً يدها المرتخية دليلًا: «لا أريد أن أزيد الوضع سوءًا».

وتكتفي الآنسة آرمسترونغ بتقديم نظرة مجفلة، تعتبرها تشارلوت إجابةً كافية؛ سيكون الأثر السّلبيّ لتلك المغفّلة أكثر من نفعها إن راحت تعبث بأحد المجاذيف.

«يمكنك تولّي ذراع الدّفّة»، تقول تشارلوت للسّيّدة ماكبرايد: «ومساعدتنا على الاستدارة».

تترقّب عينا السّيّدة ماكبرايد إقرارًا من أختيها، فتشعر تشارلوت برغبة في الصّراخ: انهضي، أيّتها الغبيّة! لكنّها لا تستطيع أن تفقد اتّزانها، ليس الآن. قد يكون ريج في الماء في هذه اللّحظة تمامًا، عليها أن تكتشف إذا ما كان الصّوت صادرًا عنه هو.

ببطء، وبوقار دراماتيكيّ لشخص يجد متعة بتلقّي الاهتمام، تتّجه السّيّدة ماكبرايد إلى القسم الخلفيّ من القارب وتمسك الذّراع، ثمّ تسأل: «بأيّ اتجاه؟»

«سندور بالقارب نحو جهة المرفأ[1]»، يجيبها السّيّد هيلي، ثمّ يوضّح حين تنظر إليه مشدوهة: «اليسار!»

لا يمكن أن يكون هيرام، تقول إيسمي في قرارتها. إنّه هَرِم وبطيء- وهي ليست واثقة إذا ما كان يجيد السّباحة حتّى. لكن تنتابها رؤية واضحة على نحو مخيف لهيرام وهو يكدح نحوها عبر الماء، ذراعاه تتحرّكان بمنهجيّة، ووجهه ثابت على ذلك التّعبير المألوف الّذي يوحي بانفصال مرح عن الواقع: ما كنتِ تنوين الهرب مع فان هاوزن حقًّا، أليس كذلك؟ يا لك من فتاة سخيفة، لقد جئتُ كي آخذك إلى المنزل. وإذ يستدير القارب ببطء، تشعر إيسمي برغبة مفاجئة في إلقاء نفسها على ظهر تشارلي ونزع يديه عن المجذاف، إنّها خائفة ممّا قد يجدونه.

تنبثق من الخواء صرخات أخرى بين حين وآخر، مثل ضفادع تنقّ في بركة ريفيّة، لكنّها متقطّعة ومتردّدة، تأتي من العدم وتتبدّد إلى عدم. صوت الشّخص الأقرب إلى القارب- كائنًا من يكون- أعلى وأكثر قوّة. وإذ يرى حركة القارب، يستحثّهم بهتاف يائس أغلب الظّنّ أنّه يقول: «النّجدة!»

آنا تسمعه بوضوح: ييلب[2]. تشمّر كمَّي المعطف عن يديها الطّائشتين وتحاول إحكام قبضتها على المجذاف، لكنّه ينزلق منها. لا يهمّ- القارب يتحرّك على الأقلّ. إميل قريب؛ إنّها تشعر بذلك. سينتشلونه من الماء، وسيكون مبللًا وباردًا للغاية، وستشمله بمعطف تشارلوت وتشدّه حوله، ستفرك يديه المتجمّدتين بيديها، وتعيد الحياة إليه.

---

(١) يُستخدم مصطلح «Port»- الذي يعني «مرفأ»- في الإنجليزيّة للدّلالة على ميسرة المركب، لأنّها تكون موجّهة نحو المرفأ عند الرّسوّ، ولجأتُ هنا إلى ترجمة المصطلح حرفيًّا خدمةً للسّياق. (المترجم)

(٢) Hjälp: «النّجدة» بالسّويديّة، وهي قريبة من اللّفظ الإنجليزيّ «هيلب Help». (المترجم)

طيلة هذا الوقت، كان إميل يقاوم. مع كلّ صيحة، كلّ نفَس، كان ينادي على آنا، ويقول لها إنّه لم يستسلم. إن كان الله قد صفح عن حياته بالفعل، فعلى آنا أن تثبت جدارتها بإخلاصه. حين يصبح هنا، بجانبها، ويهدأ ارتجافه ويستعيد قدرته على الكلام، ستقول له أجل. ستتزوّجه. ذلك سيكون قربانها.

إنّهم قريبون جدًّا. بإمكان تشارلوت أن ترى غباشة بيضاء: سترة النّجاة، تتمايل في الماء. لا تستطيع أن ترى وجه الرّجل، فقط قتامة قد تكون شعر ريج أو وهمًا بصريًّا من صنع ضوء القمر. قريبًا ستقطع الشّكّ باليقين، لكنّ القارب مستمرّ في استدارته، وفجأة تنحرف مقدّمته ويصيح السّيّد هيلي: «توقّفي!»

يرفع تشارلي طرف مجذافه من الماء بتنهيدة حانقة، يرمق السّيّد هيلي بنظرة

مؤاساة مشفقة: إنّنا الوحيدان اللّذان يعلمان ما يفعلانه هنا. تريد إيسمي إخبار تشارلي بظنونها حول الرّجل الّذي في الماء، لكنّها لا تستطيع لفت انتباهه.

يقف السّيّد هيلي ويحملق في السّيّدة ماكبرايد.

«ما الأمر؟»، تسأله.

«لقد جعلتِنا نتابع الدّوران في حين كان علينا التّقدّم إلى الأمام»، يقول السّيّد هيلي والإحباط بادٍ في توتّر صوته: «الرّجل هناك تمامًا، ألا ترينه؟»

«من الصّعب رؤية أيّ شيء»، تقول السّيّدة ماكبرايد بكبرياء جريحة.

«دوري بنا إلى الميمنة... باتجاه اليمين».

«الآن أربكتني بالكامل»، تحتجّ السّيّدة ماكبرايد، ثمّ تعبث بالذّراع: «بهذا الاتجاه؟»

«سيّد ويلز!»، يصيح السّيّد هيلي: «هلّا ساعدتنا؟»

السّيّد ويلز، مادًّا ساقيه أمامه بكسل، يهزّ رأسه: «سبق وأخبرتك، أنا لا أعرف شيئًا عن الإبحار».

لماذا لسنا نتحرّك؟ دم آنا يخفق بعنف؛ لا تستطيع الجلوس ساكنة. لماذا لا يكفّون عن الكلام مع أنّ كلّ ثانية تحسم حياةً أو موتًا؟ إنّها الوحيدة الّتي تعرف شعور التّجمّد، وكيف يشلّ البردُ المرء من الخارج إلى الدّاخل، حتّى يموت جسده من حوله رغم استمراره بالتّنفّس. وجه الرّجل محتجب، لكنّها لم تعد تحتاج أن تراه؛ لقد اقتنعت، بيقين أعمى، أنّ شخصًا له قوّة إميل هو فقط من يستطيع النّجاة طيلة هذه المدّة في هذا البحر الشّماليّ الفتّاك. الرّجل صمت، وآنا تستحثّه ذهنيًّا على الصّمود. لا يمكنه أن يستسلم، ليس بعد أن اقتربوا هكذا. ثمّ ترى لمحةً لحركة، إنّه يحرّك ذراعيه؛ يلوّح، أو يسبح، أو يفعل الأمرين معًا.

تقفز آنا ناهضة وتصيح لتلفت أنظار الجميع. هي تعلم أنّهم لن يفهموا ما تقوله– «إنّه حي! صديقي! أسرعوا!»– لكنّ ثورانها يلفت انتباه بقيّة الرّكّاب، فينظرون إلى، حيث تشير.

إنّه ليس هيرام، تفكّر إيسمي. لكنّها لا تستطيع التّأكّد تمامًا، فهي لا تحتمل النّظر إلى الشّخص الماثل في الماء. لقد تمكّنت أن تنأى بنفسها، بطريقة ما، عن كلّ الصّرخات المثيرة للأعصاب حين غرقت السّفينة، الّتي اختلطت آنذاك في نحيب مطلسم لم يبدُ بشريًّا حتّى. الأمر مختلف الآن، إذ ترى شخصًا حقيقيًّا هناك، ذراعاه ترفرفان كيفما اتّفق مثل جناحَي فرخ طائر. الفزع يحطّ فوق إيسمي فيغطّيها مثل شبكة، مضيّقًا عليها بشدّة لصيقة. يجب عليهم إنقاذ الرّجل، بالتّأكيد عليهم ذلك، لكن ما الّذي ستفعله إن كان هيرام؟ لا يمكن ذلك، أيمكن؟

فقط لو تكفّ الفتاة السّويديّة عن الزّعيق.

تشارلوت تخبط بقدميها، بدافع من الإحباط والبرد معًا. الألم يلسع أصابعهما، وحين تنظر إلى الأسفل تجدهما مغمورتين بالماء. يميّز ذهنها غرابة المنظر؛ بالتّأكيد لم يكن البلل بهذه الشّدّة حين جثت كي تساعد آنا؟ لكنّها أكثر انشغالًا بعمليّة الإنقاذ الوشيكة من أن تتفكّر في دلالات الأمر.

السّيّد هيلي ينقّب في مقدّمة القارب، ثمّ ينهض حاملًا الحبل الّذي كان يربط المجاذيف، يعقد أحد طرفيه على شكل أنشوطة كبيرة ويعلن: «سأقوم بجرّه».

تشعر تشارلوت بموجة من الارتياح لثبوت جدارته بثقتها. من بين كلّ من على متن هذا القارب، هو الشّخص الوحيد الذّكيّ بما يكفي ليعرف ما يجب فعله والشّجاع بما يكفي ليقوم به. الرّجل يعوم على بعد بضع ياردات فقط، والسّيّد هيلي يلقي الحبل بنفضة حادّة من معصمه. يهبط الحبل على إنشات من الرّجل، ويشاهده الرّكّاب وهو يحرّك يده بجهد نحوه.

بالنّسبة إلى آنا، المشهد يتقدّم ببلادة معذّبة. يتمكّن الرّجل ذو سترة النّجاة من الوصول إلى الحبل، لكنّ يديه متجمّدتان إلى درجة تكادان معها أن تكونا عديمتَي الجدوى.

يتطلّب الأمر منه ثلاث محاولات قبل أن يستحكم بمسكته، ثمّ مناورات متقطّعة لا تحصى وهو يمرّره من حول رأسه، ذراعاه متصلّبتان مثل ذراعَي جنديّ من قصدير. مع تمريره للأنشوطة حول صدره، تكون آنا قد شدّت يديها في قبضتين منكمشتين وراحت تضغط بهما على فخذيها. لماذا لا يرفع رأسه كي تراه؟ شعر الرّجل داكن، أكثر من شعر إميل. لكنّ الوقت ليل، وهي تتذكّر إميل حين كان يخرج من البحيرة بعد سباحة مسائيّة؛ لم يكن شعره يبدو أشقرَ قطّ وهو مبتلّ، لا يزال هنالك أمل.

يشدّ السّيّد هيلي الحبل، فيهتزّ القارب. خضخضة مشؤومة للماء تقطع الصّمت.

إحدى الأخوات آرمسترونغ تفلت «أوه!» رقيقة، ثمّ تأخذ الثّلاث بالتّقلّب فوق مقعدهنّ، يطرطشن بجزمهنّ. يشدّ السّيّد هيلي من جديد، فيتحرّك الماء في قعر القارب من جهة إلى جهة بمويجات مترقرقة.

«انتظر!»، يصيح السّيّد ويلز، فيجفل الجميع من الأمر الفظّ، ويستدير السّيّد هيلي.

«هناك ماء يدخل إلى القارب!»، يقول السّيّد ويلز. لقد ألقى لامبالاته السّابقة جانبًا، وراح وجهه ينبض من الاهتياج: «ثمّة تسرّب!»

«تفقّد البدن»، يقول له السّيّد هيلي، والحبل لا يزال في يده لكنّه متدلٍّ بارتخاء. ينظر إلى الأسفل نحو قدميه، ثمّ حول حواف القارب، ويقول للرّكّاب: «انظروا حولكم، أخبروني إن رأيتم مياهًا تدلف».

ينحني الرّكّاب ويبدؤون بالتّفتيش. الألواح صلبة ومتراصّة؛ ما من صدوع أو ثقوب، لا ماء يقطر أو يتسرّب.

كان السّيّد هيلي ليفتّش كامل القارب لو استطاع، فيتفحّص كلّ إنش، لكن ما من وقت، وعليه أن يتحرّك ببطء، كي يبقي القارب متوازنًا. إنّه حائر، بيد أنّه لا يستطيع ترك قلقه يظهر. يحاول محمومًا حساب السّرعة الّتي قد يمتلئ القارب بها، باعتبار الوقت الّذي أمضوه في الماء والكمّيّة الّتي رشحت بالفعل. عليه أن يعرف كم ساعة تبقّت أمامهم، لكنّه متعَب جدًّا، والجميع يحدّقون، وعقله المشوّش غير قادر على معالجة الأرقام. ينظر إلى الرّكّاب، الّذين ينظرون إليه بدورهم دون كلام، متوقّعين منه أن يأتي لهم بخلاصهم.

يا للحماقة.

ثمّ يتذكّر السّيّد هيلي، ويسأل بحدّة: «السّدادة يا سيّد ويلز؟»

- «لقد وضعتها...»

- «تفقّدها».

ترمق إيسمي تشارلي بنظرة متسائلة.

«ثمّة فتحة في القعر»، يشرح تشارلي: «من أجل تصريف مياه المطر أثناء تخزين القارب على متن السّفينة. لقد وضع البحّار سدادةً فيها أثناء إنزالنا».

- «أهي مكسورة؟»

- «لا أدري. لكن لا ينبغي أن يكون الماء بهذه الكمّيّة، هناك خطب ما».

قلق تشارلي يقدح زناد خوف إيسمي. ثمّة تسرّب في قاربهم، وهم وحيدون في المحيط. كان هيرام قد أخبرها، قبل أن يغادرا نيويورك حتّى، أنّ الإبحار بات أكثر أمانًا من أيّ وقت مضى، بفضل اللّاسلكيّ. حتّى لو غرقت سفينة ما، يكون ثمّة متّسع من الوقت للتّواصل بالرّاديو مع سفن أخرى من أجل النّجدة. لقد وضعت كامل ثقتها بسفينة إنقاذ لم تصل قطّ.

أم لعلّها فعلت.. لعلّها عثرت على بقيّة قوارب النّجاة وغادرت دونهم..

السّيّد ويلز رابض عند قدمَي السّيّدة دانينغ؛ لقد لزّت هي والممرّضة براكستون ببعضهما لإفساح المجال. لم تُفلت السّيّدة تريلوني تومي وإيفا من طوقها، لكنّ الصّبيّ ينحني من فوق ذراع أمّه ليشاهد. يقحم السّيّد ويلز يده في الماء، فيغمرها حتّى منتصف السّاعد. يجسّ المنطقة باللّمس، وعلى وجهه تكشيرة تركيز، ثمّ يقف.

«لا بدّ أنّه صدع»، يقول: «لا أرى أيّ طريقة أخرى يمكن للماء أن يدخل بها».

«أو أن تكون السّدادة موضوعة بشكل خاطئ»، صوت السّيّد هيلي جافّ.

- «لقد وضعتُها كما ينبغي تمامًا».

- «إن كانت مائلة ولو بأقلّ مقدار، فلن تكون منيعةً ضدّ الماء...»

- «تعال وانظر بنفسك!»

ترى إيسمي تشارلي يتوتّر وهو يفكّر إذا ما كان عليه لعب دور المصلح بينهما في ما يشارف على أن يتحوّل إلى شجار صريح. تتمنّى لو يفعل، من الواضح أنّ البحّارَين لا يستلطفان بعضهما، لكن عليهما أن يكونا أوعى من التّناقر كالأطفال. لماذا لا يكفّون عن الشّجار؟ تتساءل آنا مرتاعة.. هل نسي الجميع أمر الرّجل الّذي جاؤوا لإنقاذه؟ تمدّ يدها نحو الحبل، الّذي لم يزل متدلّيًا من يد السّيّد هيلي. تجذب تشارلوت ذراع السّيّد هيلي وتشير إلى الخارج.

«أرجوك»، تستحثّه.

لمسة تشارلوت تقدح السّيّد هيلي وتعيده إلى العمل. يبدأ بلفّ الحبل حول يده، فيصيح السّيّد ويلز: «توقّف!»

«بحقّ السّماء...»، يبدأ تشارلي كلامه، لكنّه ليس الصّوت الوحيد. السّيّدة دانينغ تلغو مع الممرّضة براكستون، والأخوات آرمسترونغ يطرحن الأسئلة، وتومي بدأ يبكي. يتجاهل السّيّد هيلي تشارلي ويهمّ بقول شيء ما للسّيّدة ماكبرايد حين يخطو السّيّد ويلز بين تشارلوت وآنا، دافعًا إيّاهما كلتيهما بقسوة. يقف بجانب السّيّد هيلي، اقترابه هكذا تهديد بحدّ ذاته، وتفكّر تشارلوت في القطط خلف محلّ الأسماك، وهي تفحّ على بعضها من أجل النّفايات.

«لن نجرّ أحدًا إن كان ثمّة مياه تدخل»، يقول السّيّد ويلز: «لا نريد وزنًا إضافيًّا».

«شخص واحد بعد لن يشكّل فرقًا»، يحتجّ السّيّد هيلي.

«يمكن لشخص ضخم الجثّة أن يقلبنا. لم يكن انتشالها إلى القارب سهلًا، أليس كذلك؟»

يشير السّيّد ويلز إلى آنا، الّتي لا تفهم كلامه لكنّها تميّز الازدراء في تحديقته المقتضبة. إنّها لا تعرف كيف تسبّبت في غضب هذا الرّجل، فتجرّ نفسها لتقترب أكثر إلى تشارلوت، حاميتها الوحيدة.

«يا إلهي»، تقول السّيّدة دانينغ: «يبدو هذا خطِرًا بالفعل».

تزمّ الممرضّة براكستون شفتيها، عاكسةً استنكار ربّة عملها، وترفع الآنسة آرمسترونغ يديها إلى فمها في إيماءة ذعر بناتيّة.

«وهي ليست إلّا فتاة ضئيلة»، تقول السّيّدة ويستلي: «لا أرى كيف يمكننا انتشال رجل دون الإخلال بتوازن القارب».

تومئ السّيّدة ماكبرايد. تنظر إيسمي إلى حواف قارب النّجاة؛ إنّها أكثر ارتفاعًا من حواف قوارب التّجذيف الاعتياديّة، والقصد من تصميمها خلق إيهام بتطويقٍ آمن.

لكنّ السّيّد ويلز على حقّ: سيكون وزن رجل كفيلًا بإخلال التّوازن، إنّها مخاطرة لا يستطيعون تحمّل الإقدام عليها.

تجذب تشارلوت الحبل المتدلّي من يدي السّيّد هيلي. تشدّه، فيهتزّ الخيال عند طرفه، لكنّه ما عاد يحرّك ذراعيه. أتراه يوفّر قواه أم يكون قد استسلم؟ تسحب مجدّدًا، محبطةً من بطء تقدّمه، رغم كونها تشدّ بقوّة تصرخ منها عضلات كتفها.

ثمّ، فجأة، تشعر بدَفعة ثقيلة على ظهرها، ويختلّ جسدها مبتعدًا عن الحبل. تتعثّر بساقَي آنا وتسقط في الماء الّذي في قعر القارب، يرتطم وركها بالخشب بصوت مكتوم. ترفع نظرها لترى السّيّد ويلز يمسك سكّينًا، نفس

السّكّين الّتي استخدمها السّيّد هيلي لفكّ المجاذيف. يهوي بها بعزم، فينقطع حبل الإنقاذ.

تصيح تشارلوت وآنا سويّةً، تشارلوت في احتجاج مرير وآنا من الهلع. تنكص تشارلوت وهي تحاول الوقوف، لكنّ آنا قد نهضت بالفعل، وانحنت على حافة القارب تحاول بيأس التقاط طرف الحبل المعقود حول الرّجل الّذي في الماء. إلّا أنّ الطّرف انجرف وانتهى الأمر، فصار بعيدًا عن متناولها، والسّيّد هيلي يمسكها من ذراعيها ويسحبها إلى الخلف وهي تصرخ.

يستدير السّيّد ويلز، إذ أُنجِز عمله، ويعود قاصدًا مربضه في القسم الخلفيّ من القارب. تطرق السّيّدة دانينغ والممرّضة براكستون والسّيّدة تريلوني بأنظارهنّ أثناء مروره، شاعرات بالرّاحة من فعلته دون نيّة للصّفح عنها جهرًا. تتبادل السّيّدة ماكبرايد والسّيّدة ويستلي إيماءات الاستحسان، بيد أنّهما كذلك تتجاهلان الوقّاد وهو يتّخذ مكانه خلفهما. لقد فعل الصّواب، كما تعتقدان، لكنّ هذا لا يعني أن تشركاه في الحديث.

يوجّه السّيّد هيلي آنا نحو تشارلوت، مستجديًا مساعدتها بصمت. تتعثّر آنا وتهوي بين ذراعي تشارلوت، فتضمّ الأخيرة رأس الفتاة إلى صدرها. الإيماءة الحانية تكتم عبرات آنا، لكنّ لوعتها تتموّج منتشرة عبر القارب. تنظر تشارلوت حولها باهتياج، منقّلةً عينيها بين الوجوه الّتي تبدي مزيجًا من الحزن والحرج والإنكار المتجهّم.

السّيّد هيلي أشاح يعبث بالحبل، متحاشيًا نظرتها.

«أرجوكم»، تقول تشارلوت مخاطبةً بقيّة الرّكّاب في مناشدة أخيرة: «لا يمكننا تركه يموت. سيّدة تريلوني...»

السّيّدة تريلوني تشيح بنظرها عن عمد. عائلتها جزيرة منطوية على نفسها، ويمكن لتشارلوت أن تخمّن من تعبير وجهها أنّها لن تصغي إلى أيّ شيء تقوله، لقد انسحبت إلى داخل ذاتها.

تنظر تشارلوت إلى تشارلي، الّذي ارتخت يداه حول المجذاف في حجره. يجيبها بنصف ابتسامة ملؤها الأسى، نظرة إقرار بروحها الجسورة تحثّها في الوقت نفسه على القبول بالهزيمة. الخيانة لاذعة؛ لقد ظنّته تشارلوت حليفًا، من القلائل الّذين قاموا بواجبهم وجذّفوا دون تذمّر. لو يختار أن يستنهض من في القارب للإنقاذ لطاوعوه جميعًا دون سؤال، فمن عساه يرفع عقيرته معترضًا على مليونير أمريكيّ أنيق؟ تشارلوت ترى الآن أنّ الدّافع وراء تصرّفات تشارلي كان براغماتيًّا، ولم ينبعث عن قناعة. لا يهمّه إن عاش الرّجل الّذي في الماء أو مات؛ ما يهمّه هو أن يُرى قد فعل الشّيء الصّائب. لقد جذّف بقوّة وسرعة أكبر من الجميع حين ناسبه ذلك، لكنّ المزاج في القارب تغيّر، وهو لن يخرج على الإرادة العامّة.

تستطيع تشارلوت على الأقلّ أن تعوّل على السّيّد هيلي للمساعدة. تهدّئ آنا المرتعدةَ فوق المقعد وتمسك بأحد المجاذيف، ثمّ تنظر عاقدةَ العزم إلى السّيّد هيلي وتتحيّن إشارته بالبدء، فيهزّ لها رأسه ببطء.

«علينا أن ننطلق»، تستحثّه.

«لا جدوى».

صوته أعلى من الهمس بقليل؛ والهزيمة أثقلت كتفيه. ما زالت تشارلوت تسمع صيحات من حين إلى آخر، لكنّها أقلّ ممّا سبق بكثير، وأشدّ وهنًا. كلّ صوت اتّهام، وتنفّسها هي ذاتها يخرج مرهقًا ممزّقًا، كما لو كانت هي الأخرى تكافح كي تتنفّس.

«إنّهم يغرقون!»، تصيح تشارلوت.

«لا يغرقون، بل يتجمّدون حتّى الموت».

وبذلك، يخيّم صمتٌ مصدوم على القارب.

يدير السّيّد هيلي ظهره لتشارلوت، وهذا أسوأ حتّى من رؤية كآبة وجهه الجنائزيّة.

تنظر تشارلوت إلى نثرات الجليد الّتي تشكّلت في شعر آنا، فتشعر برعدة برد تسري فيها بعمق يبلغ أن ترتجف له عظامها. ينزلق المجذاف من يديها إلى حجرها، ثمّ إلى الماء عند قدميها.

حين ترى آنا استسلام تشارلوت، تعرف أنّها النّهاية. لن يكون هنالك المزيد من المقاومة، ولا المزيد من مساعي الإنقاذ.

لقد تأخّروا كثيرًا على أيّ حال. حين أقدمت آنا على مبادرتها عديمة الفائدة لشدّ الحبل، رأت كيف كان رأس الرّجل مرتخيًا بثقله فوق سترة نجاته. لم ينادِ ولا لوّح بيديه؛ لم يتحرّك البتّة. ورغم أنّها لم تستطع أن ترى وجهه- لم تره قطّ، فقد علمت أنّه ميت.

ربّاه، أتوسّل إليك ألّا يكون إميل.

تغمض آنا عينيها وتصلّي. لا تطيق تصوّر إميل وهو وحده في الماء، يصيح متوسّلًا إنقاذًا لم يأتِ. لن تبلغ القسوةُ بالله أن يرشد إميل إلى قارب نجاتها فقط كي يتركه يموت.

أم ترى كان ثمّة لمسة من الرّحمة في نهاية كتلك؟ أن يكون إميل قد سمع صوت آنا خلال تلك اللّحظات الأخيرة من حياته، وعلم أنّها كانت قادمة، فلم يكن وحيدًا بالتّالي.

يجيش الحنق في أوصال تشارلوت، فيستحثّها على متابعة المقاومة. تنظر أمامها، إلى الخادمة الفرنسيّة الّتي ظلّت هادئة طوال الوقت إلى درجة تكاد معها أن تكون خفيّة. السّيّد فان هاوزن والسّيّدة هاربر لا يلقيان بالًا لأحد سوى نفسيهما، إنّهما يتحدّثان همسًا، وجهاهما شبه متلامسين، وتشارلوت تشعر بوخزة من الرّيبة؛ غريزة اكتشاف الورطات لديها مشحوذة بحدّة. ثمّ تنتبه

إلى يد إيسمي داخل جيب معطف تشارلي، حميميّة هذا المشهد هي القطعة الأخيرة من الأحجية، وبذلك تأخذ الحقيقة شكلها؛ لم تكن السّيّدة هاربر مخلصة لزوجها.

تستدير إيسمي فجأة. لقد أحسّت أنّ أحدًا يحدّق، وهو تشارلوت المتغطرسة تلك، الّتي تحوم خلفهما تمامًا. تقابل تشارلوت نظرةَ إيسمي المتّهِمة بالعبوس، فتشعر إيسمي بومضة من الاضطراب. هي لم ترَ أيّ شيء، أليس كذلك؟ ومع هذا، تُخرج إيسمي يدها ببطء من جيب تشارلي وتحيد عنه. لقد شحن ملمسُ بشرته- تدليكه لأصابعها بإبهامه- عزيمتَها.

خفتت صرخاتُ المحتضرين إلى ابتهالات مشتّتة، مثل صيحات النّوارس عند الغسق. وجه السّيّدة ماكبرايد مستقرّ على تكشيرة منزعجة، إذ إنّ المصلحةُ الشّخصيّة حوّرَت الشّعور بالذّنب إلى غضب. أسرِعوا وموتوا، يقول لسان حالها وحال أختيها: فلننتهِ من هذا، كيلا نظلّ مرغمين على سماعكم.

ثمّ، أخيرًا، لا يعود هناك شيء. لا صوت سوى صفع الماء الرّقيق لبدن القارب.

ركّاب قارب النّجاة ٢١ وحيدون في عرض البحر الشّاسع. ما زالت آنا تصلّي من أجل نهايةٍ لمعاناة الأرواح الّتي في الماء، غير أنّ تحرُّرَ هذه الأرواح لا يجلب معه الرّاحة. تنظر إلى الآخرين في القارب، الّذين تبدو أعصابهم مستفَزّة من الصّمت بنفس الدّرجة. الغضب ظاهر على النّسوة في الخلف؛ لقد أمسك البحّار الّذي قربهنّ غليونه لكنّه لم يقرّر بعد إن كان سيشعله. الصّبيّ الصّغير يتلوّى محاولًا التّملّص من طوق أمّه، وأخته تتفرّج على المرأة ذات معطف الفرو، الّتي تمسّد الجرح على وجنتها بشرود؛ قطع الماس في شعرها تلمع مثل نجوم.

يستدير السّيّد هيلي نحو تشارلوت، عضلات وجهه في غاية الانقباض: «لقد فعلنا ما استطعناه».

كما لو أنّ اللّوم يقع عليهما بنفس الدّرجة، كما لو كانا كلاهما قد استسلما.

«أحقًّا؟»، تسأله تشارلوت بحدّة.

«واجبي هو الالتزام بركّاب قاربي»، يجيبها: «عليّ أن أضع سلامتهم فوق أيّ اعتبار آخر».

«نحن تركنا رجلًا يموت، أمام أعيننا»، لا تكلّف تشارلوت نفسها إخفاء قسوة مرارتها؛ لم تعد بحاجة إلى استمالة أحد كي يقف في صفّها: «كأنّنا قتلناه بأنفسنا».

«قتلناه؟»، تقول السّيّدة دانينغ: «لا داعي لهذه اللّهجة».

يفلت السّيّد ويلز شخرة متقزّزة، فيرمقه السّيّد هيلي بنظرة توبيخ. لو يكفّ الوقّاد عن استفزاز الآخرين، إنّ تولّي مسؤوليّة هذا القارب أصلًا صعب بما يكفي دون أن يلوح تمرّد بالأفق.

لسوء الحظّ، تشارلوت ابتلعت الطُّعم: «لقد مات بسببك!»، تقول مشيرة إلى السّيّد ويلز: «كان في حوزتنا، وأنت من قطعت الحبل!»

«إيه، وكنتُ لأكرّر فعلتي».

«كفى»، تصرخ السّيّدة تريلوني، تومي منخرط في البكاء وقد استقرّ في انتحاب مطّرد.

«لقد كان نصف ميت أصلًا»، تتحدّث الممرّضة براكستون بسلطة امرأة نادرًا ما يُنقَض كلامها: «حتّى لو تمكّنّا من رفعه إلى القارب، لم يكن من المحتمل أن ينجو».

«هي نجت!»، تومئ تشارلوت نحو آنا: «لقد كانت في الماء، ونجت!»

تتمنّى آنا لو يكفّون جميعًا عن النّظر إليها. إنّها متعَبة جدًّا، متعبة من الشّعور بالعجز، متعبة من أن تغمرها كلمات لا تفهمها. كلّ ما تريده هو العودة إلى المنزل، وأكثر من أيّ شيء تريد أن تعانق بابا، هو الوحيد الّذي يستطيع أن يرفع عنها ثقل أساها.

«سيظلّ موت ذلك الرّجل يثقل ضمير كلّ واحد منكم»، تتدفّق الكلمات من تشارلوت في سيل من الاشمئزاز: «كنّا لنصل إليه في الوقت المناسب، لو لم تتوانوا».

يحاول السّيّد هيلي إيقافها: «كفى، أرجوك...»

«رجل واحد».. رجل ربّما كان ريج.. سامحني يا ريج، سامحني لأنّي لم أودّعك.. «لقد كان ابنًا لأحدهم، أو أخًا، أو أبًا. لم يكن يعني شيئًا لكم، لكنّه ربّما كان أغلى من العالم بأسره لدى شخص آخر».

تبدأ إيسمي بالبكاء. لم يكن هيرام الّذي في الماء؛ إنّها موقنة معظم اليقين، لكنّها لا تستطيع منع نفسها عن التّفكير فيه واقفًا على ظهر السّفينة، مستعدًّا لملاقاة قدره دون شكوى واحدة. هيرام المخلص العجوز المسكين. لم تحبّه يومًا، ليس كما تحبّ تشارلي، بيد أنّ تلك تبدو نهاية مؤسفة لرجل محترم مثله. من الخاطئ أن تفكّر في المستقبل منذ الآن، بينما يُحتمل أنّ هيرام لا يزال حيًّا؛ لكن إن كان قد مات فعلًا، وإن انتهى بها المطاف بالفعل إلى الزّواج من تشارلي، فهي تظنّ أنّ هيرام كان ليتفهّم. لطالما أراد لها أن تكون سعيدة، أليس كذلك؟ يروق لها التّفكير في أنّه يراقبها ويرعاها، مثل ملاك حارس.

«سنكون على ما يرام، صحيح؟»، تهمس إيسمي إلى تشارلي.

لا يجيب. في البدء، تشعر بالإهانة من تغافله، حتّى تدرك أنّه يبحث عن آثار لقوارب النّجاة الأخرى. كم هذا من شيم تشارلي، أن يظلّ على أمله حين

يقطّب الآخرون جميعهم! بالطّبع سيكونان على ما يرام؛ لا تحتاج أن تسمعه يقولها. إنّهما معًا، أليس كذلك؟ قبل بضع ساعات لا غير، كانت إيسمي تندب فراقهما المحتوم، مقتنعة أنّها ستفقد حبّ حياتها. ومع ذلك ها هما ذان، جنبًا إلى جنب. لقد تبعها تشارلي إلى القارب، وأمسك يدها وأبقاها في مأمن، كما كانت تعلم أنّه سيفعل.

تشارلوت تخبط بقدميها. الماء يبلغ كاحليها، وترى أنّ السّيّد هيلي قد لاحظ ذلك أيضا.. كم تبقّى لنا من الوقت؟ توشك أن تسأل، لكنّها لا تريد إخافة الآخرين.

ولا هو يريد ذلك، حكمًا على نظرة الاستجداء الّتي يرمقها بها. لقد حلّ توتّرٌ يقظٌ محلّ ائتلافهما السّابق. السّيّد هيلي يراقبها، خائفًا ممّا قد تفعله أو تقوله. لطالما كانت تشارلوت سبّاقة إلى فعل ما في ذهنها أو قوله، وتلك صفة كانت تعدّها فضيلة، بيد أنّ اندفاعها قد تسبّب في نفور الشّخص الوحيد الّذي تكنّ له شيئًا من الاحترام على هذا القارب، وهي لا تعرف كيف تصوّب ذلك.

«ما المؤن الّتي لدينا؟»، تشارلي يسأل.

السّؤال موجّه إلى السّيّد هيلي، لكنّ السّيّد ويلز يجيب: «برميل ماء وصندوق بسكويت مقدّد».

- «كم سيكفينا ذلك؟»

- «يومًا أو اثنين، لا أكثر».

كون الصّدمة أسكتت السّيّدةَ ماكبرايد- لأوّل مرّة- تتحدّث السّيّدة ويستلي نيابة عن شقيقتيها: «سيتمّ إنقاذنا قبل ذلك، صحيح؟»

يرفع السّيّد ويلز كتفيه. ولسخط إيسمي، يبدو مستمتعًا بنفسه وهو يخيف الرّكّاب ليتسلّى. تصوّب نظرها إلى تشارلي، آملةً أن تدفعه إلى الاعتراض، وحين يتجاهلها تهمس: «عليك أن توقفه».

«لماذا؟ إن كان يقول الحقيقة».

جفاء تشارلي يجرح إيسمي عميقًا، فتذوي شجاعتُها المزيّفة. إذًا هكذا سينتهي الأمر؛ أيام وليالٍ تتجرف في شمال الأطلسيّ على غير هدًى، أكثر من دستة أشخاص دون طعام يكفيهم. أم أنّ قارب النّجاة سيغرق قبل نفاد المؤونة؟ تنظر إلى الآخرين حولها: السّيّدة دانينغ المتراخية، تومي تريلوني النّاعس، السّيّدة ماكبرايد الشّاخصة- وتتساءل عمّا تراه سيحدث حين يضطرّون أن يبدؤوا بالاقتصاد.

إيسمي تثق أن يتصرّف تشارلي والسّيّد هيلي بعدل، لكن ليس السّيّد ويلز، ولا تستبعد عن الأخوات آرمسترونغ أولئك أن يلجأن إلى الغشّ لزيادة حصّتهنّ. السّيّدة تريلوني ستقاتل لصالح طفليها، والممرّضةُ براكستون لصالح السّيّدة دانينغ، وقبل أن تدري سيأخذ الواحد بخناق الآخر. حتّى الفتاة السّويديّة لا بدّ أن تكون أقوى ممّا تبدو عليه إن كانت قد سبحت عبر تلك المياه الفتّاكة، لقد أثبتت مسبقًا أنّها لا تستسلم بسهولة.

فقط لو أنّ تشارلي لا يبدو مثبَط الهمّة هكذا. لطالما كانت طاقة تشارلي الحيويّة تتّقد بحرارة وسطوع أكبر من طاقة أيّ شخص آخر- وقد كانت إيسمي تقتات منها، تشتهيها لنفسها- لكنّ أحداث هذه اللّيلة أخمدته، مخلّفةً قشرةً خاوية بعينين زجاجيّتين. وفي لحظة تجلٍّ اعترتها، تفهم إيسمي أنّ هذا أيضا هو تشارلي؛ الجزء الّذي لم يُسمح لها أن تراه منه قطّ. لن يكون تشارلي بطلًا حقيقيًّا ذات يوم، لأنّه دائمًا يتبع، ولا يقود أبدًا. في القارب، عيناه معلّقتان بضوء القمر، وهو تمثال: جميل لكنّه عاجز.

حسنًا، إن بلغ الأمر مبلغه، ستقاتل إيسمي من أجلهما معًا. لا أحد في هذا القارب سيتجرّأ أن يعارض رجلًا من آل فان هاوزن وامرأة من آل هاربر.

بوسع تشارلوت أن تحسّ بجوّ اليأس الخانق يبسط ظلّه فوق رفاقها الرّكّاب وبينهم.

الظّلام آخذ بالانحسار، لكنّ اقتراب يوم آخر لا يقدّم شيئًا من السّلوان المنشود. ما زالوا ضائعين، ما زالوا وحدهم. بعد أن تحرّروا من رعب الغرق ولم تعد صرخات الموتى تشوّش عليهم، لا بدّ أن يستفيقوا ليواجهوا واقعَ أن ما من بشائر بالخلاص.

السّيّد هيلي ينقّب في قعر القارب، يداه تخضخضان في الماء. لم يستسلم، لكنّ الآخرين يتفرّجون عليه بفتور.

- «سيّد ويلز، هل لدينا أيّ كؤوس؟»

- «لم أرَ أيّ منها».

«ألم يبذلوا أقلّ تفكير في المؤن؟»، يغمغم السّيّد هيلي، وصوته منقبض، فيما يتابع التّفتيش في بدن القارب المغمور بالماء. تتساءل تشارلوت إن كان يخطّط منذ الآن لتقسيم حصص ماء الشّرب- ألا يجدر بهم الانتظار لبعض الوقت بعد؟- ثمّ تدرك أنّه يبحث عن منظار[(١)]، ليستكشف به عن قارب آخر. لقد أثّرت مثابرة السّيّد هيلي العنيدة في تشارلوت، فاستحثّتها آخرُ بقايا عزمها على مساعدته. يجدر بها أن تفتّش معه، أو ترى ما يمكن فعله لجعل السّدادة أكثر إحكامًا، أو تستنهض الآخرين كي يجذّفوا- كي يقوموا بالإحماء ويستعدّوا على الأقلّ. لكنّها منهَكة للغاية، ولم تعد تحتمل أن تكون هدفًا للتّحديقات الغاضبة. كلّ ما تستطيع فعله هو أن تنجرف، مثل القارب نفسه، وتشاهد السّيّد هيلي وهو يقوم بمساعيه الفرديّة- وربّما العقيمة- لإنقاذهم.

---

(١) كلمة «Glasses» في الإنجليزيّة تعني كؤوس أو نظّارات، ويستخدمها البحّارة اختصارًا للمنظار «Spyglass»، ومن هنا جاء اللّبْس الّذي لا تخدمه التّرجمة العربيّة. (المترجم)

ثمّ تشعر تشارلوت بحركة متهادية تدريجيّة، كما لو أنّ الجميع قد سحبوا نفَسًا في اللّحظة نفسها. تستدير الوجوه؛ وتحفّ التّنانيرُ والمعاطف. وفي سديم شروق الشّمس الرّماديّ، ترى تشارلوت موكبًا من جلاميد الجليد ينتأ من البحر. إنّها بيضاء وزرقاء غامقة وبكلّ التّدرّجات بين اللّونين، كلّ زواياها بارزة، استعراضٌ لقوّة صافية.

«ما هذا؟»، تومي يسأل، صوته ذو النّبرة الرّفيعة العالية يكسر الصّمت.

«جبال جليديّة»، يقول السّيّد هيلي.

يبدو متعَبًا للغاية، تفكّر تشارلوت، صورة شاحبة للبحّار الكفء الّذي ألقى حبلًا إلى رجل يحتضر. لم يخطر لها قبل الآن أنّه لا بدّ قد خسر أصدقاءً هو الآخر، أفراد طاقم مخلصون قاموا بواجبهم وغرقوا مع التّايتانيك.

«هناك سفينة!»، يصيح تشارلي، فيهرع الجميع كي ينظروا؛ أجساد تفتل لتستدير وتنهض. لا تستطيع إيسمي الجزم في البداية؛ من المستحيل رؤية أيّ شيء عدا تلك البروزات الجليديّة. ثمّ يشكّل ظلٌّ بعيد صورتَه في ذهنها- المقدّمة، مدخنة؛ كان تشارلي على حقّ!- وتُفلت صيحةً بهجة. تغمرها النّشوة بالكامل فيتحرّك جسدها دون تفكير، تفتّش عن تشارلي وتضغط بجبهتها على صدره، وتحسّ برفرفة أصابعه في شعرها وعند مؤخّر عنقها.

مشهد فاضح ومتهوّر، وإيسمي لا تهتمّ.

يصيح السّيّد هيلي بالأوامر: «علينا أن نجذّف نحوها، أن نجذّف من أجل حياتنا.

«سيّد فان هاوزن، سيّد ويلز...»

لقد التقط تشارلي مجذافه بالفعل. وفم السّيّد ويلز نصف مفتوح، مثل كلب يلهث من أجل عشائه. يُطبِق أحد المجاذيف داخل المحبس ويحيّي السّيّد هيلي تحيّة عسكريّة مفعمة بالحيويّة.

«حاضر، كابتن!»

تندفع الممرّضة براكستون عائدة إلى ذراع الدّفّة بينما يتّخذ الرّجال مواضعهم خلف المجاذيف، وتمدّ السّيّدة ماكبرايد يدها إلى مجذاف يتمايل في الماء عند قدميها.

«سأنضمّ إليكم يا سادة»، تهتف.

يتبدّى على السّيّدة ويستلي والآنسة آرمسترونغ إعجاب جذل باندفاع شقيقتهما الكبرى، ويستحيل تخمين ما تشعر السّيّدة تريلوني به؛ رأَسها منحنٍ إلى الأسفل، إمّا أنّها تبكي أو تصلّي.

تشارلوت تلتقط مجذافًا وترمق آنا بابتسامة مشجّعة.

تقول: «سفينة».. هل تفهم الفتاة؟ «لقد تمّ إنقاذنا».

تمسك بيد آنا وتضغط عليها؛ لا تزال بشرتها باردة جدًّا. تشعر بشفقة عابرة على هذه الصّغيرة التّائهة المسكينة، الّتي لا تبدو في سنٍّ تكفي كي تكون بمفردها. ثمّ تعود أفكار تشارلوت إلى نفسها، وتتساءل إلى أين ستأخذهم هذه السّفينة.. لندن؟ نيويورك؟ لا يهمّها، ما دام ريج على متنها، ينتظرها.

تنظر آنا إلى السّفينة البعيدة ولا تفكّر سوى في البطّانيّات والحساء والقهوة.

الرّجفات تنتهك جسدها؛ ترتعد وترتعد ولا تستطيع أن تتوقّف.

السّيّدة ماكبرايد تنظر بعين الرّضى إلى براعتها في استخدام المجذاف؛ شقيقتاها تقدّمان تشجيعًا مبتهجًا والسّيّد ويلز يضحك. ينطلق القارب قدمًا، مدفوعًا باتحاد عمل المجذّفين الّذي يسير بالإيقاع نفسه.

تشارلي مبتسم، وجنتاه متورّدتان، وإيسمي تراه أكثر وسامة من أيّ وقت مضى.

«سيّد هيلي وسيّد ويلز، لديّ عشرة دولارات لكلّ منكما حين نركب السّفينة»، يقول تشارلي، بأنفاس مجهَدة لكنّها ثابتة: «أتمنّى أن يكون هذا كافيًا لتعويض خسارتكما».

«ممتنٌّ لك»، يتمتم السّيّد هيلي وعيناه على هدفهما، بينما يقول السّيّد ويلز ببهجة أكبر: «شكرًا لك يا سيّدي!»

وبلا كلل، ينزلق قارب النّجاة ٢١ في البحر الزّجاجيّ، وركّابه متوجّهون كلٌّ نحو مستقبله.

القسم الرّابع

العاقبة

آنا

مارس ١٩٣٣

إلى السّيّدة فان هاوزن، مع أطيب تحيّاتي...

أمالت آنا القلم، وراحت تنقر عليه بإبهامها. هل كانت النّبرة لائقة؟ لم تزل غير واثقة من إنجليزيّتها المكتوبة. لا شكّ أنّ امرأة مثل السّيّدة فان هاوزن لديها الكثير من الأشخاص المثيرين للإعجاب يراسلونها، وآنا لم تشأ أن تظهر مثل يقطينة ريفيّة ساذجة. سمعت خبط جزمة جوزيف خارج باب المطبخ فدسّت الرّسالة تحت كدسة كتالوجات بذور فوق زاوية المكتب.

«أسهل ممّا ظننت!»، نادى جوزيف.

كان يعمل على السّيّارة، محاولاً اكتشاف مصدر خشخشة تستفزّه منذ أيام. بعد ساعات قليلة، سيقود السّيّارة إلى محطّة قطار ليك كروسينغ ليقلّ سارا القادمة في زيارة نهاية الأسبوع المعتادة.

خلال وجبات عشاء السّبت وغداء الأحد في الأشهر القليلة الماضية، شاهدت آنا أبناءها يَعجبون من التّغيير الّذي طرأ على والديهم. رأت سارا وجون يتبادلان النّظرات حين يمدّ جوزيف يده نحو يدها، يتساءلان ربّما إذا ما كان العمر قد زاد من عاطفيّتهما، أمّا سوزان فتبتسم مشعّة ببساطة.

سمعت آنا طرطشة الماء في حوض المطبخ، ثمّ انحنى جوزيف مستندًا على إطار باب الغرفة الأماميّة. تعبير وجهه المبتهج المتسائل جعلها تشعر بالخجل

من تكتّمها، لقد كان حريًّا بها أن تخبره بما تفكّر فيه منذ أسابيع. ففي النّهاية، يجب أن يكون قرارًا مشتركًا.

لوّحت آنا لجوزيف تدعوه إلى الغرفة وسحبت الرّسالة الّتي كانت قد بدأتها، ثمّ راحت رؤوس أصابعها تسير بشرود على طول الورقة وهي تتكلّم.

«أتذكر حين أخبرتك عن تشارلوت؟ من قارب النّجاة؟»

أومأ جوزيف.

«لطالما انتابني شعور سيّئ حيال الاحتفاظ بمالها».

اتّكأ جوزيف على عضادة الباب، مهيّئًا نفسه لما هو أكثر من حوار سريع.

«ليس ذنبك»، قال: «أنت لم تستطيعي العثور عليها».

«لم أحاول بجدّ كبير. كانت ثمّة امرأة أخرى على متن قاربنا، السّيّدة فان هاوزن، كما تُدعى الآن. رأيتُ نعيًا لزوجها في مجلّة، وذُكر أنّها تعيش في نيويورك. إنّها ثريّة جدًّا- أنا متأكّدة أنّني أستطيع أن أجد عنوانها دون عناء كبير. لديهم أدلّة لجميع المدن الكبيرة في مكاتب شركة الهاتف. قد تعرف السّيّدة فان هاوزن اسم عائلة تشارلوت ومكان سكنها- الأمر يستحقّ المحاولة، على الأقلّ. بوسعي أن أكتب إلى مكاتب وايت ستار لاين كذلك».

«يبدو أنّك قد خطّطتِ للأمر فعلًا»، قال جوزيف.

«أنت تعلم كم من النّاس يعانون منذ انهيار سوق الأسهم، يخسرون وظائفهم ومنازلهم. كان لي أن أخمّن من ملابس تشارلوت أنّها ليست ثريّة، ولا أستطيع إلّا أن أتساءل إذا ما كان من شأن ذلك المبلغ أن يحدث فرقًا في حياتها. فبعد كلّ شيء، لقد حظينا بنعمة وافرة».

عقد جوزيف ذراعيه بشدّة حول صدره، ووجهه خال من الانفعال.

«إن استطعتُ إيجادها، أريد أن أردّ المال»، قالت آنا: «أيمكننا تحمّل ذلك؟»

لم يكن الكساد الكبير[1] قد أغفل شركة أندرسون للعمران، إذ انخفض عدد المنازل الّتي تُشيَّد وقلّ الوارد الماليّ، غير أنّ النّاس ظلّوا بحاجة إلى ترميم السّقوف وتبديل النّوافذ. استمرّ انشغال جوزيف، ولم يتعيّن على آنا قطّ أن تقلق حيال توفير الطّعام أو شراء الأحذية الجديدة لأبنائها. كان الدَّين الّذي تدين به لتشارلوت أعمق بكثير من المال، لكنّ هذه ستكون أسهل طريقة لإبداء عرفانها بالجميل.

راح جوزيف يتفكّر في عواقب طلب آنا، بطريقته المستغرقة المعهودة. وما كان أحد آخر ليلاحظ الرقّة في عينيه حين اتّخذ قراره، إذ لا أحد آخر أمضى الوقت الّذي أمضته آنا تتبحّر فيهما.

«إنّه التّصرّف الصّائب»، قال جوزيف.

---

(١) الكساد الكبير: أزمة اقتصاديّة حدثت في عام ١٩٢٩ مرورًا بعقد الثّلاثينيّات وبداية الأربعينيّات، وتعتبر أكبر وأشهر الأزمات الاقتصاديّة في القرن العشرين، بدأت بأمريكا مع انهيار سوق الأسهم في يوم ٢٩ أكتوبر ١٩٢٩ المسمّى بالثّلاثاء الأسود. (المترجم)

إيسمي

إبريل ١٩٣٣

«يصعب تخيّل الأمر، أليس كذلك؟ أن تكون تلك الفتاة الصّغيرة المغرَّقة بالماء أمًّا لثلاثة أبناء؟»

أومأت سابين والدّبابيس في فمها تتمايل مع حركة رأسها، فيما تحاول إيسمي أن تبقى ثابتة. مع أيّ زبونة أخرى، كانت الخيّاطة المساعِدة لتتولّى مهمّة ضبط القياس، لكنّ سابين لطالما أشرفت على ملابس إيسمي بنفسها.

«لقد رأت مقالًا عن تشارلي في إحدى المجلّات»، تابعت إيسمي: «تخيّلي ذلك! حتّى هناك في البراري، النّاس يعرفون من يكون».

دسّت سابين دبّوسًا في قطعة من الحرير البرّاق بأناقة. لون كحليّ، يليق بأرملة دون أن يكون كئيب القتامة. كانت سابين تتمتّع بموهبة في ترجمة الميول الشّخصيّة لكلّ امرأة إلى صورة علنيّة تنمّ عن ذوق رفيع.

«من اللّطيف أنّها كتبت إليك»، قالت سابين وهي تنهض من وضع القرفصاء. تفحّصت حاشية الثّوب الّتي تصل إلى منتصف الرّبلة؛ مضبوطة بدقّة.

«أوه، ليس هذا أفضل ما في الموضوع»، قالت إيسمي: «لقد سألتني آنا إن كنت أعرف كيف يمكنها الوصول إلى تشارلوت».

ابتسمت مسرورةً من المفاجأة الّتي بدت على وجه سابين.

«المرأة الإنجليزيّة؟»، سألتها: «تلك الّتي جاءت إلى منزلك؟»

«هل تصدّقين؟ على ما يبدو، كانت آنا تريد الكتابة إلى تشارلوت منذ سنوات، لكنّها لم تتذكّر اسم عائلتها. وظهر الآن أنّني لا أعرف اسم تشارلوت وحسب، بل لديّ بطاقتها الخاصّة ويمكنني أن أدلّ آنا على عنوانها بدقّة!»

«إنّها إشارة ربّانيّة»، قالت سابين.

أحقًّا؟ لقد بحثت تشارلوت وآنا كلتاهما عن إيسمي بعد السّماع بما حدث لتشارلي، كم غريب أن يتسبّب موتُه في التئام شملهنّ من جديد.

«على كلّ حال، لقد كتبتُ أجيب آنا صباحًا، وهذا هو الصّنيع الّذي قمت به اليوم»، برمت إيسمي وركيها من جنب إلى جنب، تنظر إلى صورتها في المرآة بإعجاب: «أوه، هذا جميل».

ابتسمت سابين، بطريقتها المتواضعة المعتادة. كم مرّة رأتها إيسمي تطرق برأسها، لتتملّص من المديح بإيماءة بسيطة من ذقنها؟ فطنت إلى أنّها تعرف تعابير سابين كما تعرف تعابير ولديها، مع أنّ أفكار سابين- وروحها- كانت ملغزة كعهدها. فرغم أنّهما تجاوزتا الأربعين كلتاهما وقد أمضتا نصف حياتيهما معًا، لم تزل سابين غريبة من نواحٍ عديدة.

لقد شعرت إيسمي بصفاء ذهنيّ استثنائيّ ذلك الصّباح؛ كانت قد بقيت حتّى وقت متأخّر في حفلة موسيقيّة برفقة روزي في اللّيلة السّابقة ولم تأخذ جرعتها المعتادة من الدّواء قبل النّوم. ومع ذلك نامت جيّدًا، دون أحلام. لقد نسيت كم هو شعور جيّد أن تغرق في النّسيان، أن ينقلب ذهنها صفحةً بيضاء لثماني ساعات من النّعمة.

مدّت سابين يديها فيما راحت إيسمي تنضو الفستان عن جسدها. كان ذلك منعكسًا طبيعيًّا؛ لطالما كانت سابين مستعدّة لالتقاط أيّ شيء تنبذه إيسمي، غير أنّ الأمر بدا اليوم مختلفًا. اليوم، نظرت إيسمي من فوق كتفها

وهي تنزع الحرير فشاهدت يدَي سابين ترتعشان وسط القماش، ولاحظت خطًّا من الشّيب يستعمر شعرها الدّاكن. بدا كما لو أنّ سابين كانت هناك دائمًا، تحوم خلف إيسمي، تلتقط وتحمل وتجلب أيّ شيء تحتاجه؛ حاميتها الصّامتة المنكرة لذاتها.

ارتدت إيسمي تنّورتها الصّوف وزرّرت بلوزتها، تردّ بإشارة من يدها عروضَ سابين للمساعدة. حين يتعلّق الأمر بالأزياء الحديثة، فحتّى أكثر النّساء دلالًا يستطعن إلباس أنفسهنّ. من ذي الّتي تحتاج إلى وصيفة؟ ثمّ- وبوضوح أتاها من حيث لا تعلم- تذكّرت إيسمي لحظةً من ليلة زفافها إلى هيرام. كيف كانت تشعر بالخجل في فستانها المحكم، حتّى تقدّم هيرام ليحلّ الأزرار، كما لو كان ذلك أكثر شيء طبيعيّ في العالم. لا مغالاة في الإطراء، ولا تحديقات غير محتشمة- لا شيء سوى هيرام يبذل قصاراه ليبدّد قلقها. لقد شعرت بغاية الامتنان، بغاية الانفراج...

«مدام؟»

كانت سابين تنظر إلى إيسمي، قلقةً، وفوجئت إيسمي بالدّموع تلسع عينيها.

«أنا بخير»، سارعت إيسمي تقول، كما سبق وفعلت مئة مرّة منذ وفاة تشارلي، ثمّ أضافت وهي تنظر إلى وجه سابين العزيز الأليف: «كنت أفكّر في السّيّد هاربر».

بدت سابين حزينة، لكن ممتنّة كذلك، ألمُها يمتزج بالارتياح. لم تكن إيسمي تتكلّم عن هيرام قطّ، لكنّها رأت أنّ سابين لم تزل تفكّر فيه هي الأخرى، فأدركت أنّ فقدهما المشترك سيظلّ يوثق الأواصر بينهما. لا يهمّ سواء أكانت سابين تشعر بالعاطفة الطّبيعيّة لعاملٍ نحو ربّ عمل كريم أم بشيء أكثر حميميّة، لن تمانع تمرّغَ إيسمي في الماضي، بل ربّما قد ترحّب به حتّى.

«لقد كان رجلًا طيّبًا»، قالت إيسمي: «رجلًا رؤوفًا.. أتمنّى لو كنتُ زوجةً أفضل».

أومأت سابين، بحسم وإيجاز. هي لم تؤنّب سيّدتها السّابقة يومًا، لكنّ إقرارها بآثام إيسمي دمغَ لحظةً نادرةً من التّصارح بينهما.

رنّ الجرس الّذي فوق باب المحلّ الأماميّ، مشيرًا إلى وصول زبونة جديدة. تكلّمت إيسمي بسرعة، لعلمها أنّ ليس أمامها متّسع من الوقت.

«كنتُ أتحدّث إلى ابنيّ عن مخطّطاتنا الصّيفيّة. روزي لا تنفكّ تكرّر أنّها الوحيدة بين أصدقائها الّتي لم تسبق لها زيارة أوروبا، فقلت لنفسي لمَ لا؟ سيكون من الجيّد الذّهاب في رحلة بعيدة، بعد كلّ ما حدث. لم أكن أظنّ أنّني قد أركب سفينة من جديد، لكنّ روزي ألحّت في توسّلها، وروبي قال إنّ المغامرة ستحسن إلينا...» تضاءل صوت إيسمي. لم تكن واثقة كيف تشرح القسم التّالي، كيف تسأل بالفتور اللّازم.

«إلى أين ستذهبون؟»، سألت سابين بتهذيب.

«روزي تريد أن ترى لندن، وتقول إنّ نيس باتت ابنةَ عصرها تمامًا».

كانت سابين قد استدارت، منهمكة بفستان إيسمي. علّقته بعلّاقة وهي تمدّ عنقها في الوقت نفسه لترى من الّذي دخل المحلّ.

«أتودّين المجيء؟»

علمت إيسمي أنّها استعجلت الدّعوة؛ كان يجدر بها التّمهيد للعرض قبل التّفوّه به.

بدت سابين قد أُخِذت على حين غرّة، ولا عجب. ليس الأمر كما لو أنّهما صديقتان، فهما ما كانتا تلتقيان على الغداء أو تتبادلان النّمائم أثناء تناول

الشّاي قطّ، ومع ذلك فقد شعرت إيسمي بنفسها تحاول دحر تقييدات علاقتهما.

«سيسعك أن تري عائلتك»، قالت.

أوّل الأمر، ساءها صمت سابين الخَليّ، ثمّ أدركت أنّها أقفلت وجهها بذلك التّعبير المكابر الخاوي لأنّها تحاول ألّا تبكي. للمرّة الأولى، تعجّبت إيسمي كيف عساها كانت مغادرةُ سابين لوالديها، لأصدقائها، لبلادها- لكلّ شيء عرفته يومًا. طيلة السّنين الّتي خدمتها سابين فيها بكلّ إخلاص، لم يخطر لإيسمي قطّ أنّ خادمتها ربّما تعاني الحنين إلى الوطن، لم تفكّر قطّ في منحها الوقت والمال من أجل زيارة إلى باريس.

«أنا سأتحمّل كلّ التّكاليف»، ألحّت إيسمي: «سأبيع المنزل- لا أكاد أحتاجه بما أنّني لا أستقبل أحدًا. سيكون في ذلك تخفيف حمل في الحقيقة، إذ لن يتعيّن عليّ أن أدير تلك المساحة الهائلة».

وفجأةً بدت الكلمات الّتي سبق لإيسمي أن قالتها بفتور لمحاميها ولشركاء عمل تشارلي حين تباحثوا في أمورها المادّيّة صحيحة؛ التّخلّي عن المنزل سيروّح عن معنويّاتها، ستكون حرّة.

«هل أنت متأكّدة يا مدام؟»

حقيقة أنّ سابين لم تتكلّف حتّى الممانعة كانت علامةً على مدى رغبتها في الذّهاب. أرادت إيسمي أن تحضنها كما تحضن روزي أو روبي، لسنين كانت ترى سابين بمقام ابنيها- شخصًا هي مسؤولة عنه، رغم كونهما في السّنّ نفسها عمليًّا.

لقد عكس مرور الزّمن دوريهما ببراعة: ظلّت إيسمي كالأطفال تتّكل على الآخرين بينما نضجت سابين لتحقّق اكتفاءها الذّاتيّ. سابين لم تتزوّج، لم تُلهِها متطلّبات الأمومة، لقد نحتت مصيرها بنفسها.

«بالطّبع متأكّدة»، قالت إيسمي: «لغتي الفرنسيّة مريعة، سنكون في ورطة رهيبة دونك».

هزّت سابين رأسها، لكنّها كانت تبتسم، فردّت لها إيسمي الابتسامة ومدّت يديها.

تشابكت أصابعهما وشدّت على بعضها. اعتدنا أن نضحك طوال الوقت، تذكّرت إيسمي: كنّا نضحك ونضحك، فيقلب هيرام عينيه متظاهرًا بالاستنكار.

كيف لم تدرك إيسمي أنّ سابين كانت أكثر صديقة حقيقيّة حظيت بها؟ لقد عرفت سابين إيسمي حين كانت السّيّدة هاربر وحين صارت السّيّدة فان هاوزن؛ لقد رأت إيسمي في أسوأ حالاتها ولم تتذبذب يومًا في بِرِّها. كانت إيسمي تظنّ أنّها لن تعبر الأطلسيّ من جديد، وإذا ثنتها مناشداتُ روزي وافقت بتردّد على القيام بالرّحلة، وهي تعرف أنّه سيتعيّن عليها إتخام نفسها بالعقاقير حتّى تقارب أن تفقد وعيها في سبيل ركوب السّفينة.

أو ربّما لا، إن كانت سابين برفقتها. سابين ستفهم ما يجعل أعصاب إيسمي متوتّرة من الإبحار؛ ولعلّها قد تشاركها الخوف نفسه. يمكنهما الفضفضة لبعضهما، واستمداد القوّة من بعضهما، حتّى إنّ إيسمي ربّما تكون شجاعة بما يكفي لتترك عبواتها في المنزل.

تشارلوت

مايو ١٩٣٣

كان السّيّد هيلي يعيش في منزل متواضع له مصطبة، يتعذّر تمييزه عن جيرانه في الشّارع الهادئ بساوثهامبتون. نافذة إطلالة كبيرة واحدة في الطّابق السّفليّ، ونافذتان أصغر في الأعلى؛ من نوع السّكنى البليدة المحترمة الّتي يطمح الفقراء إليها ويأنفها الأغنياء. منزل لا يكشف شيئًا عمّن يقطنون داخله.

لقد كان إيجاد السّيّد هيلي سهلًا بما يكفي. أبدى مكتب وايت ستار لاين تعاونًا كبيرًا، لا سيّما بعد أن أخبرتهم تشارلوت بمكان عملها وقالت إنّها قد تذكر أحدث سفن وايت ستار في عمودها القادم. أخبرت سكرتيرةٌ تشارلوت أنّ السّيّد هيلي خدم على سفينة الأولمبيك في السّنوات الّتي تلت الحرب وأصبح الآن ربّانًا على خطّ شحن تجاريّ، حتّى أنّها أعطتها عنوانه.

منذ عودة تشارلوت من أمريكا، أصبحت الذّكريات الّتي أجّجتها محادثاتها مع إيسمي وجورجي أكثر وضوحًا وإلحاحًا. الماضي، في بعض الأحيان، يبدو حيويًّا أكثر من الحاضر. وكلّما تصوّرت تشارلوت التّايتانيك وما تلاها، كانت أفكارها تتحلّق عائدةً إلى السّيّد هيلي؛ تجلّدُه في القارب، إصراره على إنقاذ أيّ أحد يستطيع إنقاذه. لم تزل ترى فيه واحدًا من أكثر الرّجال الّذين التقتهم يومًا احترامًا.

ومع ذلك فعندما رأته آخر مرّة، في جلسات الاستماع، كان جسده كلّه مرتخيًا تحت حمل موت ذلك الرّجل المسكين. هل هدأ شعوره بالذّنب مع الزّمن؟ كانت تأملُ ذلك؛ كان يروق لها التّفكير في أنّه مضى ليعيش حياة سعيدة حافلة.

الأمر لا يتطلّب أكثر من بضع دقائق تخربش فيها رسالة قصيرة بنبرة مرتاحة مناسبة؛ إنّ تشارلوت خبيرة بسبك الكلمات لتحقيق أثر مرغوب. لكنّ الصّعوبة كانت تكمن في شرح السّبب الّذي يجعلها تريد رؤيته، كلّ سبب خطر ببالها بدا عاطفيًّا بشكل مفزع، أو نصفَ مجنون.

ألم تزل تفكّر في قارب النّجاة؟

لن تصدّق ما حدث لتشارلز فان هاوزن!

أنا لم أنسكَ يومًا.

كان جورجي يحثّها على فعل ذلك منذ أشهر. جورجي، الّذي سوّى خلافه مع أمّه وأصبح واحدًا من أصدقاء المراسلة المفضّلين لدى تشارلوت، كان يروق له أن يغيظها: هل تعقّبتِ البحّار الحالم الّذي أخبرتني عنه؟ ألديه ثلاثة ذقون متكدّسة واثنا عشر ولدًا؟ جورجي آت لزيارة ليدي أبتون بعد بضعة أسابيع، وقد هدّد أن يقابل السّيّد هيلي بنفسه إن لم تكن تشارلوت قد تحدّثت إليه حتّئذٍ. لم تعتقد تشارلوت أنّه سيفعل ذلك، لكنّ مضايقاته أضفت مسحة من الذّنب على قعودها. ثمّ جاءت رسالة أخرى من أمريكا، عليها ختم مينيابوليس البريديّ. الخبر الّذي تضمّنته كان مباغتًا كفاية لدفع تشارلوت إلى المضيّ بخطّتها. لقد كان السّيّد هيلي حاضرًا آنذاك؛ لقد رأى آنا متلفّعة بمعطف ريج. تذكّرت الرّاحة الّتي شعرت بها حين مرّر المجاذيف: إنّه على بيّنة ممّا يفعل؛ نحن في أيدٍ أمينة.

سيعرف ما ينبغي أن يتمّ فعله.

دقّت تشارلوت الباب، طرقتين سريعتين. كانت قد هيّأت نفسها لنسخة مسنّة من الوجه الّذي طارد ذكرياتها، لذا لم تُباغَت من خطّ شعر السّيّد هيلي المنحسر أو التّجاعيد حول عينيه. ما فاجأها كان مدى السّرور الصّادق الّذي شعرت به لرؤية هذا الرّجل الكهل الّذي بالكاد تعرفه.

صافح السّيّد هيلي يد تشارلوت، بحركة مهذّبة غير أنّها ملجومة، ودعاها إلى الدّخول. بدا عليه هدوء أكبر بكثير ممّا شعرت به هي، كأنّ الإحراج المحتمَل من التئام الشّمل هذا لم يرد بباله قطّ، وحاولت تشارلوت أن تقلّد رصانته. تِكْنيكها المعتاد لدى لقاء شخص جديد كان يقوم على إفلات العنان لوابل من الحديث المرِح، لكنّها خمّنت أنّ المبالغة بالهذر ستجعله ينفر.

«شكرًا لقدومك»، قال السّيّد هيلي وهو يأخذ قبّعة تشارلوت: «فكّرت في البداية أن أقترح اللّقاء في مقهى– لكان ذلك لائقًا أكثر، كما أظنّ؟»

هزّت تشارلوت رأسها، كما لو كانت لا تبالي أيّ الخيارين اختار، مع أنها قد فوجئت حين أجاب على رسالتها بدعوة إلى منزله.

«كان سبب تخوّفي هو أنّ الحديث قد يفضي إلى مسائل من الأفضل أن تناقَش على انفراد، أنا واثق أنّك تتفهّمين»، قاد السّيّد هيلي تشارلوت إلى الصّالون الأماميّ: «تفضّلي بالجلوس؛ سأحضر الشّاي».

كان للمنزل هالة معتمة من العزلة. راحت تشارلوت تقلّب ناظريها حولها بحثًا عمّا يدلّ على ترتيباته المعيشيّة؛ الصّالون مقبِّض لكنّه أصيل البساطة، فيه أريكة خضراء غامقة وكرسيّ بذراعين يطابق لونها، على الجدران صور مطبوعة لمناظر بحريّة معلّقة داخل أطر خشبيّة بسيطة. ما من ألعاب أو صور فوتوغرافيّة أو أيّ دليل آخر على حياة عائليّة، ولم تكن تشارلوت قد رأت إلّا معطفًا واحدًا على الشّمّاعة في الممرّ. لكن ربّما كان الصّالون يظلّ مرتّبًا من أجل الزّوّار، ويتمّ إبقاء أغراض الأطفال في الطّابق العلويّ.

رجع السّيّد هيلي بصينيّة وضعها على الطرابيزة بجانب تشارلوت. طقم شاي فضيّ وُضع مائلًا في منتصفها، وعلى جانبيه كوبان خزفيّان بزخرفة نباتيّة، وقد فُرِد صفّ من البسكويت الجاهز فوق صحن له نفس الزّخرفة. تأثّرت تشارلوت إلى حدٍّ ما بالتّرتيب الاعتباطيّ، كان واضحًا أنّ السّيّد هيلي حضّر كلّ شيء بنفسه.

أومأت موافقةً على الحليب والسّكّر كليهما، ثمّ ارتشفت رشفة استهلاليّة. كان الشّاي أسخن ممّا توقّعت، ممّا جعلها تُجفل قبل أن تضع كوبها. جلس السّيّد هيلي على الكرسيّ ذي الذّراعين قبالة تشارلوت، هادئًا لا يشوب هدوءه شيء، ينتظرها أن تبدأ الكلام هي. كان أمرًا يثير السّخط بدرجة ما ألّا توجد دلائل على ما يفكّر فيه.

«أتوقّع أنّ رسالتي فاجأتك»، بدأت تشارلوت حديثها.

«بالفعل»، قال السّيّد هيلي: «لكنّها مفاجأة سارّة».

«حقًّا؟ يسعدني سماع هذا».

بدأت أعصاب تشارلوت تهدأ. كان السّيّد هيلي مهذّبًا أكثر من أن يسأل عن سبب قدومها مباشرةً، لكنّها انتبهت إلى ومضة من التوجّس في نظرته الرّائقة.

«هل يحدث أن تتكلّم عن التّايتانيك؟»، سألته راجيةً أن يباغته سؤالها.

هزّ السّيّد هيلي رأسه: «الأفضل ألّا أفعل».

«هذا ما كنت أراه، لوقت طويل جدًّا»، قالت تشارلوت: «رجعت إلى لندن بعد فترة غير طويلة. بدأت أعمل في وظيفة جديدة، وتعرّفت على أصدقاء جدد، ولم أخبر أحدًا. لم أرَ أيّ جدوى من الكشف عن ذلك أو المشاركة في كلّ تلك الأقاويل أو تبادلات التّهم. ظننت أنّني سأرمي ذلك خلفي، لكنّه أمر

ولا أغرب...»، تساءلت تشارلوت إن كان السّيّد هيلي سيتفهّم، لكن لا معنى لمجيئها إذا لم تتكلّم بصراحة: «كلّما مرّ الزّمن، ألفيت نفسي أفكّر في ما حدث أكثر».

«أتخطّطين للكتابة عن ذلك؟»، سألها السّيّد هيلي.

«ماذا تقصد؟»، سألته تشارلوت متفاجئة.

بدا مرتبكًا للحظة: «أعرف أنّك تعملين لدى إحدى الصّحف. أنا آسف، لا أستطيع تذكّر أيّ صحيفة هي».

«الرّيكورد»، قالت تشارلوت.

«أجل، اعتادت زوجتي أن تشتريها من حين إلى آخر».

إذًا فثمّة سيّدة هيلي. تساءلت تشارلوت أين عساها تكون، وإذا ما كانت تعرف أنّ زوجها لديه زائر اليوم. ربّما يكون إدموند قد تعمّد أن يطلب من تشارلوت المجيء في وقت يعرف أنّ زوجته ستكون خلاله في الخارج.

«أذكر أنّني رأيت اسمك على إحدى المقالات»، قال السّيّد هيلي: «شيء يتحدّث عن ثعلب طليق في عزبة ما».

«أوه، أجل! صيد الثّعالب المنزليّ الّذي رتّبته ليدي دارلينغتون لعيد ميلاد زوجها»، فوجئت تشارلوت من تذكّره لذلك؛ لا بدّ أنّه كان منذ أكثر من عشر سنوات: «راحت الكلاب تجوب السّلالم وتسقط أواني العائلة الخزفيّة، كان ذلك جنونًا منقطع النّظير».

«لقد سرّني أن أفكّر فيك وأنت تتسكّعين مع كلّ أولئك النّبلاء»، قال السّيّد هيلي.

«كنت بعيدة عن الخدم نصف خطوة فقط»، أجابت تشارلوت: «ليدي

دارلينغتون تدعو كتّاب الأعمدة الاجتماعيّة إلى حفلاتها المنزليّة دائمًا، فهي تتوق لترويج صيت تصرّفاتها الصّارخة».

«يبدو هذا مسلّيًا».

كان الجميع يظنّون ذلك؛ يرون حياة تشارلوت سلسلة من المآثر المسلّية، دون أن يعرفوا شيئًا عن العمل الشّاق الّذي يتطلّبه كلّ عمود يوميّ. لفترة بدت دهورًا، تعيّن على تشارلوت أن تتكلّف الودّيّة وتتظاهر بالافتتان بأشخاص مقيتين. لقد بدّدت سنوات من حياتها- وكثيرًا من موهبتها- في تأريخ التّصرّفات الطّفوليّة غريبة الأطوار للطّبقة العليا، ومع ذلك فهذا العمل سيكون تركتَها.

«اعتدت أن أستمتع بذلك»، قالت تشارلوت. شجّعتها نظرة السّيّد هيلي الفضوليّة على المتابعة، وعلى الإقرار بالشّكوك الّتي لم تكن تسمح لنفسها أن تنظر فيها: «أحبّ لقاء الأشخاص الجدد، كما أحبّ رواية القصص. أنا ماهرة في ذلك. لكنّ الأمر يبدو كما لو كنت أركض نحو جائزة كانت دائمًا بعيدة عن متناولي، ولم أدرك إلّا مؤخّرًا أنّها غير موجودة. ما من قمّة أبلغها، بل المزيد من الشّيء نفسه ببساطة».

لم تُصدم تشارلوت من القنوط في اعترافها إلّا حين جهرت به، كان ذلك أكثر ممّا قصدت أن تبوح به بالتّأكيد.

«دورك»، قالت بحيويّة: «حريّ بي أن أخاطبك بالكابتن هيلي، أليس كذلك؟»

أومأ السّيّد هيلي، لكن دون أثر لتكبّر الدّيوك الّذي اعتادت تشارلوت عليه لدى الرّجال العسكريّين.

«إنّها لشجاعة كبيرة منك أن تعود إلى البحر بعد ما حدث، لقد تجنّبتُ الإبحار لسنوات».

«أبي كان بحّارًا، وجدّي من قبله»، قال السّيّد هيلي: «لم يكن لديّ خيار».

بالطّبع لم يكن لديه. كانت دائرة تشارلوت الاجتماعيّة مليئة بأشخاص شقّوا طرقهم بأنفسهم، فأعادوا ابتكار ذواتهم كشعراء أو ممثّلين أو محبّي مغامرة أرستقراطيّين.

لقد نسيت، للحظة من الزّمن، أنّ معظم النّاس لا يمتلكون الإرادة أو المال لتحدّي توقّعات عائلاتهم.

«كنتُ موجودة خلال شهادتك، في جلسات الاستماع الأمريكيّة»، قالت.

«حقًّا؟»، تجعّدت عينا السّيّد هيلي من المفاجأة. لم يرها حينذاك إذًا، هي لم تكن متأكّدة من ذلك قطّ.

«لا بدّ أنّ الأمر كان صعبًا»، قالت تشارلوت.

«كان كذلك، إلى حدّ ما»، أحاطت يدا السّيّد هيلي بكوب الشّاي، وتشابكت أصابعهما: «لم أكن أملك بنسًا، وهناك كنت، أمام ذلك الجمع، في بدلة تبرّعات من جمعيّة أصدقاء البحّارة».

تذكّرت تشارلوت كيف جعلته السّترة الواسعة جدًّا يبدو مثل تلميذ يتنكّر بملابس والده، وكيف كان صوته يرتجف وهو يحاول صياغة ما يتعذّر شرحه بالكلمات.

«رؤية ما ذاع في الصّحف كانت أسوأ»، قال السّيّد هيلي: «في لحظة كنتُ البطل الّذي انتشل فتاة غارقة من الماء، وفي اللّحظة التّالية أصبحت الشّرّير الّذي ترك آخرين يموتون».

فهمت تشارلوت على الفور السّؤال الّذي كانت عيناه تسألانه: «أنا لم أكتب عنك قطّ، أو عن أيّ شيء يخصّ قارب النّجاة».

«لقد أنهكني أن أكون مركز الانتباه»، قال السّيّد هيلي: «توعّكت لفترة- واحتجت القليل من الرّاحة، أكثر من أيّ شيء آخر. أقمت لدى والديّ لبضعة

أشهر، وانطويت على نفسي. ثمّ، حين استنفد أبي آخر ماله- وليباركه اللّه- عدتُ إلى وايت ستار لاين. وكنت على متن رحلة عبور الأطلسيّ بعد يومين».

«يا إلهي»، تمتمت تشارلوت متعاطفة.

«لا وقت للاكتئاب وبرود الهمّة، إن كنت على رأس عملك. سجّلت اسمي من أجل مناوبات إضافيّة أو أيّ شيء تدعو الحاجة إليه. ثمّ جاءت الحرب، فالتحقت بالبحريّة وشاركت في رحلات إمداد إلى البحر المتوسّط. ورغم أنّ كلّ المجد كان يفوتني، فقد أدّى ذلك إلى نتيجة حسنة، وأصبحت ضابطًا ثانيًا على متن الأولمبيك بعد ذلك».

السّفينة الشّقيقة للتّايتانيك، كيف تراه تحمّل ذلك؟

«والآن أنت ربّان»، قالت تشارلوت بإيماءة احترام.

«سفينة الميريديان، إنّها تبحر مرّتين في الشّهر إلى الكاريبيّ».

انحنى السّيّد هيلي إلى الأمام يعرض المزيد من الشّاي. صبّ بثقة أنيقة، لكنّ الارتباك ظلّ متلبّثًا في صمتهما المشترك. استغربت تشارلوت أنّه لم يقل شيئًا عن زواجه. ربّما يكون أرمل، بيد أنّه لم يُبدِ حزنًا على وجه التّحديد حين ذكر زوجته بتلك الطّريقة المرتجلة.

«أتذكر إيسمي هاربر، من القارب؟»، سألته تشارلوت: «يجدر بي أن أقول إيسمي فان هاوزن. تعلم أنّها تزوّجت من تشارلز بعد وقت غير طويل، أليس كذلك؟»

«أوه، بلى».

كيف عساه لا يعلم؟ لقد كانت سيرة «عاشقَي التّايتانيك» في كلّ مكان.

«كنتُ في نيويورك العام الماضي، وقمت بزيارتها»، قالت تشارلوت.

اتّسعت عينا السّيّد هيلي، قليلًا فقط.

- «لقد توفي السّيّد فان هاوزن الخريف الماضي، في حادث سيّارة. ذهبتُ لأقدّم التّعازي. كانت في حالة يرثى لها، وهذا أمر مفهوم نظرًا إلى الظّروف. المؤسف أنّها كانت تعيسة منذ فترة طويلة، قبل وفاته بكثير. كانا غارقين في الغرام حين تزوّجا- لك أن تخمّن كم كانت متيمّة به في القارب، أليس كذلك؟ - لكنّهما لم يتمكّنا من إيقاف تلك الشّائعات الّتي كانت تقول إنّه تسلّل إلى القارب متنكّرًا بزيّ امرأة أو إنّه قدّم رشوة للطّاقم، رغم أنّها كانت محض هراء. بالحكم على طريقة كلام إيسمي، فهي وتشارلي لم ينجوا من الغرق بحقّ».

- «يؤسفني سماع ذلك».

«إليك الجزء الغريب من الموضوع»، قالت تشارلوت: «لقد تركتُ بطاقتي مع إيسمي، بدافع من التّهذيب، لا لأنّني توقّعت أن أسمع منها مجدّدًا ذات يوم. ثمّ، بعد ذلك بشهور، تلقّت رسالة من تلك الفتاة السّويديّة، آنا، الّتي انتشلتَها من الماء».

«أحقًّا ما تقولين؟»

«إنّها تعيش في مينيسوتا، في مكان ما من الشّمال»، كانت تشارلوت قد قصدت أن تبحث عنها في خريطة، لكنّها لم تتوصّل إلى ذلك: «متزوّجة، ولها ثلاثة أبناء.

على ما يبدو، كانت تحاول العثور على لسنوات، لكنّها لم تعرف اسم عائلتي، لا شيء سوى أنّني أدعى تشارلوت. عندما رأت تقريرًا عن وفاة تشارلز، فكّرت أنّ إيسمي قد تعرف مكاني. كتبتْ إلى إيسمي، فأرسلت إليها عنواني، ثمّ كتبت آنا إليّ».

«يا لها من قصّة»، بدا السّيّد هيلي مهتمًّا، ممّا شجّع تشارلوت.

«لقد أعطيتُ آنا معطفًا، على متن قارب النّجاة»، شرحت تشارلوت: «أنت تذكر كم كانت غارقة بالماء- أردت أن أدفئها. حاولتْ أن تعيد المعطف، على متن كارباثيا، لكنّ المرء كان ليدرك من مجرّد النّظر إليها كم كانت شديدة الفقر وتحتاجه أكثر منّي بكثير، فقلت لها أن تحتفظ به ولم يخطر الموضوع ببالي مجدّدًا مذّاك. لكن ما لم أعلمه هو أنّ ريج، زوجي...»، تلعثمت تشارلوت بالكلمة.

أيجدر بها إخباره؟ هل سيشكّل ذلك أيّ فرق؟.. «كان قد خبّأ خمسين جنيهًا في البطانة».

«يا إلهي». كان مبلغًا معتبرًا، وهو كذلك حتّى اليوم، غير أنّه كان بمثابة ثروة بالنّسبة إلى بحّار شابّ عام ١٩١٢.

«لقد اعتزمت آنا أن تردّ المبلغ، لكنّها لم تعرف كيف تصل إليّ. وفي نهاية المطاف، أعطت المال لزوجها، فاستعمله لتأسيس شركة بناء خاصّة به. على ما يبدو، فقد لاقى نجاحًا كبيرًا. قالت إنّ كلّ ذلك بفضلي، وهذا غير صحيح بالطّبع، لكنّني أظنّ أنّ المال ساعده في طريقه بالفعل».

«أولم يخبرك زوجك بذلك قطّ؟»، سألها السّيّد هيلي.

ارتسمت لتشارلوت صورة ريج يوم لقائهما، وهو يتباهى بالجزء المخفيّ من سترته الّذي لا يستطيع النّشالة أن يطالوا الأوراق النّقديّة فيه. قبل أن يوقف قارب النّجاة بوقت غير طويل، كان ريج قد تمتم في أذنها وهو يرخي معطفه حول كتفيها، ومنعها غضبها من الانتباه. أيكون ذلك ما حاول أن يخبرها إيّاه؟ إن صحّ، فقد حرمها عنادُها من أن تعلم بأمر هديّته الأخيرة.

«لقد حاول ذلك، كما أظنّ»، قالت تشارلوت: «لكنّني لم أسمعه. قالت آنا إنّه سيكون همًّا ينزاح عن ضميرها إن هي ردّت المال، العقبة الوحيدة هي أنّني لا أشعر بصواب الاحتفاظ به».

- «إن كان المال لزوجك...»

- «أنا لم أكن متزوّجة».

أربع كلمات بسيطة، تُفكّك الكذبة الّتي عاشت تشارلوت معها طوال عقدين. لم تكن متأكّدة ممّا دفعها كي تعترف.

«كنت مولعة بغرام السّيّد إيفرز، بالرّغم من كونه نصّابًا ولصًّا»، قالت تشارلوت. إن كانت ستتكلّم بصراحة، فلا ضير في أن تكون الصّراحة شاملة: «أو ربّما بسبب كونه نصّابًا ولصًّا. بيد أنّه لم يكن مهتمًّا بالزّواج، طلب منّي أن أمثّل دور زوجته ليظهر بمظهر أكثر احترامًا خلال الرّحلة. بعد أن تمّ إنقاذنا، وكان الضّبّاط يدوّنون الأسماء، أعطيتهم اسمي على أنّني السّيّدة ريجينالد إيفرز لأنّني كنت أعلم أنّه ورد هكذا في قوائم الرّكّاب. وبعد ذلك، في نيويورك، وجدت أن ثمّة محاسن لكوني أرملة، مقدار من الاستقلال استمتعت به بالأحرى، لذا ظللت السّيّدة إيفرز منذ ذلك الوقت».

بقي السّيّد هيلي صامتًا للحظة، وكانت تشارلوت واثقة أنّها صدمته، ثمّ ارتعشت شفتاه في بداية ابتسامة.

«إن لم تكوني السّيّدة إيفرز، فماذا يجدر أن أناديك؟»

تشارلوت ديغبي، قالت في قرارتها، لكنّه بدا لها اسم شخص غريب، لا يمتّ لها بصلة: «أصدقائي ينادونني تشارلوت».

أدركت على الفور أنّ عرضها، من نوع الإيحاء اللّعوب الّذي اعتادت أن تقدم عليه في الحفلات اللّندنيّة الأنيقة، كان في غير محلّه داخل منزل الطّبقة العاملة المتزمّت هذا. أخفض السّيّد هيلي عينيه وراح يعبث بكوب الشّاي. كانت تشارلوت قد استوعبت أنّها تخطّت حدًّا ما- بل تجاوزته باندفاع في الحقيقة- وتعجّبت كيف عساها ترجع عن ذلك.

«إذًا فعليك أن تناديني إدموند»، قال بهدوء: «إن كنّا سنصبح صديقين».

«عظيم»، حتّى لو لم تره مجدّدًا، فقد راقت لها معرفة أنّه يفكّر فيها بهذه الطّريقة: «أعدك، سأحرص تمامًا أن أناديك بالكابتن هيلي في العلن».

هزّ إدموند رأسه، وهو يبدو موشكًا على التّورّد. الفكاهة الاجتماعيّة الّتي هي بمثابة لغة تشارلوت الثّانية، كانت بالنّسبة إليه لغة أجنبيّة. الأفضل أن تتكلّم بمباشرة.

«أنا لا أحتاج إلى النّقود»، قالت: «أشعر أنّها ملطّخة بموت ريج، أفضّل جدًّا لو تُوظَّف لأمر خيّر في هذا العالم. كنت أفكّر ربّما في مشروع خيريّ، شيء له علاقة بالبحّارة، وأملت أن تستطيع مساعدتي. لا بدّ أن يكون تمّ إنشاء صندوق إعانة لعائلات أفراد طاقم التّايتانيك الّذين قضوا؟»

«لقد أُنشِأت صناديق، آنذاك»، قال إدموند: «لكن مضى عشرون عامًا- أشكّ أن يكون أحدها ما زال نشطًا».

بالطّبع، فكّرت تشارلوت. سيكون الكثير من الأطفال الّذين فقدوا آباءهم في حادثة التّايتانيك قد أصبحوا آباء بدورهم الآن.

«لكن ثمّة مشروع خيريّ واحد قد يناسبك»، تابع قائلًا: «جمعيّة تيبتون للإعانة.

أنشأتها أرملة قبطان. لقد فُقد بعض رفاقي في الحرب، فأشرفت السّيّدة تيبتون على رعاية عائلاتهم. دفعت الرّسوم الدّراسيّة لأحد الشّبّان الواعدين، وهو الآن يرتاد الجامعة».

«أجل، يبدو هذا ممتازًا»، قالت تشارلوت. لطالما كان ريج يرى في نفسه روبن هود من نوع ما؛ كان ليستمتع بمعرفة أنّ المال الّذي سرقه من حمقى أثرياء سيذهب إلى أطفال مستحقّين. «هل أكتب لها؟»

- «يمكنني أن أعرّفك عليها، إن أردتِ».

- «حسنًا، لا استطيع البقاء طويلًا اليوم...»

- «في وقت لاحق؟»

تلك كانت دعوة، قُدِّمت بيد متردّدة.

«جيّد جدًّا»، قالت تشارلوت. ثمّ، ولأنّها لم تبلغ ما وصلت إليه بتجنّب الأسئلة الصّعبة: «ربّما يتسنّى لي كذلك اللّقاء بالسّيّدة هيلي؟»

رفع إدموند كتفيه في إشارة واهية: «إنّها لدى والدتها في ليفربول».

منحته تشارلوت الصّمت كي يشرح، إن هو اختار ذلك.

«البحّارة ليسوا أزواجًا صالحين، وهذه قاعدة»، قال إدموند، وكان صوته هادئًا تشوبه الخيبة: «لم تولد زوجتي ضمن هذه الأجواء على عكس أمّي وجدّتي. كان الأمر صعبًا عليها، مع غيابي لشهر في كلّ مرّة. وحتّى عندما أكون في البيت، لم أكن أميل إلى الحديث كثيرًا؛ لقد تعوّدتُ على أن أكون وحدي. لم نرزق بأطفال، ما كان من شأنه ربّما أن يساعد لو حدث. أنا لا أشعر بالحرمان عن نفسي، لكنّ ذلك كان ليقلّل من وحدتها. على أيّ حال، لديها أخوات وأبناء أخوات في ليفربول. إنّها سعيدة هناك، لذا فهذا هو التّرتيب الّذي توصّلنا إليه».

هل ينبغي بتشارلوت أن تشعر بالأسف من أجله؟ لم تستطع أن تخمّن أكان متضايقًا من حالة حياته الزّوجيّة أم مرتاحًا لإزاحة زوجته عن طريقه، ربّما كان مزيجًا من هذا وذاك. لو أنّ إدموند وزوجته ممثّلان أو مغنّيان، لكانا تطلّقا منذ وقت طويل وباتا في مرحلة متقدّمة من زيجتهما الثّانية أو الثّالثة، لكنّ تشارلوت كانت تعرف أنّ الطّلاق لم يزل غير وارد بالنّسبة إلى أشخاص

مثل آل هيلي. رغم أنّهما يعيشان حياتين منفصلتين، فزواجهما- على الورق- سيستمرّ.

«متى ستبحر في رحلتك القادمة؟»، سألته تشارلوت؛ تأدّبٌ اجتماعيّ بهدف العودة بالحديث إلى أرضيّة أكثر أمانًا.

- «بعد أسبوع من الغد. عادة ما أبحر ثلاثة أسابيع، وأستريح في الرّابع. سأعود في نهاية مايو».

- «إذًا فربّما يمكننا التّرتيب لزيارة السّيّدة تيبتون حينها؟»

- «سأهاتفها اليوم لاحقًا، ستكون في غاية الامتنان لكرمك».

كان بوسع تشارلوت أن تستشعر بالزّخم يتّجه نحو نهاية. جيّد جدًّا، شكرًا لك، سرّني لقاؤك. يجدر بها أن تهمّ بالوقوف وجمع أغراضها، لكنّها لم ترغب بالمغادرة. ومن طريقة جلوس إدموند- مسترخيًا يستند على ظهر كرسيّه، وكوب الشّاي مستقرّ على ركبته- أحسّت بارتياحه المستحبّ؛ هو الآخر لم يكن يريدها أن تذهب. تراكبت الأفكار إلى كلمات، أطلق عنانها تفهُّمه واسعُ الصّدر.

«ما سبق وقلتُه، عن رمي قصّة التّايتانيك وراء ظهري. لقد فعلت ذلك- أو بالأحرى، ظننت أنّني فعلت ذلك. لم أتحدّث بالأمر قطّ، وحاولت ألّا أفكّر فيه، لكن تبيّن أنّ الذّكريات لم تزل موجودة، محفوظة».

هل كانت رسالة ليدي أبتون هي ما دبّ الحياة بكلّ هذا؟ موت تشارلي فان هاوزن؟ لعلّ سيرورة الزّمن ببساطة هي الّتي فعلت. كلّما تقدّمت تشارلوت في السّنّ، ازداد توقها إلى ذاتها الماضية. المرأة الّتي كانتها مع ريج، الّتي لم تكن تتهيّب قطّ من المغامرة. امرأة أمامها إمكانيّات لا تحصى.

«أيحدث وتشعر أنّ الزّمن يلتفّ عائدًا، مع تقدّمك في السّنّ؟»، سألت تشارلوت: «بالكاد أستطيع أن أتذكّر مع من تغدّيت الأسبوع الماضي، إلّا أنّ مشاهد تلك اللّيلة واضحة جدًّا في ذاكرتي، إلى درجة تجعلني أرتعد. أستطيع أن أرى كلّ الوجوه- آنا وإيسمي وذلك السّيّد ويلز البغيض...»

طفق إدموند يقهقه: «وهو ينفث دخانه في وجه السّيّدة ماكبرايد!»

قلّدت تشارلوت صياح المرأة الحادّ: «لا أقبل أن أعامَل بهذه الطّريقة!»

- «أجل، لقد أجدتِها. كلّ شيء واضح تمامًا».

- «أنا لم أشكرك بشكل لائق قطّ، على إنقاذ حياتنا».

بدا إدموند مضطربًا، كما توقّعتْ: «لا أرى أنّني استحقّ هذا!».

«كنت تتبع الأوامر. كان احتمالًا كبيرًا أن يغمرنا الماء لو جذّفنا عائدين، وأنا آسفة جدًّا على الطّريقة الّتي كلّمتك بها. كنت أنوي الاعتذار منذ وقت طويل جدًّا».

«لا داعي»، قال إدموند بتصلّب.

- «كلّ تلك التّحقيقات والمقالات الفظيعة في الصّحف... لم يسعها قطّ أن تصف كيف كان الأمر حقًّا، أليس كذلك؟ أن تضطر إلى اتخاذ قرار حياة أو موت بينما أنت متجمّد ومستنزف وخائف من الهلاك الوشيك. الأشياء تحدث بسرعة شديدة، ولا وقت لديك للتفكير. وفي ما بعد، حين يتمّ استدعاؤك لحسابك على ما فعلته، أنّى لك أن تجعل أيّ شخص آخر يفهم؟»

- «كان يجدر بنا إنقاذه».

أيّ هدوء ذلك الّذي نطق به عبارته! ومع ذلك استطاعت تشارلوت أن تسمع رجفة اتّهام الذّات. «الرّجل الّذي كان في الماء؟»، سألته.

«ما زلت أفكّر فيه، وأنت؟»

«أحاول ألّا أفعل»، الحقيقة متحجّرة القلب.

«ما يزيد الطّين بلّة أنّني كنت أعرفه».

«حقًّا؟»، تذكّرت تشارلوت كم كانت واثقة آنذاك أنّه ريج، وكيف راوغت نفسها كي تكفّ عن تصديق ذلك.

«لقد أدار وجهه، حين رفعتُ القنديل. لم أكن أعرف اسمه، لكنّني كنت قد رأيته في مقصف الطّاقم. كان واحدًا من المضيفين. كانت لديه أمّ وحبيبة، وكان يقول: «حين أعود إلى سيّدتيّ...» فيقول الآخرون: «أوه، تابع كلامك إذًا» ويظلّ يبتسم ويتباهى أنّهما كانتا أرقى مثالين رآهما للنّساء. كان دائم البهجة، دائم الابتسام... كان ليعيش لو أنّني سيطرت على زمام القارب وضبطته. لقد عاودتني تلك الدّقائق مرارًا وتكرارًا، خلال كلّ لياليّ تلك في منزل والديّ، حين لم أستطع النّوم. ما الخطأ الّذي اقترفته، وكيف كنت لأستطيع ربّما أنّ أوفّر على تينك المرأتين أساهما».

«لا يمكنك أن تأخذ كلّ ذلك على عاتقك»، شعرت تشارلوت برغبة ملحّة سخيفة في أن تضع يديها على وجنتَي إدموند، أن تشدّه نحوها وتهمس إليه بغفرانها: «لقد بذلت قصارى جهدك، كلانا فعلنا».

سحب إدموند نفسًا عميقًا: «لا جدوى من أن نعيد ونفتق، ما حصل حصل».

«أتعلم؟ لم يكن سبق لي أن فعلت أيّ عمل بدافع الغيريّة قبل تلك اللّيلة»، قالت تشارلوت، لم تستطع أن تسمح للحديث بالغرق في اليأس: «لقد كنت كاذبة ولصّة، أجري لاهثة خلف رجل ما كان ليتزوّجني قطّ. أكره أن أفكّر أين عساه كان سينتهي بي المطاف لو لم تغرق التّايتانيك. السّجن، على الأغلب. من المريع قول هذا، نظرًا إلى الحيوات الّتي فُقدت، لكنّ تلك اللّحظة هي الّتي صنعتني. ما كنت لأعرف ما أنا قادرة عليه، لولا ذلك».

«أنا أيضا تغيّرت»، قال إدموند: «مع أنّني لا أستطيع الجزم إذا ما كان ذلك نحو الأحسن. لم أكن أكثر الفتيان جرأة، في نشأتي، وكنت معتادًا على اتّباع الأوامر، لا إصدارها. لم أكن قويًّا كما تعيّن عليّ»، لوّح بيده مخمدًا محاولة تشارلوت للاعتراض: «لم أكن كذلك، وقد تعلّمت من الأمر. بحلول وقت عودتي إلى البحر، بتّ بحّارًا أفضل، وأكثر انضباطًا».

وشيء ثمين ضاع: الفضيلة التّلقائيّة الّتي جعلت إدموند يلقي بحبل إلى رجل يحتضر. الرّجل الرّصين الجالس قبالة تشارلوت سيتوخّى قياس الكلفة والمنفعة وراء عمليّة إنقاذ كهذه؛ فهو يؤثر الاحتراس على التّصرّف. لكن ألا ينطبق هذا على كلّ شخص، مع تقدّمه في السّنّ؟

«ثمّة ما هو محرِّر في نجاة المرء من الأسوأ»، قال إدموند: «هنالك شبّان قلقوا حيال الغوّاصات الألمانيّة، خلال الحرب، فألفيت نفسي أفكّر: ماذا لو تمّ قصفنا؟ إن نجوت أكون نجوت؛ وإن متّ متّ. الموضوع خارج عن إرادتي».

- «تبدو هذه مقاربة نافعة للحياة بالأحرى».

- «ربّما كانت كذلك».

تساءلت تشارلوت إذا ما كان إدموند قد طبّق نفس طريقة التّفكير على حياته الزّوجيّة. إن كنّا سعيدين فنحن سعيدين؛ وإن لم نكن، فليكن. لا بدّ أنّ تجلّده على الشّدائد مصدر قوّة عظيم أثناء إدارة سفينة، لكن كيف تراه أثّر في حياته الخاصّة؟ لقد كان آخرُ عشّاقها، وهو مخرج مسرحيّ، عاصفةً أمزجة متقلّبة، تتراوح من الجذل المتوثّب إلى البؤس الّذي يرثي لذاته. كان ذلك أخّاذًا إلى حدّ ما، أول الأمر، غير أنّه بات منهِكًا في النّهاية. كم هو أسهل أن ترجع إلى البيت لتجد رجلًا يكون على ذاته الأصيلة في كلّ مرّة.

«لديّ ما أندم عليه، كحال أيّ شخص»، قالت تشارلوت: «لكنّني تصالحت مع كلّ ذلك. لقد نجونا، وهذا كاف».

نظر إدموند إليها بتردّد، وبدا يستجمع جرأته: «هل لي أن أتكلّم بصراحة؟» ألم تفعل بعد؟ تعجّبت تشارلوت، لكنّها اكتفت بالإيماء.

- «اعتراني الفضول حين تلقّيت رسالتك، لكنّني توقّعت أن يكون هذا اللّقاء مربكًا بالأحرى. لم أتصوّر أيّ نفع يُرتجى من الخوض في الماضي، إلّا أنّني استمتعت بالتّحدّث إليك كثيرًا».

- «شكرًا لك».

- «لديك طريقتك في بثّ الثّقة، أظنّ أنّ هذا ما يجعلك ماهرة في عملك هكذا».

رمق إدموند تشارلوت بنظرة موجّهة. أملت أن تكون محاولة لمشاكستها، لكنّها لم تشأ أن يشكّك في دوافعها.

«سبق وقلت لك، لا أنوي كتابة أيّ شيء عن التّايتانيك»، قالت: «لست هنا بصفتي مراسلة، أنا هنا بصفتي صديقة».

بدت الكلمة غريبة، لدى الجهر بها، لكنّها صحيحة.

نظرت تشارلوت إلى ساعة يدها، فصدمها كم من الوقت انقضى. هي عادةً تتقيّد بجدول زمنيّ صارم، ويظلّ ذهنها طوال الوقت يعدّ للأمر التّالي الّذي عليها أن تفعله. لقد حجبها صالون إدموند عن فوضى حياتها اليوميّة.

«أنا آسفة»، هتفت تقول وهي تنهض عن الأريكة: «عليّ أن ألحق بقطار الثّالثة العائد إلى البلدة. ثمّة عشاء اللّيلة...»

عشاء كانت تتطلّع إليه. نويل كوارد[١] سيكون هناك، وذلك البهيّ لورنس

---

(١) السّير نويل كوارد (١٨٩٩-١٩٧٣): كاتب مسرحيّ بريطانيّ، وممثّل ومؤلّف موسيقيّ، ذاع صيته بسبب مسرحيّاته الكوميديّة اللّطيفة المعقّدة الّتي يتناول معظمها الصّراعات الرّومنسيّة بين رجال الطّبقات العليا ونسائها. (المترجم)

أوليفيه[1]

كانت تتطلّع إلى ذلك منذ أسابيع، مستمتعة بترقّبها كلّما تصفّحت دفتر يوميّاتها. والآن، لمفاجأتها، بدا ذلك مثل عبء. أن تنطلق عائدة إلى شقّتها، وتختار الفستان المناسب، وتتأنّق أمام المرآة؛ كلّ ذلك كي يتسنّى لها أن تجلس وتحضر نفس الأحاديث النّمّامة، ونفس الآراء المليئة بالأحكام. بدا الأمر برمّته تافهًا بلا مغزى.

«أرجوكِ، لا أريد أن أعطّلك».

كان إدموند قد وقف هو الآخر. وضع كوب الشّاي خاصّته على الصّينيّة وهرع إلى الممرّ ليحضر قبّعة تشارلوت. تمنّت لو لم تكن مغادرتها مستعجلة هكذا، بدا من الخاطئ أن تُعقِب بين محادثة عميقة صادقة العاطفة ورحيل سطحيّ كهذا.

«سأنسّق لزيارة مع السّيّدة تيبتون»، قال إدموند، فأجابت تشارلوت: «أجل، من فضلك»، ثمّ فُتح الباب، ووقفت قدمًا داخل المنزل وقدمًا خارجه، وبدا الأمر- للحظة واحدة غير واعية- كأنّهما معًا من جديد في قارب النّجاة، وكارباثيا تلوح أمامهما. الآن، كما آنذاك، مدّ واحدهما يده إلى الآخر، وعانق إدموند يدَي تشارلوت، تمامًا مثل ما فعل حين كانت تهمّ بتسلّق السّلّم. لم يكن وداعًا؛ كان وعدًا.

منزل إدموند لم يكن بعيدًا عن المحطّة، لكنّ تشارلوت نادت على سيّارة أجرة، تحسّبًا. ألفت نفسها تستعجل زيارتها التّالية منذ الآن؛ شاي وبسكويت في الصّالون، كلام عن الهموم والمخاوف دون قيود، إيماءات إدموند المتفهّمة، الرّاحة الّتي تبثّها صحبته غير المتطلّبة.

---

(١) البارون لورنس كير أوليفيه (١٩٠٧-١٩٨٩): ممثّل ومخرج ومنتج إنجليزيّ، هو واحد من أكثر الممثّلين شهرةً وإجلالًا في القرن العشرين، وأصغر ممثّل يُمنح سمة الفروسيّة وأوّل من يرفّع إلى رتبة النّبيل. (المترجم)

تصوّرت تشارلوت نفسها تميل نحو إدموند وتقبّله. ليس في المرّة القادمة، لكن ربّما في الّتي تليها. سيكون كيّسًا بما يكفي كي يتلكّأ، بادئ الأمر، لكنّ ذلك قد يترك مكانه للتّوق، استعداد لاتّباعها، حيث تقوده. راقت لها فكرة أن تريه بضعًا من مهارات غرفة النّوم الّتي يُستبعد أن تعرفها زوجته. يمكنهما أن يحظيا بعلاقة لطيفة تبهج حياتيهما، وحين تخمد الشّرارة- وهذا ما سيحدث لا محالة- لن يكون ثمّة لوم ولا حسرة. ستستعيد وقتهما سويّة بإعزاز شجيّ، ممتنّة لساعات السّعادة الّتي تشاركاها أيًّا كانت.

لكن ماذا لو تعمّق انجذابها وتحوّل إلى شيء أكبر؟ لم تكن تشارلوت قد أرادت الزّواج قطّ، لأن أيّ زوج محتمل مهما عساه يقول، سيتوقّع دائمًا أن تكون حاجات زوجته خانعة أمام حاجاته. لكنّ إدموند، مثل تشارلوت، كان قانعًا بالعزلة. بإمكانهما التّوصّل إلى ترتيب غير تقليديّ خاصّ بهما، فيعيشان حياتين مستقلّتين للغاية ويجتمعان نهاية الشّهر، وتجدّد المسافة عاطفتهما. ستكون شراكة قائمة على الرّفقة والتّفهّم، حيث لا يضطرّان إلى إخفاء ماضيهما أو شرحه. صباحات كسولة مع القهوة والصّحف، نزهات مشي في الرّيف أصائل الأحد؛ نشاطات روتينيّة بسيطة لم تعترف تشارلوت يومًا أنّها تتوق إليها.

كان ذلك سخيفًا، بالطّبع. فإدموند متزوّج أساسًا، وهي لديها حياتها الخاصّة، حياة يصعب أن تغري قبطانًا متحفّظًا. تخيّلت: إدموند في حفل عشاء اللّيلة! ومع ذلك وجدت تشارلوت أنّ بوسعها تخيّل ذلك؛ ستتقلّب بعض الأعين، في البدء، وتُثار جلبة حول حداثة إدموند. سيُصدم من آخر تصرّفات إيزوبيل غالواي الغريبة- ما سيسرّ إيزوبيل للغاية- وسيصغي باحترام إلى المسرحيّين العُجُز المملّين وهم يروون عليه نفس القصص الّتي رووها على العشاء الماضي. وفي النّهاية، سيستميل تهذيبه ووقاره الجميع؛ ستقول إيزوبيل لتشارلوت إنّه لطيف ويناسبها تمامًا، وستعلم تشارلوت أنّ ذلك صحيح.

أو ربّما يكون هنالك طريق آخر مختلف تمامًا. قد تمدّ تشارلوت يدها إلى إدموند، فتجده يدير ظهره لا غير. ربّما يكون لم يزل يحبّ زوجته، أو لديه بوصلة أخلاقيّة أقوى من الّتي لديها. إن لم يُظهر اهتمامًا بمحاولاتها، ستتجاوز الأمر بالضّحك بطريقة تصون صداقتهما التّجريبيّة. ستظلّ تقوم بزيارات لساوثهامبتون من حين إلى آخر، وستشجّعه على المجيء إلى لندن واللّقاء بها لتناول الشّاي في براونز أو الرّيتز، سيُدهش من الأسعار بينما هي تشاكسه بقرويّته السّاذجة. يُحتمل حتّى أن يحلّ مشاكله الزّوجيّة ويعرّف تشارلوت على زوجته، وستكون سعيدة بصدق من أجلهما. وفي ظلّ غياب علاقة رومنسيّة جديدة تلهيها، قد تتمكّن تشارلوت مؤخرا من كتابة الرّواية الّتي لطالما اعتزمتها، فتقدح في المجتمع الرّاقي ومزاعمه المغرورة، ويقرؤها إدموند فيرسل إليها رسالة يخبرها كم استمتع بها. وعندما ترى اسمه على الظّرف، ستحسّ بدفء القلب الّذي تبثّه معرفة أنّ شخصًا تهتمّ به كان يفكّر فيك.

لطالما كانت تشارلوت راوية قصص، لكنّ الأحداث لا ترتّب نفسها نحو خاتمة واضحة إلّا في الأعمال الخياليّة. كلّ احتمالات المستقبل برفقة إدموند هذه واردة؛ كلّها يمكن أن تكون صحيحة بنفس الدّرجة. ستقدّم عرضها، كمن يقذف حصاة في البحر، وستتموّج النّتائج المترتّبة عن ذلك في دوائر تتباعد، لا سيطرة لها عليها.

ومهما حدث، سيبقى تشارلوت وإدموند مقيّدين ببعضهما. لقد كان جزءًا من ماضيها، جزءًا من مستقبلها، الرّجل الّذي سيظلّ يجعلها تشعر بالأمان دائمًا.

ملاحظات الكاتبة

قبل صدور الفيلم الشّهير بسنوات، قرأتُ كتاب والتر لورد الكلاسيكيّ عن غرق التّايتانيك، «ليلة لا تُنسى». ومثل كثيرين غيري، أسرتني على الفور توليفة قصّة السّفينة المركّبة من السّحر والمأساة. لكنّ كتابًا آخر، «التّايتانيك: نهاية حلم» لـ وين كريغ ويد، هو الّذي ساعدني على فهم ما يجعل هذه السّفينة تظلّ تفتننا إلى يومنا هذا. بالاعتماد الكبير على جلسات استماع الكونغرس الأمريكيّ الّتي عُقدت بعد المأساة بوقت قصير، يضع كتاب ويد حادثة الغرق ضمن سياق ثقافيّ أكبر، فيكشف كم كان للطّبقات الاجتماعيّة والاستعلاء العرقيّ والتّطوّرات التّكنولوجيّة تأثير على سير الأحداث. ورغم كون قارب النّجاة ٢١ وركّابه من عمل الخيال، فقد تحرّيت الالتزام بالتّدوين التّاريخيّ عن كثب أثناء وصف الأحداث الّتي سبقت وتلت إنزال قوارب النّجاة.

لقد أبحرت التّايتانيك بقوارب نجاة تستوعب نصف عدد الرّكاب الّذين على متنها فقط، نتيجةً لقواعد أمان عتيقة لم تواكب زِيادة أحجام السّفن الّتي تعمل على الخطوط المحيطيّة، ومع ذلك فقد أُنزلت بعض قوارب النّجاة وهي تحمل نصف قدرتها الاستيعابيّة. لم يدرك الجميع جديّة الموقف، وخاصّة في البداية، وقد أفاد بعض الشّهود النّاجين أنّه بالكاد بقي أيّ شخص على ظهر المركب حين تمّ تحميل قوارب نجاتهم. على أحد جانبي السّفينة، سُمح للرّكاب الذّكور بالرّكوب حين كان ثمّة مساحة؛ بينما على الجانب الآخر، لم يسمح لهم بذلك، حتّى بوجود مقاعد شاغرة.

عندما بدأت الصّحف تنشر تقارير تقول إنّه قد تمّ إنقاذ رجال الدّرجة الأولى بينما غرق نساء وأطفال الدّرجة الثّالثة، قدح الأمر زناد غضب عالميّ. هل حيل بين ركّاب الدّرجة الثّالثة وبين وصولهم إلى قوارب النّجاة؟ بشكل رسميّ، لا.

حالما أعطى الرّبّان الأوامر بإنزال قوارب النّجاة، كان يُفترض أن يُسمح لنساء وأطفال الدّرجة الثّالثة بالوصول إلى الطّوابق العلويّة من ظهر المركب؛ حتّى أنّ بعض المضيفين قادوا الرّاكبات مباشرة إلى القوارب. ومع ذلك، رفضت بعض النّساء ترك أزواجهنّ- ممّا نتج عنه، للأسف، فقدان عدد من عائلات كاملة. وكان ثمّة أخريات تردّدن أو ذُعرن ببساطة، ممّا منعهنّ أن يغامرن بالخروج من الأقسام المخصّصة لهنّ؛ ووصف شهود عيان مجموعات من المهاجرين كانوا يصلّون في قاعات الدّرجة الثّالثة العموميّة، وقد بدوا مستسلمين لقدرهم. تسلّق آخرون، مثل آنا، الرّوافع لبلوغ الطّوابق العليا حين وجدوا أنفسهم محتجَزين أو غير قادرين على تتبّع الطّريق المربك نحو ظهر المركب. من المهمّ تذكّر أنّ إخلاء سفينة بضخامة التّايتانيك لم يكن إجراء قابلًا للضّبط.

كانت السّفينة جديدة على أفراد الطّاقم، والعديد منهم لم يتلقّوا إلّا تدريبًا قليلًا- والبعض لم يتلقّوا أيّ تدريب- على إجراءات الطّوارئ. وقد أُلغيَ تدريب على قوارب النّجاة كان من المقرّر إجراؤه صباح الغرق (لأسباب غير معروفة). قضى نحو ٨٠ بالمئة من طاقم التّايتانيك تلك اللّيلة- تقريبًا سبعمئة رجل وثلاث نساء. بعضهم تصرّف بشكل بطوليّ في ساعاته الأخيرة، وآخرون لم يفعلوا، لكنّ احتمالات النّجاة كانت ضدّهم بشكل واضح.

كثيرًا ما تعجّبتُ كيف عساه كان شعور التّواجد على أحد قوارب النّجاة نصف الفارغة تلك حينما غرقت السّفينة بالكامل آخر المطاف. كان ثمّة مئات من النّاس في الماء، يصرخون طلبًا للنّجدة وهم يتجمّدون ببطء حتّى الموت.

في بعض القوارب، ارتدع أفراد الطّاقم الّذين اقترحوا انتشال النّاس من الماء بسبب ركّابهم المرعوبين.

وفي قوارب أخرى، توسّلت نساء من أجل العودة لكنّ البحّارة المسؤولين أخبروهنّ أنّ الأمر في غاية الخطورة. استمرّت صرخات الغارقين اليائسة لأكثر من ساعة؛ وفي أحد قوارب النّجاة، راح الرّكّاب وأفراد الطّاقم يغنّون بصوت عالٍ كي يغطّوا على الأصوات. وحده قارب النّجاة ١٤، الّذي كان يقوده الضّابط الخامس هارولد لوي، قام بمحاولة إنقاذ.

«لو أنّ أحدًا نجح بالتّملّص والخروج من كتلة الحطام، لكنت هناك كي أنتشله، لكن بدا لي من غير المجدي أن أدخل في تلك الكتلة»، أفاد في شهادته لاحقًا: «لكان ذلك بمثابة انتحار». انتظر حتّى «يخفّ» الحشد- أن يموت الأضعف- لكنّه استهان بالأثر القاتل للمياه الجليديّة. وعندما عاد، لم يجد إلّا أربعة أشخاص على قيد الحياة، أحدهم توفّي بعد وقت غير طويل. ورغم أنّ اقتباسات شهادة الكونغرس في هذا الكتاب من وضعي، فقد استلهمت الأسئلة والأجوبة من جلسات الاستماع الحقيقيّة، الّتي بدأت في اليوم التّالي لوصول النّاجين من التّايتانيك إلى نيويورك. النّصوص الكاملة للاستجوابات الأمريكيّة والبريطانيّة حول الكارثة متوفّرة على الإنترنت عبر موقع www. titanicinquiry.org وكانت هذه الحوارات عونًا كبيرًا لي في فهم أعراف ذلك الزّمن.

(كانت حقبة تتميّز بالشّفاه المزمومة المتصلّبة، لا بالإفراط في المشاركة الوجدانيّة الدّامعة). كما قد صدمني المعيار المتّبع في تحديد القصص المهمّة؛ كان الأشخاص الّذين أدلوا بشهاداتهم أفراد طاقم وركّاب درجة أولى بأغلبيّتهم السّاحقة. لم يتمّ استجواب سوى بضعة من ركّاب الدّرجة الثّالثة، لا نساء بينهم، ولم تؤخذ شهادات من ركّاب الدّرجة الثّانية على الإطلاق.

لا يعاني الباحثون في قضيّة التّايتانيك نقصًا في الموارد، وقد استشرت العديد منهم خلال كتابة هذا الكتاب.

موقع www.encyclopedia-titanica.org هو موقع إلكتروني شامل مستقرّ يتضمّن سيرًا ذاتيّة للرّكاب وأفراد الطّاقم، ومخطّطات لمتن السّفينة، وروابط لمنح دراسيّة حاليّة تتعلّق بالتّايتانيك. وكان أحد المراجع المفيدة على وجه التّحديد كتاب دون لينش «التّايتانيك: تاريخ مصوّر»، الّذي استعنت به باستمرار أثناء وصف متن السّفينة. ويتضمّن كتاب هانا هولمان «أصوات التّايتانيك» أكثر من ستّين رواية على لسان أصحابها للكارثة، متيحًا مجالًا واسعًا من وجهات النّظر. وقد عرّفني كتاب ريتشارد دافنبورت– هاينز «مسافرو التّايتانيك: الرّكّاب، البحّارة، بناة السّفن، الأرستقراطيّون، والعوالم الّتي جاؤوا منها»، على القصص الخلفيّة السّاحرة لركّاب السّفينة المغمورين. أجل، لقد حظيت التّايتانيك بأكثر من حصّتها العادلة من الأرستقراطيّين والمليونيرات، لكنّها كانت تحمل كذلك أناسًا لديهم أسرار: أزواجًا يسافرون برفقة «زوجات» كنّ في الحقيقة عشيقاتهم، محتالي قمار، أبًا خطف أطفاله من زوجته المنبوذة، ورجالًا كانوا يسافرون سرًّا مع شركائهم الذّكور. بالمختصر؛ لقد كانت ثروة وافرة من الأفكار للرّوائيّين.

شكر وعرفان

أشخاص كثر شجّعوني أثناء العمل على هذا الكتاب. وأورد هنا أسماء بعض ممّن يستحقّون شكرًا خاصًّا من بينهم:

والداي، مايك وجودي كانينغ؛ أختي، رايتشل؛ وزوجي، بوب، الّذين كانوا إلى جانبي حين خطرت لي الفكرة الأوّليّة خلال إجازة عائليّة ولم يقولوا مرّة: «أليس هنالك ما يكفي من الكتب عن التّايتانيك أصلًا؟»

وكيلتي، دانييل إيغان- ميلر، الّتي آمنت هي أيضا بهذه الفكرة منذ البداية.

جودي وارشو، على منحها الموافقة لمشروع بدأ بـ: «التّايتانيك، لكن ليس بشكل مبتذل».

جينا لاند فري، على الاهتمام بشخصيّاتي بدرجة تكاد تضاهي اهتمامي نفسه.

ابنتي، كلارا، على نصائحها حول أسماء الشّخصيّات.

ابناي، آلان وجيمس، على جعلي أضحك كلّ يوم.

كيم بولد، مستشارتي البريطانيّة الرّسميّة، على اقتراحاتها حول بناء قصّة تشارلوت.

فيرونيكا روبينسون في المتحف السّويديّ الأمريكيّ بشيكاغو، الّتي زوّدتني بمصادر تخصّ الهجرة السويديّة إلى الولايات المتّحدة.

مكتبة غلينفيو العامّة ومكتبة نورثبروك العامّة في ضواحي شيكاغو، حيث كُتب قسم كبير من هذا الكتاب.

أمناء المكتبات في كلّ مكان، على مشاركة حبّهم للكتب. أنتم قبيلتي.

بعض النّاس ثابتون في حياتك؛ وآخرون يروحون ويجيئون. أنا ممتنّة للأصدقاء الّذين تواجدوا خلال كلّ مراحل مسيرتي ككاتبة، إلى جانب من عاودت التّواصل معهم خلال السّنوات الأخيرة. جميعنا نروي لأنفسنا قصصًا عن حيواتنا، لكنّك حالما تبدأ بمقارنة الملاحظات مع أشخاص آخرين شهدوا الأحداث، تكتشف أحيانًا أنّ الحقيقة تتكوّن من طبقات أكثر ممّا ظننت. لقد تحوّل ذلك الإدراك إلى ثيمة أساسيّة لهذا الكتاب، وجزء ممّا جعله كذلك هو أنّني كنت أعيشه. لذا أوجّه شكري في الختام إلى الأشخاص الّذين ساعدوني على اكتشاف ذلك- فجعلوا هذا الكتاب أكثر من مجرّد كتاب آخر عن التّايتانيك.